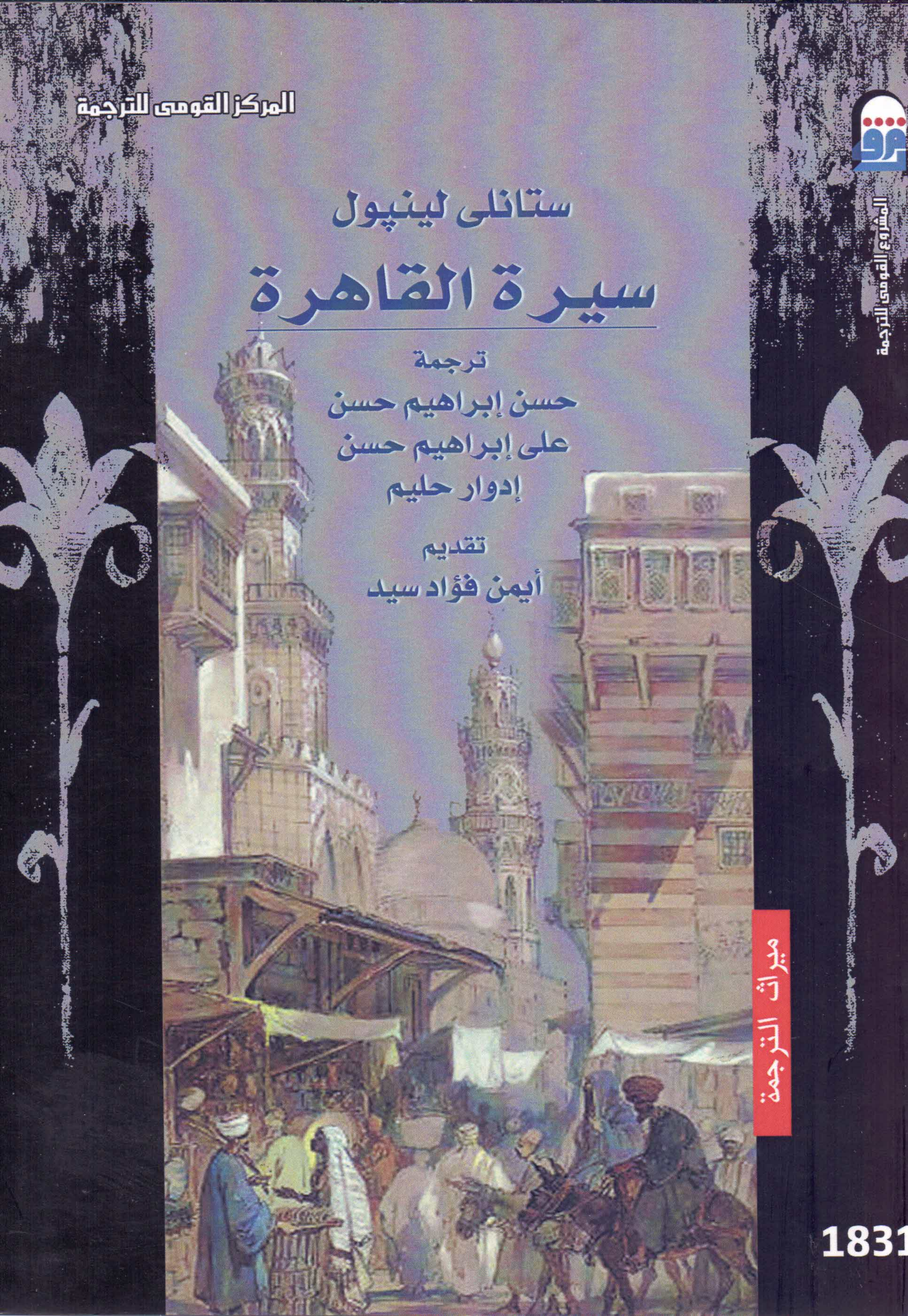


المركز القومى للترجمة
ستانلى لينپول
سيرة القاهرة
ترجمة
حسن إبراهيم حسن
على إبراهيم حسن
إدوار حليم
تقديم
أيمن فؤاد سيد
المشروع القومى للترجمة
ميراث الترجمة
1831



هذا الكتاب للمستشرق الإنجليزى ستانلى لينپول (١٨٥٤ - ١٩٣١م) أحد كبار العلماء المتخصصين فى تاريخ مصر فى العصر الإسلامى، ويعد أول كتاب شامل يتناول تاريخ القاهرة منذ أصولها الأولى فى الفسطاط حتى نهاية القرن التاسع عشر، الذى يمثل أهم التحولات التى عرفتها هذه المدينة، والتى انتقلت بها من مدن العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

وقد زود المؤلف كتابه بالعديد من الصور التى توضح حالة المدينة قبل عصر التحولات الذى بدأ فى نهاية عهد محمد علي باشا، وبلغ ذروته فى عهد حفيده إسماعيل باشا.

تصميم الغلاف: محمد ابراهيم

سيرة القاهرة

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1831
- سيرة القاهرة
- ستانلى لينبول
- حسن إبراهيم حسن، وعلى إبراهيم حسن، وإدوار حليم
- أيمن فؤاد سيد
- 2011

هذه ترجمة كتاب:
The Story of Cairo
By: Stanley Lane-Poole

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

سيرة القاهرة

تأليـــف : ستانلى لينـــپول

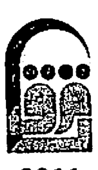
ترجمــــة

حسن إبراهيم حسن

على إبراهيم حسن

إدوار حليم

تقـــديم : أيمن فؤاد سيد



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

لينبول، ستانلى.
سيرة القاهرة/ تأليف: ستانلى لينبول، ترجمة: حسن ابراهيم حسن، وعلى إبراهيم حسن، وإدوار حليم، تقديم: أيمن فؤاد سيد
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٢٩٦ ص، ٢٤سم
١- القاهرة - تاريخ
(أ) حسن، حسن ابراهيم (مترجم).
(ب) حسن، على إبراهيم (مترجم مشارك).
(جـ) حليم، إدوار (مترجم مشارك).
(د) العنوان ٩٦٢,١٦

رقم الإيداع ٢٠١١/٥٠٥٨
الترقيم الدولى : 978-977-704-501-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يَرْجِعُ تاريخُ مَدِينَة القاهِرَة إلى أكثر من أرْبَعَة عَشْر قرنًا عندما نَجَح الفَاتِحُ العربي المُسْلِم عمرو بن العاص في فَتْح مصر سنة ٢٠هـ/٦٤١م ووَضَعَ حَجَرَ أساسِ مَدِينَة « الفُسْطاط » كأوَّل مَدِينَة إسْلامية في مصر وأفْريقيا في الفَضَاء المجاور لبابِلْيُون القديمة . وبعد نحو قرنٍ أضِيفَ إلى الفُسْطاط حيٌّ جديدٌ في الشَّمال الشَّرْقي للمدينة أقامَ فيه العبَّاسيون دارَ الإمارَة الجديدة ومُعَسكرات جُيُوشهم أُطْلِقَ عليه اسْم « العَسْكَر » . وعندما اسْتَقَلَّ أحمد بن طُولُون بحُكْم مصر عن الخلافة العبَّاسية ، سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م ، أضافَ إلى الشَّمال الشَّرْقي منها ضَاحِيَةً جديدةً أو مَدِينَةً أميريةً صغيرةً أُطْلِقَ عليها اسْم « القَطَائع » لأنَّها قُسِمَت إلى أحْياء مُنْفَصِلَة أُقْطِعَت لفِرَق الجُنْد المختلفة .

لم تَلْبَث هذه المُدُنُ الثَّلاث أنْ أصْبَحَت مَدِينَةً واحِدَةً من النَّاحِيَة العَمَلِيَّة كانت الفُسْطاطُ هي مركز نَشاطِها التِّجاري والاقْتِصَادي والاجْتماعي .

كانت الخُطْوَةُ الرَّابِعَة في تَطَوُّرِ هذه العاصِمَة في اتِّساعٍ آخر نحو الشَّمال ، عندما نَجَحَ الفاطميون الشِّيعَة في فَتْح مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م وأنْشأوا بها خِلافَةً شيعيةً مناوِءةً للخلافة العبَّاسية السُّنِّيَّة في بغداد ، ووَضَعَ القائدُ جَوْهَرٌ الصَّقْلبي أساسَ مدينةٍ جديدةٍ أُطْلِقَ عليها « القــاهرة » ، وفي هذه المرَّة تُرِكَت مِسَاحَةٌ كبيرةٌ بينها وبين القطائِع ـ التي كانت قد تهدَّمَت إلى حَدٍّ كبيرٍ جِدًّا ـ حتَّى يتوافَر الأمْنُ والعُزْلَة للأئِمَّة (الخُلَفَاء) الفاطميين التي بنيت باسْمِهم المدينةُ الرَّابِعَة التي لم تكن أكثر من قَصْرٍ فَخْم وثُكْناتٍ للجنود ومقرٍّ للحكومة ، وهكذا انْدَمَجَت العواصِمُ الثَّلاث السَّابقة في مَدِينَةٍ واحِدَةٍ أطْلِق عليها غَداة الفَتْح الفاطِمي « مصر الفُسْطاط » كانت مركز التجارة والثَّقافَة والأعْمال .

ولم تَصْبَح القاهِرَةُ الحاضِرَة الحقيقية ومركز الحكم في مصر الإسلامية إلَّا بعد أنْ أحْرِقَت الفُسْطاطُ عَمْدًا في سنة ٥٦٤هـ/١٠٦٨م، وجاءَ سُورُ صَلاحِ الدِّين ليُجَسِّد الوِحْدَة الحقيقية للعاصمة فقد صُمِّمَ لا ليُحِيطَ بالقاهرة وَحْدَها بل وبقَلْعَة الجَبَل - مركز الحُكْم الجديد - وبما تَبَقَّى من مدينتي الفُسْطاط والقَطائِع.

وبَلَغَت مدينةُ القاهرة أوْجَ ازْدِهارها خلال السَّلْطَنَة الثَّالثة للسُّلْطان المملوكي النَّاصر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤١م) فكان امتدادُها وتوسُّعُها أكبر من أي عَصْر سابق. وبَلَغَت العاصمةُ المصريةُ أبْعادًا لم تعرفها من قَبْل ولم تَصِل إليها بعد ذلك إلى أنْ تَبَنَّى الخديو إسماعيل باشا في منتصف القرن التَّاسِع عَشْر مَشْروعَه الطَّموح لبناء القاهِرَة الحَدِيثَة الذي نُفِّذَ بتِقْنِيات وفي ظروف مخالفة تمامًا.

تركَّزَ هذا النُّمُوّ في الأساس خارج باب زَوِيلَة جنوبي القاهرة وفي المنطقة الواقعة أسْفَل قَلْعَة الجَبَل، مَقَرّ الحكم. وجاءَ هذا الامْتدادُ كنتيجةٍ طبيعيةٍ لبناء قَلْعَة الجَبَل في العصر الأيُّوبي على الشَّرَف المتقدِّم لجَبَل المُقَطَّم، فأتاحَت بذلك مِساحَةً كبيرةً نَشَأت بها أحْياءٌ عمرانية جديدة بين باب زَوِيلَة وحيّ الصَّلِيبَة حيث جامع ابن طُولُون، واسْتَمَرَّ نُمُوُّ هذه المنطقة المُطِلَّة على بِرْكة الفيل (حي الحِلْمِيَّة الآن) حتى نهاية القرن السَّابع عَشْر الميلادي في أثْناء العَصْر العثماني.

وشَهِدَت المنطقةُ الواقعة خارج باب الفُتُوح شمالي القاهرة الفاطمية تَوَسُّعًا مماثلًا في الحارَة الحُسَينِيَّة امتدَّ حتى لاصَقَ الرَّيْدانية شمالًا (العبَّاسية الآن).

ويرجع إلى عَهْد النَّاصِر محمد بن قلاوون كذلك بداية عُمْران المناطق التي انْحسَرَ عنها ماءُ النِّيل في البرّ الغربي للخليج والتي تَشْمَل: أراضي اللُّوق (باب اللُّوق الآن) والأراضي الأخرى التي حُكِرَت وكانت بساتين نَتَجَت عن انْحِسار ماء النِّيل عنها تجاه الغرب، فقد كان النِّيلُ في العصرين الفاطمي والأيُّوبي يصل إلى مستوى شارع عماد الدِّين الآن وإلى مَيْدان رمسيس حيث وُجِدَ ميناءُ القاهرة في العصر الفاطمي المعروف بالمَقْس.

ونتيجة لإهْمال مَدِينَة الفُسْطاط وتَراجُع دَوْرها كميناء كانت تصل إليه البضائعُ القادِمةُ من الهند وجنوبي جزيرة العرب حيث تُفَرَّغ في ميناء عَيْذاب على ساحِل البحر الأحمر وتُنْقَل منه على ظهور الجمال في الصَّحْراء الشَّرقية إلى ميناء قُوص ثم تَصْعَد في النِّيل شمالاً حتى الفُسْطاط، بَدَأ يَظْهر شمالاً على النِّيل ميناءٌ جديد هو ميناء بولاق الذي ازْدَهَر خلال القرن التَّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي خاصَّةً بعد أنْ ارْتَبَطَت تجارةُ مصر بتجارة البحر المتوسِّط وأصبحت المتاجرُ تَصِلُ من أوروبا إلى الإسكندرية ومنها عبر النِّيل إلى بولاق.

وقُربَ نهاية العصر المملوكي نُفِّذَ على بُعد نحو خمس مائة متر غربي الخليج مَشْرُوعٌ عمراني كبير عندما قامَ المقرُّ الأتابكي أزْبَك من طُطُخ بتعمير منطقة الأزْبَكِيَّة التي نُسِبَت إليه. وبدَأ العمل فيها عام ٨٨٠هـ/١٤٧٦م واستمرَّ حتى عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٤م، وقد انْتَقَلَت الأرسْتُقْراطيةُ المصريةُ للإقامَة في هذا الحيِّ الجديد خلال العصر العُثْماني، الذي أصبح كذلك مركز الاتِّصال بين القاهرة التَّاريخية والقاهرة الحديثة في القرن التَّاسع عَشَر.

وفي العصر العثماني كانت الحِقْبَةُ التي أصبح فيها عبد الرحمن كَتْخُدا القَزْدُوغْلي الرجل الأوّل في مصر (١١٥٢-١١٧٩هـ/ ١٧٣٩-١٧٦٥م) عصر ازْدِهار عُمْراني لمصر وللقاهرة. فقد قامَ عبد الرحمن كَتْخُدا بدورٍ أساسي في النَّشاط العُمْراني للقاهرة يَجْعَل منه أحَد كبار البنَّائين الذين عَرَفَتْهُم المدينة مازالت آثارُه الباقية شاهدةً عليه، حيث بَلَغَ ما أُنْشئ في عصره في القاهرة وحدها: ١٩ مَسْجِدًا ومَدْرَسَة وسِتّ زوايا وتكايا وتسعة وعشرين سَبِيلاً بالإضافَة إلى التَّرْميمات والإضافات التي أدْخَلَها على مُنْشآت ترجع إلى عصور سابقة مثل المَشْهَد الحُسَيْني والجامِع الأزْهَر وقُبَّة ومارِسْتان قلاوون.

ومع وُصُول الحملة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) بدأت القاهرةُ تَعْرِفُ أنماطًا جَدِيدَةً من التَّنْظيمات الحَضَرِيَّة، فلا شَكَّ أنَّ الفرنسيين انْتَوا أنْ يُضْفُوا على

الحياة المدينية للقاهرة ـ التي بَدَت لهم شِبْه فَوْضَوية ـ مظهرًا أكثر مُوافَقَةً لقوانين التَّنْظيم العُمْراني الأوروبي، فقَسَّموا المدينة إلى ثمانية أقْسام لتَسْهيل إدارَتها وإشْراف الشُّرْطَة عليها، وأزالُوا أبْوابَ الحارات، واتَّخَذوا إجْراءات حاسِمَة لمكافَحَة الأَوْبِئَة والاهْتمام بالصِّحَّة العامَّة، وفَتَحوا طَريقًا جَديدًا مُمَهَّدًا ومُظَلَّلا يَرْبط قَلْبَ المدينة عند الأزبكية ببولاق (شارع فؤاد الأوَّل/ ٢٦ يولية الآن)، وأزالوا المقابر الواقعة داخل المدينة، وعَدَّلوا الكثيرَ من المسالِك تَبَعًا للضَّرورات التي اسْتُجِدَّت.

وكان وُصُولُ محمد علي باشا إلى الحكم في مصر، سنة ١٨٠٥م، نُقْطَة تَحَوُّل مهمَّة ليس فقط في تاريخ مصر بل وفي تاريخ القاهرة حيث بدأ نوعًا من الخدمات البَلَدِيَّة تَمَثَّل في كَنْس ورَشّ وتَنظيف الشَّوارع وإنارتها، كما بَدَأ ـ اعتبارًا من عام ١٨٢٠م ـ أعمالَ نظافة عامَّة في المدينة انْعَكَسَت على الصِّحَّة العامَّة حيث نَدُرَت الأَوْبِئَة بعد هذا العام. ومن أجْل العناية كذلك بالصِّحَّة العامَّة عمل محمد علي على تركيز الصِّناعات الأساسِيَّة التي بَدَأ بإدْخالِها في منطقة السَّبْتِيَّة شمال شَرْقي بولاق، كما أزالَ الكيمان التي كانت تُحيطُ بالقاهرة في شمالها وفي غربها، وقد أمكن باسْتِخْدَام الأَتْرِبَة المَنْزوحَة منها أنْ يَبْدأ في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م يَردْم البِرَك المنتشرة في شمال وجنوب وغَرْب المدينة القديمة.

وبَدَأت كذلك تَسْتَقِرُّ في المدينة مُؤسَّساتٌ جديدةٌ عليها، هكذا أُسِّسَت مَدْرسةُ الطِّبّ في أبي زَعْبَل سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م التي انْتَقَلَت في سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٥م إلى منطقة القصر العَيْني.

ومن بين التَّحَوُّلات المهمة التي أدْخَلَها محمد علي باشا على القاهرة إنشاءُ حيّ شُبْرا غربي المدينة القديمة على النِّيل. والتَّعْديلات الجِذْرية التي أدْخَلَها على قَلْعَة الجَبَل حتى إنَّها اشْتَهَرَت بعد ذلك بـ« قَلْعَة محمد علي» خاصَّةً بعد أنْ أنْشأ بها جامِعَه ذي الطِّراز المُتَمَيِّز الي يُضاهي جوامع إستانبول.

ولم تَعْرِف الحِقْبَةُ اللاحقة لعهد محمد علي إنجازات كبيرة ، فيما عدا إنْشاء « حيّ العَبَّاسيَّة » شمال المدينة في عَهْد عبَّاس الأوَّل وكذلك « حي الحلمية » على بِركة الفيل ، وفي عهد سعيد باشا أقيم « قَصْر النِّيل » على الشَّاطئ الشرقي للنيل أمام الجزيرة والزمالك الآن .

ولكن أهَمّ تَغْيير عرفته القاهرة في القرن التَّاسع عَشْر للميلاد جاء على يد الخديو إسْماعيل باشا ، أوَّل حاكم منذ تسعة قرون يتبنَّى مَشْرُوعًا شامِلًا لتنمية المدينة ، قام في الأساس على مُحاكاة الأُنْمُوذَج الغربي لتنمية المُدُن . وتأثَّرَ في ذلك بأُنموذج مدينة باريس العاصمة الفرنسية التي أقامَ بها في شبابه خاصَّة بعد التَّعْديلات الجوهرية التي أدْخَلَها عليها المهندس هوسمان HAUSSMANN. وكان الاحْتفالُ بافْتتاح قناة السُّويس سنة ١٨٦٩م مناسبةً لتنفيذ هذه المقترحات الجديدة حيث أنشئ بالقاهرة لأوَّل مرَّة دارٌ للأوبرا ومضمارٌ لسباق الخيل وسيرك والعديدُ من القصور : سراي الجَزيرَة وسراي الجيزة وسراي عابدين التي تَحَوَّل إليها مَقَرّ الحكم نهائيًا من قلعة الجبل سنة ١٨٧٤م . كما أنْشأ بها حَيًّا جديدًا على النِّظام الأوروبي أَلْصَقَه بالجانب الغربي للمدينة القديمة هو « حي الإسْماعيلية » أو وَسَط المدينة الآن .

بهذا التَّغيير المهمّ الذي شَهِدَتْه القاهرة في النِّصْف الثاني للقرن التَّاسع عشر بدأ ستانلي لين بول مؤلِّف كتاب « سيرة القاهرة » كتابه بأنَّه تُوجَدُ قاهِرَتان مختلفتان : قاهرة أوروبية غربي الخليج و « قاهرة مصرية » شَرْقي الخليج .

°
° °

ومُؤَلِّفُ هذا الكتاب هو المستشرق الإنجليزي ستانلي لين بول STANLEY LANE-POOLE (١٨٥٤-١٩٣١م) ابن شقيق المستشرق الإنجليزي الشهير إدوارد وليم لين صاحب كتاب « المِصْريون المُحْدَثُون عاداتهم وشمائلهم » ، وهو من كبار عُلماء النُّمِّيات والمُتَخَصِّصين في تاريخ مصر في العَصْر الإسلامي وكان لنحو عشرين عاما

(١٨٨٤-١٨٩٢م) أمين القسم الشَّرْقي للمَسْكوكات في المتحف البريطاني حيث وَضَع « فهرس النُّقُود الشَّرْقية في المتحف البريطاني » في عَشْرة مجلَّدات (لندن ١٨٧٥-١٨٨٩م) ، ثم انتقل إلى مصر كباحث في الآثار حيث كَلَّفَتْه الكُتُبْخانَة الخِدِيوية بالقاهرة بأنْ يَصْنَع فهرسًا لمُقْتنياتها من النُّقُود الشَّرْقية صَدَرَ في لندن سنة ١٨٩٧م . ثم عمل أستاذًا للعربية في Trinity College بجامعة دبلن بإيرلندا (١٨٩٧-١٩٠٤م) واسْتَقَرَّ بعد ذلك في لندن حتى وفاته في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١م .

ومن أهَمّ أعمال لين بول : « معجم الأسْرات الحاكمة الإسلامية » (لندن ١٨٩٢م) و *Art of the Saracens in Egypt* « فَنّ العرب في مصر » (لندن ١٨٨٦م) و *History of Egypt in the Middle Ages* « تاريخ مصر في العُصُور الوسطى » (لندن ١٩٠١م) و *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem* « صلاح الدِّين وسقوط مملكة بيت المقدس » (لندن ١٨٩٨م) .

وكتابُه الذي نُقَدِّم لترجمته العربية اليوم *The Story of Cairo* « سِيرَة القاهرة » (لندن ١٩٠٢م) أوَّل كتابٍ شامِلٍ يتناول تاريخَ القاهِرَة منذ أُصُولِها الأُولى في الفُسْطاط حتى نهاية القرن التَّاسع عَشْر ، الذي يُمَثِّل أهَمّ التَّحَوُّلات التي عرفتها هذه المدينة والتي انْتَقَلَت بها من مُدُن العُصُور الوُسْطى إلى العَصْر الحديث . وذكر لين بول في مُقَدِّمته للكتاب أنَّه كان يكتب على الدَّوام في موضوع القاهرة ، فَنِّها وآثارها وتاريخها منذ وَقْتٍ بعيد ، لذلك فإنَّه كان مُضْطَرًا لأنْ يَقْتَبِسَ من مؤلَّفاته السَّابقة في هذا الموضوع مثل *Cairo: Sketches of his History, Monuments and Social Life* (لندن ١٨٩٨م) و « تاريخ مصر في العُصُور الوُسْطى » .

وزَوَّدَ المؤلِّفُ كتابَه بالعديد من الصُّوَر التي تُوَضِّح حالة المدينة قبل عَصْر التَّحَوُّلات الذي بَدَأ في نهاية عَهْد محمد علي باشا وبَلَغَ ذُرْوَتَه في عَهْد حفيده إسْماعيل باشا ، وعلى الأخَصّ الصُّوَر التي رَسَمَها روبرت هاي ROBERT HAY

وأوين كارتر OWEN CARTER بين سنتي ١٨٢٦ و١٨٣٨م ونَشَرَ هاي HAY بَعْضَها بعد ذلك في كتاب *Illustrations of Cairo* سنة ١٨٤٠م.

وفي الوقت الذي كان لين بول يُدَوِّن فيه كتابَه عَرَفَت مصر نَهْضَةً مهمَّةً لإحْياء الآثار الإسلامية وإنْقاذ القاهرة التَّاريخية، فأفْرَدَ فَصْلًا مهمًا في نهاية الكتاب اسْتَعْرَضَ فيه أعْمالَ لجْنَة حِفْظ الآثار العربية - التي بَدَأَ نَشَاطُها سنة ١٨٨٢م - والتي يرجع إليها الفَضْلُ في حِفْظِ الكثير من المساجد والمدارس والمباني الأثرية بحيث أنَّه لم يَسْبق على الإطْلاق على امْتِداد تاريخ القاهرة أنْ قامت عمليةُ حِفْظٍ شاملَةٍ لآثارِها، بقدر ما تَسْمَح به الظُّروف، مثل ما قامَت به هذه اللَّجْنَة التي اسْتَمَرَّ دَورُها بعد ذلك حتى سنة ١٩٥١م.

وخَتَمَ لين بول كتابه بجدولين مهمّين بَيَّنَ في الأوَّل الوُلاة الذين تَوَلَّوا حكم مصر والقاهرة والآثار التي أُقِيمَت في عَهْد كلٍّ منهم وأشار إلى الآثار التي ما تزال قائمة حتى الآن أو التي أعِيدَ بناؤُها. أمَّا الجَدْوَلُ الثَّاني فجَعَلَه لتحويل السِّنِين الهجرية إلى سنين ميلادية.

أمَّا مُتَرْجِمُ الكتاب فالمؤرِّخُ المصري المعروف الدكتور حسن إبراهيم حَسَن (١٨٩٢-١٩٦٨م) وشارَكَه في أعمال الترجمة شقيقُه الأصْغَر علي إبراهيم حسن وتلميذه إدوارد حليم.

والدكتور حسن إبراهيم حسن من الرَّعيل الأوَّل الذي تخرَّج في الجامعة الأهلية المصرية سنة ١٩٢٠م ثم نال منها درجة العالمية في العام التالي وكان موضوعها عن «تاريخ عمرو بن العاص»، وأُرْسِلَ بعد ذلك في بعثة إلى جامعة لندن حيث حَصَلَ منها على دَرَجَة دكتوراه الفَلْسَفَة في التَّاريخ سنة ١٩٢٨م تحت إشْراف المستشرق الإنجليزي المعروف السير توماس أرنولد THOMAS ARNOLD وكان موضوعُها: «الفاطميُّون في مصر وأعمالُهم السِّياسية والدِّينية بوَجْهٍ خاص» نَقَلَها إلى اللغة العربية ونَشَرَها في القاهرة سنة ١٩٣٢م، وهي أوَّل دراسةٍ علميةٍ تَصْدُرُ عن تاريخ

الفاطميين اعتمادًا على المصادر الأصلية القليلة التي كانت متاحَةً في هذا الوَقْت ، ثم أعادَ نَشْر الكتاب في عام ١٩٥٨م مع إضافات مُطَوَّلة بعُنْوان « تاريخ الدَّوْلَة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العَرَب » .

وبعد عَوْدَته من البَعْثَة عُهِدَ إليه بتدريس التَّاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأوَّل ثم جامعة القاهرة بعد ذلك) بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٤٢م حيث اختير عميدًا لكلية الآداب ثم كأوَّل مديرٍ لجامعة محمد علي باشا (جامعة أسيوط فيما بعد) عند إنْشائها سنة ١٩٥٠م وظَلَّ كذلك حتى أُحِيلَ إلى التَّقاعُد سنة ١٩٥٢م .

وفي عقد الخمسينيات والسِّتِّينات من القرن العشرين انْتُدِبَ لتدريس التَّاريخ الإسلامي وتاريخ الشَّرْق الأدْنى بجامعتي بنسلفانيا وكاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية ثم بجامعة محمد الخامس بالرِّباط بالمغرب وأخيرًا بجامعة بغداد حيث توفِّيَ في العراق سنة ١٩٦٨م ونُقِلَ جُثْمانُه ودُفِنَ بالقاهرة .

ألَّفَ الدكتور حسن إبراهيم حسن العديد من المؤلَّفات في التَّاريخ الإسْلامي وتاريخ الفاطميين أهَمّها : « تاريخ الإسلام السِّياسي » في أربعة مجلَّدات وبالاشتراك مع طه أحمد شرف : « عُبَيْد الله المَهْدي إمام الشِّيعة الإسْماعيلية ومؤسِّس الدَّوْلَة الفاطمية في بلاد المغرب » و « المُعِزّ لدين الله » ، وبالاشتراك مع أخيه الدكتور علي إبراهيم حسن كتاب « النُّظُم الإسلامية » ، إضافَةً إلى العديد من البحوث والمقالات المتخصِّصة .

أيمن فؤاد سيد

القاهرة في ١٤ ذي الحجة سنة ١٤٣١هـ

٢٠ نوفمبر سنة ٢٠١٠م

ترجم الدكتور
حسن ابراهيم حسن
الأبواب : الأول والثانى والثالث

وترجم الدكتور
على ابراهيم حسن
الأبواب : الرابع والخامس والسادس

وترجم الأستاذ
ادوار حليم
الأبواب : السابع والثامن والتاسع

من لم ير القاهرة لم ير الدنيا .

فأرضها تبر .

ونيلهـــا سحر .

ونساؤها حوارى الجنة فى بريق عيونهن .

ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، كعطر النـدا ، ينعش القلب .

وكيف لا تـكون القاهرة كذلك ، وهى أم الدنيا ؟

THE STORY OF CAIRO

ســيرة القــاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٩٠٠
الطبعة الثانية سنة ١٩٠٦
الطبعة الثالثة سنة ١٩١٨
الطبعة الرابعة سنة ١٩٢٤

محتويات الكتاب

الباب الرابع

مصر

الباب الخامس

القاهرة

صفحة

الباب الثامن

مدينة ألف ليلة وليلة

صفحة

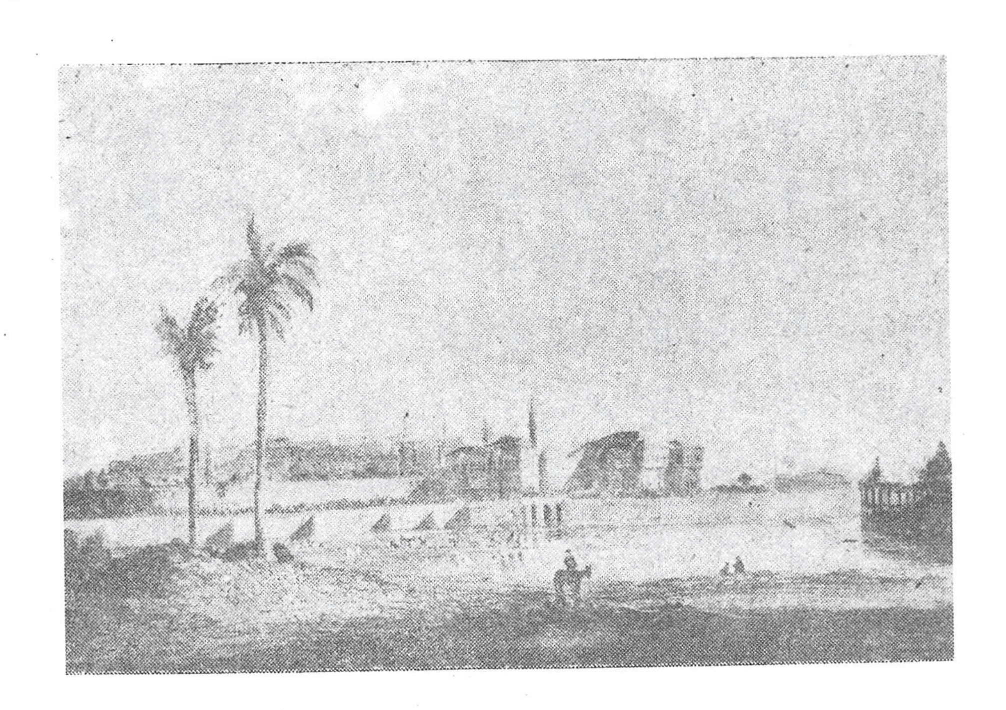
الباب التاسع

البكوات والباشوات

ملاحق

كشاف

فهرس الصور



القاهرة من الجنوب الغربى - بركة الفيل

مقدمة المترجمين

ولد ستانلى لينپول فى مدينة لندن فى الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٥٤ ، وتلقى تعليمه أولا فى كلية اللاهوت ثم فى جامعة أكسفورد وأخيراً فى جامعة دبلن . وبعد ذلك بدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث فى الآثار العربية . ففى سنة ١٩١٤ عين أميناً لقسم النقود الأثرية فى المتحف البريطانى بلندن . وفى أثناء الفترة الطويلة التى شغل فيها هذا المنصب ، استطاع بفضل أبحاثه الطويلة واطلاعه الخصب أن يضع دليلا عن النقود الشرقية والهندية جاء غاية فى الدقة والإتقان . ويقع فى أربع عشر مجلداً ، ويحتوى على وصف رائع وشرح مسهب لجميع أنواع العملة التى كانت تستعمل فى الهند وغيرها من بلاد الشرق . ويشمل هذا الدليل : « دليل النقود الشرقية » Catalogue of the Oriental Coins (1875 — 1883) و « دليل النقود الهندية » Catalogue of the Indian Coins (1884 — 1892) . وإلى جانب هذه البحوث استطاع بين سنتى ١٨٧٦ ، ١٨٩٣ أن يتمم « المعجم العربى » الذى كان قد بدأه من قبله ا . و . لين E. W. Lane ، وهو عالم انجليزى تضلع فى العلوم العربية ، وزار مصر حيث أقام فيها مدة طويلة درس فى خلالها الحياة الاجتماعية وكتب عنها كتابه « أخلاق المصريين وعاداتهم » [1] .

ولم تكن أبحاث لينپول هى كل ما كانت تشغله فى ذلك الوقت . ففى خلال تلك الفترة كانت الحكومة البريطانية ترسله بين الحين والحين فى بعثات علمية لدراسة الآثار وكتابة تقارير مفصلة عنها . ففى سنة ١٨٨٣ قام برحلة علمية إلى مصر ، ثم زار روسيا للغرض نفسه فى سنة ١٨٨٦ . ثم قام برحلة علمية أخرى لدراسة الآثار فى أستراليا ، واشتغل بين سنتى ١٨٩٥ ، ١٨٩٧ بدراسة آثار القاهرة تحت إشراف الحكومة المصرية . وما أن وصل إلى إنجلترا بعد هذه الدراسة الموفقة حتى عينته

---

(١) وقد نشر بين سنتى ١٨٣٨ ، ١٨٤٠ ترجمة كتاب « الف ليلة وليلة » تباعاً ، ثم زار مصر سنة ١٨٤٢ حيث مكث فيها سبع سنوات قام فى خلالها بأعظم عمل له وهو تأليف « المعجم العربى الإنجليزى » Arabic English-Lexion ويقع فى خمسة مجلدات . ومات فى سنة ١٨٧٦ قبل أن ينتهى من إنجاز هذا العمل الضخم فأنجزه من بعده ستانلى لينپول .

حكومتها أستاذا للغةالعربية بجامعة دبلن، فظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٠٤ .

ومن الطبيعي أن تتمخض تلك الحياة الحافلة بالدراسة عن مؤلفات لها قيمتها في مضمار التاريخ . والواقع أن ستانلي لينپول أنتج كثيراً ، ففي سنة ١٨٧٤ أخرج كتاباً جليلا عن النقوذ الإسلامية يقع في ثلاثة أجزاء بعنوان : Essays in Oriental Numismatics ، ثم كتب في سنة ١٨٨٧ سفراً رائعاً عن العرب في أسپانيا عنوانه «تاريخ العرب في أسپانيا» History of the Moors in Spain ،[1] ثم أعقبه ببحث مفصل عنوانه «تركيا» Turkey نشر في سنة ١٨٨٨ . وفي سنة ١٨٩٠ ظهرله مؤلف آخر عنوانه «القراصنة المغاربة» The Barbary Corsairs ، وكتب في سنة ١٨٩٨ مؤلفاً آخر عن «صلاح الدين الأيوبي وسقوط مملكة بيت المقدس» Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem ، ثم أعقب ذلك بكتاب عن «الهند في العصر الوسيط» Mediaeval India نشر سنة ١٩٠٢ . وفي سنة ١٩٠٦ أخرج كتاباً ضخما في ثلاثة أجزاء بعنوان «ألف ليلة وليلة» The Thousand and one Nights ، ثم كتب بحثاً دقيقاً عن تاريخ الهند في العصور الوسطى كانت جميع المراجع التي استخدمها فيه حديثة إلى حد بعيد ، وعنوانه «الهند في العصر الوسيط من المصادر المعاصرة» Mediaeval India from Contemporary Sources (1916) . ثم تناول الهند بالدراسة في سنة ١٩١٧ حيث أخرج كتاباً بعنوان «موجز تاريخ الهند في العصور الوسطى» A Short History of India in the Middle Ages ، وظهر له في سنة ١٨٩٢ مؤلف نفيس عنوانه «تاريخ أباطرة المغول» History of the Mogul Emperors ، وفي سنة ١٨٩٣ وضع مؤلفاً قيما آخر عن «الأسرات المحمدية» Mohammedan Dynasties .

وإلى جانب تلك المؤلفات التاريخيه النفيسة ، كتب ستانلي لينپول عدة سير وتواريخ لكل من «اللورد ستراتفورد دى ردكليف» Lord Stratford de Redcliffe (١٨٨٨) ، و«سير ج . ف . بوين» Sir. G. F. Bowen (١٨٨٩) ، و«سير هاري پاركز» Sir Harry Parkes ، و«سير ر . تشيرش» Sir R. Church

---

(١) نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ المرحوم على الجارم بك (القاهرة سنة ١٩٤٤).

(١٨٩٥)، و«إدوارد وليم لين» Edward Wiliam Lane (١٨٧٧)، و«أورانجزيب» Auranngzib (١٨٩٢)، و «بابور» Babur (١٨٩٩)، و «وطسن باشا» Watson Pasha (١٩١٩) .

ولعل نصيب مصر من مؤلفات ستانلى لينپول كان أوفر من نصيب الأقطار الشرقية الأخرى، فقد كتب عنها عدة أبحاث قيمة . ففى كتابه «صور للقاهرة» Cairo Sketches يصور لنا الحياة الاجتماعية فى مصر تصويراً صادقا . وفى سنة ١٨٨٣ ألف كتاب «دراسات فى مسجد» Studies in a Mosque، وهو يتناول الناحية الدينية من إقامة الصلاة والاحتفالات التى تمت إلى الدين بصلة . وفى كتاب «الحياة الاجتماعية فى مصر» Social Life in Egypt (١٨٨٣) يبحث فى المجتمع المصرى، وفى سنة ١٨٨٦ ألف ستانلى لينپول كتاباً قيماً عن الفنون فى مصر بعنوان «فن العرب فى مصر» Art of the Saracens in Egypt، ثم ألف فى سنة ١٩٠١ كتاب «تاريخ مصر فى العصور الوسطى» History of Egypt in the Middle Ages، وتوّج فى سنة ١٩٠٢ سلسلة مؤلفاته فى تاريخ مصر بهذا الكتاب النفيس الذى نقدم ترجمته اليوم لقراء العربية، وهو «تاريخ القاهرة» The Story of Cairo .

مقـــدمة المؤلف

تعتبر القاهرة فى الواقع مدينة من مدن العصور الوسطى ، لأنه لم يكن لها وجود قبل تلك العصور . ثم إن حياتها الحافلة كحاضرة مستقلة ، يتفق وقوعها فى أثناء فترة الألف سنة التى تعرف بالعصور الوسطى فى التاريخ ، كما أنها ما زالت تحتفظ فى الوقت الحاضر بالكثير من طابعها ومظهرها . وإذا كان المظهر يتغير ، فإن الحياة لا تتغير ، فالتقدم العجيب الذى أصاب المصرى فى العشرين سنة الماضية قد تناول بالتغيير حياته المادية ، ولكنه لم يكن ليقوى على تغيير خلقه إلا فيما ندر . فلقد أوجدنا له نظماً عامة يرتاح لها ويأمن إليها ، وخفضنا من وطأة الضرائب الفادحة التى كانت تثقل كاهله ، وجعلنا له إدارة حكومية قادرة . وعدالة حكيمة ، وثقافة عالية . وأهم من هذا وذاك ضمنا لكل فرد نصيباً وافراً من مياه النيل الغنى . ومن أجل هذه المنح كلها — وعلى الأخص المنحة الأخيرة — نجد الفلاح قانعاً شاكراً على الدوام . غير أن الحال ليست كذلك بالنسبة للقاهرى . فمهندس الرى يفتقر إلى روح الفلاح من هذه الناحية . فهو دائب الطلب لسد حاجاته الملحة ، ولا يهتم بإصلاحات « الفرنجى » فى كثير أو قليل . وإنى لا أحب أن أوازن فى هذا المقام بينه وبين الرجل الأثيوبى . ولكن مهما يكن من شأن الزمن ، أو من أثر الاتصال بالأوربيين ، فإنى على يقين من أن رجل القاهرة سوف يحتفظ دائما بقلبه البسيط الساذج الذى كان يحتفظ به فى العصور الوسطى .

والشرق — من ناحية الدراسة (إنى لا أتناول الكلام على الأخلاق) — لا يتغير إلا ببطء ، كما أن روح الرجل الشرقى لا تتغير على الإطلاق . فبائع الجوهرات فى القاهرة التى يساومك ساعة من أجل بضعة قروش ، فى الوقت الذى نراه يتسلل إلى الحياة الأوربية الحديثة ويندمج فيما يقترن بها من جلبة وصخب — هذا الرجل تجرى الحياة الحديثة من دونه ، فلا يمكن أن نعتبره جزءا منها ، وإنما هو ينظر إلى الوراء نظرة ملؤها الشغف والشوق ، ويتطلع إلى أيام المماليك الزاهرة التى ينتمى إليها ، آسفاً على ما تثيره فى نفسه من عز ومجد . ومن ثم نراه يتساءل فى شىء من الريبة عن الخير الذى يمكن أن يكون من وراء هذه الجلبة الحديثة ، أو من وراء هذه العدالة . فلطالما احتاج الإنسان فى وقت من الأوقات شيئا من الجور والظلم . وكان التاجر

الذى له مكانته يستطيع أن يشترى ذلك الظلم من القاضى قبل أن تتمخض العدالة أخيراً عن المحاكم الحديثة . أما فيما يتعلق بالضرائب المحددة وعدم أخذ الشىء كرها ، فهذا مما يهتم به الفلاحون الجهلاء دون سواهم . وعلى أى حال ، فقد كان النظام القديم يتم فى صورة بديعة حينما تتأخر أنت مثلا فى دفع ما عليك من ضرائب ، فيلزم جارك بدفعها بدلا منك . وعلى ذلك ففيم كل هذه الجلبة عن المياه والشوارع والمجارى وما إلى ذلك ؟ حينما زوّد ويلكوكس Willcocks[1] المساجد بالأنابيب والبالوعات وغير ذلك من الإصلاحات التى أدخلها فى المساجد والتى تنم عن الكفر ، فهل تحسنت صلاة الشخص عما كانت عليه يوم كانت الأحواض القديمة تنبعث منها هذه الرائحة الكريهة فى كل مكان ؟ كذلك مما لاشك فيه أن الشوارع قد أصبحت أوسع مما كانت عليه من قبل ، حتى أصبح الفرنجة — سود الله وجوههم — يمرون بعرباتهم ذات الجوادين ويلطخون المؤمنين بالأوحال . غير أن ذلك قد جعلهم يزيلون المقاعد الحجرية المريحة من أمام الحوانيت — تلك المقاعد التى شعر التاجر بفقدها بعد أن كان يجلس عليها ويقطع وقت فراغه وهو يدخّن الشبك ويخيل إليه أن الوقت لن ينقضى . وقد يكون هناك من ضروب الإصلاح مايعوضنا عن مثل تلك المقاعد أو غيرها . مثال ذلك الماء النقى والمجارى والدراجات وعربات الترام . بيد أن هذه الأشياء كلها قبيحة لا روح فيها ولا تسلية . وما من شك فى أن حياة القاهرة قد أصبحت مليئة بالضجر والملل اللذين يثيران اليأس منذ ذلك اليوم الذى دخل فيه الفرنجة هذه البلاد .

ويذكر لنا مستر مرديث تاونزند Mr. Meredith Townsend فى إحدى مقالاته الشائقة فى كتابه « آسيا وأوربا Asia and Europe » كيف أن الحياة فى الهند كانت بديعة ومسلية للغاية قبل أن يطرأ عليها التغيير الذى جاء به الإنجليز . والكثير من هذا يمكن أن يقال عن الحياة فى القاهرة مع تعديلات ضئيلة . فما لا ريب فيه أن الحياة كانت شائقة ممتعة فى تلك الأيام الغابرة التى لم تمسها يد التغيير والتحوير . لقد كان يقع فيها الكثير من الأحداث — الأحداث التى يراها الناس ويفكرون فيها ، أو ربما يفرون منها . وطالما حدثت هناك اغتيالات ومذابح . غير أنه كان من السهل وقتذاك أن تغلق الأبواب الحديدية القوية من دون المماليك أو المغاربة . وأسوأ من هذا كله

---

(١) مستشار الرى الانجليزى فى ذلك الحين .

دون السودانيين إذا امتشقوا الحسام . أما الآن فإن هذه الأبواب قد أزيلت ، ولم تعد هناك تلك المواكب الرائعة للفرسان فى زيهم العسكرى الذى كان يضفى بهجة وبهاء أينما ساروا . وفى تلك الأيام كان يمكن لكل رجل على جانب من الدهاء والحظ أن يصل إلى ما تصبو اليه نفسه من جاه وسلطان — ذلك الجاه الذى تعجز القاهرة الآن عن تحقيقه بعد أن لبس العصر الحاضر ثوب الصدق والصراحة : فلقد كان الترقى فى ذلك الوقت متاحا للجميع ، وكان الباب مفتوحا على الدوام لكل من أوتى القوة والدهاء والثروة . ماذا تكون إذن حوادث القتل أو السلب ، أو حتى المجاعات أو الأمراض التى كانت تتفشى فى بعض الأحيان — ماذا تكون هذه لو قورنت بما كان هنالك من فرص سانحة ، وأبهة فخمة ، وأيام ثائرة حافلة لم تكن لتقف عند حد ، كما لم يكن يتطرق إليها السأم والملل ؟

هذا هو ما يجيش به قلب كل قاهرى أصيل . فأفكاره - سواء منها الخيرة أو الشريرة - تغاير أفكارنا من جميع الوجوه . فهى ترجع فى أصلها إلى العصور الوسطى ، شأنها فى ذلك شأن ملبسه ومعتقداته الدينية وتقاليده الاجتماعية وطريقة حديثه وعدم اكتراثه وتحفظه وإنكاره لما عساه أن يسبب له الضيق أو القلق . وإذا استثنينا الطبقة الرسمية ، أى طبقة الموظفين ، فإننا نجد الرجل القاهرى ما زال كما تصوره لنا قصص ألف ليلة وليلة ، حتى مدينته مازالت تصطبغ بما كانت تصطبغ به فى العصور الوسطى . ولقد زال الكثير منها بفعل الزمن أو بفعل البدعة ، ومع ذلك فالزخارف الأوربية كالدخيل . ومن ثم نجد المدينة الإسلامية القديمة تسخر فى الوقت الحاضر وتتحدى تأثير الغرب . لقد أعيد بناء تلك المدينة المرة بعد الأخرى ، وكانت فى كل مرة تفقد جانباً من بهائها ؛ غير أنه قد تبقى ما من شأنه أن يرينا ماذا كانت عليه القاهرة منذ خمسمائة عام خلت . فالشوارع المزدحمة فى الأحياء القديمة ، وأشكال المنازل والأسواق التى لا يمكن أن تنسى ، وأهم من هذا وذاك الآثار التاريخية ؛ كل هذه تعود بنا إلى العصور الوسطى .

إن الغرض من هذا الكتاب هو أن ألبس آثار تلك المدينة من المعانى ما يكسبها قيمة ويزيد من شغف القارىء بها . فكثير من مبانى القاهرة ، وعلى الأخص تلك المساجد التى ترجع إلى عصر المماليك الأخير آية من آيات الجمال ، ويمكن أن تعتبر فى حد ذاتها تحفاً فنية رائعة بصرف النظر عن تاريخها . غير أن هناك فى الوقت

نفســه كثيرا من القصور البالية ، والأبهاء المتهدمة ، والجدران المتداعية ، والنقوش الدارسة ـ تلك الآثار التى لا تمت إلى فن العمارة بصلة بل ستظل لا تحمل أى معنى حتى نكشف الستار عن تاريخها . ولقد حاولت فى أثناء تتبعى نمو القاهرة أن أكسب آثارها جواً من التاريخ ، فالطوبوغرافيا المجردة لا تستهوى غير عالم الآثار ، ولا يمكن أن يشغف العامة بها ما لم تمتزج هذه الآثار بألوان الحياة التى كان يحياها سكانها وطرق الحكم التى كان يسلكها حكامها . ولقد حاولت جهدى هنا ألا أخرج عن نطاق بحثى ، وهو وصف حياة المدينة وتطور نموها . فليس هذا إذن تاريخا عاماً لمصر ، فكثيراً ما أغفلت أشياء كثيرة كنت أدعها تمر لأنها لا تمت إلى تطور هذه المدينة بصلة .

أما المراجع التى اعتمدت عليها فسوف يأتى ذكرها دائماً فى أسفل الصفحات. وإن أهم مصدر عربى هو طبعاً كتاب الخطط للمقريزى الذى أشرت إليه كثيراً . وقد كتب فى مستهل القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ، واستعمل كثيراً من المؤلفات التاريخية والطوبوغرافية التى يرجع عهدها إلى أبعد من هذا التاريخ بكثير ، والتى لم نكن لنعرف عنها شيئاً لو لم يتناولها هو بالبحث والتمحيص . ولا أجدنى فى حاجة إلى الثناء على دقة بحثه وتصويره للقاهرة ، فإن هذا معروف فى العالم أجمع . و هناك غير المقريزى كثير من الكتاب مثل : المسعودى ، وناصر خسرو ، وعبد اللطيف البغدادى ، وابن جبير (الذى يرجع الفضل إلى صديق مستر جاى لى سترينج Mr. Guy Le Strange مؤرخ بغداد الذى يعتبر أكبر حجة عندنا فى جغرافية الخلافة فى الحصول على هذه المقتطفات) ، وابن سعيد ، وابن دقماق ، والسيوطى ، وأبو المحاسن ، والإسحاقى ، والجبرتى ، وكل هؤلاء لهم آثار شخصية لها قيمتها . كما أن لكتاب لين Lane « القاهرة منذ خمسين عاماً » Cairo Fifty Years Ago فضلا فى تصوير هذه المدينة كما كانت عليه فى سنة ١٨٣٥ ، أى قبل أن يبدأ محمد على ومن بعده إسماعيل حركة إدخال التقدم الأوربى إليهــا ، ثم فى تغيير مظهر هذه المدينة . أما فيما يتعلق بعلم الآثار فإنى مدين إلى أبحاث كل من ماكس فان برشم Max Van Berchem ، ورافيس Ravaisse ، وكازانوفا Casanova. ولا بد لى من أن أشير إلى اعتراض قد يوجَّه إلى فيما يتعلق برجوعى إلى مؤلفاتى ، وهو أمر يثير الاشمئزاز . وأجدنى مضطراً إلى الإشارة فى شىء من التواضع إلى مؤلفاتى .

فلقد كنت أكتب على الدوام فى موضوع القاهرة وفنها وآثارها وتاريخها منذ وقت بعيد . ومن ثم كان لا بد لى أحيانا من أن أعيد ما كتبته من قبل . حقاً إننى عندما دونت ما كنت أريد أن أقوله فى أحسن عبارة أستطيع أن أصورها بها ، فإن ذلك يكون أكثر تكافأ فيما يظهر أن أحاول البحث عن صيغة أخرى مختلفة للتعبير عما أريد . لذلك اقتبست - ولكن فى إقلال - من كتابى « فن العرب فى مصر » Art of the Saracens in Egypt (نشر للجنة المجلس سنة ١٨٨٦) و « صور القاهرة » « Cairo Sketches » (الطبعة الثالثة نشرت سنة ١٨٩٨) ، وكتابى « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » « History of Egypt in the Middle Ages » (نشر سنة ١٩٠١) ، ومقتطفاتى التى لم تذيل على صفحات هذا الكتاب يجب أن تفهم على أنها مأخوذة من إحدى هذه الكتب ، وعلى الأخص من كتاب « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » ، الذى يستطيع القارىء أن يرجع إليه إذا أراد المزيد من الناحية التاريخية . ولو كان هناك كتاب آخر باللغة الإنجليزية يتناول الكلام على مثل هذه الناحية ، لأشرت إليه فى سرور وفخر . أما فيما يختص بالتاريخ القبطى فيستطيع القارىء إذا ما أراد التوسع أن يرجع إلى كتاب مستر بتشر Mr. Butcher « تاريخ الكنيسة المصرية » "Story of the Church of Egypt" (نشر فى سنة ١٨٩٧ فى مجلدين) ، وهو كتاب حافل بعبارات العطف والتقدير للقبط ، ولكنه عرضة للنقد فيما جاء فيه عن علاقات المسلمين .

وقد عملت على عدم كتابة الأسماء العربية بحروف أفرنجية حتى لا أضايق القارىء . وبدلا من ذلك عمدت إلى تشكيل الأسماء بحيث تظهر المقاطع الهامة من غير الهامة ، والحروف المتحركة تنطق كما فى اللغة الإيطالية ، وحرف G قد استخدم ليمثل الحرف العربى الساكن الذى ينطق فى القاهرة مخففاً (كما فى get) وفى البلدان الأخرى معطشاً (مثل j فى jet) . ويستطيع أولئك الذين يشوقهم معرفة ترجمة الأسماء العربية على حقيقتها أن يرجعوا إلى الفهرس الذى يراه القارىء فى آخر الكتاب ، حيث كتبت كل كلمة عربية بالحروف الرومانية وفسرت تفسيراً يساعد على فهمها .

أما الصور فقد راعيت فى اختيارها أن تكون بحيث توضح بقدر الإمكان مدينة القاهرة قبل أن يتسرب إليها التغيير الأوربى . ومن أجل ذلك فإن أحسن

الصور هى تلك التى رسمها روبرت هي Robert Hay بين سنتى ١٨٢٦ ، ١٨٣٨ ، وزميله أوين كارتر Owen B. Carter حول سنة ١٨٣٠ ، عن الصور الأصلية المحفوظة فى الغرفة التى أودعت فيها الصفائح المنقوشة بالمتحف البريطانى . وقد طبع بعضها على الحجر فى كتاب هي «صور القاهرة» Hay's Illustrations of Cairo . فهذه الصور تمثل بقايا العصور الوسطى أصدق تمثيل بحيث لا يمكن للصور الحديثة أن تجاريها . ولكن مستر ج . ا . سمنجتون J. A. Symington قد ذيلها بصور أخرى تنم عن مهارة لا يمكن أن يبلغها الرسامون الذين عاشوا قبله .

ويجدر بى فى ختام هذه الكلمة أن أشير إلى ما ذكرته فى الفصل الأخير من هذا الكتاب عن موضوع لجنـــة حفظ الآثار العربية Commission for the Preservation of the Monuments of Arab Art . وإلى يقظة هذه اللجنة وجهودها التى لم تفتر طوال العشرين سنة الماضية ، يرجع الفضل فى حفظ المساجد وغيرها من بقايا المبانى الإسلامية من التهدم والزوال بقدر ماتسمح به الأحوال . فلم يحدث على الإطلاق فى تاريخ القاهرة أن حفظت آثارها وأصبحت بمأمن من كل عبث بمثل هذه الصورة . ومن ثم كان لزاما علينا أن نعترف بفضل كل عضو من أعضاء هذه اللجنة التى تقدر جهود أفرادها . ومنذ أن استغل لورد كرومر نفوذه فى تحسين حالة اللجنة المالية ، استطاعت فى الخمس سنوات الأخيرة أن تقوم بأعمال علمية واسعة النطاق لحفظ هذه الآثار على أسس علمية . وكل من يزور القاهرة يستطيع أن يتحقق من نتائج هذه الأعمال ، وأن يفحص عن المجموعات التى تم جمعها تحت إشراف كبير مهندسيها ماكس هرتز بك Max Herz Bey فى متحف الفن العربى ؟

دبلن — ٣١ يناير ١٩٠٢

ستانلى لينبول

الباب الأول

المدينتان

القاهرة الأوربية والقاهرة المصرية ـ مناظر شرقية ـ التجار المحافظون ـ متاجرهم ـ منازلهم ـ باب زويلة ـ أحد المنازل الخاصة ـ المندرة ـ حجرات النوم ـ الحياة اليومية ـ حياة النساء ـ الأعياد فى القاهرة ـ الحسنين ـ شارع محمد على ـ مشهد من القلعة

هنالك قاهرتان مختلفتان ، تتميز إحداهما عن الأخرى ، ولو أنهما لا تختلفان كثيراً فى الموقع . أما الأولى فهى القاهرة الاوربية ، وأما الثانية فهى القـــاهرة المصرية . وكانت هذه الأخـــيرة قاهرة ـــ أى منتصرة ـــ فى يوم من الأيام ، وضع أساسها عند مطلع كوكب المريخ . أما الآن فإن انتصارها قد قل كثيراً بل لقد أصبحت بلا ريب مغلوبة على أمرها إلى حد أنها صارت لاتعرف إلا بالأحياء الوطنية أو بالأسواق حسب الطريقة الهندية . والقاهرة الأوربية فى الواقع تكاد لا تعرف شيئا عن أختها القاهرة المصرية مدينة العصور الوسطى . حقيقة إن آلاف السائحين يركبون الحمير ليزوروا الأحياء الوطنية فى فصل الشتـاء ، غير أن هؤلاء لا يمتون إلى القـاهرة الأوربية بصـلة . فهم كالطير التى لاتقيم فى مكان واحد على الدوام ، إنما هم نزلاء زائرون لفترة قد تقصر أو تطول . أما المواطن الحق فهو ذلك الذى يقيم فى حى كالإسماعيلية فى منزل ظليل يقيه الحر، به شرفة يتخللها النسيم ، ويحيط به مئات من القصور المريحة التى تماثلها . وهذا المواطن لا يركب الحمير كما يفعل السائح ، بل قـد يذهب إلى الأسواق وهو مكره تحت إلحاح زائر يشوقه أن يرى مثل تلك الأماكن الغريبة عنه . غير أنه حتى فى القاهرة الأوربية نرى دلائل على أن ثمة قاهرة أخرى ـــ قاهرة إسلامية شرقية ـــ لاتبعد عن القـاهرة الأخرى كثيراً . ولندع الجالية البريطانية لاتقترب البتة بعضها من بعض ، وتتجاهل الأحياء الوطنية أو تنظر إليها على أنها مجرد أمور تستدعى حكومة عادلة وإصلاحات حكيمة ، ولا يمكنها أن تذهب بعيداً ، أو حتى تفتح أذانها فى داخل حجراتها دون أن تدرك أنها تعيش فى عالم شرقى ـــ ذلك العالم الذى لا يمكن بدونه أن يكون لها وجود .

وأنت إذ تذهب إلى مكتب البريد ، على مسيرة بضع دقائق من معظم فنادق المدينة لا تلبث أن ترى مظاهر الامتزاج بين الشرق والغرب.

هنالك تجد ممرضة ألمانية مع الابنة الصغيرة للأسرة تسأل من نافذة الخطابات الواردة عن خطابات مرسلة باسمها ، وفي المكتب المجاور تجد شيخا مسنا يرتدي القباء والعمامة يصرف حوالة من النقود أو يرسل خطابا مسجلا . وعلى طول الطريق تجد صفا من كاتبي الخطابات جالسين إلى مكاتبهم في غير قلق أو ضيق في انتظار عملائهم من غير المتعلمين . أما الشوارع فإنها تصخب بعربات الأتوبيس والترام ، وتضج بالأصوات المزعجة المنبثة من أبواق السيارات . وأما هؤلاء الذين يجلسون تحت المظلات على المقاعد فإنهم ليسوا من الأوربيين ، وإنما هم مصريون — لفيف من الأفندية والكتبة والتجار والمشايخ ، وهم عادة من الفلاحين الأغنياء الذين أتوا إلى المدينة لقضاء بعض المصالح ، وركبوا من بولاق أو قصر النيل . وأما أفاريز الشوارع — وهي دائما غير ممهدة وملطخة بالأوحال بخلاف الطرق التي تعنى بتنظيفها الفتيات الصغيرات — فإنها تشهد مزيجا عجيبا من العناصر الشرقية والغربية ، وعلى الأخص اليونانية والألمانية والإيطالية . فالنساء السودانيات المتحجبات بالبراقع الناصعة البياض التي لا تكشف إلا عن حواجبهن القاتمة وعيونهن السود ، والفتيات المصريات في أرديتهن الزرق وبراقعهن السود التي تتدلى في غير إحكام وتكشف عن الرقبة الجميلة والوجنة اللطيفة ولا تحجب إلا الفم — ذلك الجزء الذي تعمل جميع نساء الشرق على إخفائه ، والبدو وقد أخذوا يذرعون الطريق وحول رءوسهم الكوفيات المخططة ، وقطار الجمال المحكمة الوثاق المحمّلة بالبرسيم — علف الدواب الأول في مصر — يسوقها صغار الصبية ، وكتبة الحكومة الأصاغر ، أو الأفندية ، وقد ارتدوا الحلة الإسلامبولية والطربوش وامتطوا ظهور الحمير — كل هذه الطبقات المختلفة يتكون من مجموعها جمهور متدفق محتشد ، ولكن على جانب من دماثة الخلق . كما أنك تستطيع أن تشم هنا وهناك رائحة الشرق الخاصة التي تتضح أماراتها في كل مكان .

وحتى الأحياء الأوربية لا تزال تصادف فيها مناظر الشرق وتسمع أصواته . فأنت إذ تطل من نافذة غرفتك في الفندق الذي تقيم فيه ، تشاهد رجلا جائلا ينشد

على ربابته أنشودة ، ويحمل إليك أنغام البلد الأصيلة . ثم لا تلبث أن تسمع أصواتا أخرى كأصوات الأطفال الرضع تنبعث من صنوج « الشربتلى » الجوال الذى يحمل على جنبه إناء زجاجياً كبيراً يصب منه شراباً من الأرز « السوبياء » أو من عصير البرتقال ، فى تلك الأوعية النحاسية التى لا ينفك يوقع عليها بين لحظة وأخرى بدون ملل، أجراسا وأنغاما تسترعى أسماع المارة . وفى الهزيع الأخير من الليل لا تعدم أن تسمع من أصوات الشرق ما يقضّ عليك مضجعك . من ذلك تلك النغمات التى تنبعث من قرع الطبول وتنبئك بأن حفلا للزواج يجوب شوارع المدينة . وإذ تأخذك الرغبة أو حب الاستطلاع فى استجلاء الأمر ، حينئذ تشاهد لوناً من تلك الألوان التى تصطبغ بها مدينة القاهرة ، والتى يمتزج فيها القديم بالحديث بصورة تدعو إلى الدهشة . وفى بعض الأحيان قد ينضم إلى هذا الاحتفال بالزواج احتفال آخر بالختان مراعاة للاقتصاد . فتجد موكباً حافلا تتقدمه علامة الحلاق الذى يقوم بعملية الختان ، وهى عبارة عن إطار خشبى مرفوع إلى أعلى يتبعه اثنان أو ثلاثة من الجمال المحملة بأبهى الأشياء وأحسنها ، والتى تستأجر فى مثل هذه المناسبات . ويجلس على كل من هذه الجمال طبال . وهذه الجمال من شأنها أن تمهد الطريق لما يتبعها من عربات مملوءة بصغار الأولاد ، كل واحد منهم يمسك بمنديل نظيف ناصع البياض وضعه على فمه ليقيه من الشيطان ويحفظه من العين الشريرة ! ثم تأتى عربة منفصلة مغطاة من كل جانب بشال كبير مصنوع من الكشمير ، يمسك به من أسفل ويعمل على إحكامه أخوات العروس المحبوسة وغيرهم من الأقارب ، ويتبع ذلك عربات أخرى تحمل سائر جمهور المشاركين فى الفرح والسرور . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن تحمل العروس فى هودج مغطى بشال كشمير ويحمل على جملين يسير أحدهما خلف الآخر . وتكون رقبة الجمل الخلفى تحت الهودج ، ومن ثم يكون فى حالة لا يحسد عليها من عدم الراحة ، شأنه فى ذلك شأن العروس نفسها التى تصاب فى العادة بدوار يشبه دوار البحر من جراء حركات الهودج التى لا تنقطع . وقديماً كانت العروس تسير فى الطرقات تحت مظلة يحملها أصدقاؤها . أما الآن فلم يعد ذلك من التقاليد ، بل إننا نجد العربات الأوربية تحل حتى محل الهودج . أما الشال المصنوع من الكشمير وكذلك الخمار فلن يزولا سريعاً . ومما يلاحظ على المرأة المصرية أنها فى العادة — أو على الأقل حينما تظهر فى المجتمعات —

متواضعة إلى حد كبير. فهى تختلس نظرة الغريب فى سرعة سحرية حتى ولو بدا للجميع أنها تنظر إلى الناحية الأخرى من الطريق. وفى الحال نجدها تحكم وضع النقاب على فمها وأنفها. وإذا ما أتيح لها أن تلقاك وجهاً لوجه، فإنها لا تسبل عينيها الواسعتين كما تفعل الغربيات، وإنما تحولهما عنك فى بطء يأخذ بمجامع القلوب.

وحالما تترك الحى الأوربى حيث الفندق الذى تنزل فيه وتبتعد عن واجهات المحال التجارية والتجار اليونانيين فى شارع الموسكى، حينئذ تبدو المدينة الشرقية لك على حقيقتها ويأخذ سحرها يتسلط عليك. وإنه لمن السهل تماماً أن تضل الطريق فى ثنايا شوارع القاهرة الإسلامية القديمة، حتى إنك لا تستطيع أن تستدل على الطريق إلا بمعاونة أحد المارة. إن جانباً كبيراً من القاهرة لم يطرأ عليه فساد يذكر، فهى ما زالت إلى حد كبير مدينة « ألف ليلة وليلة ».

وفى أحد الأركان تجد حانوتاً فيه حلاق شيخ يباشر عمله وهو يسرد مغامرات إخوته التاعسين على من يسوقه سوق الحظ إلى الجلوس على كرسيه. وفى تلك اللحظة نفسها قد تجد ثلاثة من الشحاذين يقومون بتسلية البوّابة وأخواتها الجميلات ويقصُّون كيف أن المصائب كانت تلاحقهم على الدوام. وإن أنت انتظرت حتى يرخى الليل سدوله فإنك قد ترى هارون الرشيد الطيب نفسه — على الرغم من أنه عاش حقاً فى بغداد — وهو آت فى إحدى جولاته الليلية الخفية، يصحبه جعفر الوزير ويتقدم الإثنين مسرور الخادم ليفسح لهما الطريق. ومن السهل علينا حينما نجد أنفسنا فى تلك الشوارع البعيدة عن الأحياء الأوربية، أن نتصوّر أننا نقوم بدور تمثيلى فى رواية « ألف ليلة وليلة » — تلك الرواية التى تعطينا وصفاً دقيقاً للقاهرة وسكانها كما كانت فى العصور الوسطى وكما هى الآن إلى حد كبير. ومما يسهل علينا ذلك التصور ذلك التهدم الذى نراه فى كل مكان. فالمنازل الشرقية المتداعية التى لا يفكر أحد فى إصلاحها، هى بطبيعة الحال مساكن العفاريت والجن التى تبعد عنها كل ساكن يخشى الله. غير أنه قد يكون هناك أحياناً فى المبانى المتهدمة من الآثار ما يعود بنا إلى العصر الذهبى للفن والثقافة العربية. فالجوامع والمدارس وبقايا القصور المتهدمة كلها أمثلة بيّنة لما كانت عليه الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة الأرجاء من تقدم فى فن البناء فى حقبة من الزمان. حقيقة إن دمشق وأصبهان وأجرا ودلهى وقرطبة وغرناطة وبروسة والقسطنطينية — كلها تملك الكثير من

عناصر الفن ومظاهر أساليبه بما تفتقر إليه القاهرة ، وهى توسع وتكمل معلوماتنا عن الفن العربى . غير أننا لو نظرنا نظرة خالصة إلى ذلك الفن من حيث نقاؤه دون أن تفسده الزخرفة الآلية كما حدث فى قصر الحمراء ، أو الزخرفة الزائدة عن الحاجة كما نشاهده فى دلهى لوجب علينا أن نقوم بدراسة جوامع القاهرة ومشاهدها.

ومن حسن الحظ أن تحفّظ الشرق قد أبقى لنا على الجانب الأكبر من المدينة القديمة بما تحويه من أطلال رائعة برغم عدم تنسيقها . وهناك بطبيعة الحال منازل جديدة ووجهـــات أعيد بناؤها بل وإطارات النوافذ من الزجاج . فالمشربيات الفاخرة بصنعها المعقد المتقن قد اختفت جميعها تقريباً وبدأ يحل محلها ذلك الطراز الإيطالى الحديث ، كذلك تلك المقاعد الحجرية التى كانت أمام واجهات المحال التجارية قد اختفت تماما وحلت محلها المواقف الجديدة للعربات . غير أن الصبغة العـــامة للشوارع لم تتغير تغيرا جوهريا فى السنوات الأخيرة . فالناس الذين يزدحمون فى الأزقة الضيقة ، أو يجلسون فى حوانيتهم الصغيرة لاستقبال زبائنهم - كل هؤلاء لم يطرأ عليهم تغيير كبير ، فهم يلبسون كما كان يلبس أسلافهم منذ أجيال . كما أن أفكارهم وثقافتهم لم تتعد ما كانت عليه أفكار أسلافهم وثقافتهم ، على الرغم من أن المدارس الجديدة تعمل دائما على نشر الأفكار الحديثة . ومع هذا فهم لا يزالون على ما عرف عنهم من اللين والوداعة اللتين عرفوا بهما من قبل . أما التغيـــير الحقيقى فإنه يتجلى لنا فى اختفاء الشُبُكْ - ذلك الأنبوب الطويل ، الذى يحوى الطباق وغيره من الأعشاب ، والذى كان يستخدمه الناس كضرورة من ضرورات الكيف واحلال اللفائف محله . هذا وما تزال أنابيب جوز الهند (النارجيل) تستخدم حتى الآن لتدخين الحشيشة بين الطبقات الدنيا. ويلاحظ أن التجار يمثلون العنصر المحافظ فى مصر كما هو الحال فى كل بلد آخر . أما الطبقـات الراقيـة فإنها تتحرر من شرقيتها عاما بعد عاما فى عاداتها ومظهرها الخارجى . ذلك أننا نراهم يرقصون مع الراقصات « الكافرات » ويرتدون الملابس الأفرنجية وينعمون بمشاهدة المسرحيات الفرنسية الصغيرة التى تمثل فى حديقة الأزبكية . بل إن الأقداح التى يشربون فيها القهوة تصنع فى أوربا . ولولا الطربوش الأحمر وبعض الصفات العقلية والخلقية التى يتميزون بها — والتى لا محل لذكرها هنا — لكان من الممكن أن يبدو الرجل المصرى كما يبدو الفرنسى للجمهور الباريسى كأنه واحد منهم .

فالتاجر إذن هو الذى يحمل الماضى إلى أذهاننا ، وهو الذى يحافظ على العادات والتقاليد القديمة ، وهو الذى يمشى فى الأزقة القديمة . إن ما يحدث فى سائر أنحاء العالم لايحدث عادة فى الشرق إلا فيما ندر . وبينما أخذ موكب التقدم والرقى يسير بخطى واسعة فى الغرب ، إذا بالتاجر القاهرى لايحرك ساكناً ولا يحاول على الإطلاق أن يلحق به .

وسنحاول الآن أن نلقى نظرة على هذا المخلوق الساكن وهو فى إحدى طرقات القاهرة العامة . فنحن إذ نترك الحى الأوربى وراء ظهورنا ، ولا نهتم كثيراً بتلك الحوانيت اليونانية والإيطالية فى الموسكى الجديد ، حينئذ نتجه يميناً إلى الغورية وهى من أكبر شوارع القاهرة ، ولو أنها من الأزقة التى يطلق عليها شوارع أو طرق عامة . فمثل هذا الشارع نجد على جانبيه حوانيت صغيرة هى أشبه ما تكون بالصناديق ، وهى فى الوقت نفسه تكوّن حدود الشارع فى صورة منظمة وغير منقطعة ، اللهم إلا حينما يعترضها مدخل أحد المساجد ، أو إحدى الميضآت العامة ، أو تقاطع شارع آخر . حينئذ فقط يخرج صف الحوانيت على نظامه الدقيق . غير أنه ليس هناك مدخل خاص أو نافذة مما اعتدنا أن نشاهده فى أوربا من شأنه أن يشذ فيفسد منظر الحوانيت المصطفة . ثم إنك تجد بضعة حوانيت متجاورة ولمسافة طويلة يتجر أصحابها فى نفس السلعة ـ فالتكن هذه سكر نبات وتلك أحذية للغرفة (شباشب). ولا شك أن لهذا النظام مزاياه . فإذا كان أحد التجار يبيع بأسعار مرتفعة ، فقد تجد جاره يبيع بسعر أرخص منه . ثم إن التنافس المستمر بين التجار المتجاورين من شأنه أن يؤدى إلى خفض كبير فى الأسعار . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه يجب أن نعترف بأنه ليس أشق علينا من أن نشترى الرداء من ستة حوانيت فى أماكن مختلفة ـ فنشترى القماش من مكان ، والأزرار من مكان آخر ، والخيط من مكان ثالث ، والبطانة من مكان رابع ، ثم نضطر إلى المسير إلى مكان آخر مختلف تماماً حيث نجد خياطاً لتفصيل هذا القماش وصنع الرداء المطلوب منه . وإذا كان من الضرورى أن نساوم كل بائع من هؤلاء ، وقد تصل المساومة إلى حد شرب القهوة أو التدخين مع البائع ، فإننا نستطيع أن نضع أنفسنا فى عداد الأشخاص المشهود لهم بالنشاط وسرعة البت فى الأمور إذا استطعنا أن نشترى رداء على هذا النحو فى صبيحة يوم واحد .

وفى واحدة من تلك الخزانات التى تقوم مقام الحوانيت ، قد نجد ذلك التاجر الذى نبحث عنه وقد لا نجده . فقد يتصادف أنه ذهب ليؤدى فريضة الصلاة ، أو ليزور صديقاً له ، أو ربما لم يشعر بالميل للعمل فى ذلك اليوم . وفى إحدى هذه الحالات تراه يغلق مصراع النافذة . ومن حيث أنه لا يسكن بالقرب من متجره ، وحتى لو كان كذلك ، فليس ثمة جرس أو باب خاص أو مساعد يمكن أن يدلنا عليه . وعلى ذلك فإن علينا أن ننتظر هناك إلى ماشاء الله ، حيث نسأل ولا من مجيب . وقد يخبرنا جاره التاجر فى لطف وأدب بأن ذلك الرجل الممتاز الذى نسأل عنه قد توجه إلى المسجد . وحينئذ قد نتعرف إلى هذا التاجر الجديد ونطلب منه ما جئنا لنطلبه من زميله .

إن صديقنا الجديد هذا يجلس فى مكان يبلغ كلٌ من طوله وعرضه خمس أقدام ، أما ارتفاعه فقد يتجاوز ست أقدام بقليل . والمكان كله يرتفع عن الأرض بمقدار قدم أو قدمين . ومن الغريب أن صاحبنا استطاع فى مثل هذا النطاق الضيق أن يضع جميع السلع التى يظن أنه يستطيع بيعها ، كما أنه استطاع أن يترك مكاناً لنفسه ولعملائه حينما تصل المساومة معهم إلى حد الجلوس وشرب القهوة والتدخين . وبطبيعة الحال إن مايودعه هذا التاجر فى متجره لابد أن يكون محدوداً جداً . غير أن زملاءه التجار على استعداد لأن يقدموا إليه يد المساعدة على الدوام . وأنت حينما لا تستطيع أن تجد ما تحتاج إليه فى حدود حيطانه الأربعة ، فإنه لا يعدم أن يدعك تذهب بعد أن يكون قد قدم إليك إبريقا من الشاى العجمى ، بينما يذهب هو ليأتى إليك بطلبك من عند أحد زملائه التجار المجاورين .

وبينما أنت تشرب القهوة ذات النكهة العطرية وتشاهد الجموع المحتشدة من المارة ، إذا ببضعة جمال محملة بالدرس أو التبن أو البرسيم ، تمشى بخطوات متثاقلة ، حتى إنه ليخيل إليك أنها سوف تنتزع كل شىء وكل شخص من مكانه ، وتجد سكان المدينة المحترمين راكبين حميرهم الشهب أو السمر ، وأولئك الصبية الذين لا رحمة ولا شفقة فى قلوبهم وهم يجرون وراءها ، فيحملون هذه الحيوانات على أن تسرع فى السير يمنة أو يسرة وهى تلتوى فى غير هوادة كما لو كان قد وضع فى وسطها مفصلة كمفصلة الباب . أما السراة فانهم يركبون العربات التى يجرها جوادان ، ومن أمامهم عداءون يلهثون من فرط التعب ويفسحون لسادتهم الطريق . وهم ينادون بكل ما أوتوا من

قوة وصوت مرتفع : « شمالك ياولد ! » ، « يمينك ياست ! » ، « افتح عينك ياعم ! » وما إلى ذلك . وتجد النساء وقد حملن فوق رءوسهن الصينيات ومن فوقها ألوان الطعام ، والسقاء وقد حمل تحت ذراعيه الماء فى قربة مصنوعة من جلد الماعز ، كما تشاهد جمهوراً آخر محتشداً من الرجال والنساء قد ارتدوا جميعاً رداء أزرق اللون وجاءوا ليقضوا بعض الحاجات ، غير أنهم يسيرون ويقضون حاجتهم فى تأن ومهل . فعلى الرغم من أن الجمهور قد يبدو محتشدا متدفقا فى جملته إلا أنه يتحرك فى بطء ، شأنه فى ذلك شأن كل شىء فى الشرق .

ثم يعود صاحبنا التاجر يحمل الشىء الذى ذهب للبحث عنه عند زملائه التجار . فنتقبله بادىء الأمر ولكن فى شىء من الحذر . ثم لا نلبث أن نسأل ذلك السؤال المعهود : « كم ثمنها ؟ » فيكون الجواب عادة ضعف الثمن المعتدل . ومن ثم نعقب على ذلك الثمن الباهظ بقولنا « يا الله ! » (من فداحة الثمن) ، ثم لا نلبث أن نقترح ثمناً يكون فى العادة نصف الثمن الذى طلبه التاجر ، غير أن صاحبنا يهز رأسه ، وينظر إلينا فى شىء من اليأس وعدم الرضا ! ويقول لنا إنه لم يكن ينتظر مثل هذا القول من أناس فى مثل مظهرنا ، ثم يضع السلع جانباً ويجلس ليشعل سيجارة جديدة . وبعد مساومة أخرى غير مجدية ، ننادى صاحب الحمير ونتأهب للرحيل . حينئذ يلين جانب التاجر ويعرض علينا ثمناً أقل من ذلك الذى عرضه فى بادىء الأمر . ولكن على الرغم من هذا فإننا نصمم على الرحيل ونأخذ فى الابتعاد فعلا . فيتبعنا ويبدى شيئا من الموافقة على الثمن الذى عرضناه عليه . وهنا نعود إلى المتجر ، وندفع الثمن ونتسلم ما اشتريناه ، ثم ننصرف بعد أن ندعو الله أن يحفظه .

أما إذا لم يصل بنا الاتفاق إلى ماتقدم ، فإن المساومة قد تستمر حتى نصل إلى منزل صاحبنا التاجر . وهذا المنزل هو فى العادة صورة لما عليه منازل الطبقة الوسطى فى القاهرة ، والواقع أن مسكن الطبقة الوسطى فى القاهرة قد يتصادف أن يكون فى بعض الأحيان بمثابة قصر من القصور . ونحن فى العصر الحاضر نجد الباشا يحتقر قصور النبلاء التى كانت فى أيام المماليك موضع فخر وإعجاب كثير ممن هم أحسن منه . ونراه يؤثر الإقامة فى « شارع رقم ٢٩ » — ذلك الطريق الذى لا ظلال فيه — أو هنالك حيث المنازل الحديثة المصنوعة من القرميد ، والتى تشبه الجنان وتعرف بحى الإسماعيلية . وهنا قد نجد التاجر يشغل فى بعض الأحيان منزلا من المنازل التى

كان يسكنها أحد البكوات الكبار فى وقت من الأوقات — أولئك البكوات الذين كانوا يأمرون أتباعهم بالاصطفاف حينما يقتضى الأمر توجيه ضربة قاضية للوصول إلى العرش المتداعى الذى كان يقع دائما فى أيدى قواد أقوى الفرق . ولكن جميع منازل القاهرة القديمة قريبة التشابه إلى حد كبير ، ولكنها تختلف من حيث الحجم وكثرة الزخارف أو قلتها . وإذا كان منزل صاحبنا التاجر أفضل من معظم المنازل المجاورة له ، فما علينا إلا أن نتخير غرفة أو غرفتين من الغرف الفاخرة فيه نضاهى بينها وبين غرف المنازل الأخرى ، ليتكون لدينا فكرة واضحة عن ذلك المنزل .

إن الشارع الذى ندخله الآن يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى تركناه . فلقد كنا منذ لحظة وجيزة نطوف لنشترى من هذه الحوانيت ، حيث نشترى السلع الرخيصة فى أحد أنحاء القاهرة المزدحمة ، والتى تواجه ذلك البناء الفخم لجامع السلطان المؤيد المملوكى ، ذلك الجامع الذى تقوم مئذنتاه على باب قديم بديع يسمى « باب زويلة » ، ولو أن الناس فى الوقت الحاضر يطلقون عليه عادة « باب المتولى » ، لأنهم يعتقدون أنه كان فيما مضى مقراً « للقطب المتولى » زعيم الأولياء فى ذلك الوقت ، والذى يحوط حياته شىء من الغموض والإبهام . وهذا الولى المقدس له قدرة عجيبة فى التنقل من مكان إلى آخر بحيث يكون خافياً على الأنظار . فهو يطير دون أن يراه أحد من أعلى الكعبة فى مكة إلى باب زويلة ، وهناك يستقر فى مخدع خلف الباب الخشبى . والمؤمنون بهذا الولى يسبحون وهم يمرون بجانب هذا المخدع ، على حين يدفع غيرهم الفضول إلى أن يختلسوا النظرات ليتحققوا هل الولى هنالك حقاً . وإذا انتابك صداع فليس من علاج ناجع إلا أن تدق مسماراً فى الباب ، والعلاج المحقق لألم الأسنان هو أن تنتزع السن الذى يسبب لك الألم وتضعه فى نفس تلك البقعة المقدسة . ولربما كان انتزاع السن أو الضرس فى حد ذاته علاجا للألم . غير أن الإيحاء يشتم منه رائحة الكفر والإلحاد . ومن ثم فإنه من الأفضل على أى حال أن ينتزع الضرس ويثبَّت هناك ، حيث تجد الباب يحفل بالكثير من النذور من أمثال هذه الأشياء الغريبة وغيرها . ولو كتب لهذه النذور جميعها النجاح لكان هذا القطب طبيباً بارعاً من غير شك .

وهذا الشارع الذى يعترضه باب زويلة عريض بالنسبة لمدينة القاهرة ، ويحده

الحوانيت والجوامع والخانات والميضآت. وعلى عكس هذا تماما نجد الشارع الذى ندخل فيه الآن، حينما نطوى زقاقاً ضيقا، ثم ننحرف فجأة نحو اليسار وهذا الشارع خال من الحوانيت، ولو أن به جامعا صغيرا، لعله ضريح أحد الأولياء الموقرين، ويقع فى أحد الأركان، وقد طليت جدران هذا الضريح بمختلف الألوان من أصفر وأحمر أو أبيض وأزرق مما يضفى كثيرا من البهجة على الزقاق الذى يقع فيه. أما جانبا هذا الطريق الضيق فإنهما يتكونان من جدران المنازل الخلفية العالية البيضاء اللون، والتى ليس عليها شىء على الإطلاق سوى النوافذ المنقوشة القريب بعضها من بعض. وهذا الطريق الضيق يتفرع منه بين الفينة والفينة زقاقات أخرى أضيق منه، تمتد إلى مسافات بعيدة فى مدينة القاهرة، وفى أفنية هذه الدور تكثر المشربيات على حين لا نجد الكثير منها فى الطرق الواسعة الآهلة بالسكان. فالسكان فى العادة يحتفظون بالمشربيات الجميلة للنوافذ الداخلية للمنزل والتى تطل على الفناء أو الحديقة. ولكن فى الوقت نفسه نرى فى القاهرة شوارع غير قليلة حيث يقف المارة ويتأملون صفوف المشربيات البديعة التى تضفى على المنازل بهجة وبهاء.

واسم «المشربية» مشتق من الأصل وهو الفعل «يشرب» — ثم استعمل للنوافذ المصنوعة من الأعمدة الخشبية الرفيعة المشتبكة، وذلك لأن أوعية الماء ذات المسام المصنوعة من الفخار كثيراً ما وضع عليها حتى تبرد بفعل الهواء. وفى أغلب الأحيان نجد هنالك مشكاة صغيرة نصف مستديرة تبرز من وسط المشربية لتوضع فيها «القلّة» أو الإبريق. والقطع الصغيرة الدقيقة التى تتكون منها المشربية، يقترب بعضها من البعض الآخر بحيث لا يستطيع الجيران أن يروا من خلالها أى شىء فى داخل المنزل. غير أنها تحتوى فى الوقت نفسه على مكان كاف يسمح بتخلل الهواء إليه. فالمشربية فى الواقع مكان رطب للإنسان كما هو بالنسبة لقلال الماء. كما أن الجالس فيها يمكنه أن يرى الناس بالشارع من حيث لا يرونه، فتستطيع نساء «الحريم» أن يشاهدن المارة دون أن يتمكن هؤلاء من رؤيتهن. ومع ذلك فهنالك نوافذ صغيرة مناسبة فى المشربية يمكن فتحها إذا رغب أصحابها فى ذلك. وليس جميع نساء القاهرة الجميلات ممن يدعن المارة يمشون فى الطريق دون أن يأخذهن الزهو بأنفسهن فيفتحن النوافذ ليرى هؤلاء المارة أنهن جميلات حقا.

وفى بعض تلك الحارات الضيقة نجد أنفسنا أمام مدخل دار يعلوه قوس؛ وهنا

تنزل من على الحمار وتقيده فى حلقة قريبة . والباب الذى تقف أمامه خليق بالدرس فى حد ذاته . فالجزء العلوى منه تحيطه النقوش العربية التى يتكون من مجموعها مربع مزركش فى أعلاه . وهذه الزخارف تكسب الباب فى العادة صورة بديعة رائعة إذا قيست بالأبواب القديمة . وفى بعض الأحيان نجد على الباب الخشبي نفسه بعض النقوش العربية ، وقد نقش عليه « الله الخالق الصمد » لتبعد المرض والشياطين وعيون الحسّاد ، وتذكر ربّ الدار بالموت كلما عاد إليه . وليس هناك ناقوس ، لأن النبى قد أعلن أن الناقوس آلة الشيطان الموسيقية ، وأنه لا يمكن أن تكون هناك ملائكة فى مكان به ناقوس . وفى بعض الأحيان لا يكون للباب حلقة فنضطر إلى قرع الباب بيدنا أو بعصا . وفى العادة قد يستمر القرع بعض الوقت حتى يسمع سكان المنزل ، وهذه بلاد لا يعرف من عليها للعجلة أو للإسراع أى معنى . ألم يقل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إن العجلة من الشيطان ؟ وعلى هذا فاننا نسير على وفق ماجرت عليه الأمور فى هذه البلاد ، ونواسى أنفسنا بتلك الآية الكريمة التى تقول « إن الله مع الصابرين » ، وفى نهاية الأمر نسمع صوتاً غريباً من الناحية الأخرى . إنه بواب الدار قد أخذ يحاول معالجة الباب ، فهو يحمل قضيباً صغيرا به أسنان نحاسية مرتبة ترتيبا خاصا ، ويحاول أن يدخله فى ثقب فى طرف المتراس ، ومن هذه يتكون القفل والمفتاح فى القاهرة .

وفى داخل الدار ممر ينعطف فجأة بعد خطوة أو خطوتين ، ويحول دون مشاهدة أى شىء فى الداخل وأنت بالباب الخارجى . وفى نهاية هذا الممر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر للمياه المالحة فى أحد الأركان الظليلة . وفي أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز . وفى هذا المكان لا نتلمس دليلا على أن ثمة حياة . فالأبواب مغلقة فى إحكام إمعانا فى الغيرة والحذر ، والنوافذ تحجبها تلك الستائر الخشبية البديعة التى تروق عين الفنان ، وتغرى الكثير من الغواة باقتنائها . والفناء الداخلى لا يقل فى هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التى تطل على الشارع نفسه . وهنا لا نرى أية علامة لحياة هؤلاء السكان المنزلية . لأن غرف النساء منعزلة تماماً عن هذا الفناء ولا تطل عليه ، إنما تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلى ذلك . والواقع أن هذا المكان الهادىء منعش جداً حينما يأوى إليه المرء بعد

أن قاسى الكثير من الجلبة والصخب فى الشارع . حينئذ يشعر المرء أن المهندسين المصريين قد أدركوا لحسن الحظ ماتقتضيه الحياة فى الشرق . فهم يجعلون الشوارع ضيقة ، ويظلّلونها بالمشربيات البارزة حتى لا تصل أشعة الشمس المحرقة إليها ، كما هو الحال فى شوارع المدن الأوربية الواسعة ، حيث تستطيع أشعة الشمس أن تنفذ إلى هذه الدور ، ولكنهم يجعلون المنازل نفسها فسيحة الأرجاء ، ويحيطونها بالحدائق والأفنية ، لأن حرارة الشمس لا تطاق فى الغرف فى أثناء الصيف ما لم يتخللها الهواء . إن فن المهندس الشرقى يتلخص فى أنه يبنى لك منزلك بحيث لا تستطيع أن ترى شيئاً من خلال نوافذ جارك ، وبحيث لا يستطيع جارك فى الوقت نفسه أن يرى شيئاً مما يدور خلف نوافذ منزلك . والطريق الواضح للوصول إلى هذه الغاية ، هو أن تكون الحجرات بحيث يحيط بها فناء واسع فسيح الأرجاء ، وأن تكون النوافذ محتجبة بالستائر الخشبية المتشعبة التى تسمح لقبس ضئيل من النور أن يدخل ، وتدع قدراً وفيراً من الهواء يتخلل أجزاءها ، كما يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يرى الغرباء من المارة ما بداخلها ، والستائر الخشبية والفناء المنعزل من شأنهما أن يعملا على تحقيق ذلك النظام الذى يحتمه الإسلام بفصل الجنسين بعضهما عن بعض .

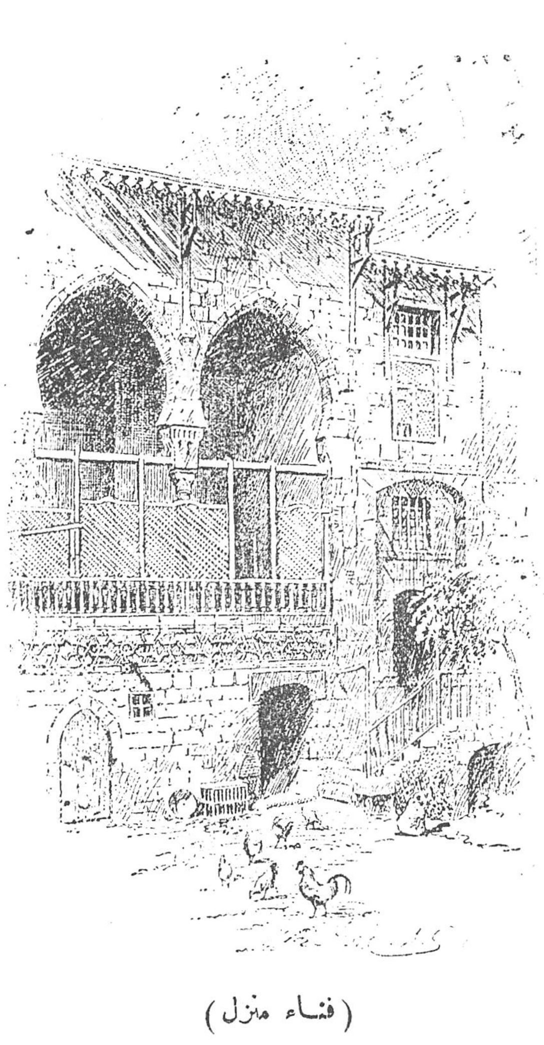
والحجرات السفلى التى تواجه أبوابها الفناء مباشرة ، وهى تلك الحجرات التى يستطيع الشخص أن يمشى فيها آمنا ولا يخشى أن يرى وجها لأية امرأة فى البيت . وإلى إحدى تلك الحجرات السفلى يتقدمنا مضيفنا ، طالبا إلينا فى أدب جم أن نوليه الشرف بأن نظهر كما لو كنا فى بيوتنا الخاصة . إنها حجرة الاستقبال ، أو المنظرة ، وهى بمثابة أنموذج لما ينبغى أن تكون عليه الغرف فى العادة . والجزء الذى ندخل منه فى الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء . وإذا كان المنزل أنيقاً حقاً ، فإننا نجد هذا الجزء المنخفض مغطى بالرخام المصنوع من الفسيفساء ، وفى وسطه نافورة تعمل على تبريد الهواء . وبإزاء الباب نجد قطعة مسطحة من الرخام محمّلة على أقواس ، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدى .

ونحن نخلع أحذيتنا الخارجية ونتركها على الجزء الرخامى من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المغطى بالبسط ، وهنالك تجد الأرض مغطاة ببسط من الصوف الخشن ؛ كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة « ديواناً » منخفضاً . وفى الحائط

الخلفى مشربية بداخلها وسائد مريحة ، وبأعلاها نحو من ستة من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون ، ومن حولها إطار من الطلاء ؛ فتكون بذلك على شكل زهرة . وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الضوء فقط بأن يمر من خلالها : أما الجانبان الآخران فطليان بالجير ، وليس بهما خشب أو قرميد ، بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقـــدة . وعلى جانبي كل صوان من هذه الأصونة كوة صغيرة مقوسة ، وفي أعلاه رف وضعت عليه الأطباق المزخرفة والأوعيـــة وغيرها من أدوات الزينة المنقوشة. أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة فى جذوع ضخمة ، ولونه فى العادة أحمر قاتم ؛ غير أنه فى البيوت القديمة نجد فى السقف غالباً بعض النقوش الجميلة ، ولا نجد فى الحجرة مناضـــد أو كراسى أو مدفئات أو أى شىء من الأثاث الذى يعرفه الأوربى . وحينما يحين وقت الطعام ، يحضر خوان صغير مستدير . وإذا كان الجو بارداً قدم موقد أوقد فيه فحم الخشب . وبدلا من الكراسى نجد القاهرى يضع رجليه من تحته على الديوان ويجلس القرفصاء ـــ تلك الجلسة التى إذا فكر الأوربى فى أن يجلس مثلها أصيب بتشنج فى الأعصاب .

وهناك فى أغلب الأحيان غرفة استقبال أخرى مرتفعة عن الأرض ، ولا بد للوصول إليها من أن نصعد بضع درجات من الفناء الذى تطل عليه الغرفة من خلال واجهة مفتوحة ومقوسة . كذلك نجد فى العادة منخفضاً فى الفناء تحت إحدى الحجرات العليا به ديوان يمكن الجلوس عليه حين يشتد الحر . ومن الفناء باب يطل على الدرجات التى تؤدى إلى غرف الحريم . وهنا لا يستطيع أى رجل أن ينفذ منه اللهم إلا رب الدار . وكلمة « حريم » معناها محرّم على الرجال الآخرين ومحلل للسيد نفسه . وغرف الحريم هى الجزء المخصص للأسرة من الدار ؛ هناك يجد الرجل نفسه وسط أسرته حينما يعود إلى منزله طلباً للراحة من عناء عمله .

وإنه لمن العسير عليك حقاً أن تحاول إقناع البوّاب بأن يستدعى لك سيده فى تلك الفترة مهما كان الأمر الذى جئت من أجله إلى هناك . وفى جناح الحريم تجد فى العادة حجرة كبيرة للجلوس تشبه المنظرة تسمى « القاعة » ، وكثيراً ما تكون هناك قبة فى أعلى هذه القاعة . وأمام القاعة دهليز يستخدم للتهوية ، إذ أن الستارة



(فناء منزل)

التى تتدلى من فوق مكان مفتوح فى سقف هذه الحجرة ، تحول نسمات الريح الشمالية الباردة وتدفعها إلى داخل المنزل حين يشتد الحر . وهنا كثيراً ما ينام أفراد الأسرة خلال فترة الصيف .

وليس فى المنزل الإسلامى حجرات خاصة للنوم ، أو على الأخص حجرات بها أثاث للنوم كما هو معروف عندنا الآن . ذلك أن هناك حجرات كثيرة منفصلة يمكن أن ينام فيها أهل البيت ، ولكن لم تكن أى واحدة من هذه الحجرات قد أعدت لتكون خاصة للنوم أو أن بها أثاثا خاصاً به . وكل مايلزم القاهرى فى أثناء الليل حشية ومخدة ، وربما احتاج الأمر إلى بطانية فى الشتاء وناموسية فى الصيف . وكل هذه الأشياء يطويها فى الصباح ثم يودعها فى خزانة خاصة أو فى حجرة جانبية . وعند ذلك تتحول حجرة النوم فجأة إلى غرفة للجلوس . وثمة جانب آخر هام فى جناح الحريم هو الحمام ، وهو ليس عبارة عن حجرة خاصة بها مغسل للاستحمام مثبت فيها ، وإنما يتكون من عدة حجرات بعضها فى داخل بعض؛ وهذه الحجرات مصنوعة من الحجر الذى يسخّن بطريقة خاصة معقدة . وهذا الحمام أشبه ما يكون بالحمام التركى العام . وهو ليس إلا بيتاً كبيراً يتمتع بهذا الترف ؛ ويخرج أكثر الناس إليه للاستحمام إذا أبدوا ثمة اهتماماً بالاستحمام .

ويعيش سكان مثل ذلك البيت الذى وصفناه على وتيرة واحدة تثير الكآبة والملل . غير أنهم لحسن الحظ قلما يشعرون بأن حياتهم خاوية موحشة . فإن رب البيت يستيقظ مبكراً جداً ، لأن المسلم لابد أن يؤدى صلاة الفجر . وكل ما يطلبه قبل أن يتناول طعام الإفطار ـ الذى يكون خفيفاً فى العادة ـ هو الشيشة وقدح من القهوة قبل وجبة الغداء الخفيفة . وهو عادة يدخر شهيته للطعام للوجبة الأساسية التى يعتمد عليها ، وهى وجبة العشاء التى يتناولها فى العادة حالما تغرب الشمس . أما إذا استلزم منه عمله أن يتغيب عن المنزل يوماً أو بعض يوم ، فإننا نراه يباشر عمله فى محله ، وهو يدخن بلا انقطاع تقريبا ، إما اللفيفة التركية التى اخترعت حديثا أو الشبك التقليدى ذا الفم البديع المصنوع من العنبر ، والجذع الطويل المصنوع من شجر الكرز ، والجفنة من الفخار الأحمر المملوءة بالطباق الخفيف الجبلى . أما إذا لم يكن لديه عمل خاص يشغله ، فإنه يروح عن نفسه بزيارة أصدقائه ، أو بالجلوس ساعات طويلة حالمة فى ذلك الجو الدافىء فى الحمام العام ، حيث البخار المتصاعد من

الأحواض التى يغلى فيها الماء ، وارتخاء المفاصل عند تدليكها ، وما يتلو ذلك من الاستراحة التى يتخللها الترطيب والتدخين وشرب القهوة — كل هذا له لذته الفائقة فى الجو الحار. وإذا كان الرجل على جانب من الجاه أو المركز فلا يمكن أن يمشى على قدميه على الإطلاق ، بل إنه فى العادة يركب حمارا ، أو حصانا فى بعض الأحيان . غير أن الحمار أكثر ملاءمة فى الشوارع المزدحمة . وفى الواقع إننا نجد فى الحمار المصرى الأصيل حيوانا بديعا قد يصل ثمنه فى بعض الأحيان إلى مائة جنيه . فخطواته سريعة ومريحة فى نفس الوقت . وليس من الصعب أن نكتب خطابا على قربوس سرج أحد هذه الركائب الحسنة المشية .

وبينما يكون رب البيت فى مقر عمله أو فى إحدى زياراته ، نجد نساء المنزل يعملن لتمضية الوقت فى أحسن صورة ممكنة . وعلى الرغم مما هو شائع فى كل مكان ، فإن المسلم قلما يتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، ولو أنه قد تكون له فى بعض الأحيان علاقات أخرى مع فتاة حبشية أو جارية أخرى . ومع ذلك فإن جهوداً كثيرة تبذل الآن فى سبيل مكافحة تجارة الرقيق ، وإذا ما تمخضت هذه الجهود حقاً عن نجاح تام فى القضاء عليها ، مع أنها مباحة شرعاً ، فإن القاهرى لن يتزوج بأكثر من واحدة . وكان الخديو السابق نفسه قدوة حسنة فى هـــذه الناحية ـــ شأنه فى ذلك فى غيرها من النواحى . والواقع أن هناك كثيراً من المسلمين لهم مثل أخلاق المسيحيين فى هذه الناحية . وسهولة الطلاق هى مشكلة المشاكل . حقيقة إن الرجال لن يحتفظوا بزوجات عدة، لأن هذا من شأنه أن يكلفهم الكثير فى الإنفاق على منازل منفصلة أو منزل واحد ذى غرف متعددة . هذا إلى أن تعدد الزوجات لا يؤدى إلى الانسجام المنزلى . غير أن الواحد من هؤلاء لا يتردد فى أن يطلق زوجته إذا تطرق إليه الضجر منها ، ويستبدل بها زوجة أخرى جديدة تحل محلها . ولقد قيل إن الخليفة عليا استطاع أن يتزوج ويطلق مائتى امرأة فى حياته ، بل إنه حدث فى بغداد أن ارتفع هذا الرقم العجيب على يد أحد رجال الصباغة فيها إلى رقم أعجب منه ، إذ تزوج تسعمائة امرأة ؛ وقد توفى هذا الرجل فى سن الخامسة والثمانين. ولو أنه تزوج فى سن الخامسة عشرة لكان زواجه قد أصبح بمعدل مرة فى كل شهر طوال فترة السبعين سنة التى قضاها فى الزواج . لقد كان الطلاق عند هذا الرجل من السهولة بحيث إنه لم يكن يرى أى ضير فى الزواج من تسعمائة امرأة . ولقد قيل

كذلك إن امرأة تزوجت من أربعين رجلا ، وإنها خففت من متاعب الاحتفال بزواجها إلى أقل حد ، وإن ابنها قد تملكه الألم حينما حار فى التعرف على أبيه . ولم يكن أحد أمراء الصعيد فى مصر بأقل من هؤلاء فى هذا المضمار ، غير أن تلك العادة قد أمست فى طريقها إلى الزوال[١].

ولعلنا نلتمس للنساء فى هذه الناحية عذرا أكبر من الرجال . فبينما يستطيع الزوج أن يسعى وراء سعادته هنا وهناك ، إذا بالمرأة لاتغادر المنزل أو تنحرف عنه بل تعيش عيشة مملة على وتيرة واحدة . حقيقة إنه قد يحدث فى بعض الأحيان أن تجتمع النساء فى الحمام العام ويأخذن فى الضحك والمرح ؛ وإن الصيحات التى تنبعث فى أثناء الضحك تحمل الدليل على روح المرح التى تتميز بها الفتاة المصرية . وقد تخرج السيدة أحيانا فى جلال وأبهة لتزور بعض صديقاتها ، فتركب حمارا كبيرا وترتدى ملاءة واسعة من الحرير الأسود ، وتحجب وجهها عدا عينيها ، بحجاب أبيض اللون، وهى تسير ، ويرافقها خادم أمين . وهذه الزيارات التى يتبادلها الحريم هى كل ما تظفر به المرأة القاهرية من مباهج وسرور . هنالك تسمع ثرثرة لا حد لها ، كما تشاهد ألوان الحلوى وتتفقد أدوات الزينة . وفى بعض الأحيان قد تشاهد هناك مغنية أو راقصة . هذا هو كل مايدخل عليهن السرور . وليس لأولئك النسوة ثقافة من أى نوع ، وهن لا يستطعن أن يعرفن من المتع العقلية أكثر مما تقدره حواسهن ؛ فالمأكل والملبس ، والحديث ، والنوم ، والجلوس على الديوان ساعات طويلة ، والاستغراق فى الأفكار والأحلام ، ومحاولة إرضاء الزوج وكسب محبته وقصرها عليهن — كل هذه هى عناصر الحياة فى « الحريم » . ولقد سألت امرأة إنجليزية إحدى المصريات كيف تمضى وقتها فأجابت : « إنى أجلس على هذه الأريكة؛ فإذا ما انتابنى الملل أو التعب نهضت لأجلس على تلك » . والتطريز والوشى من الأشغال التى قد تشغف بها النساء ، غير أنه ليس ثمة امرأة تفكر فى أن تشغل وقتها فى حديقة الأزهار الملحقة بمنزلها فى الغالب . والواقع أن الحور الجميلات اللاتى نتخيلهن وراء النوافذ الخشبية لسن من هذا النوع من النساء اللاتى يشغف بهن المرء كثيرا أو يلذ له التحدث إليهن . فهن لايجدن معرفة أى شىء ، ولا يفكرن فيما يدور حولهن فى قليل أو كثير . وكل ما هنالك أنهن — أو على الأصح قليل منهن — جميلات وحسب .

(١) تركنا هذا الكلام على سبيل التفكه والتندر .

والواقع أن النساء المصريات لا يجرؤن على الظهور أو المباهاة ، وهن يتلقين تلك النظرة الوضيعة التى ينظر بها جميع المسلمين إلى النساء . فالرجال فى الشرق يدينون بمبدأ ظلم المرأة واحتقارها ولا يحيدون مطلقاً عن هذا المبدأ الذى هو جزء من دينهم . ألم يقل النبى مامعناه : اطلعت فى الجنة فإذا أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فإذا أكثر أهلها النساء ؟ وفوق هذا ، أليست المرأة الأولى خلقت من ضلع عوجاء ، فإذا حاولت تقويم هذه الضلع كسرتها ، وإذا تركتها وشأنها كان لابد أن تستمر على اعوجاجها ؟ وفضلا عن هذا وذاك ، ألم يرو لنا أن الشيطان حينما سمع أن هناك امرأة قد خلقت فى الجنة ضحك مبتهجا ثم قال مامعناه : « إنك نصف مضيفى ، ومستودع سرى ، وسهمى الذى أصيب به ولا أخطىء ؟ » . وعلى ذلك فليس مما نعجب له كثيراً أن ينصح أحد الفقهاء واحدا من تلاميذه ، فيطلب منه قبل أن يقدم على أى عمل خطير أن يستشير عشرة من أصدقائه المخلصين ممن يعهد فيهم الذكاء . أما إذا لم يكن له سوى خمسة فقط من أمثال هؤلاء الأصدقاء الذين تتوافر فيهم هذه الشروط ، فليستشر كل واحد منهم مرتين . أما إذا لم يكن له غير صديق واحد ، فعليه أن يستشيره عشر مرات فى عشر زيارات مختلفة . ولكن إذا لم يكن له حتى هذا الصديق الواحد ، فليعد إلى منزله ويستشير زوجته ، وكل ماتقوله له فليعمل بعكسه : وبمثل هذه الطريقة يسير قدما فى قضاء حاجاته ويصل إلى غايته . وقد اتبع المسلمون نصيحة هذا الأب الورع وعاملوا النساء على أنهن مخلوقات أقل منهم شأنا — مخلوقات وإن كان لها أهميتها ، فهى على الأقل أدوات للزينة ، ولكن مما لاشك فيه أنها ليست جديرة بأى احترام أو تبجيل . ومن ثم فإنهم قلما يعلمون بناتهم . وهم إذا أرادوا الزواج لا يطلبون فى زوجاتهم غير الجمال والطاعة ، ثم يعاملونهن على أنهن لعب لطيفة تستخدم فى اللعب ثم تكسر فيلقى بها ، أو على أنهن وسيلة من وسائل الاقتصاد الاجتماعى : ينجبن أطفالا ، ويرعين شئون المنزل .(١)

ولعل أكثر مايلطخ جبين المجتمع الإسلامى هو احتقار المرأة على تلك الصورة ، التى هى أبعد ما تكون من تلك النتائج الحسنة للعقيدة الإسلامية التى تنادى بالمساواة

(١) انظر كتابى Cairo Sketches (Virtue, 1897), 120, 140.

بين جميع المؤمنين أمام الله ، وحرية التصرف واستقلال الرأى كما يدل عليه معنى الإخاء فى شريعة الإسلام المقدسة . وقد تكون الصورة التى قدمناها للحياة اليومية للرجل القاهرى قائمة إلى حد كبير ، وعلى ذلك فإن علينا أن نلاحظ صاحبنا التاجر فى لهوه ومسراته حين يتبين لنا ذلك الجانب الأكثر وضوحا من حياته . حقيقة أن هذه المباهج والمسرات تتقيد تقيدا شديدا بالدين . ولكن هذا هو الحال أيضا فى عطلات الكاثوليك . فإذا ما أراد أحد الأشخاص أن يرتكب مايشين ، فإن عليه أن يرتكبه تحت كنف أحد القديسين ، وبذلك يتخلص من وخز الضمير. ولكن المسلم فى العادة يبتهج ابتهاجا لا حد له فى الاحتفالات الدينية ، وإنك لترى كيف أن احتفالات العرس يتلى فيها القرآن من أوله إلى آخره ؛ وأى عريس ذو مقام لا بد أن يعمل على إجابة مثل هذا الرجاء لأصدقائه المدعوين . وإذا ما أراد الناس فى القاهرة أن يلهوا ، فإنهم يذهبون لزيارة قبور أقاربهم المتوفين ، ثم يجلسون فى منازل خاصة أعدت لاستقبال المعزين ، وهناك يستمع الجميع إلى تلاوة القرآن .

ومهما يقال عنا معشر الانجليز من أننا نكون مكتئبين على الدوام أثناء لهونا ، فإنه حتى ذلك الجمهور الذى اعتاد أن يشاهد مسرحيات إبسن Ibsen ، سوف يقف مدهوشا أمام تلك الاحتفالات الإسلامية . والمسلم فى احتفالاته قلما يفكر فيما يقدمه من ألوان مختلفة . فعلى حين لا يوحى عيد القديس سمعان والقديس يودا عليه بأى مرح للرجل الإنجليزى العابس ، تجد الرجل القاهرى يتمتع بأعياده الدينية إلى أقصى الحدود بطريقته الرزينة الهادئة المعروفة . وتلك الأعياد جد كثيرة . و«المولد» فى القاهرة ليس احتفالا يستغرق يوما واحدا كما هو الحال فى الأعياد المسيحية ، وإنما قد يمتد فى بعض الأحيان إلى تسعة أيام . وكل سائح زار القاهرة لا بد أن يعرف بعض هذه الأعياد . من ذلك الاحتفال بالكسوة الشريفة ، ومرور المحمل بقافلة الحجاج إلى مكة . هذه المشاهد جديرة بأن يراها كل منا . إذا تصادف وقوعها فى موسم السياحة . فالسنة الهجرية لا تزال تسير وفقا للتقويم الذى يعتمد على القمر ، والذى لم يتم إصلاحه حتى الآن . فهذا التقويم من شأنه أن يتغير فيغير معه الأعياد كلما دار الفلك دورته . والواقع أنه قد يندر أن يمر أسبوع واحد دون أن يكون هناك عيد أو احتفال : وقد يكون ذلك العيد يوم عاشوراء (أى اليوم العاشر

من شهر المحرم أول شهور السنه الهجرية) ، حيث يأكل الناس الكعك احتفالا بذكرى « الحسين » الابن الشهيد لسيدنا على ، ويتوجهون إلى جامع الحسنين حيث دفن رأس الشهيد كما يزعمون ، ويشاهدون التمثيل الهزلى العجيب الذى يقوم به الدراويش . ويتكون من اسم حسين هذا واسم أخيه الأكبر حسن ، اسم «الحسنين» الذى تقدم ذكره . والحسين هذا بنوع خاص أهم أولياء العجم الشيعيين . ثم إنه كان السبب فى كثير من الانشقاقات والاختلافات التى حلت بالعالم الإسلامى . ومن الغريب حقا أن يكون القاهريون — ومعظمهم من السنيين — ممن يهتمون بهذا العيد ويولونه مثل ذلك الاحترام والتبجيل . ولكن الحقيقة أنهم يتذرعون بأى عذر ويرجعون به ما دام يؤدى ذلك إلى منحهم عطلة . وفوق هذا ألم يكن سيدنا الحسين هذا حفيد النبى ﷺ ؟ وهل يليق أن يترك لأولئك الملاحدة من كلاب الشيعة ؟ ومهما يكن من أمر الحسين هذا ، فإن مما لا شك فيه أنه ينال حقا من الاحترام والتبجيل فى القاهرة ، وأن الاحتفال بمولده من المشاهد التى يسر لها السائح الأوربى كثيراً . فليس هناك فى الواقع أبهج ولا أروع من تلك المناظر التى نشاهدها فى شوارع القاهرة وأسواقها فى ليلة الحسنين الكبرى . والشىء الغريب حقا أنه فى إحدى ليالى الشتاء وبعد موقعة التل الكبير ، حينما كنت واقفا — لأن الركوب كان إذ ذاك متعذرا — وسط جمع محتشد غفير فى شارع الموسكى ، وجاهدت لأشق طريقى إلى ذلك الزقاق الذى يؤدى إلى بيت القاضى ومسجد الحسنين — أقول إنه من الغريب حقا أنى لم ألاحظ هناك أية روح سيئة أو تعصب ، على الرغم من وجود كثير من الأوربيين فى ذلك الوقت . والحق أن مثل هذا الجمهور الطيب النفس ليس له نظير . فلقد كان أقل ما يمكن أن نتوقعه أن يحدث شىء من الاحتجاج على الأوربيين الذين كانوا يجتالون فى الطرقات البهيجة المزدانة بالأنوار فى ليلة عيد . ولكنك بدلا من هذا كنت تجد النساء الإنجليزيات يتخللن الأسواق ، والضباط الإنجليز والسائحين يختلطون بالجمهور ، بل إنهم بلغوا فى بعض الأحيان أبواب الجامع المقدس نفسه دون أن يمسهم أحد أو يبدى لهم أدنى مضايقة بل أقل ملاحظة . وفى بعض الأحيان قد تشاهد سيدة مصرية وهى تدعو بعض المسيحيين فى شىء من التهكم والسخرية وتطلب منه أن « يصلى على النبى » . وقد تذهل السيدة المصرية حينما يجيبها المسيحى بقوله « اللهم صل عليه » . على أنه إذا لم يعرف ذلك الأجنبى

كيف يجيب عن مثـــل هذه الأسئلة إجابة صحيحة ، فلن ينتج عن ذلك ضرر على الإطلاق ، فإن طيبة القلب والطبيعة السمحة التى توحى بهـا مثل تلك الأعياد عما ينسى ذكرى الحرب أو البدع الدينية ، ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك جمهور إنجليزى يعتمد عليه ويوثق به يستطيع أن يسلك مثل هذا المسلك البديـع مع وجود أقلية غير مرغوب فيها معه .

ولما انحرفت فى أحد أزقة خان الخليلى الكبير — أوالبازار التركى الذى يواجه جامع الحسنين — كان ذلك المنظر يشبه إحدى صور «ألف ليلة وليلة » . فقد كان البازارالطويل مضاءاً بالشموع والمصـــابيح الملونة التى لا حصر لها ، ومغطى بسرادقات مصـــنوعة من الشيلان والأقمشة المزركشة . وإنك تستطيع أن تتبين من خلال قطع الخيام المنازل المعتمة غير المضاءة ، فتعجب للتناقض الغريب بينها وبين البهجة الموجودة فى أسفلها . أما المحال التجارية فقد تغيرت تماماً ، فلم تعد ترى هناك تلك السلع التى كانت مبعثرة هنا وهناك . كما اختفت تلك الصينيات التى كانت تحمل شتى الخناجر والخواتم والملاعق وما إلى ذلك . بل إنك لتجد كل متجر قد تحول إلى غرفة استقبال أنيقة . كما تجد الجوانب والسقف كلها مغطاة بالحرير والكشمير والديباج والقطيفة والأقمشة الفاخرة الموشاة المعدومة النظير ، وعلى الجملة بكل ما لم يكن المشترى ليراه فى أى يوم من الأيام العادية . وبالاختصار فإن جوانب البازار قد تألفت منها كتلة متوهجة براقة من الذهب والضوء والألوان الزاهية . وبداخل كل متجر تجد صاحبه جالساً ، يحيط به نخبة من الأصدقاء على شكل نصف دائرة ، وقد ارتدى أفخر ما عنده . أما صاحبنا التاجر فقد تناهى فى النظافة والأناقة ، ملازما جانب الأدب . ذلك أن التاجر القاهرى يظهر دائماً بمظهر الرجل الكريم الأصل ، حتى حينما يغشّك بطريقة تثير غضبك . إن ذلك الرجل الذى كنت تتساوم معه فى شدة وحرارة فى الصباح ، سوف يدعوك الآن فى أدب زائد لأن تجلس وتدخن معه . وإلى جانبه منضدة صغيرة من العاج أو الصدف ، يأخذ منها زجاجة بها شراب حلو الطعم مع عصير اللوز أو الورد ، ويقدم إليك منها فى لطف زائد وأدب جم .

وإنك لتستطيع وأنت جالس فى هذه العزلة أن تشاهد تلك الجماهير المحتشدة وهى تندفع وتتزاحم ، حتى إنه ليخيل إليك أن سكان القاهرة بأسرهم قد تجمعوا

فى ذلك المكان . ثم إنك تلاحظ أن كل واحد منهم قد ارتدى أحسن ما عنده ، فبدا أنيقا نظيفا تبدو عليه سيمى الفرح والبهجة . وعلى حين غفلة تسمع أنغام المزمار وقرع الطبول تنبعث من كل مكان . وهناك تجد جماعة تتغنّى بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام وبسيدنا الحسين على السواء ، وهى تجوب الطرقات وتخترق الجماهير المحتشدة وقد أخذت البهجة منهم كل مأخذ . وعلى اليسار تجد محلا صغيراً جلس فيه أحد القصّاصين البارعين يروى بطريقة تمثيلية قصة محببة إلى ذلك الحشد الذى التف من حوله مأخوذاً بسحر القصة وروعتها . وهناك بالقرب منه تجد أحد رجال الدين وقد انهمك فى التلويح برأسه وهو يردد اسم « الله » جل شأنه أو بعض الآيات القرآنية المؤثّرة . وفى مكان آخر تشاهد جماعة من الدراويش وهم يذكرون أو ينشد بعض القوم المتعبدين القرآن بأكمله . ومن المؤكد أن مثل هذا المشهد غير حقيقى وأنه مبالغ فيه . فنحن نستطيع أن نتصور أنفسنا فى بلاد الجن أو فى مدينة النحاس وليس فى مدينة القاهرة أو فى القرن التاسع عشر .

وإذا ما خرجنا من الخان ، وجدنا أناسا كثيرين يتدفقون إلى جامع الحسنين ، حيث تحدث مشاهد مروعة تقام خصيصا من أجل تلك الذكرى . ولا بد من أن يجول كل فرد حول قبر الحسين . وعلى قيد بضع خطوات نرى بعض الرجال يدخلون إحدى الخيام . وإذ نتتبعهم لنرى ما خطبهم ، نشاهد فى الداخل بعض المشعوذين وقد انهمكوا فى عملهم فى غير انقطاع . كذلك نجد حصانا صغيرا يقوم ببعض الحركات ، وأحد المهرجين وهو يقوم بتقليد الرياضيين فى صورة تبعث على المرح وتثير الضحك فى كل مكان . وفى سرادق آخر نجد قرقوش يقوم بتدبير دسائسه . والواقع أن هذا الرجل الصغير السمين أو القراقوز المصرى يؤدى عمله خيرا مما يؤديه القراجوز الإنجليزى الذى يشبهه بعض الشبه . غير أنه لا يحسن انتقاء كلماته ، كما لا يراعى مسلكه وهو على تلك الصورة . ومن ثم نجد أنفسنا قد اضطررنا بعد قليل إلى مغادرة ذلك المكان حيث تأخذ النكات تلبس ثوب الخلاعة والمجون ، وحيث تبدأ الدواب فى لعبها والقيام ببعض الحركات الخاصة . غير أن الطبقات الدنيا قلما تعنى بأن تدرك ما فى ذلك من ضرر ، فنجد أفرادها قد أخذهم المرح حتى لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك على حركات قراقوش . وهم مهما رأوا ، وأينما ساروا ، ومهما قابلوا

من الناس ، ومهما يكن فقرهم وهمومهم الخاصة — كل ذلك لا يمكن أن ينال من طبيعتهم المرحة فى ليلة الحسنين المباركة .

ولعل أول ما يتميز به الجمهور المصرى أنه يمكن تسليته فى سهولة تامة . فإن أبسط المناظر وأقدم النكات تبعث فيه المرح والسرور . ويكفى أن نجعل الأوربى المدقق يأسف على ضبط نفسه ليرى كيف أن هؤلاء القوم البسطاء يدخل المرح قلوبهم من أقل شيء [1] .

هذا هو ما نذهب إلى القاهرة لنراه : الحياة الشرقية الحقيقية على صورتها الأصلية . وإن بعض تلك المناظر لأفضل بكثير من تلك المشاهدات البادرة أو ذلك الرقص الفاتر الذى يحدث فى الحى الأوربى حيث الفندق الذى تقطن فيه . حقيقة إنك تستطيع أن تجد فى القاهرة حياة الفنادق الهادئة ، أو حياة النوادى ، وعلى ألعاب البولو والتنس وحتى الجولف ـ كل ذلك تجده كأحسن ما يكون فى القاهرة الأوربية . غير أن هذه جميعها معروفة لدى جميع السائحين الذين يقدمون على مصر فى الشتاء . إنما تستطيع أن تجد شيئاً لا مثيل له فى حى الإسماعيلية حينما تذهب إلى السوق وتختلط بالناس . هنالك تجد الكثير مما يعشقه الرسام ومما يبعث على الخيال . ومهما يكن من شيء ؛ فإن أكثر الأشياء التى تكون فيها متعة لنا هى تلك التى تكون غير مألوفة لنا فى العادة . ونحن إذ ندخل مصر لأول مرة ، سرعان ما تكشف لنا هذه البلاد عن أفكار جديدة وألوان غريبة ، كما نشتم تلك الرائحة الخاصة التى تتميز بها الحياة القومية هناك .

وفى الأسواق أكثر من أى مكان آخر يمكن أن يجد الفرد كل ما هو غريب وغير مألوف لديه . ولكنك فى نفس الوقت إذا أردت أن تتشبع بروح المدينة الإسلامية الحق ، فعليك أن تتسلق أسوار القلعة حينما تأخذ الشمس فى المغيب ، ثم تمتع طرفك بما يكون تحتك وحواليك من مناظر رائعة . ومن سوء الحظ أنك ، لكى تستطيع الوصول إلى هناك ، لا بد من أن تمر من أكثر شوارع القاهرة

---

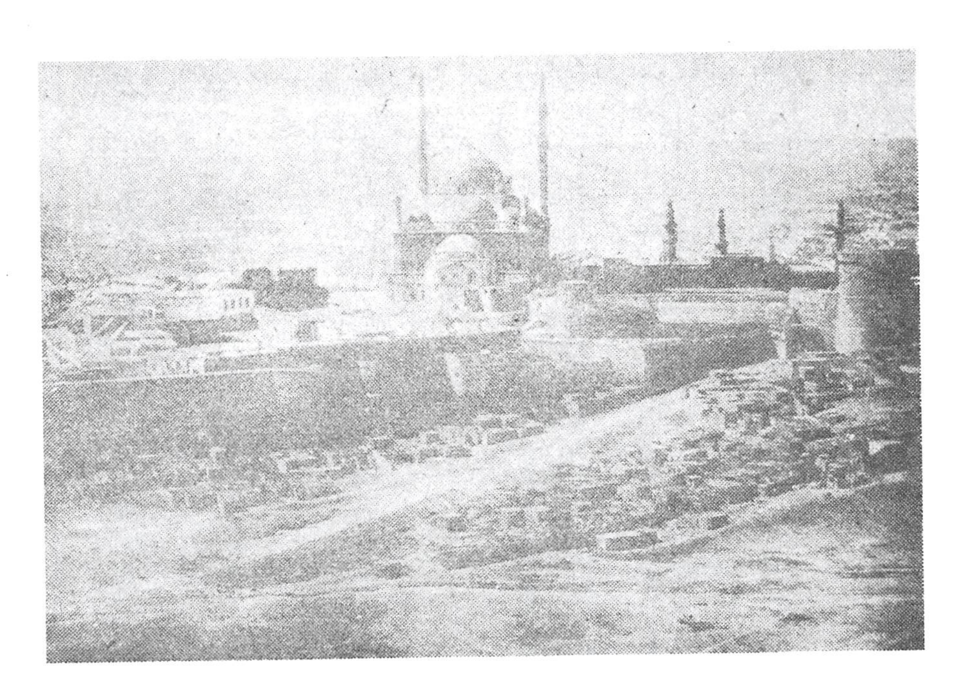
(١) انظر كتابى . Cairo Sketches, pp. 174 — 5

قبحا وتشويها . غير أنه لحسن الحظ أن هذا التهدم قد حدث — على ما أذكر مع الارتياح — قبل أن تتسلم انجلترا مقاليد الحكم فى مصر . ذلك أن إسماعيل هو الذى فتح شارع محمد على الذى يمر بأجمل أحياء القاهرة ، فهدّم قصورها وحدائقها ، وشطر نصف أحد الجوامع الشهيرة حتى يتمكن بذلك من أن يجعل هذا الشارع مستقيما ، ولو أن ذلك لاينم عن ذوق سليم . وعلى جانبى هـــذا الشارع تجد هناك مساكن ومكاتب حقيرة غير منتظمة ، لاهى بالأوربية ولا هى بحيث تستطيع أن تحتفظ بصبغتها الشرقية . هنالك تمتزج الخرز العتيقة بالمشروبات الحديثة ووضعت جنباً إلى جنب كذلك .

وإن هذا الامتزاج يتجلى لك فى وضوح حيث تشاهد مدرسة إسلامية تجاورها حانة أعدت لاستقبال رجال الجيش والبحرية . وبجانب جدار مسجد السلطان حسن تجد حلاقاً عربياً يقص للناس شعرهم بتلك الآلة الحديثة . كذلك تجد عربة للحريم مزركشة بالغة الروعة والبهاء واقفة أمام باب المسجد فى حراسة أحد الأغوات . ويمر الشيوخ الموقرون بهذه المناظر الغريبة جميعها دون أن يبدوا أية دهشة أو اهتمام . وفى الهواء تسمع دوى المدافع ينبعث من قلعة صـــلاح الدين . إنها تحية العيد الكبير ، عيد الأضحى . أما الجنود هناك فليسوا من الأتراك الأشداء ، ولا من الأكراد الغلاظ الجفاة ، وقد ارتدوا تلك الملابس البديعة وأمسكوا بأيديهم الرماح والصولجانات ، كأولئك الجند الذين دفع بهم السلطان العظيم إلى ريتشارد قلب الأسد ، وإنما هم جنود بريطانيون قد ارتدوا المـــلابس الكاكية بصورة لاتليق بأمثالهم . والقلعة ذاتها عبارة عن مستودع للأسلحة والذخيرة الحـــديثة . وهناك يحكم الضباط الإنجليز حيث كان يذبح البكوات المماليك فى يوم من الأيام . فالقديم والحديث فى نزاع دائم فى تلك القلعة التى يرجع عهدها إلى القرون الوسطى ، وتتولى الكتائب الخاصة حراسة جامع أحد سلاطين المماليك .

ولكنك إذا وقفت على أسوار هـــذا الحصن لم تعد ترى أى اختلاف أو تناقض ، وإنما تبصر من حولك كل ماهو شرقى صميم . فالصبغة الأوربية لم تعد هناك بحيث تضفى على الصبغة الشرقية . هنالك تجد الكثير من القباب والمآذن والأديار ذات القباب ، والمنازل المنبسطة الأسقف ، منها الأصفر والأبيض ، ومنها الأسمر . كذلك

تشاهد بقعا خضراء هنا وهناك ، يتخللها شجر الجميز العتيق ذو الأوراق القاتمة اليابسة التى تكشف عما كانت عليه حدائق المدينة القديمة . وفى الجهة المقابلة تشاهد صفوفا من النخيل ، وأخدودا من الفضة حيث يجرى ذلك النهر الطويل الصافى حالما بين ضفتيه القائمتين. وهناك فى الأفق ، وفى مواجهة مرتفعات ليبيا، حيث تأخذ الشمس فى المغيب فتترك من ورائها لونا أحمر قانيا ـ هناك تبصر الأهرام الخالدة . كذلك تشاهد المآذن الدقيقة وقد ارتفعت كثيرا عن مستوى القباب وسطوح المبانى الأخرى ، حيث تكوّن لنفسها عالما خاصا بها ، فيه الكثير من السحر والجمال . إن كل واحدة من هذه المآذن لها قصة جديرة بأن ترويهـا لنا ـ قصة انتصار أو انكسار ، أو قصة مجاعة أو غزو ، أو قصة ثقافة وزهد . وإذا ما اتجهت بنظرك شمالا إلى اليمين ، شاهدت مآذن جامع المؤيد البديعة من فوق باب زويلة . إن هذه المآذن لتذكرنا بمئات الأحداث والقصص، يختص بذلك الباب الذى كان فى يوم من الأيام المدخل الرئيس لقصر الخليفة، ووراء هذه المآذن ترتفع مآذن حىّ النحاسين، وهى أنموذج كامل للفن الإسلامى. ووراء هذه المآذن أيضا نشاهد بعض الأبراج، إنها أبراج جامع الحاكم . وأمام هذه الأبراج يقع جامع السلطان حسن ، أكبر وأعظم المساجد التى ترجع إلى عهد المماليك . وإلى اليسار قليلا يرى الناظر بروج وأروقة جامع ابن طولون الذى يطل على التلال التى تحيط به ، والذى يحمل إلى أذهاننا ذكرى مدينة الفسطاط التى قامت منذ ألف سنة . وإلى اليسار أيضا يوجد خط المنحنيات التى تدلنا على مكان هذه القناطر المقامة على أعمدة والتى امتدت إلى النيل لجلب ماء الشرب إلى القلعة زهاء خمسة قرون . وفيما وراء هذه القناطر نشاهد حشدا من القباب والمآذن المتهدمة فى مقابر المماليك جنوبى القرافة . كما نستطيع أن نلمح ذلك الحصن المصرى القديم ، وهو حصن بابليون ، وجامع عمرو . وإذ ننظر إلى الجانب الآخر من مآذن المماليك ، نستطيع أن نرى أكمة قاتمة من الحجارة هى بقايا هرم دهشور ، وصورة واضحة لهرم سقارة الذى يبعد خمسة عشر ميلا فقط عن القباب الإسلامية المتقدمة ، ولكنه يبعد عنها بخمسة آلاف سنة تقريبا . وإذ تأخذ الشمس فى المغيب ويبدأ الليل يرخى سدوله ، تتجمع السحب القاتمة فى الغرب ، فتلقى ظلالها على الصحراء الممتدة من تحتها ، مما يوحى إليك بأن هنالك محيطا جديدا قد انشق فى قلب إفريقية .



(القلعـــة)

وهنا نعرف القاهرة لأول مرة على أنها مدينة من مدن العصور الوسطى ، بل أكثر من هذا نعرفها كمدينة لها تراثها المجيد منذ فجر التاريخ . فنحن حين نطل من أعلى أسوار القلعة ، ندرك أن هناك محيطات أخرى غير تلك التى نعهدها زاخرة بالمياه ، وأن حاضرة مصر لا يمكن أن يكون لها حدود أنسب من الصحارى التى هى بمثابة الدرع الواقى لها ، والأهرام التى تعلن فى جلاء ووضوح عن أعمالها المجيدة التى تمت منذ أقدم عصور التاريخ . ولقد قال الإسرائيلى الحكيم : « من لم يشاهد القاهرة لم يشاهد الدنيا : فأرضها تبر ، ونيلها سحر ، ونساؤها حور الجنة فى بريق عيونهن ، ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، عطر كعود الند ينعش القلب . وكيف لا تكون القاهرة كذلك وهى أم الدنيا ؟ »

الباب الثاني

مدينة الفسطاط

المدن المتعاقبة — الفتح العربي — عهد الصحابة — مصر القديمة — بابليون والمقوقس — القبط — تأسيس الفسطاط — خطط القبائل العربية — جامع عمرو — حصن بابليون — كنائس القبط .

حينما نطل من القلعة نشاهد مدينة لها كل مميزات العصور الوسطى ، غير أنه من بين جميع المباني العربية لا نجد بناء واحدا في حالته الحاضرة يرجع إلى الفتح العربي . فقبل أن يغزو المسلمون مصر في سنة ٦٤٠ م لم تكن هناك مدينة تسمى القاهرة . وإن نحن توخينا الدقة ، فإن هذه المدينة لم يكن لها وجود في الواقع إلا بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون ، حين وضع القائد الرومى أساس المدينة التي اتخذها الخلفاء الفاطميون مقراً لهم، والتي أطلق عليها اسم القاهرة ، وهو الاسم الذي اشتق منه الأوربيون أسماء Cahere و Caire و Cairo . غيرأن هذه ليست سوى ألفاظ لا طائل وراءها إذ أنها لا تدل على شيء . وكما هو الحال في انجلترا فإننا نقصر اسم لندن London على المدينة نفسها ونأبى أن نطلقه على مقاطعة وستمنستر Westminster وميفير Mayfair . لقد كانت هناك حاضرة إسلامية منذ الفتح العربي ؛ وعلى الرغم من أنها لم تكن تسمى القاهرة ، كانت قريبة من المدينة الحالية التي لا تعدو أن تكون اتساعا للمدينة الأصلية . وتاريخ هذا النمو والاتساع سوف يتجلى لنا حين ندرس التطور الذي لحق هذه المدينة وآثارها . أما الآن فإنه يكفي مجرد الإشارة إلى تاريخ نشأتها وتطورها . فقد بنيت في بادىء الأمر المدينة العربية التي تسمى « الفسطاط » — أو مدينة الخيمة — في سنة ٦٤١ م . وفي سنة ٧٥١ م أضيف إليها حي في الشمال الشرقي ليكون مقرا للأمراء ومعسكرا لجيوشهم ، فسميت بذلك « العسكر » . وإلى الشمال الشرقي أيضا أضيف إليها ضاحية جديدة أو مدينة صغيرة بناها أول حاكم مسلم استقل بحكم مصر حول سنة ٨٦٠ م وهو

ابن طولون . وهذه المدينة تسمى « القطائع » لأنها كانت تنقسم إلى أحياء منفصلة كل منها يختص بشعب معين أو طبقة معينة . ثم لم تلبث هذه المدن الثلاث أن أصبحت مدينة واحدة من الناحية العملية ؛ فقد تحولت كل من « العسكر » و« القطائع » كما تحولت تشلسى Chelsea وسانت جيمس St. James إلى لندن — إلى الحاضرة التجارية وهى الفسطاط .

أما الخطوة الرابعة فى تطور هذه المدينة فتتلخص فى اتساع آخر نحو الشمال الشرقى أيضا . وقد تركت مساحة كبيرة بينها وبين القطائع — التى كانت قد تهدمت إلى حد كبير جدا — حتى يتوافر الأمن والعزلة للخلفاء الذين كان ينظر إليهم أنصارهم نظرة الاحترام والتقديس ، والذين بنيت هذه المدينة باسمهم سنة ٩٦٩ م . وكانت هذه المدينة الأخيرة هى القاهرة الحقيقية ، ولكنها لم تكن الحاضرة التجارية ولا مقرا للحكم كما كانت العسكر أو القطائع من قبل . وكانت الفسطاط — على ضفة النيل — لا تزال سوقا للتجارة ، كما كانت أكبر مدينة للثقافة والأعمال . أما القاهرة فإنها كانت بمثابة قصر فخم ، وثكنات للجنود ، ومقرا للحكومة . ويلاحظ أن مؤرخى العصور الوسطى من أمثال وليم الصورى William of Tyre حين يكتبون عن مصر — وكلمة مصر تستخدم فى اللغة العربية للدلالة على القطر المصرى وعلى الحاضرة على السواء — فإنهم لا يشيرون إلى القاهرة ، بل إلى الفسطاط ، أو كما كانت تسمى عادة « مصر الفسطاط » . ولقد كان الأمير أو الخليفة أو السلطان يختار أية ضاحية بينها لنفسه ويحكم منها ، ولكن الحاضرة القديمة تظل أهم هذه المدن حقا . هنالك كان القضاة يجلسون فى الجامع العتيق ليصدروا أحكامهم ، وهناك كانت تصك نقود الدولة ، وهناك أيضا كان يقيم عامة الشعب الذين لم يكن لهم اتصال بالقصر . ولم تصبح القاهرة الحاضرة الحقيقية ومركز الحكم فى مصر إلا بعد أن أحرقت الفسطاط عمدا فى سنة ١١٦٨ م لتخليصها خوفا من أن تقع فى أيدى الصليبيين .

وكان صلاح الدين الأيوبى هو منشىء القاهرة الحقيقى كما هو معروف . ذلك أنه هو الذى وضع تصميم السور الذى كان يحيط لا بالقاهرة وحدها ، بل بالقلعة أيضا وبما تبقى من مدينتى القطائع والفسطاط . ومنذ ذلك الوقت بدأت المبانى تقام

على ذلك الفضاء الذى كان يقع بين القلعه وقصر القاهرة ، والذى أخذ على مر الزمن يمتلىء بمبانى القاهرة التى نراها اليوم . وهكذا فإن نمو هذه المدينة يتكون فى الأصل من ثلاث مراحل من الاتساع نحو الشمال الشرقى . وكل من هذه الاتساعات المتعاقبة كان يتبعه بطبيعة الحال تهدم الأحياء والمناطق المهجورة . وتكتل الأماكن الآهلة بالسكان وانضمام بعضها إلى بعض . ومنذ أيام صلاح الدين الأيوبى اختفى تماما كل ماتبقى من مدينه الفسطاط ، ولم يبق إلا تلك القرية المتفرقة التى نراها على مقربة من موقع الفسطاط الأصلى وتسمى « مصر العتيقة » ، وتعرف عند الأوربيين باسم Old Cairo ، وهى ذلك الجزء الذى نستطيع أن نتتبع أثره إذا حاذينا أكوام القمامة الملقاة على جانبى الطريق . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد ثمة مدينة جديدة قد أقيمت بين القاهرة والنيل نتيجة لبعض المؤثرات الأوربية . غير أن هذه المدينة الشتوية الجميلة ليس لها أية علاقة على الإطلاق بمدينة العصور الوسطى .

وتاريخ غزو العرب لمصر غامض فى كثير من النواحى ؛ وهذا يرجع إلى أن العرب لم يبدءوا فى تدوين تاريخهم إلا بعد قرنين أو أكثر . وإن ماتركه يوحنا أسقف نقيوس — الذى يكاد يكون حجتنا المعاصر الوحيد — قد وصل إلينا فى ترجمة كتابه المحرفة . وقد دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص فى ديسمبر سنة ٦٣٩م ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين . وكان عددهم لا يزيد على أربعة آلاف مقاتل من الأقوياء . وبعد أن حاصر العرب الفرما وبلبيس وقاتلوا الروم فى حى أم دنين — وهى بالقرب من قصر عابدين الحالى - هاجموا مصر أو بابليون ، وكانت هذه المدينة الأخيرة امتدادا إلى الشمال أو اتساعا لمنفيس الحاضرة المصرية القديمة التى كانت لاتزال حتى ذلك الوقت ، ولكن فى شكل أطلال بالية . وكانت تبعد عن القاهرة الحالية باثنى عشر ميلا تقريبا ، وقد تم نموها تحت حماية حصن بابليون الرومانى . ومما لا مراء فيه أن الروم قد دافعوا عنها دفاعا شديدا ، حتى إن القائد العربى لم يجد بدا من طلب المدد حتى بلغ جيشه اثنى عشر ألفا قبل أن يتمكن من فتحها .

وقد قسم عمرو بن العاص قواته إلى ثلاث فرق ، وضع الأولى إلى الشمال من حصن بابليون ، والثانية فى تندونياس Tend unyas (ومن المحتمل أن تكون هذه هى

أم دنين التى تكلم عنها كتاب العرب) ، والثالثة إلى الشمال من هليوبوليس . وقصد بذلك أن يحمل الروم على الخروج من حصونهم فيطبق عليهم القسمان الآخران من المؤخرة . وقد نجحت هذه الخطة ، إذ خرج الروم من حصونهم وأخذوا يهاجمون المسلمين فى هليوبوليس ، حيث أطبقت على مؤخرتهم قوات عمرو ، فاضطروا إلى الفرار إلى النيل وألقوا بأنفسهم فيه. عند ذلك احتل المسلمون تندونياس التى أبيدت حاميتها فى المعركة ، ولم ينج منها إلا ثلثمائة رجل أغلقوا أبواب الحصن من دونهم وهربوا بالقوارب إلى نقيوس. وقد اقترن استيلاء العرب على تندونياس باستيلائهم على مدينة مصر كلها عدا القلعة التى أحاط بها العرب . ويذكر لنا يوحنا أسقف نقيوس — الذى نعتمد على تاريخه فيما نكتبه عن هذه الناحية — أن العرب لم يلاقوا أية مقاومة إلا حينما حاولوا الاستيلاء على الحصن . (١)

ومهما يكن من شأن مدينة مصر أو تندونياس ، فإنها قد اختفت تماما من عالم التاريخ بمجرد استيلاء العرب عليها . وآخر ما نسمعه عنها فى معاهدة الصلح التى أبرمها عمرو بن العاص ، وهاك نصها :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عمرو بن العاص أهل مصر ، على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأرضهم ومائهم ، لايدخل في شيء من هذا ولا ينقص ، وأن يسمح لأهل النوبة بأن يقيموا بينهم ، وإن أذعن أهل مصر للصلح فرضت عليهم الجزية خمسين ألف إذا هبط ماء نهرهم . وكل منهم مسئول عما يأتيه سراقهم من أعمال العنف . ومن لم يدخل فى هذا الصلح أدى ماعلى غيره من الجزية من تلقاء نفسه وتحت مسئوليته . وإذا نقص ماء النيل نقصت الجزية تبعا لهذا النقصان . ومن رضى من الروم والنوبيين بهـذا الصلح عومل كغيره من أهل مصر ؛ ومن أبى وأراد الخروج أمن على نفسه حتى يبلغ مأمنه أو ترك بلادنا . وستجمع الضرائب على أقساط ثلاثة كل ثلث منها على حدة. وعلىّ عهد الله وعهد رسوله وعهد الخليفة أمير المؤمنين ، وعهد المؤمنين . . . شهد على ذلك الزبير وولداه عبد الله ومحمد وكتبه وردان » . (٢)

---

(١) انظر كتاب History of Egypt in the Middle Ages, p. 4 للمؤلف .

(٢) نقل المؤلف هذه الشروط عن يوحنا أسقف نقيوس . ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى ما كتبه ابن عبد الحكم (كتاب فتوح مصر وأخبارها — القاهرة ١٩١٤ ص ٦٤ — ٦٥) والمقريزى (خطط جـ ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٣) .

ويربط المؤرخون العرب هذه المعاهدة — التى يظهر أنها وثيقة لها قيمتها — باستسلام مدينة مصر بعد موقعة هليوبوليس . ولكن لما كانت مصر يقصد بها القطر المصري كما يقصد بها الحاضرة ، فإن هذه الوثيقة نفسها إنما تثبت أن الفاتح العربى قد توخى الكرم والسخاء فى معاملته لأهل مصر . فهى لا تذكر شيئا واضحا صريحا عن مدينة مصر التى أصبحت تسمى بعد قليل الفسطاط ، على حين أن موقعها لم يعد يعرف بعد ذلك . إنما التفسير الوحيد الذى يبدو صحيحا هو أن المدينة المصرية قد أخذت أهميتها فى الضعف كلما أخذت المدينة العربية فى النمو ، وأن السكان كانوا يرحلون إلى الأماكن القريبة الأكثر رخاء من مدينتهم الأولى . وإن بقايا الأسوار المتهدمة جنوبى مصر القديمة يمكن أن تمثل جانبا من موقعها ، وإن اختفاء إحدى المدن المصرية له — لسوء الحظ — أكثر من سابقة . فمدينة منفيس نفسها قد اختفت اللهم إلا من بعض بقايا الجدران والتماثيل المتهدمة، ولم ينج من مدينة طيبة إلا معابدها . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن المصرى القديم كان يبنى مسكنه من الطوب المجفف فى الشمس الذى كان معرضا للتلف والتهدم بعد وقت قد يقصر وقد يطول . أما الأحجار الصلبة فلم تكن تستخدم إلا فى بناء مقابر العظماء ومعابد الآلهة الخالدين .

ومهما يكن من شأن التغيير الذى لحق المدينة التى نحن بصددها ، فإن حصن بابليون ما زال قائما حتى يومنا هذا . ولقد كلف حصار هذا الحصن العرب سبعة أشهر حتى تمكنوا من الاستيلاء عليه . فموقعة هليوبوليس قد كسبها العرب فى آخر صيف ٦٤٠ م ؛ ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على الحصن قبل شهر إبريل سنة ٦٤١ . ويرتبط استسلام هذا الحصن بشخصية غامضة هى شخصية المقوقس الذى دعاه العرب حاكم مصر[1] . وتذهب الروايات العربية إلى أن المقوقس هو الذى اقترح المعاهدة الآنفة الذكر التى ضمنت للمصريين حرية الدين وأمنتهم على حياتهم . ولما رفض الإمبراطور هرقل البيزنطى هذه المعاهدة تمسك المقوقس بكلمته وأصبح فى

---

(١) راجع البحث الذى نشره الدكتور ا . ج . بتلر Dr. A. J. Butler أخيراً فى Proc. Soc. Bibl. Archeology, 1902 . فهو يحاول هنا أن يثبت أن المقوقس هذا هو قيرس Cyrus بطريرك الإسكندرية. غير أن هذا الرأى لا يجد أى تعضيد من كتاب العرب الذين يوثق بهم .

صف العرب الذين كان لشجاعتهم وحماستهم أثر بالغ فى نفسه . ولما عاد الرسل الذين كان قد بعث بهم إلى معسكر المسلمين ، سألهم عن حال المسلمين فأجابوا :

« رأينا قوما الموت أحب إليهم من الرفعة — ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » . ومثل هذا الخلق كان جديدا بالنسبة إلى المصريين الذين كانوا قد قاسوا الكثير من فساد الإمبراطورية الرومانية الشرقية . ومهما يكن من شأن الدور الذى قام به المقوقس فيما أطلق عليه خيانة مصر المسيحية ، فما لا شك فيه أن الشعب نفسه قد ساعد الغزاة الفاتحين .

وعلى الرغم من أن المسيحية كانت الديانة الرسمية فى مصر منذ أصدر ثيودوسيوس مرسوم سنة ٣٧٩م ، كانت لا تزال هنالك طقوس محلية قديمة على جانب عظيم من القوة . وأهم من هذا كانت لا تزال هناك أيضا نزعة قوية إلى بث روح القومية فى الدين والدولة معا . فإن حكم البيزنطيين لم يكن مما يرتاح له أهل مصر . أضف إلى ذلك اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية ، فإنه لما عقد مجمع سنة ٤٥١ م رمى الأساقفة المصريون الذين دانوا بعقيدة أوتيخا بالإلحاد ، وأصبح الانقسام شيئا لا مفر منه . ومن ثم أصبح فى مصر منذ ذلك الحين كنيستان : الأولى كنيسة الدولة (مذهب الروم الأرثوذكس) وتؤيدها القسطنطينية ويطلق عليها الكنيسة الملكية ، والثانية الكنيسة القومية ، وقد أطلق عليها فيما بعد اليعقوبية وتعرف عادة بالكنيسة القبطية . أما من ناحية الاشتقاق اللغوى ، نجد أن كلمة قبطى « Copt » هى نفس كلمة « مصرى » [1] . والكنيسة القبطية لا تعنى أكثر من الكنيسة المصرية حينما انفصلت على أثر بدعة أوتيخا الدينية . ولم يكن المسيحيون المصريون من حيث كونهم قبطا قبل مجمع نيقية أقل مما كانوا عليه بعده . غير أن تمسكهم بالطبيعة الإلهية التى لم يستطع أن يدركها إلا القليل منهم ، هو الذى

---

(١) وفى اليونانية Aiguptios ، وفى العربية قبط (بالفتح) وقبط (بالضم) ، وفى الانجليزية Copt .

جعل منهم كنيسة مستقلة مما أدى إلى وقوع المصائب التي نزلت بهم وتنبيه أذهان المؤرخين إلى استجلاء ذلك الدور الذي يتعلق بتاريخهم . وكان تمسكهم بمذهب نيقية الذي يقول بأن للمسيح طبيعة واحدة ، أن عرضوا أنفسهم للاضطهاد والعزلة ، كما كان سببا في أنهم لم يساهموا في تلك الإصلاحات التي أفادت منها الكنائس الأخرى ، بل إنهم ظلوا في جماعتهم الضئيلة المهملة لا يتغيرون نحوا من خمسة عشر قرنا ، واحتفظوا بنفس التقاليد والطقوس الدينية كما كانوا في القرن الخامس الميلادي . وكانت كراهتهم الزائدة للملكيين هي التي ألقت بهم في أحضان المسلمين الغزاة . فقد رأيناهم يعملون بنصيحة بطريقهم الذي كان منفيا ، ويمدون يد المساعدة للعرب منذ اللحظة التي وطئت أقدامهم فيها أرض مصر . وكان ولوعهم في التخلص من الحكم البيزنطي ، وأهم من هذا من نفوذ رؤساء الدين من الملكيين ، هو الذي جعلهم يؤثرون هذا الرأي على غيره . وبعد أن نجح المقوقس — بمساعدة أحد الرجال الكاثوليك — ولعله قيرس بطريرك الإسكندرية الملكاني — في أن يحصل من القائد العربي على عهد الصلح الذي يدل على السخاء ، أسدى القبط كل مساعدة إلى المسلمين ؛ فكانوا يعاونونهم معاونة صادقة في بناء الجسور ، كما أمدوهم بالمؤن . غير أنهم مالبثوا أن أدركوا أنهم إنما غيروا سيدا بآخر . بيد أن العربي — على الرغم من نزعته إلى الأنفة والتكبر وما كان يعتريه بين آن وآخر من نزعة التعصب والاضطهاد ، كان في استبداده أرق من الحاكم الروماني بكثير .

ولما وجدت الحامية الرومانية التي حاصرها العرب في حصن بابليون نفسها محرومة معاضدة الشعب ، اضطرت إلى التسليم في ابريل سنة ٦٤١ م . وسرعان ماغزا العرب الدلتا وأرغموا الروم على الانسحاب إلى الإسكندرية التي استسلمت للفزع والرعب وقبلت الشروط السخية التي عرضها عمرو . وكانت الإسكندرية في ذلك الوقت قد سادتها الانقسامات كما كانت محرومة من القواد الصالحين . وباستسلام هذه الحاضرة الرومانية في أكتوبر سنة ٦٤١ م ، تم فتح مصر على أيدي العرب ، فلم تعد هناك مقاومة تستحق الذكر . وهكذا انتشر المسلمون في البلاد حتى وصلوا إلى الشلال الأول للنيل وأصبحت مصر ولاية تابعة للخلافة .

وبعد أن عاد عمرو من الإسكندرية أسس مدينة الفسطاط ، وذلك لأن ميناء الإسكندرية العظيم على ساحل البحر الأبيض المتوسط لم يعد صالحا لأن يكون

حاضرة للقبائل العربية التى أدت طبيعتها البدوية إلى أن يتسلط عليها شىء غير قليل من الخوف من الإسكندرية وبحرها العميق . هذا إلى أن الإسكندرية كانت معرضة فى وقت فيضان النيل لأن تصبح فى عزلة عن مركز سيادة العرب فى المدينة . كما أن الخليفة عمر بن الخطاب - الذى لم يكن يحلم فى ذلك الوقت بتأسيس إمبراطورية إسلامية شاسعة الأرجاء - كان مولعا بأن يكون على اتصال دائم بجيشه فى مصر . والواقع أن عمرا نفسه أراد أن يجعل الإسكندرية حاضرة لمصر ، وهم أن يسكنها وقال له « منازل قد كفيناها . » غير أن الخليفة عمر بن الخطاب لما سمع بذلك سأل رسول عمرو : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . » عندئذ حوّل الخليفة وجهه عن الإسكندرية ، إذ كان ينظر إلى البلد التى تم له فتحها على أنها بمثابة ثكنات للجيش أكثر مما كان ينظر إليها على أنها مستعمرة. وعلى ذلك أصدر أمره إلى قائده عمرو بن العاص بأن يختار موقعا أكثر توسطا . وقد وجد عمرو هذا المكان على بعد عشرة أميال شمال أطلال مدينة ممفيس حاضرة مصر القديمة فى موقع الفسطاط الذى أقامه أمام حصن بابليون . وكانت هناك قناة تسمى أمنيس تراجانوس كانت قديما تربط بابليون بالبحر الأحمر عند السويس مارة بمدينة بلبيس وبحيرة التمساح . وقد أعاد عمرو فتح هذه القناة بعد أن نظفت مما كان بها من الأملاح ، حتى إن الضرائب وكذلك القمح ، أصبحت ترسل إلى بلاد العرب بحرا عن طريق هذه القناة ، وبذلك احتفظت مصر بعلاقاتها الوثيقة مع الخليفة .

ويرجع السبب فى تسمية مدينة الفسطاط بهذا الاسم إلى قصة طريفة لا يبعد أن يكون لها نصيب من الصحة . ذلك أن عمرو بن العاص حينما قاد قواته العربية إلى حاضرة مصر القديمة ، أقام فسطاطه حول المكان الذى يقع فيه جامع عمرو بن العاص الآن . وبعد سقوط حصن بابليون سار إلى مدينة الإسكندرية . غير أن الجند عندما ذهبوا ليقوضوا فسطاطه وجدوا يمامة قد باضت فى أعلاه ، فقال عمرو : «لقد تحرمت بجوارنا » ، وأمرهم بأن يقروا الفسطاط حتى يطير فراخها . ولما فتح عمرو الإسكندرية ، أخذ الجند يختطون منازلهم حول فسطاطه الذى خلفه قبل مسيره إلى الإسكندرية. وهكذا أصبحت أولى المدن العربية فى مصر، الفسطاط أو

مصر الفسطاط أو مصر . وكان الفضاء الذى يمتد بين النيل وجبل المقطم — حيث تقوم الآن القلعة على مكان بارز من الجبل — فضاء خاليا فى ذلك الوقت . فلم يكن هنالك « غير فضاء ومزارع » ، كما لم يكن هناك من المبانى سوى بعض الكنائس وحصن بابليون الرومانى ، أو باب اليون الذى يسميه العرب حتى اليوم « قصر الشمع » . « وكان هذا القصر — كما يقول المقريزى — « يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر » ، وبذلك يستخدم كتقويم شهرى . غير أنه من المحتمل — كما يرى الدكتور بتلر — أن يكون هذا الاسم تحريف اسم آخر هو قصر مصر ، وأن قصة الشمعة قد اخترعت لتفسير ذلك الرأى (١) .

وأما لماذا لم يحتل عمرو بن العاص مدينة مصر القديمة ، فهذا مما لا نعرف عنه شيئا . فكل ما كان له علاقة بتلك المدينة التى اندثرت لغز من الألغاز . ففى البلاد الأخرى التى فتحها العرب ، لم يترددوا عن الاستيلاء على الأقدم تاريخاً مثل دمشق والرهاء . أما فى مصر فإنهم آثروا أن يستولوا على أراض جديدة . ربما كانت مصر صغيرة جدا أو من الممكن أن يكون الخليفة قد حرم عليهم أن يستحوذوا على الممتلكات وأن يستقروا فى الريف ، مما دفع العرب إلى أن يحتلوا ذلك الفضاء

---

(١) لعل مما يؤيد رأى الدكتور بتلر ماذكره Pococke من أن قصر الشمعة كان يعرف فى وقته كذلك باسم Casr Kieman . على أنه ليس من المؤكد أن قصر الشمعة هذا يمثل الجزء الأساسى فى بابليون . فقد كان هناك بناء رومانى آخر على إحدى التلال الصخرية ، كان النيل قد اكتسحه ، يقع جنوب شرقى قصر الشمعة . وهذا البناء — كما ذكر كتاب العرب الذين نقل عنهم المقريزى — هو مدينة مصر أو بابليون التى حاصرها عمرو بن العاص ، والتى كانت تحتوى على حصن يسمى قصر بابليون . ولا يبعد أن تكون أطلال هذا القصر هى التى ورد ذكرها فى « إسطبل عنتر » التى لايزال أساسها العظيم باقيا إلى اليوم . انظر ما كتبه « لين » فى كتابه « القاهرة منذ خمسين سنة » ص ١٤٦ (Lane : Cairo Fifty Years Ago, p. 146) . وقد شوهدت آثار الأسوار بجانب قاع النيل جنوبى مصر العتيقة . ومن المحتمل أن يكون هناك شواهد أثرية عن مدينة مصر الإسلامية القديمة التى لازالت معالمها ، والتى يحيط بها سوران . وليس من المستحيل — على مايظهر — أن تكون مصر هذه هى امتداد منفيس الحاضرة القديمة التى اختفت معالمها ، وأن المسافة التى بين أطلال منفيس الحالية وحصن بابليون تربو طبعا على عشرة أميال . غير أنه يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن منفيس كانت فى وقت من الأوقات على شكل دائرة يبلغ محيطها سبعة عشر ميلا ، وأنها امتدت حتى بلغت مدينة الجيزة .

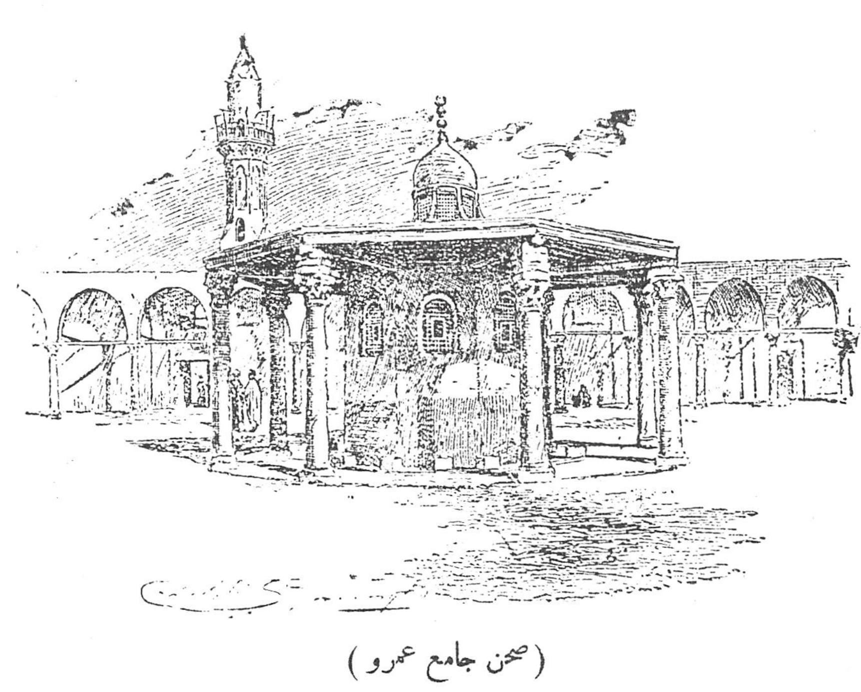
الممتد بين بابليون وتلال المقطم . ومما لا شك فيه أن المكان الذى نزل فيه العرب أولا كان أشبه بمعسكر وقتى أكثر منه بمدينة بالمعنى الصحيح . فقد احتاجوا مساحة واسعة لكى يفصلوا القبائل المختلفة التى تألف منها الجيش العربى ، والتى كانت برغم الإخاء الذى ينادى به الإسلام عرضة لإثارة أحقادهم القديمة . وكان الموقع الذى اختاروه واسعا فسيحا لا يكاد يعوقه شىء . وكانت تلك البقعة تعرف بالحمراوات الثلاث[1] — الحمراء القريبة ، والحمراء الوسطى ، والحمراء القصوى . من الواضح أن هذه التسمية ترجع إلى اللواء الأحمر الذى أقيم فى الوسط .

وقد قسمت القبائل العربية هذه الحمراوات الثلاث فيما بينهـــا ، واختطت منازلها فيها ، مبتدئة من حصن بابليون إلى حيث نرى جامع ابن طولون الآن . وفى وسط الفسطاط اختط عمرو بن العاص داره ، وبنى بجواره أول مسجد أقيم فى مصر وهو جامع الفتح ، وتاج الجوامع كما أطلق عليه العرب من قبيل المباهاة والفخر . غير أنه لم يلبث أن أطلق عليه اسم الجامع العتيق ، ويسمى الآن جامع عمرو . وكان هذا الجامع أولا عبارة عن غرفة مسطحة مستطيلة جدا طولها نحو ٢٠٠ قدما وعرضها ٥٦ قدما ، وقد بنى من الأحجـــار الخشنة الملساء . وكان سقفه منخفضا جدا أقيم على عدة أعمدة وتتخلله بعض الثقوب لدخول الضوء . ولم تكن هناك للمسجد مئذنة أو مقصورة للصلاة . كذلك لم يكن هناك زينة أو أفاريز فى الخارج ، وحتى المنبر الذى اتخذه عمرو قد أزيل حين كتب إليه الخليفة يوبخه :

« أما يحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس عند عقبيك ؟ » . وكان من واجب الفاتح أن يؤم الناس فى الصلاة ويلقى خطبة الجمعة فى ذلك المكان المتواضع الذى لم يلبث أن أصبح صغيرا جدا بالنسبة لأهل الفسطاط الذين أخذ يزداد عددهم ، مما أدى إلى زيادته فى سنة ٦٧٣ م بأن ضم إليه جزء من دار عمرو . وفى الوقت نفسه أقيمت فيه بضعة أعمدة فى الأركان — وهذه هى نواة المآذن — ليؤذن المؤذنون من فوقها . وبعد خمس وعشرين سنة هدم أحد أمراء مصر هذا المسجد عن آخره

---

(١) عرفت الحمراء فيما بعد بخط قناطر السباع (المقامة على النهر) نسبة إلى الأسود المنقوشة عليه ، وحتى السبع سقايات ، يشير بذلك إلى السقايات السبع التى كانت ترفع ماء النيل إلى القناطر المقامة على أعمدة لتوصيل ماء الشرب : المقريزى : كتاب الخطط ج ١ ص ٢٨٦ .



(صحن جامع عمرو)

وأعاد بناءه بعدأن وسعه. وكان من أثر الإصلاحات الكثيرة وتجديد المبانى، أنه لم يبق هناك الآن قدم واحدة من البناء الأصلى . أما ما نراه اليوم فهو فى الواقع ذلك المسجد الذى أعاد بناءه عبد الله بن طاهر فى سنة ٧٢٧ م ، ثم أصلحه مراد بك فى سنة ١٧٩٨ م قبـــل أن يشتبك مع الفرنسيين فى معركة الأهرام فى إمبابة . وقد أصبحت مساحة الجامع اليوم أربعة أمثال مساحته الأصلية ، كما أنه يختلف عنه فى كل ناحية من النواحى (١) .

والجامع العتيق ـ كما يسميه المقريزى ـ كان محل احترام المسلمين قديما . ففى هذا الجامع كان القاضى يجلس ليحكم بين الناس ، وكان يجتمع فى صحنه كثير من العلماء ، كما كان أيضا المكان الذى يجتمع فيه السنيون ، فى الوقت الذى انقسم فيه المسلمون على أنفسهم . ولمـــا احترقت مدينة الفسطاط فى سنة ١١٦٨ م ، نجا هذا الجامع برغم الأضرار الكثيرة التى لحقت به ، فجدده صلاح الدين الأيوبى [سنة ٥٦٨ هـ] ، وأعاد صدر الجامع ، والمحراب الكبير ورخمه ، . غير أن الناس لم يلبثوا أن غيروا نظرتهم إلى هذا الجامع ، حين وجدوا أنه قد أصبح تابعا لبلدة أحرقت ، فأصبحت أطلالا دارسة . كما أنفضت الاجتماعات التى كانت تعقد فيه من قبل . وهكذا حلت بجامع عمرو أيام السوء . وقد وجد ابن سعيد الرحالة المغربى الذى عاش فى القرن الثالث عشر هذا البناء العظيم وقد غطاه العنكبوت ، وجدرانه التى علاها عبث العامة والمتعطلين ، وقد نثروا على أرضه ما خلفوه من فضلات الطعام . فى ذلك الوقت كان هناك عدد قليل من الأتقياء الحقيقيين ، على حين كان فيه عدد أكبر من العابثين . قال الجبرتى المؤرخ الذى عاش فى القرن الثامن عشر ، إنه كان هناك كثير من الموسيقيين وقواد القردة والمشعوذين والحواة والراقصات ممن كانوا يترددون على صحن الجامع . وقد تداعت أبنية الجامع للسقوط ، حتى إن هؤلاء الناس قد هجروه . ولولا أن مراد بك كان «قلقا على حياته ، لأسباب معقولة جدا وأرضى ضميره بإنفاق بعض الأموال التى حصل عليها بطرق غير مشروعة على أعمال البرنحو إعادة بناء هذا الجامع ، لزال « تاج الجوامع » نهائيا .

---

(١) انظر المقالة الرائعة التى كتبها مستر ا. ك. كوربيت عن « تاريخ جامع عمرو فى مصر القديمة » فى المجلة الأسيوية الملكية بإنجلترا J. R. A. S., N. S. xx ii, 1891 .

وفى مستهل القرن التاسع عشر ، كان هذا الجامع لا يزال الجامع الذى يفضله أهالى القاهرة ، لإقامة صلاة الجمعة الأخيرة أو اليتيمة من شهر رمضان. «وكانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يتقبل صلاة من يصلى فى هذا الجامع العتيق . فإذا تأخر فيضان النيل ، وخشى الناس هبوط مائه ، وما يعقبه من القحط وندرة الأقوات ، صدرت الأوامر إلى كبار المشايخ والأئمة وأهل الورع والعلم من المسلمين بأن يذهبوا إلى جامع عمرو ويصلوا صلاة الاستسقاء من أجل زيادة ماء النيل . كذلك كان يعقد قساوسة الكنائس المسيحية المختلفة اجتماعات لهذا الغرض ، ويشاركهم اليهود فى ذلك . وهكذا كان جامع عمرو المكان الذى يقدسه المسلمون والمسيحيون واليهود على سواء التماسا للمطر ، ويقيمون الصلوات العامة فى الوقت الذى حل القحط بالبلاد منذ عشرين سنة (١٨٢٥ — ١٨٢٨ م) . وكان من أثر ذلك أن نزل المطر فى اليوم التالى [١] .

إن الناظر لأقدم هذه المساجد من الخارج لا يتأثر كثيرا . فى وسط أكوام القمامة التى تميز موقع مدينة الفسطاط ، نشاهد جدرانه المرتفعة الرمادية اللون التى لا أثر للنوافذ ولا للزينة فيها. كذلك نميز بوضوح مئذنتيه اللتين هما غاية فى البساطة. أما من الداخل فإنه يختلف كثيرا برغم ما لحقه من التهدم والإهمال . هنا نجد فناء مساحته أربعون ألف قدم مربع تقريبا ، تحيط به البوائك والأعمدة الكثيرة التى تكون دعائم سقف الطرف الشرقى ، وهو المكان المخصص للصلاة . وهنالك نشاهد منظرا غاية فى الروعة والبهاء . ويزدحم المسجد بالمتعبدين الذين يؤدون صلاتهم فى انحناء منظم ، فيضفون على المكان جوا من الهيبة والجلال . أما الحنايا فيرجع تاريخها إلى عصور مختلفة ، وأما الأعمدة التى انتزعت من الكنائس فقد وضعت فى غير مواضعها فى أغلب الأحيان . والأروقة غير متوازية مع الجدران كالصوامع التى تحيط بالكنيسة ، ولكنها مقامة على شكل زوايا قائمة فى صحن الجامع . والقطع الخشبية الطويلة تمتد من عمود إلى عمود لتحمل المصابيح التى كان يضاء منها ثمانية عشر ألف مصباح كل ليلة فى الأزمان السالفة. ونستطيع أن نتصور

---

(١) أنظر كتاب لين : «القاهرة منذ خمسين سنة Lane : Cairo Fifty Years Ago, pp. 142 - 3.

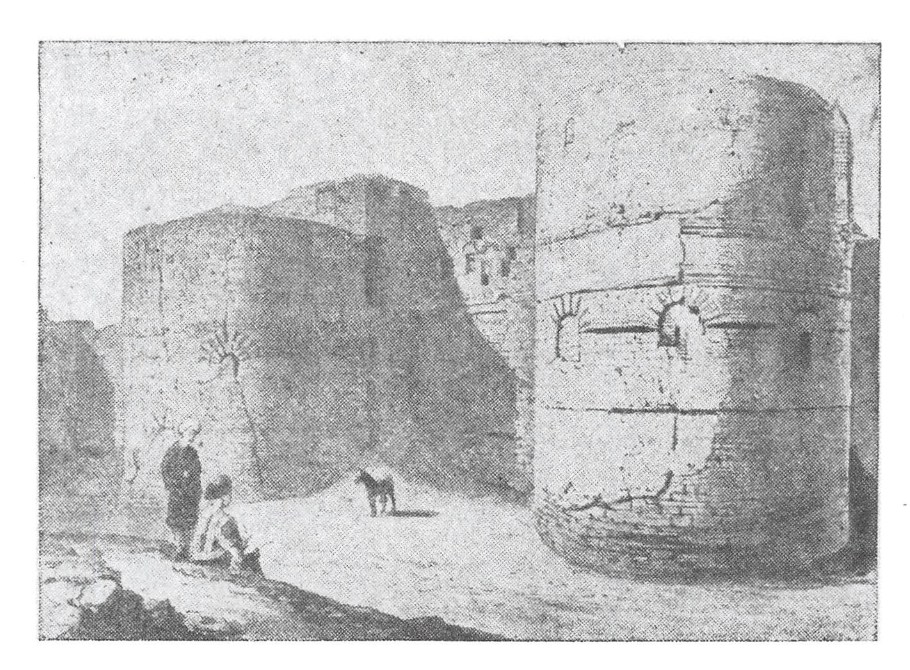
ذلك الضوء الساطع الذى كان يتراءى أمام المسجد . غير أن ليالى الوقود قد ذهبت منذ أمد بعيد ، وأصبح جامع الفاتح حطاما باليا ، يوحى إلى الخيال بما كان يتردد عليه من طوائف العلماء والصالحين والمتعصبين ورجال الدين والفقهاء والصوفية الذين كانوا ينحنون أمام قبلته التى هجرها الناس فيما بعد[1] .

إن ذلك الجامع الأصلى الذى بناه الفاتح العربى قد امّحى منذ أمد بعيد . غير أن ذلك الجامع الذى يمثله اليوم يقوم على نفس موقعه المبارك . وفى الوقت نفسه لا نستطيع أن نذكر عن مدينة الفسطاط التى شيدها عمرو مثلما ذكرنا عن جامع عمرو . فكل ما تبقى من تلك المدينة العظيمة — التى كانت حاضرة مصر ومرفأها النهرى خمسة قرون — قد اختفى تحت تلك الأكداس المتراكمة على غير انتظام من التلال الرملية التى تغطى ما خلّفته تلك المدينة التى يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى . هنالك ، حينما تهب ريح عاصفة تثير الرمال ، تستطيع فى أغلب الأحيان أن تلتقط بطريق الصدفة بعض قطع من الزجاج أو الفخار أو المصابيح الرومانية ، والنقود والصور والنقوش التى تدون أسماء ولاة القرن الثامن الميلادى ، وما إلى ذلك من بقايا الأشياء التى كانت فى مدينة الفسطاط . أما المنازل وقصور الأمراء والحمامات والمدارس التى كانت فى الفسطاط فلا أثر لها البتة . ومن المؤكد أن مخازن غلال يوسف يرجع تاريخها على الأقل إلى عهد يوسف الأخير وهو صلاح الدين ؛ فقد رأى بنيامين التيوديلى هذه المخازن فى سنة ١١٧٠ م . ولكن مصر العتيقة ، أو القاهرة القديمة قد بنيت على أرض كان يغطيها النيل فى الوقت الذى كانت فيه الفسطاط حاضرة مصر . أما ما تبقى فخراب بلقع . وسوف نلقى نظرات سريعة على تاريخ القاهرة القديمة فى الأبواب التالية ، ونقرأ وصفها فيما كتبه الرحالة من الفرس والمغاربة أى من الغرب والشرق الإسلاميين . غير أن مثل هذا الوصف لا يمكّننا من أن ندرك إدراكا كاملا المدينة العربية التى ذهبت معالمها الآن .

ومهما يكن من شىء فإنه قد تبقى هناك حتى الآن أثر يرجع تاريخه إلى الفتح

---

(١) حذفنا من كلام المؤلف بعد هذا الكلام عبارة لا تمت إلى التاريخ الصحيح بصلة ، وإنما هى من قبيل الخرافات التى تجرى على ألسنة العوام .



(باب قصر الشمع)

العربى ، غير أنه ليس عربيا على أى حال . ذلك هو حصن بابليون الذى يقوم الآن حيث كان يشرف فيما مضى على خيام المسلمين ، ويشرف على الحاضرة العربية وهى تنمو تحت أسواره . ولكى نفهم سبب تسمية حصن بابليون بهذا الاسم — أو كما يسميه بعض باب لى أون أو باب أون ، يجب علينا أن نذهب إلى المطرية على بعد بضعة أميال شمالى القاهرة ؛ حيث تقوم مسلة منعزلة هى كل ما تبقى من مدينة أون On أو مدينة هليوپوليس Heliopolis (مدينة الشمس) . وهناك فى منبسط المطرية حارب الأتراك أمام هذه المسلة المنعزلة فى المعركة الأخيرة التى انتهت باستيلائهم على القاهرة من أيدى المماليك فى سنة ١٥١٧ م . وهنا أيضا انتصر كليبر على الأتراك فى سنة ١٨٠٠ . هنالك يقوم بعد أون On الذى كان پوتيفيراه Potipherah — حمو يوسف — يعمل فيه كاهنا . هنالك أيضا كان پيانشى Pianchi — ملك الكهنة الأثيوبيين priest-king فى القرن الثامن قبل الميلاد — يستحم فى عين شمس ، ويقدم الثيران البيض واللبن والعطور والبخور والأخشاب العطرة المختلفة ، وحيث رأى عند دخوله المعبد أباه رع Ra (إله الشمس) فى المحراب . وكانت هليوپوليس جامعة أقدم حضارات العالم ، والتى سبقت جميع المدارس فى أوربا . ويغلب على الظن أن موسى كان يتلقى حكمة المصريين على أيدى كهنة رع . وهنالك عمل هيرودوت على نقض هذه التعاليم نفسها ، وأحرز شيئا من النجاح فى هذه السبيل . وهنالك أيضاً أتى أفلاطون لتلقى تعاليمه ، كما ذهب العالم الرياضى يودوكسس Eudoxus ليدرس الفلك ، كما شهد استرابون Strabo المنازل التى عاش فيها مشاهير اليونان . وفى ذلك المركز العالى ومصدر النفوذ الدينى ، لم يبق من آثار سوى تلك المسلة . فلقد تكسرت « صور بيت شمس ، وضاع أثرها ، واحترقت « منازل آلهة المصريين » (١) .

وبجانب تلك المسلة المنعزلة الآنفة الذكر نشاهد شجرة جمّيز عتيقة جفّت بفعل الزمن ، وشوهتها الأسماء التى لا عد لها ، هذه الشجرة هى التى استراحت تحتها العائلة المقدسة (٢) حينما هربت إلى مصر ، ومن هنا سميت شجرة العذراء . وعلى

---

(١) أرميا : إصحاح ٤٣ آية ١٣ (العهد القديم) .

(٢) عائلة السيد المسيح .

مقربة من هذه الشجرة نبع ماء عذب ، وهو بلا شك منظر غريب فى تلك الضاحية المقفرة . ويقال إن ماءه قد أصبح عذبا لأن الطفل (١) قد استحم فيه . ومن هذه البقع حيث تساقطت قطرات الماء من قماطه الذى غسل فى ذلك النبع المقدس ، نمت أشجار البلسم التى لم تنم — كما يعتقد البعض — فى أى مكان آخر . وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على صحة هذه الأوهام التى هى أشبه مايكون بالخرافات . أما شجرة الجميز فقد خلفت بطبيعة الحال تلك الشجرة المزعومة ، وهى لم تزرع إلا بعد سنة ١٦٧٢ م . غير أن ما يقال من أن أونياس Onias اليهودى بنى معبدا ليتعبد فيه مواطنوه بالقرب من ذلك المكان ، وأنه استحضر بعض المزارعين من اليهود ليتعهدوا نمو شجر البلسم ، يكسب هذه القصة شيئا من الصحة .

لقد اندثرت هليوبوليس ، ولكن حصنها المنيع « باب أون » الذى يحرسها ما زال يتحدى الزمن . والواقع أن اسم بابليون مصر الذى يستعمل للدلالة على الحاضرة (الفسطاط) وعلى الحصن ، يظهر كثيرا فى تاريخ العصور الوسطى وأقاصيصها . مثال ذلك تلك القصة التى تصور لنا كيف انتصر ريتشارد قلب الأسد على صلاح الدين الأيوبى .

وسواء أكان هناك أساس لما رواه كل من استرابون وديودورس، من أن ذلك الحصن بناه أول الأمر بعض المنفيين من بابليون العظيمة فى بلاد كلديا ، فإن الحصن الحالى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث — ولا يبعد أنه يرجع إلى القرن الثانى من الميلاد . والواقع أن منظر الحصن من الخارج يضفى على النفس كثيرا من العظمة برغم تصدع جدرانه ، وأن الرمال قد غطت قواعدها . غير أن منظره العام لم يطرأ عليه تغيير كبير، إذ نستطيع أن نميز بوضوح طوابيه الخمس وبرجيه المستديرين. أما الجدران فقد بنيت على الطريقة الرومانية التى كانت شائعة فى ذلك الوقت : خمس طبقات من الأحجار وثلاث من الطوب على التبادل . أما الأساس فلا يبعد أن يكون قد طلى باللونين الأحمر والأصفر كما كان الحال فى المساجد والدور الإسلامية. وحتى مظهر هذا البناء الضخم يجعل الإنسان يدرك فى سهولة ما كان لاستيلاء العرب على هذا البناء من أهمية .

---

(١) السيد المسيح حينما كان طفلا فى ذلك الوقت .

ونحن إذ نصل إلى داخل الحصن ، نستطيع أن نلمس لأول وهلة الطابع الخاص الذى يُنْطَبَع به هذا الحصن. ذلك أننا نمر خلال ممرات معتمة أضيق وأظلم وأقذر من الأزقة التى تقع وراء مدينة القاهرة . هنالك يأخذنا السكون الرهيب الذى يخيم على المكان بأكمله . والمنازل المرتفعة التى تحجب الشارع ليس فيها الكثير من زخارف المشربيات التى تزين شوارع القاهرة . ولولا بعض الأصوات التى تصدر بين الفينة والفينة من داخل تلك المنازل ، وبعض الأبواب التى تترك نصف مغلقة ، لما خطر لنا على بال أن كان هنالك أى لون من ألوان الحياة فى ذلك الحصن . ومما يميز تلك المنازل كذلك صغر حجم نوافذها ذات القضبان الحديدية المتشابكة . وليس هناك حقا مايدل على أن تلك الجدران المنبسطة تحوى بين طياتها ست كنائس فخمة ، لكل منها هيكلها الخاص الحافل بالنقوش والصور والملابس الكهنوتية وغيرها من الأشياء التى ليس لها مثيل . والواقع أن الكنيسة القبطية تشبه الحريم عند المسلمين — فهى من الخارج غيرها من الداخل . فكما أن منظر معظم المنازل فى القاهرة لايدل على أى شىء مما يحويه داخل هذه المنازل من فناء واسع فى الداخل، تحيط به غرف فسيحة نقشت على جدرانها أبدع الرسوم وأروعها ، وأسقف ليست بأقل بهجة ولا روعة . هذا فضلا عما تحويه من الطنافس الفاخرة التى تتلألأ من وراء ذلك الضوء القليل الذى ينعكس من وراء النوافذ ذات الزجاج الملون — كذلك الحال فى الكنائس القبطية حيث لا يمكنك أن تتكهن وأنت فى الخارج عما تحويه هذه الكنائس فى الداخل . فإن الأسوار العالية تخفى كل ما تحويه هذه المبانى . والواقع أن القبط يخجلون فى العادة من الزائرين . وليس أدل على هذا من تلك الجدران المرتفعة المحيطة بالكنائس من الخارج ، والتى لا تحوى أى نقوش ليتخلصوا بها من تلك الملاحظات التى كانت تثير فيما مضى الشراهة والتعصب الدينى .

وبعد أن نمر من الباب المتين ونعبر أحد الدهاليز أو نرتقى بعض الدرجات ، نجد أنفسنا أمام كنيسة فخمة ، لها محراب قد تحسدها عليه أية كنيسة فى انجلترا . وفى ذلك الضوء الضئيل نشاهد صفوفا من تماثيل رائعة للقديسين تطل عليك من فوق المحراب والستائر ، كما نجد بعض العبارات منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية مشيدة بتمجيد الله سبحانه وتعالى ، على حين نجد فى أعلى المكان حنايا فى أحد حائطي الكنيسة ، تبين لنا أنه لايبعد أن تكون ثمة كنوز أخرى فنية سوف

يكشف عنها فى المستقبل . ولعل أهم ماتصطبغ به الكنيسة القبطية بوجه عام هو أنها من طراز بناء الكنيسة الباسليقية الشهيرة فى روما . غير أن هناك بطبيعة الحال بعض أوجه الخلاف التى جعلت الكنيسة القبطية تخرج فى بعض الأحيان عن هذا الطراز . والقبة القبطية تتميز بالطابع البيزنطى الذى يكاد يكون شائع الاستعمال فى العالم . وفى بعض الأحيان قد نجد الكنيسة مسقوفة بعنقود من القباب يصل إلى اثنتى عشرة قبة . وتتكون الكنيسة من صحن وأجنحة جانبية و بعض الأقواس (التى تشبه تماما أقواس الكنيسة الإيرلندية القديمة والتى لم تكن لتوجد فى غيرها) . ومن النادر أن يكون لهذه الكنيسة أجنحة أو أنها تقرب من شكل الصليب . وفى مؤخرة الكنيسة مكان خاص تجلس فيه السيدات اللاتى يرى أهل الرأى من القبط أن يجلسن خلف الرجال ، ويحولون بذلك دون حدوث أى اضطراب فى أثناء العبادة والصلوات فى حالة جلوس الجنسين بعضهما مع بعض كما يحدث فى بعض الكنائس الغربية . ولذلك يفصل قسم النساء عن قسم الرجال حاجز ذو عوارض خشبية يكون عادة أعرض بكثير وأحسن زخرفة وتنميقا . كما يفصل قسم الرجال عن المرتلين فاصل آخر .

والكنيسة تحوى ثلاثة هياكل مختلفة ومنفصلة ، كل منها تعلوه قبة (ليست على شكل نصف دائرة) خاصة به . وبداخل كل هيكل أخر الستائر محلاة بصلبان من العاج والأبنوس والأشكال الهندسية المنقوشة على الطراز العربى على الخشب فى براعة ودقة، تعلوها صور وعبارات منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية (١).

وفى أثناء إقامة الصلاة تفتح الأبواب الداخلية والستارة الموشاة بالفضة ، فيبدو المذبح للمجتمعين المتعبدين فى صورة تذكرنا بالاحتفال الذى يثير العواطف كما يقام فى كاتدرائية القديس إسحاق بمدينة بطرسبرج . فالأبواب المنقوشة والستائر

---

(١) انظر كتاب الدكتور بتلر : الكنائس القبطية القديمة فى مصر Dr. A. J. Butler's "Ancient Coptic Churches of Egypt" جـ١ ص ٨٦ — ٦٩ . وقد أمدنا لأول مرة ببحث مبنى على دراسة علمية دقيقة عن هذه الآثار . والدكتور بتلر وأبحاثه ليست بحاجة إلى ثنائى لزيادة قيمتها ، ولكنى لاأستطيع أن أفوت هذه الفرصة دون أن أقول كيف يجب أن يدين كل من يهتم بالفن المصرى لأبحاثه الرائعة التى تدل على مقدار ماأنفقه من جهد فى استقصاء الآثار القبطية . ويعد كتابه أعظم ماأملكه من المصادر عن هذا الموضوع الذى يأخذ بمشاعر القلوب ، والذى يرجع الفضل إليه فيما أفدته من معلومات .

المزركشة والمصابيح المتدلاة هنا وهناك والمشكيات التى تشبه بيض النعام — كل هذا يعطينا صورة للمذبح أكثر من كونه مكعباً من الطوب أو الجبس، بغطائه الحريرى، وتلك المشكاة التى لا تقدر بثمن قد وضعت فى الجهة الشرقية؛ وكان لها دلالة غامضة فى غابر الأيام، أما الآن فإنها تستخدم لوضع الصليب فيها وحوله أوراق الورد عند الاحتفال بيوم الجمعة الحزينة[1] تمهيداً للاحتفال بعيد القيامة. والمذبح فى الكنائس القبطية منعزل عن جدران الهيكل التى تكون فى الغالب مغطاة بصفائح الرخام الملون كما نرى فى المساجد. وقد تكون الجدران فى بعض الأحيان مغطاة بالزجاج الملون mosaic على الطراز المصرى. أما السقف فقد رسمت عليه صور بارزة على الخشب، وأخرى بالألوان المائية تمثل الاثنى عشر رسولا وفى وسطهم السيد المسيح وهو يبارك الناس. ومن فوق المذبح رواق رسمت عليه صور الملائكة رسما رائعا. ويفصل الهيكل الرئيسى والمذبح التابع له عن الهيكلين الجانبيين ستائر مصنوعة من الخشب الرفيع المشبّك.

ومن الأشياء الغريبة فى الهيكل، ذلك الصندوق الذى يحمل كأس التناول المصنوع من الفضة الخالصة. وإن تلك المروحة التى تستخدم لطرد الهوام أثناء العشاء الربانى لا تقل مطلقاً عما تقدم فى إثارة اهتمام الناظر. وقد نقشت من الفضة الخالصة بحيث يبرز النقش على السطح المقابل. وهنالك مراوح مماثلة فى كتاب كيلا Kela الإيرلندى. وليس هناك إطلاقا صليب يظهر عليه المسيح مصلوبا. وقد نجد فى بعض الهياكل بقايا عظام أحد القديسين؛ ولكن الكنيسة القبطية لا تحرم مثل هذه البقايا، على الرغم من أن معظم الكنائس تحوى الكثير منها. وهناك كثير من المؤمنين يعلقون أهمية عظيمة على ما فى هذه البقايا من خواص تساعد على الشفاء. وقد يكون أبدع ما نراه فى الزخارف المعدنية فى الكنيسة القبطية ذلك الصندوق الفضى الذى بداخله نسخة من الإنجيل يظن أنها ختمت بالشمع، مع أنه ليس بداخله غير بعض أوراق الشجر. وهو فى الغالب

---

(١) يوم الجمعة الحزينة هو اليوم الذى يحزن فيه الأقباط على صلب اليهود للسيد المسيح، وهو اليوم الذى يسبق وقفة عيد القيامة — المترجم.

مثل جميل للنقوش المعدنية التى تمثل الصيد فيبرز النقش على السطح المقابل . وهذا الصندوق يؤتى به من على المذبح حيث يتسلمه أحد الشمامسة ويضعه على المقرأ ثم يقرأ من إنجيل آخر هناك . والمقرأ نفسه شىء بديع أعد ليكون أداة من أدوات الزينة . وذلك المقرأ الذى كان فى الكنيسة المعلقة — والذى نراه الآن فى كنيسة الأقباط الكبرى فى القاهرة — مغطى بنقوش بديعة تشبه تلك النقوش التى نراها على أبواب المساجد ومنابرها .

ومن بين الكنائس الست التى كان يشتمل عليها حصن بابليون ، نرى ثلاثا فى غاية الروعة والبهاء . ذلك أنه على الرغم من أن كنيسة سانجورج الإغريقية التى تقوم على قمة البرج المستدير محلاة بالقرميد السورى والمصابيح المصنوعة من الفضة . فإن البرج الرومانى نفسه أكثر إمتاعا من الكنيسة المقامة عليه ، وذلك للبئر الذى فى الوسط ، والدرجات الكثيرة ، والحجرات الغريبة المتلألئة . ومن هذه الكنائس القبطية الأساسية الثلاث ، نجد كنيسة القديس سرجيوس أو « أبى سرجه » ، وهى التى يتردد عليها الناس أكثر من غيرها ، لأنه قد أثر أن العائلة المقدسة استراحت فى ناووسها حينما أتت إلى مصر . ومن المؤكد أن هذا الناووس أقدم من الكنيسة التى تعلوه بقرون كثيرة ، إذ يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الميلادى . والكنيسة نفسها تتميز بستارة بديعة الصنع ، وعلى مقربة منها مثل واضح للنقوش القبطية القديمة التى تمثل ولادة المسيح والقديسين المحاربين وقد بدت صورهم بارزة . وثمة مثل آخر لهذه الصور المحفورة نراه فى كنيسة القديسة برباره .

وإلى جانب كنيسة أبى سرجه وكنيسة القديسة برباره ، لا تزال هناك كنيسة قبطية ثالثة جديرة بالذكر لا تقل عن هاتين الكنيستين روعة وبهاء . وهذه الكنيسة معلقة بين برجين رومانيين مرتفعين ، فوق باب من الطراز القديم منقوش عليه نسر . وقد سميت هذه الكنيسة — كما يدل على ذلك موقعها — الكنيسة المعلقة . وهذه الكنيسة جديرة بالملاحظة وتثير الانتباه لعدة أسباب ، لأنها أقدم كنائس بابليون على الإطلاق ، ولأنها خالية تماما من القباب . ولهذه الكنيسة مزايا أخرى ، فليس لها هيكل كغيرها من الكنائس ، بل هنالك منصة مرتفعة أمام السقف المنخفض فى الجهة الشرقية . وهذه المنصة تؤدى الغرض الذى يؤديه الهيكل ، على حين نرى السقف مضاعفاً فى الجانب الشمالى ، والحاجز المنقوش فى

الجانب الشمالى مرصع بالزخارف المصنوعة من العاج الرقيق مما يزيد فى بهجة المكان وجماله حينما كانت تضاء المصابيح المعلقة خلفه . أما المنبر فقد نقش نقشاً بديعاً رائعا ، وهو مقام على خمسة عشر عمودا دقيقا صنعت على الطراز الإسلامى ، مقسمة إلى سبعة أزواج أقيم أحدها فى المقدمة . ولعل من أغرب ماتحويه الكنيسة المعلقة ، حديقتها المعلقة حيث ساعدت الخبرة على غرس النخيل فى الفضاء على تأييد تلك الرواية القائلة بأن السيدة العذراء حينما أتت إلى مصر أفطرت بعد صيامها من تمر ذلك النخيل .

وليس هذا مجال الكلام عن طقوس الكنيسة القبطية وعقائدها . إن صيام الأقباط الكبير الذى يستغرق خمسة وخمسين يوما ، والذى يمتنع فيه الشخص امتناعا تاما عن الطعام منذ شروق الشمس حتى غروبها فى كل من هذه الأيام — هذا الصيام لا شك أنه يوحى إلينا بصوم رمضان الأقل شدة عند المسلمين . وسر الزواج المقدس [١] يحمل بين طياته بعض العناصر الغريبة . غير أنه مما لاشك فيه أن معظم الاحتفالات التى تتم فى الكنيسة القبطية لها وقارها وهيبتها . فما من أحد يستطيع أن يشهد القداس فى كنيسة قبطية دون أن يثير ذلك انتباهه . وكذلك لا يستطيع أحد ألا يتحرك لسماع أصوات الشمامسة وهم يترنمون فى الكنيسة القبطية فى صوت واحد مرتفع . ومهما يكن من شىء فلا ينبغى أن ننكر ما تدين به الكنيسة القبطية من إيمان قويم .

(١) للكنيسة القبطية سبعة أسرار ، وهى أعمال مقدسة ومنح إلهية مؤسسة من الله لتكون واسطة لنيل المؤمنين فيض نعمته . وهذه الأسرار السبعة هى : ١ — سر المعمودية ٢ — سر الميرون ٣ — سر القربان ٤ — سر الإعتراف ٥ — سر مسحة المرضى ٦ سر الزواج ٧ — سر الكهنوت — المترجم .

الباب الثالث

القطائع

ولاة الخلفاء — حلوان — معاملة المسيحيين — الرهبنة — الأقباط المحافظون — « العسكر » المدينة العباسية — ولاة العباسيين : ابن ممدود — عبد الله بن طاهر — الخليفة المأمون فى مصر — اضطهاد المسلمين والقبط — ولاة الأتراك — تشجيعهم الفن — أحمد بن طولون — « القطائع » المدينة الجديدة — السقاية — جامع ابن طولون — مصادر العمارة العربية — حروب أحمد بن طولون — قصور خمارويه — الخلفاء يستردون مصر — قلعة الكبش .

أصبحت مصر بعد الفتح العربى سنة ٦٤٠ م ولاية تابعة للخلافة الإسلامية ، ومن ثم أصبح يحكمها — كما كانت سائر الولايات الأخرى — ولاة من قبل الخليفة . وقد احتفظ الخلفاء الأربعة بالمدينة المنورة التى اتخذها الرسول مقرا للحكومة العربية حاضرة للخلافة . غير أنه بعد مقتل على بن أبى طالب ، رابع الخلفاء الراشدين ، حولت الدولة الأموية مقر الحكم إلى دمشق التى جاء منها معظم الولاة الثلاثين الذين حكموا الديار المصرية فى أثناء التسعين سنة التى تولت فيها الخلافة الأموية الحكم . وكان بعض هؤلاء الولاة أولاد أو أخوات الخلفاء الذين كانوا يتولون الحكم فى ذلك الوقت . كما أن معظمهم كانوا من المقربين إلى أولئك الخلفاء . ولم تكن لهم خبرة فى أساليب الحكم وإدارة شئون البلاد ، كما كانوا يجهلون كل شىء سوى دينهم ولغتهم . وكانت غاية الخليفة فى دمشق أن يحصل على أكبر قدر ممكن من خراج الولايات التابعة له . وكانت مصر بوجه خاص ينظر إليها فى ذلك الوقت على أنها بقرة حلوب . وكان عمرو بن العاص الفاتح العربى أول من حكم مصر . ولما استقر فى حاضرته الجديدة « الفسطاط » أرسل نوابه فى أنحاء البلاد فتمكنوا من جمع ما يقرب من ستة ملايين جنيه من شعب يتراوح بين ستة ملايين وثمانية ملايين نسمة . ولما توفى هذا المحارب القديم فى التسعين من عمره ودفن فى تلال المقطم ، قيل إنه ترك سبعين كيسا من الدنانير [1] ، أو ما يقرب

---

(١) الدينار : عملة ذهبية يعادل وزنها نصف جنيه من الذهب .

من عشرة أطنان من الذهب. غير أن أولاده الذين اشتهروا بالاستقامة اعتذروا عن أخذ نصيبهم من الميراث .

ومهما يكن من شيء ، فإن من المؤكد أن الولاة كانوا يولون وجوههم شطر الضرائب بنوع خاص ، وأنهم لم يهتموا بشئون البلاد بقدر ما كانوا يهتمون بتحصيل الجزية وضريبة الأراضى . وكانوا يجمعون هذه الضرائب وينظرون إليها كما لو كانت ملكا يتصرفون فيه كما شاءوا . وليس من شك فى أن الوالى الذى كان متوسط مدة ولايته ثلاث سنين ونصف سنة ، والذى كانت معيشته بعد ذلك تعتمد فى العادة على ما ادخره فى خلال فترة حكمه — إذا عرفنا ذلك أدركنا أنه إنما وقع تحت إغراء شديد يدفعه إلى الاستفادة من هذه الفرص القصيرة بقدر ما يستطيع . وكان من بين هؤلاء الولاة الصالح وغير الصالح . غير أن قصر عهد الولاة واعتمادهم اعتمادا مطلقا على الخليفة فى دمشق ، قد حدّ من نفوذهم ونشاطهم . ومن ثم قنعوا بالعمل على حفظ النظام وإرسال الجزية إلى خليفتهم . بيد أن منصب الوالى لم يكن سهلا ميسورا. فقد كان هناك آلاف من جند العرب فى الفسطاط والإسكندرية وسائر المدن المصرية . غير أن الولاة المتعاقبين كانوا يجلبون معهم جنوداً يحلون بهذه البلاد . أما بقية السكان فكانوا من المسيحيين الذين عقدوا العزم على أن يظلوا على دينهم . والواقع أن تغيير المسيحيين لدينهم على نطاق واسع كان بمثابة نكبة تحل على الخزينة ، لأن ذلك معناه ضياع جزية مقدارها جنيه عن كل شخص من أهل الذمة. غير أن تلك الأقلية كان لها خطرها، بدليل أن أحد الولاة الذى ولى مصر بعد الفتح بنحو تسعين سنة ، قد يئس من إدماج عدد يذكر من المواطنين المصريين إلى صفوف المسلمين ، فلجأ إلى استدعاء خمسة آلاف من العرب وإسكانهم فى الوجه البحرى . والواقع أن مصر لم تصبح إسلامية إلا بخطوات وئيدة ، وبعد اندماجهم فى أهالى البلاد الأصليين بالمصاهرة والزيادات المطردة فى العرب النازحين إلى مصر عن طريق الهجرة . وقد اقتصر نزل العرب على المدن الكبيرة دون سواها ردحا طويلا من الزمن .

ولا بد أن تكون الفسطاط نفسها قد اجتذبت عددا كبيرا جدا من القبط من المدن المصرية المجاورة التى بدأت تندثر . ولم يكن هؤلاء القبط من النساء اللاتى اتخذهن الفاتحون العرب زوجات لهم وحسب ، بل من الرجال الذين عملوا فى خدمة

الحكومة . وكان طبعيا أن تكون جميع الأعمال الحكومية فى أيدى المحكومين من الشعب . ولم يكن عرب الصحراء ليعرفوا شيئا عن نظام الحكم أكثر مما كانوا يعرفونه عن النظام القبلى الذى درجوا عليه — ذلك النظام الذى يقضى بأن تكون السن والفضائل أساس اختيار شيخ القبيلة ، ومن ثم نراهم يطبقون أينما حلوا تلك النظم التى وجدوها فى البلاد التى خضعت لسلطانهم . وكانت الوظـــائف الزوجية تنقل إلى ما يقابلها من الوظائف العربيـــة . وكان القبط — الذين ولدوا ليصبحوا كتابا وصيارفه — يتولون إدارة الدواوين جميعا . وقد ظلت الكتب الحكومية والوثائق العامة تدون باللغة القبطية نصف قرن . غير أن المنفعة لا تستلزم التسامح . ومن ثم لم يسلم المسيحيون دائما من الاضطهاد على الرغم من الخدمات التى كانوا يؤدونها للحكومة . ومهما يكن من أمر هذا الاضطهاد ، فانهم لم يعاملوا معاملة أسوأ من تلك المعاملة التى يتوهمها البعض أحيانا . ولقد ساعد القبط عمرو بن العاص حينما كان يغزو مصر ، ولذلك نجد عمرا يذكر لهم هذا الجميل فيمنح اليعاقبة امتيازات ويرد بطريقهم من منفاه إلى كرسيه . كما سمح وال آخر للقبط بأن يبنوا كنيسة لهم فى مدينة الفسطاط بجوار الجسر الذى كان يصل بين الحاضرة وجزيرة الروضة.(١)

كذلك نجد واليا ثالثا هو عبد العزيز ابن الخليفة الأموى مروان بن الحكم ، يشترى أحد الأديرة فى طمويه من الرهبان ويدفع لهم أكثر من عشرة آلاف جنيه ثمنا له حين أراد أن يمتلك داراً فى الريف . ولقد ذهب هناك الاستشفاء من الجذام من الينابيع الكبريتية فى حلوان التى تقع بين القاهرة ومنف . ومن عجب أن ندرك كيف أن هذه المدينـــة الصحية (وقد تحولت الآن نحو الصحراء) كادت تصبح حاضرة مصر . وقد بلغ من إعجاب عبد العزيز بجو حلوان أنه بنى هناك مساجد فى سنة ٦٩٥ م ، كما بنى قصرا يعرف « ببيت الذهب » نسبة إلى قبته الذهبية . كما أنشأ فى هذه المدينة حديقة غناء ، وغرس الأشجار ، وأنشأ بها بركة كبيرة وقناطر (٢) ، وبنى مقياسا للنيل .

---

(١) يقصد مسلمه بن مخلد (٥٣ — ٦٢ هـ) الذى أقر القبط على بناء الكنائس مع منافاة ذلك لشروط الصلح . المترجم .

(٢) ساق عبد العزيز الماء إلى البركة عن طريق قناطر معلقه (aqueducts) تصل العيون القريبه من المقطم بالبركة . وقد أخذ العرب عن الرومان هذا النوع من القناطر التى كانت منتشرة في بلاد الدولة الرومانية فى القرن الثاني الميلادى . المترجم .

وكان حدّ النيل الأدنى إلى ذلك الوقت يقاس فى مدينة منف . غير أنه فى سنة ٧١٦ شيد مقياس جديد للنيل فى جزيرة الروضة . ثم بنى بعد ذلك مقياس آخر فى طرف الجزيرة الأعلى فى سنة ٨٦١ م . على أن الولاة المتعاقبين لم يشاركوا عبد العزيز بن مروان فى آرائه الخاصة من حيث مباهج حلوان أو من حيث علاقته بالقبط . ومن ثم نقرأ عن ذلك النظام الذى أدخله العرب وآثار غضب القبط فيما يتعلق بجوازات السفر والشارات التى تميز الرهبان والغرامات وألوان التعذيب وتحطيم الصور المقدسة، بما أثار مثل ذلك السخط ، حتى إن الناس أذكوا الثورات . وقد وجدنا أن ملك بلاد النوبة المسيحى سار إلى مصر ليطلب إطلاق سراح أحد البطارقة الذى زج به فى غياهب السجن .

ولم تكن هذه الاضطهادات من جانب المسلمين على أى حال أكثر من اضطهاد المسيحيين لليهود فى ذلك الوقت . غير أن هذا لا يبرر ما كان يقوم به المسلمون . ويظهر أن الرهبان هم الذين أثاروا تعصب المسلمين الأولين ، حيث لم تجد تعاليمهم الرهبانية قبولا لدى هؤلاء المسلمين . ولقد حدث فيما بعد أن الخلفاء الشيعيين فى القاهرة عاملوا رهبان القبط معاملة تنطوى على العطف والرعاية . غير أن الحال لم يكن كذلك فى عهد الفتوح العربية . ولقد كانت الرهبنة فى مصر قوة لا يستهان بها منذ أقدم العصور . ففى القرن الثالث حدث أن انتشر أتباع القديس مرقص واستقروا فى جماعات مختلفة فى كافة أرجاء الدلتا ، وأخذوا يكونون ما يعرف «بالحكم المصرى» . ولا نعرف إلى أى حد نحن مدينون لأولئك النساك الأقدمين، فيعتقد البعض أن المسيحية الإيرلندية التى تعتبر العامل الحضارى العظيم فى العصور الوسطى الأولى بين الأمم الشمالية ، هى التى تمخضت عنها الكنيسة القبطية . فهناك سبعة من الرهبان دفنوا فى Disert Ulidh . وهناك كثير من الحفلات وأساليب العمارة فى إيرلندة القديمة ، مما يذكر الإنسان ببقايا المسيحية فى العصور الأولى فى مصر . وكل منا يعلم أن الحرف التى كان يقوم بها الرهبان الإيرلنديون فى القرنين التاسع والعاشر ، كانت تفوق إلى حد بعيد ما عساه يوجد فى أى مكان آخر فى أوربا فى ذلك الوقت . وإذا كانت نقوشهم البيزنطية الرائعة على الذهب والفضة والمصابيح ترجع إلى تعليم المبشرين المصريين ، فإن من العدل أن نشكر القبط شكرا لا حد له . ومما هو معروف فى تاريخ الفن أن العرب فى بنائهم يدينون للقبط بكثير من مباهج هذا الفن .

ومثل هذه الاعتبارات لم تكن لتستطيع بطبيعة الحال ان تؤثر فى أناس كالعرب انعدمت لديهم الروح الفنية تماما . فهم كانوا ينظرون إلى الرهبان الأقباط على أنهم مرشحون للوظائف الكتابية وحاملو أسرار جديرة بالحصول عليها لصالح المؤمن . أما الزمالة أو الصداقة فلم يكن لها أى اعتبار . والحقيقة التى تقول بأن الاضطهاد لم يتخذ صيغة عامة ودائمة ، يجب أن تعزى إلى تكاسل بعض أفراد من الحكام أو إلى طبيعتهم المتسامحة . كذلك تعزى إلى ذلك المثل الحكيم الذى يحرم ذبح الأوزة التى تضع بيضاً من الذهب . ونقرأ بين حين وآخر عن مذابح تنطوى على القسوة ، وعن ألوان التعذيب وتخريب الكنائس القبطية ، ثم لا تلبث أن تسمع عن إذن ببناء إحدى الكنائس أو إعادة بنائها . كذلك نجد القبط يجتمعون فى هدوء فى حصن بابليون الذى كانوا يحتلونه دائماً لانتخاب بطريق لهم . وفى الوقت نفسه تظهر بعض العبارات التهكمية والصور الساخرة والتماثيل التى تمثل الشيطان معلقة جميعها على أبواب القبط . وكم كان يحدث من وقت إلى آخر ثورة أو مشاجرة فى الطرق تتمخض دائماً عن مذبحة مروعة يتبعها تخريب كثير من الكنائس وسقوطها .

ولكن على الرغم من كل ذلك الاضطهاد ، ومن مروق ضعاف الرهبان من دينهم ، لا تزال الكنيسة تحتفظ بوجودها الذى يكتنفه الكثير من الصعاب . والواقع أن ثبات تلك الطبقة الجاهلة — لأن رجال الدين من القبط لم يكن لهم فى ذلك الوقت حظ من التعليم — على ما كان عليه الأقدمون من إيمان وعقيدة ، مما ينم عن الكثير من صفات البطولة والشهامة . فقد احتفظوا بطقوسهم واحتفالاتهم الدينية كما كان يقوم بها آباؤهم من قبل ، ولو أن جدران كنائسهم الباقية الكثيرة الثقوب ، وأبوابها الضخمة المتينة ، وممراتها السرية — كل هذا يشهد بما كانت تتعرض له تلك الاحتفالات من أخطار . وكان كثير من هذه الكنائس يصل إلى درجة كبيرة من الغنى ، كما تدل على ذلك النقوش الرائعة . ولعل ذلك راجع إلى أن أصحابها لم يستطيعوا أن يستغنوا عن فن الكتابة والحساب الذى درجوا عليه . ولقد كان لاختصاص القبط فى هذا الفن واحتكارهم إياه وتمسكهم بعقيدتهم القديمة أنهم لم يتغيروا حتى اليوم على الرغم من مرور القرون والأجيال ، بل لقد بقوا محتفظين بشخصيتهم وتقاليدهم الخاصة برغم ما لحق بهم من ألوان الاضطهاد . فالقبط

ما زالوا حتى اليوم شعبا منعزلا ، أقل امتزاجا بالدم الأجنبي من سائر سكان وادى النيل . فملامحهم تذكرنا بملامح قدماء المصريين التى نراها على آثارهم ، وهى فى هذ أقرب من ملامح الأهالى من المسلمين . وليست الناحية الجسمية وحدها هى التى تبين لنا أن القبط هم خلفاء قدماء المصريين ، بل إن اللغة أيضاً تدلنا على ذلك . فلهجتهم — كما نسمعها اليوم فى طقوسهم واحتفالاتهم الدينية فى الكنائس — ترجع فى أصلها إلى اللغة الهيروغليفية وإلى حجر رشيد . وهم بطبيعة الحال يستعملون اللغة العربية فى حياتهم اليومية . غير أن الكلمات المقدسة فى دينهم لا تزال مفهومة بعض الشيء لدى رجال الدين ، كما أنها تحتفظ فى الوقت نفسه بمكانتها وجلالهـــا بجانب الترجمة العربية إذا ما استخدمت فى أغراض الكنيسة . ومما يدل على جمودهم أنهم يحتفظون بتلك اللغة القديمة ، لا من حيث النصوص التى تتعلق بها — وهى عبارة عن الكتابة على الآثار على شكل رسوم — بل من حيث هذا الضرب من الحروف الكبيرة البارزة التى نراها فى المخطوطات الإغريقية القديمة . وإن شعبا من سلالة الفراعنة يتكلم بلغة رمسيس ويكتبها بحروف Cadmus ، ثم يستخدمها بعد ذلك فى عقائده وطقوسه الدينية التى لم يستطع اثنا عشر قرنا من الاضطهاد أن يغير منهـــا شيئاً — إن شعباً كهذا لهو فى الحق أعجوبة من أعاجيب التاريخ .

ولقد جاء الخلفاء العباسيون بعد أسلافهم الأمويين سنة ٧٥٠ م . وكانت مدينة الفسطاط فى ذلك الوقت مسرحا لذلك الصراع الأخير . فلقد هرب مروان آخر خلفاء الدولة التى قدر لها الزوال إلى مصر حيث أشعل النار فى طريقه إلى الفسطاط ، وإلى الجسر الذى كان يصلها بجزيرة الروضة . وبعد ذلك فر إلى الشاطىء الغربى للنيل . غير أن التدابير التى اتخذها قد ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن القائد العباسى وجند خراسان سرعان ما وجدوا الوسائل لعبور النيل . وكان طواف المدن برأس مروان دلالة على زوال عهد وقيام عهد جديد . ونحن نعرف أن المغتصبين يمقتون أشد المقت أن يقيموا فى دور من غلبوهم على أمرهم . وهكذا تحول الخلفاء العباسيون عن دمشق وبنوا لأنفسهم حاضرة ذائعة الصيت فى بغداد . أما ولاتهم فى مصر فقد صرفوا نظرهم عن بيت الإمارة فى الفسطاط ، وأسسوا ضاحية رسمية جديدة كقصر ... أى بالنسبة إلى باريس ، فى المكان الذى عسكر فيه الجند ، وأطلقوا عليها

« العسكر » . وكان موقع هذه المدينة فى الناحية الشمالية الشرقية من الفسطاط تقريباً على جزء من الحمراء القصوى التى كانت قد احتلتها ثلاث من القبائل إبان الفتح العربى ثم هجرتها فاستحالت إلى صحراء . فى ذلك المكان تكونت ضاحية جديدة نمت على مر الزمن وغدت تمتد من الفسطاط إلى جبل يشكر حيث يقوم جامع ابن طولون الآن . وسرعان ما بنى هناك مسجد وقصر للوالى وثكنات لجيوشه . ولم تلبث تلك الضاحية الجديدة أن امتلأت بالشوارع والميادين ، كما أحاطت القصور الكبيرة بهذه المدينة الجميلة التى اتخذها الخمسة والستون واليا الذين كانوا يمثلون الخلفاء العباسيين مركزا لحكومتهم مدة مائة وثمانى عشرة سنة . ولقد بنى أحد هؤلاء الولاة لنفسه فى سنة ٨١٠ م قصرا صيفيا أطلق عليه « قبة الهواء » على طرف المقطم حيث بنيت قلعة القاهرة . وإلى ذلك المكان كان يختلف ولاة مصر من حين إلى حين لينعموا بالنسيم العليل . غير أن تلك الضاحية الجديدة لم تكن سوى حى للموظفين ودور للقضاء ، وهى فى الوقت نفسه لم تقلل من أهمية الفسطاط باعتبارها حاضرة مصر .

غير أن تلك الضاحية الجديدة لم يتبق منها أى أثر . بل إن سجل الولاة الذين عاشوا هناك قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال[1] . ولقد كان عمل هؤلاء الولاة أصعب من عمل أسلافهم الذين حكموا مصر تحت ظل الخلفاء الأمويين . كما أنه كان عليهم أن يقضوا على الخلافات التى قامت بين المسلمين ، والثورات التى اشتعلت بين القبائل العربية والقبط . ولقد شهدت مدينة الفسطاط هذه الثورات التى عرضت فيها رءوس آلاف الثائرين ، كما أن شجاعة الخارجين كان ينتابها الوهن حين كانوا يرون بأعينهم رءوس زعمائهم وقد رفعت فى جامع عمرو بن العاص . والواقع أن تاريخ هذه الفترة بين سنتى ٧٥٠ و ٨٦٠ م عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الفتن والثورات والمؤامرات السرية والعقائد الكاذبة والإلحاد والانشقاقات . غير أن هذه الاضطرابات قلما أثرت فى تلك الحاضرة الغنية . وكانت نزوات بعض الولاة أكثر إثارة لسخط المدنيين الآمنين . فلقد كان أبو صالح ابن يزدود فى سنة ٧٧٩ م شديدا نوعا ما ، فأظهر نشاطا عظيما فى القضاء على

---

(١) للوقوف على سنى حكم ولاة مصر راجع كتابى :

History of Egypt in the Middle Ages, pp. 18 — 58.

اللصوصية وقطع الطريق فى الريف . ولقد بلغ من رضائه عما اتخذه من اجراءات أن اكتفى بإقناع نفسه بعدم استحالة وقوع السرقات فى المدن . وأدى به اقتناعه بهذا الاعتقاد إلى أنه أمر أهل الفسطاط بغلق أبواب منازلهم وحوانيتهم فى الليل، وألا يتخذوا أية وسيلة من وسائل حمايتها أكثر من وضع شرائح القصب لتمنع الكلاب من دخول الأبواب . كما منع حراس الحمامات من الجلوس فيها وقال : من ضاع له شىء فعلىّ أداؤه . فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول : يا أبا صالح احفظها[١]. وهكذا لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب من تلك الملابس. وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الأمن كان يستلزم الكثير من السهر والتيقظ من جانب ذلك الوالى . غير أن ما سنّه من القوانين الغاشمة عن الملابس وتدخله فى شئون الناس قد أهاج سخط الأهلين حتى لقد كانت قسوته أسوأ من الشرور التى قضت عليها .

وهناك قصة رويت عن الخليفة المشهور هارون الرشيد ، وإن لم تكن من القصص التى تجلب له الاحترام والتبجيل من ناحية الذين رشحوه للخلافة . ذلك أن أحد ولاة زمانه ويدعى موسى [بن عيسى][٢] العباسى كانت له خبرة واسعة بأعمال الحكم ، كما أحسن إلى القبط وسمح لهم بإعادة بناء ما تهدم من كنائسهم . وقد بلغ الرشيد أنه يريد الخروج عليه [ولا يبعد أن يخلفه إذا كان أحد أفراد بيته] فصاح : « والله لا عزلته إلا بأخس من على بابى » . فنظر فإذا عمر [بن مهران] كاتب [الخيزران] أم الرشيد ... يركب بغلا ... ، فخرج إليه جعفر [بن يحيى البرمكى] وقال : أتتولى مصر؟ فقال : نعم ! فسار إليها ، فدخلها وخلفه غلام على بغل للثقل فقصد دار موسى [فى مدينة العسكر] فجلس فى أخريات الناس . فلما انفض المجلس قال موسى [وكان لا يعرفه] : ألك حاجة ؟ فرمى إليه بالكتاب . فلما قرأه قال . لعن الله فرعون حيث قال : (أليس لى ملك مصر) ؟ ثم سلم إليه ملك مصر ، فهدها عمر المذكور ، ورجع إلى بغداد وهو على حاله[٣] » .

(١) انظر كتاب الولاة وكتاب القضاة لأبى عمر الكندى ص ١٢٢ . المترجم .

(٢) ولى مصر ثلاث مرات : الأولى سنة ١٧١ — ١٧٢ هـ ، والثانية سنة ١٧٥ — ١٧٦ هـ ، والثالثة سنة ١٧٩ — ١٨٠ هـ . المترجم .

(٣) راجع كتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن (جـ ٢ ص ٧٨ — ٧٩) حيث وردت هذه العبارة عند كلامه على ولاية موسى بن عيسى الثانية . المترجم .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد فى بعض الأحيان ولاة أكفاء يبعث بهم من بغداد أحيانا . ومن أمثال هؤلاء عبد الله بن طاهر والى خراسان شمالى بلاد فارس (حيث أسس دولة فيما بعد) . وكان عمله فى مصر ينحصر فى طرد جموع غفيرة ممن لجئوا إلى مصر من أسبانيا ، وكانوا قد استولوا على الإسكندرية حيث ساعدتهم إحدى القبائل العربية المتحمسة على الخروج على الحكومة . غير أن عبد الله بن طاهر اضطر فى أثناء اضطلاعه بهذا العمل إلى القبض على سلفه [عبيد الله ابن السرى] الذى أبى أن ينزل له عن الولاية . وكان من أثر ذلك أن حوصرت الفسطاط برا وبحرا فى سنة ٨٢٦م . وقد حدث أن جاء إلى معسكر عبدالله بن طاهر فى إحدى الليالى ألف عبد وألف جارية يحمل كل منهم ألف دينار فى كيس. غير أن عبد الله أبى أن يقبل هذه الرشوة ، وأرغم حامية الحصن على الخروج من المدينة بعد أن مات أكثرهم من شدة الجوع . ولكن عبد الله بن طاهر عاد إلى فارس لسوء الحظ بعد أن انتهت مهمته ، وفقدت مصر مثالا نادرا للحكم العادل الرحيم ، كما كان عالما محبا للشعر معضدا للشعراء . ومما يؤثر عن حكم عبد الله بن طاهر «العبدلاوى» ، ذلك النوع من الشمام الذى أدخله عبدالله لأول مرة فى مصر والذى تذوقه الأوربيون فى أى فندق من فنادق القاهرة . ولقد حدث فيما بعد أن جاء الخليفة المأمون بن هارون الرشيد بنفسه إلى مدينة العسكر فى سنة ٨٣٢ م لإخماد تلك الثورة الجامحة التى أذكى نارها القبط فى الوجه البحرى . وقد اشتهر المأمون بتشجيع العلم والفلسفة . فقد أتم القضاء على الثورة بإحكام ومن غير شفقة ، حتى إنه لم تقم بينهم حركة قومية فيما بعد من هذا القبيل . وقد دان بالإسلام كثير من القبط ، واستقر العرب فى الأراضى والقرى بدلا من المدن الكبيرة ، وبذلك أصبحت مصر آخر الأمر بلدا إسلامية . وكانت تلك هى المرة الأولى التى يزور فيها النيل خليفة عباسى . ومن ثم وجدنا الشعراء يتسابقون إلى مدحه مديحا عاطرا . غير أن المأمون حين شاهد هذا المنظر من «قبة الهواء» تملكه الاستياء وقال ما قاله موسى بن عيسى والى مصر الأسبق : «لعن الله فرعون حيث قال (أليس لى ملك مصر) ؟ »[1]

غير أن زيارة الخليفة المأمون مصر وإن كانت قد أخمدت ثورات القبط فإنها أثارت متاعب أخرى جاءت نتيجة لها . فلقد كان من أثر شغفه بالتفكير فى الله

---

(١) قرآن كريم . سورة الزخرف ، آية ٥١ .

وفيما وراء الطبيعة — ذلك التفكير الذى أدى إلى تشجيع دراسة الفلسفة اليونانية فى بغداد — أنه دان بالعقيدة التى تقول بخلق القرآن والتى تعارض رأى المسلمين من أهل السنة معارضة صريحة. وكان هذا المذهب الجديد البغيض بمثابة امتحان للقضاة. كما أن كل من حدثته نفسه بمعارضة هذا الرأى كان يلقى كثيرا من ألوان العنت والإرهاق. ولقد حدث أن عارض أحد قضاة القضاة فى الفسطاط هذا المذهب، فنزعت لحيته وطيف به فى طرقات المدينة وضرب بالسوط وهو على حمار. كما أن أساتذة مدارس المذهبين الحنفى والشافعى قد طردوا شر طردة من جامع عمرو ابن العاص. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان هذا العار أقل ما لحق بإنسان، لأن القضاة كانوا فى ذلك الوقت يمثلون فريقا لا يستهان به من موظفى الحكومة المصرية. ذلك أنهم كانوا يعرفون بالاستقامة والنزاهة بصفة عامة. كما أن قاضى القضاة كان مستقلا تمام الاستقلال عن سلطة الوالى، وكان بمثابة وزير العدل فى مصر فى ذلك الوقت، يفسر الشريعة ويشرف على تطبيقها. ولم يكن يتردد فى اعتزال منصبه إذا لم تقبل أحكامه. ومهما يكن من شىء، فإنه لم يكن مستعدا لأن يكبح جماح تعصب بنى جلدته. وقد تبع القضاء على ثورة المسيحيين اضطهاد لم يسبق له مثيل. وبعد وفاة الخليفة المأمون أخذ عداء أهل السنة يظهر من جديد، وجاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) فأصدر عددا من القوانين التافهة بقصد إذلال القبط (٨٥٠ م) : « فأمر (سنة ٢٣٥ هـ) أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير، وركوب السروج بالركب الخشبية . . . وعمل رقعتين على لباس رجالهم . . . وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب (أو نسانيس أو كلاب)، ومنعهم من لبس المناطق . . ونهى أن يظهروا فى شعانينهم صليبا وأن لا يشعلوا فى الطريق نارا »[1]. وكان الغرض من هذا بطبيعة الحال تهيئة الفرصة لاغتصاب الأموال وفرض الغرامات على كل من تسول له نفسه بمخالفة لوائحه.

ولسنا فى حاجة إلى أن نسهب فى الكلام عن فترة الحكم العربى فى مدينتى الفسطاط والعسكر. فإن الولاة من العرب لم يخلفوا من ورائهم إلا أثرا ضئيلا. ومع أنه مما يؤسف له أنه لم يبق أمامنا اليوم مثل واحد من أبنيتهم — مما كان يكوّن حلقة من حلقات الفن الإسلامى — فلا بد أنه كان لتلك المبانى قيمة عظيمة.

---

(١) المقريزى : كتاب الخطط جـ ١ ص ٤٩٤ .

والواقع أن العرب لم يبتكروا فى الفن شيئا . وما يعرف فى أسبانيا « بالفن العربى » يرجع فى أصله إلى أجناس أخرى أكثر رقيا من العرب . كذلك فى مصر فإننا لا نجد أى أثر للفن الإسلامى إلا حينما أخذ الخلفاء يقلدون مصر ولاة من الأتراك . وفى الوقت الحاضر نسمع الكثير عن سوء حكم الأتراك . ولكن فليكن هذا الحكم طيبا أو سيئا ، فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن التركى يستطيع أن يحكم . ذلك أنه فى العصور الوسطى كان يبدو أن الأتراك هم الشعب الوحيد الذى كان يمتلك أساليب الحكم . وليس أدل على هذا من أن أعظم حكام آسيا فى القرن الحادى عشر الميلادى هو ملكشاه السلجوقى وكان تركيا . كذلك كان ما نطلق عليهم مغول الهند من أمثال بابر ، من الأتراك . وحينما تقسمت أوربا المنازعات والمنافسات كان نفوذ سلاطين الأتراك فى القسطنطينية يمتد من نهر الطونة إلى المحيط الهندى ، ومن القوقاز إلى جبال أطلس . وليس أشد عجبا من هذه الحقيقة وهى أنه حيثما وجد حكم تركى فى العصور الوسطى ازدهرت الفنون والآداب تبعا لذلك . والواقع أن الفن لم ينتعش فى بلاد كثيرة حتى أتى الأتراك فاستمد وحيه منهم . وليس معنى ذلك أن الأتراك أنفسهم كانت لديهم قدرة فائقة خاصة على الابتكار فى الفن أو الأدب — ذلك أنه من الصعب أن نشير على الأقل من بين الحكام من الأتراك الذين حكموا مصر — مع فترة تقل عن مائتى سنة كان جميع حكامها تقريبا أتراكا فى الأحد عشر قرنا الماضية — إلى عدد كبير كان أهلا لترقية الثقافة . على أن ذلك كان يرجع إلى تلك اليد القوية التى ساعدت على استقرار النظام الذى هو من مستلزمات نشر الثقافة . ثم إن جنودهم كانوا لا يتورعون عن جلب النقود التى كان الحكام فى حاجة إليها لبناء القصور الفخمة التى كانوا يحبون أن تنعكس عليها قوتهم وثراؤهم . ولا يبعد أن يكون لأولئك الحكام شغف غريزى بالفن ، كما أن معظمهم كانوا مولعين بالبذخ وحب الظهور ، ميالين إلى أن يحيطوا أنفسهم بكل ما هو فاخر ونفيس . كما أن كثيرين منهم كانوا يعتقدون أن وقف المال على أماكن العبادة قد يكفر عن الذنوب التى يرتكبها الفرد فى حياته . وهم فى هذا إنما يذكرون قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من بنى بيتا لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة » . ومهما يكن من شأن الأسباب التى دفعت الأتراك إلى هذا كله ، فإن الحقيقة التى سوف تبقى دائما هى أننا نجد

أثرا لنفوذ الأتراك فى جميع أنحاء الشرق من البوسفور إلى الكنج . وإلى أتراك دلهى وأجرا يرجع الفضل فيما عرفناه عن قطب منار والتاج والزينات الدقيقة فى فاتبور سكرى . كذلك بنى الأتراك مسجد عطاء الله فى جونپور ، ومساجد أحمد أباد والفور وبيجاپور . كما بنى الأتراك السلاجقة المبانى الفخمة فى قونية وقيسارية وسيواس وغيرها من مدن آسيا الصغرى . أما الأتراك العثمانيون فقد بنوا أضرحة بروسة والمساجد السلطانية التى تأتى فى الأهمية بعد مسجد القديسة صوفيا فى القسطنطينية . ومثل هذا تماما نجده فى مصر . فأول أنموذج للفن الإسلامى الخالص لم يظهر إلا حينما بدأ الأتراك يقبضون على زمام الحكم . فإلى سنة ٨٥٦ م كان حكام مصر جميعا من العرب ، وباستثناء جامع عمرو بن العاص ، لم يكن هناك ما يتميز بالطابع العربى . أما منذ سنة ٨٥٦ م فإن حكام مصر قد أصبحوا من الأتراك . وبعد عشرين سنة ظهر جامع ابن طولون ، أول وأعظم المبانى التى تتميز بطابع الفن العربى فى مصر .

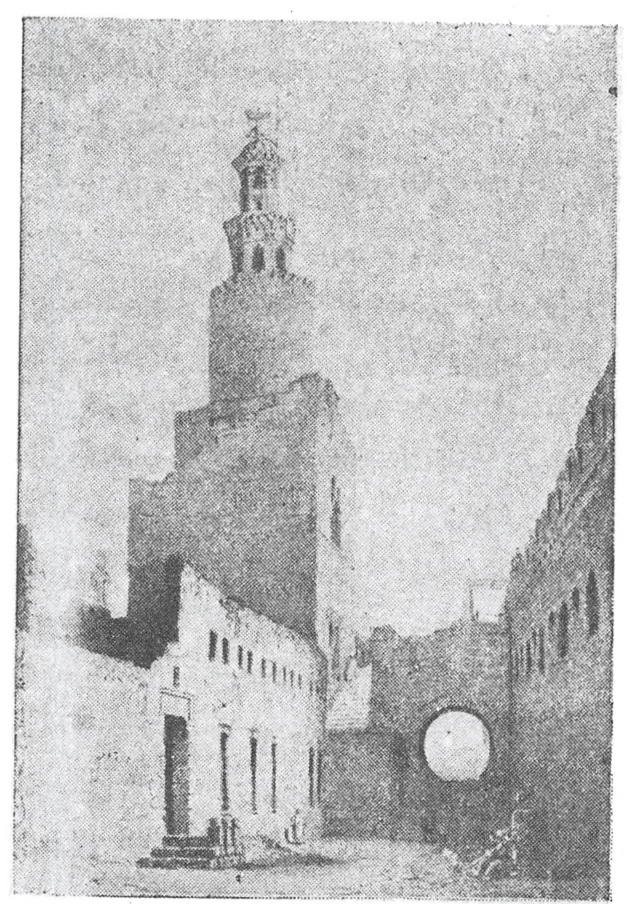
وإذا أردنا أن نبين كيف آل حكم مصر إلى الأتراك ، فقد يخرج بنا ذلك كثيرا عن نطاق الموضوع الذى نحن بصدده ، وهو تاريخ القاهرة نفسها . ولكن الذى يهمنا أن نعرفه هنا ، أن تلك الحركة — التى ساعدتها سياسة الخلفاء — كانت جزءا من تلك الحركة الكبرى التى قامت بها شعوب أواسط آسيا ، والتى كانت قد بدأت منذ فجر التاريخ . ذلك أن العباسيين قلقوا من ازدياد نفوذ ولاة الأقاليم فى بلاد الفرس . كما أن تلك القبائل العربية الثائرة قد هددت نفوذهم فى بلاد الجزيرة . ومن ثم نجد العباسيين يبعثون فى طلب حرس من المرتزقة الذين كانوا يجلبون من أسواق النخاسة ببلاد ما وراء نهر جيحون ، وأخذ يتملكهم العجب والزهو بحماية هؤلاء الشبان الأقوياء من الأتراك . غير أن هذه المسألة لم تلبث أن تمخضت عن سؤال حائر لم يكن فى الحسبان . وقد أدرك خلفاء بغداد المترفون بعد فوات الفرصة أنهم بشرائهم أولئك العبيد الأشداء قد حكموا على أنفسهم بالاستعباد . وغدا رئيس الحرس ناظرا للسراى[١] فى بغداد مع الخلفاء المستضعفين . وبدأ الأتراك يشغلون مناصب الدولة ، وعهدوا إلى أصدقائهم بتقلد الولايات الغربية للحصول على إيراد هذه الإقطاعات دون أن يهتموا بمشاغل الحكم . وقد

(١) يشير بذلك الى نظار السراى Maires du palais فى أواخر عهد ملوك الميروفنجيين • المترجم

حدث أن كان بعض الأمراء الأتراك يعيشون فى بغداد أو فى غيرها من بلاد الجزيرة ويحتفظون بهذه الإقطاعية ويحصلون على ما يفيض من خراج مصر عن طريق نوابهم من العرب . غير أنه فى سنة ٨٥٦ أصبح النائب صاحب الإقطاع من الأتراك . وفى سنة ٨٦٨ أرسل بابك صاحب إقطاع مصر أحمد بن طولون زوج ابنته ليحكم مصر نيابة عنه .

كان أحمد بن طولون فى الثالثة والثلاثين من عمره حين وصل إلى الفسطاط . وقد جمع بدرجة رائعة بين الكفاية الحربية والإدارية التى امتاز بها أبناء جلدته ، إلى جانب الثقافة الإسلامية التى كانوا حديثى عهد بها . وقد تلقى علومه على علماء بغداد ، بل سافر إلى طرسوس حيث تلقى العلم على بعض علمائها . وتعمق فى دراسة اللغة العربية والعقائد الإسلامية . وكان إلى جانب ذلك ذا نشاط لا يحد ، صادق الفراسة ، كما عرف كيف يختار مرءوسيه ويستغلهم لمصلحة دولته . وكان عادلا شجاعا جوادا . وكان شعاره : من مد يده إليك فأعطه ، وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر متواترة ، وكان راتبه لذلك ألف دينار فى كل شهر . وقد جاء مصر مفلساً اللهم مما اقترضه من أحد أصدقائه ، ولكنه خلف عند وفاته عشرة ملايين دينار في بيت المال ، سوى عدد عظيم من مماليكه وخيوله ومائة سفينة حربية . ومع ذلك فإنه أتم هذه الأعمال الاقتصادية دون أن يلجأ إلى زيادة الضرائب . والواقع أنه ألغى ضرائب كثيرة مختلفة ، وكان يعتمد فى دخل دولته على تشجيع الزراعة . فقد كان شديد الاهتمام بالزراعة ، وكان يعمل دائما على أن يجعل الفلاح آمنا فى أرضه . ولأول مرة منذ الفتح العربى نجد مصر دولة قوية ذات سيادة . ذلك أن أحمد بن طولون سرعان ما أبطل كل مظهر من مظاهر الاستقلال سوى التبعية الاسمية للخلافة . وبعد أن تغلب على الدسائس وقمع ثلاث ثورات قامت فى مصر ، سار إلى سورية واحتل أرضها حتى بلغ طرسوس والفرات . وحارب جيوش الخلافة ، كما حارب جيوش الدولة البيزنطية المقيمة على الحدود عند كيلكيا ، ومد نفوذه من الأراضى الممتدة من برقة فى ليبيا حتى حدود الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى ، ومن نهر الفرات حتى شلال النيل الأول .

وإلى جانب هذه السياسة الاستعمارية بذل أحمد بن طولون جهوداً جبارة وأموالا ضخمة على تجميل حاضرته . فإن دار الإمارة فى العسكر — وهى الضاحية الرسمية



(منظرة جامع ابن طولون)

فى الفسطاط — قد ضاقت بحاشيته وجنده الكثيرين . ولم يكن ليقنع بمجرد قصر يكون مقرا لحكمه . وفى سنة ٨٧٠ م اختار المكان الواقع إلى أقصى الشمال الشرقى من العسكر بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة . وأمر بحرث قبور المسيحيين والهود ، وأسس ضاحية رسمية جديدة تسمى « القطائع » . وقد سميت كذلك لأن لكل طبقة (مثل غلمانه وغيرهم من الروم والسودانيين) قطيعة خاصة بها . وكانت المدينة الجديدة تمتد من الرميلة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين ، وهى مساحة قدرت بميل فى ميل . أما القصر الجديد فقد بنى تحت « قبة الهواء »[1] القديمة ، وجعل له حديقة غناء وميدانا فسيحاً يضرب فيه بالصوالجة . ويلحق بهذا الميدان بناء خاص بتربية الخيل وآخر لعرضها . وكانت دار الإمارة

(١) انشأها حاتم بن هرثمة عامل الامين العباسى على مصر على جبل المقطم حيث جبل المقطم الآن . المترجم

جنوبى الجامع العظيم الذى لا يزال قائما إلى الآن . وكان للقصر طريق خاص يخرج منه ابن طولون للصلاة . أما الحريم فكان لهن قصر منفصل . وسرعان ما عمرت هذه المدينة وأقيمت فيها الحمامات العظيمة والأسواق ووسائل الأبهة والبذخ(١) .

وقد بنى القواد والضبــــاط دورهم حول القصر ، وأقيمت الدور العظيمة ، وأصبحت أسواقها أحسن من أسـواق الفسطاط ، وزخرت بمختارات السلع وأحسنها . أما الميدان الذى كان أحمد بن طولون وقواده يروّحون فيه عن أنفسهم بأن يلعبوا فيه بالصوالجة(٢)، فقد أصبح المكان المفضل الذى يختلف اليه الناس . وقد بلغ من شغف الناس بذلك الميدان أن كنت إذا سـألت أحدهم : إلى أين أنت ذاهب ؟ أجاب : إلى الميدان . وكان لهذا الميدان أبواب كثيرة كل منها لطبقة خاصة : فهناك باب الخاصة وباب الحريم . كذلك كانت هناك أبواب تسمى بأسماء خاصة مميزة ، كباب السباع وعليه سبعان من جبس ، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج ، وباب الدرمون لأن حاجبا أسود يحمل هذا الاسم كان يجلس عنده . ولم يكن أحد يستطيع أن يمر من الباب الأوسط سوى أحمد بن طولون نفسه . وكان جنده الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفا يمرون من البابين الجانبيين . وكان الأمير يجلس فى أيام عرض الجيش فى مكان مرتفع يشرف منه على القطائع ؛ ويرى الناس وهم يدخلون من باب الصوالجة ويمرون من باب السباع الذى كانت تعلوه مقصورة خاصة يجلس فيها فى ليلة العيد ، حتى إذا رأى أحدهم فى حاجة إلى إصلاح حاله ، أمر له بما يصلحها . وكان هذا المنظر يمتد من هذه المقصورة إلى مدخل الفسطاط وإلى النيل ، ولذلك كثيرا ما كان هذا الأمير يفضل الجلوس فيها .

وكان المـاء يصل إلى القصر من عين فى الصحراء الجنوبية عن طريق قنـاطر معلقة لا تزال آثارها باقية إلى اليوم ـــ وليست هذه هى القناطر التى يجرى فيهـا الماء من القلعة إلى النيل والتى ترجع إلى عصر متأخر كثيرا . غير أن النـاس بدءوا يتشككون فى قيمة هذا المـاء القراح الذى لم يعتادوه من قبل حيث كانوا

(١) أنظر كتابنـا تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ٦٠ ــ ٧١ . المقريزى : خطط ج ١ ص ٣١٣ ، ٣١٥ .

(٢) يراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الانجليز باسم «بولو» polo وهى شبيهة بلعبة كرة القدم . المترجم

يشربون من مياه النيل والآبار العكرة . وقد اتصلت الشائعات بابن طولون ، فبعث فى طلب الفقيه محمد بن عبد الحكم ليستجلى حقيقة هذه الشكوك . وقد روى هذا الفقيه تلك القصة فقال :

« كنت ليلة فى دارى إذ طُرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون فقال لى : الأمير يدعوك ، فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم : الله الله فىّ فإنى شيخ كبير مضعف مسن ، فتدرى (كذا) ما يراد منى ؟ فارحمنى ! فقال لى : حذار أن يكون لك فى السقاية قول . وسرت معه وإذا بالمشاعل فى الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشمع ؛ فنزلت وسلمت ، فلم يرد علىّ ، فقلت : أيها الأمير ! إن الرسول أعنتنى وكدّنى وقد عطشت ، فيأذن لى الأمير فى الشرب ؟ فأراد الغلمان أن يسقونى ، فقلت : أنا آخذ لنفسى ، فاستقيت وهو يرانى ، وشربت وازددت فى الشرب حتى كدت أنشق ثم قلت : أيها الأمير ! سقاك الله من أنهار الجنة ، فلقد أرويت وأغنيت ، ولا أدرى ما أصف ، أطيب ماء فى حلاوته وبرده أم صفائه ؟ أم طيب ريح السقاية ؟ فنظر إلىّ وقال : أريدك لأمر ليس هذا وقته فاصرفوه ، فانصرفت فقال لى الخادم : أصبت ؛ فقلت : أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت » .

على أن الأثر الذى خلد اسم ابن طولون حقا ، هو جامعه الذى بقى وحده من مدينة القطائع العظيمة بعد أن دهمتها الحرب الأهلية وفعل فيها الإهمال فعله . والواقع أن هذا المسجد أبدع ما فى مصر الإسلامية من آثار ، كما أنه نقطة تحول هامة فى تاريخ العمارة . وهناك شيئان يميزان هذا المسجد بصفة خاصة : الأول أنه بنى من مواد جديدة تماما ، وليس من أسلاب الكنائس والمعابد القديمة ؛ والثانى أنه المثال الأول لاستعمال الأروقة المدببة الشكل[1] ، وهى الأروقة التى لم تظهر فى انجلترا إلا بعد ذلك بقرنين على الأقل . وهذه الأروقة مدببة فعلا ، ولها قاعدة تمائلها قليلا ، ولكن شكلها لا يشبه نعل الفرس . ويروى لنا المقريزى كيف أن

(١) نرى فى الواجهة الجنوبية الغربية لمسجد عمرو بن العاص بعد زيادته على يد عبد الله بن طاهر فتحات مدببة هى الاولى فى مصر ، ظهرت بعدها هذه العقود المدببة فى جامع ابن طولون .
المترجم .

أحمد بن طولون عثر على كنز فى تلال المقطم فى مكان يسمى تنور فرعون ، وأنه عول على أن يبنى به مسجدا جامعا بعد أن ضاق مسجد العسكر بالمصلين ، وعمل على أن يكون الموضع الذى يبنى فيه ذلك المسجد تلك القمة الصخرية المسطحة بأعلى جبل يشكر ، لأنه مكان مبارك معروف بإجابة الدعوات ، إذ كان بعضهم يعتقد أن موسى كلم يهوذا عليه . وفى هذا المكان وضع ابن طولون أساس المسجد فى سنة ٨٧٦ م [٢٦٣ هـ] . وبعد سنتين تم بناؤه وأقيمت فيه الصلاة بحضور الأمير .

وقد واجهت أحمد بن طولون صعوبة فى الحصول على الأعمدة الثلثمائة التى دعت الحاجة إليها لحمل العقود . غير أن مهندسه - وكان مسيحيا وقبطيا من غير شك(١) - كتب إليه ، وكان مسجونا فى ذلك الوقت ، أنه يستطيع بناء المسجد بلا عمد إلا عمودى القبلة . ومن ثم أمر الأمير بإحضاره وقال له : « ويحك ! ما تقول فى بناء الجامع ؟ فقال : أنا أصوّره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد إلا عمودى القبلة » . فأمر بأن تحضر له الجلود ، فأحضرت ، وصوّره ، فكان ذلك بلا شك أول ما عرف عن نماذج بناء المساجد . ووقف أحمد بن طولون على مزايا هذا التصميم فى الحال ، فخلع على المهندس ، وعهد إليه ببناء المسجد ، وأعطاه مائة ألف دينار لتنفيذ مشروعه . ولما تم البناء أعطاه عشرة آلاف دينار أخرى . وبلغ ما أنفقه ابن طولون على بناء هذا المسجد ما يربو على مائة وعشرين ألف دينار ، أى نحو ثلاثة وستين ألف جنيه . وإن استعمال العقود والدعائم من الآجر بدل استعمال الأعمدة من الرخام يرجع إلى كراهة ذلك الأمير حرمان الكنائس المسيحية من أعمدتها الكثيرة ، كما يرجع بوجه خاص إلى رغبته فى أن يكون مسجده بمنجاة من الحريق . وقد قيل له إنه إذا بنى مسجده من الآجر الأحمر والرماد والجير فإنه سوف يقاوم النار أكثر مما لو استعملت أعمدة الرخام فى بنائه . ومهما يكن من شىء فإن الحقيقة التى لا ريب فيها أن هذا المسجد قاوم النيران التى دمرت سائر مبانى القطائع ، وأن استعمال هذه الطريقة الجديدة فى البناء ، وهى استعمال الدعامة المصنوعة

---

(١) أطلق المقريزى على هذا الرجل «النصرانى» ، ولو كان بيزنطيا لسماه «الرومى». وروى المسعودى قصة طويلة عن المحادثات التى دارت بين ابن طولون وبين رجل قبطى ذكى كبير السن من أهالى الصعيد كان من المقربين إليه ، وكثيرا ما كان ابن طولون يجلس معه ويتعلم أشياء عجيبة كثيرة اكتسبها من خبرته .

من الآجر بدل الأعمدة الرخامية ، قد أدى إلى استخدام العقود المدببة . كما أن استبعاد الرخام قد أوحى باستعمال الجص فى الزخرفة التى لا يزال كثير منها محتفظا بروعته إلى اليوم .

ويتكون الرواق الجنوبى الشرقى ، أى رواق القبلة ، من خمس بلاطات (Aisles)[١]، ومن بلاطتين فى كل من الأروقة الثلاثة الأخرى . والدعائم تعلوها عقود مغطاة بالجص ، وكذلك الزخارف التى نجدها على الأروقة وبواطن العقود وحول النوافذ قد صنعت بيد فنان عن طريق الحفر فى الجص . والفرق بين هذه الزخارف الدقيقة والزخارف القالبية[٢] التى نشاهدها فى قصر الحمراء والتى استخدمت فيها الآلة فى الجص الرطب ، كالفرق بين الفنان والصانع .

وفى كل ركن من أركان الدعامة المستطيلة التخطيط عمود متصل تاجه على شكل زهرة ، ومغطى بزخارف نباتية .

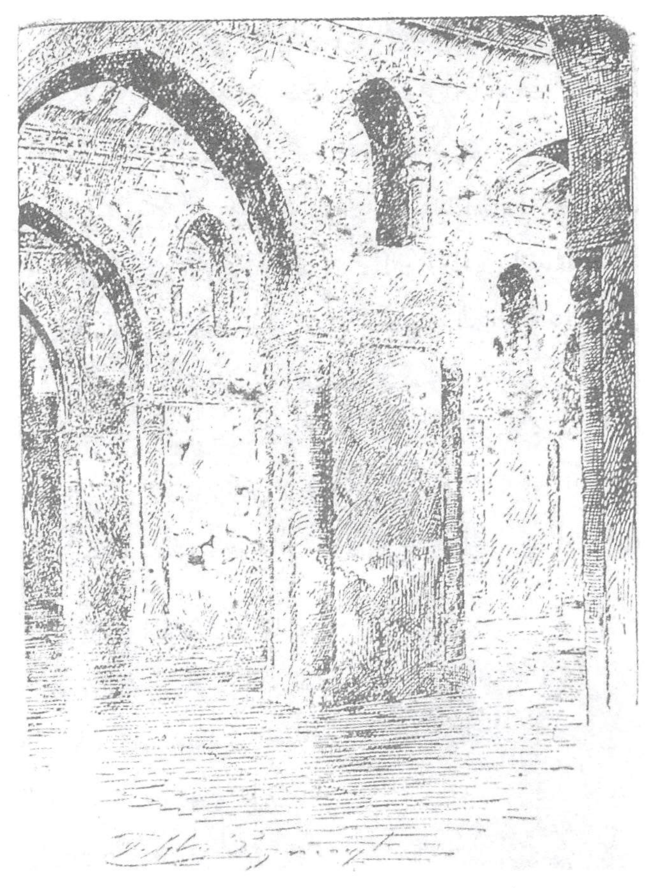
وعلى كل من جانبي العقود المشرفة على صحن الجامع — وهى أيضا مدببة الشكل ومحمولة على أعمدة متصلة — فتحات معقودة مدببة على أعمدة متصلة يكتنفها من جهتيها وريدة ، ويعلو جميع العقود والفتحات شريط يجرى حول الصحن مكون من وريدات يعلوها شرافات جميلة . أما العقود الداخلية فتختلف عن العقود التى حول الصحن . وحول العقود والنوافذ الداخلية شريط من الزخارف النباتية يجرى حولها ، ثم يسير أفقيا فوق الدعامات . ويعلو هذا الشريط شريط آخر يجرى أفقيا تحت السقف عليه كتابات بالخط الكوفى منقوشة على الخشب ، ويمثل نموذجا من الكتابة الكوفية فى هذا العصر التاريخى . والسقف مغطى بعروق من الخشب تغطيها من أسفلها ومن جانبيها ألواح من خشب الجميز مزخرفة بأشغال هندسية محفورة فى الخشب . وفى الرواق الشمالى الغربى المقابل لرواق القبلة ، نوافذ معقودة بعقود مدببة ومغطاة بزخارف هندسية ، عنصر الزخرفة بداخلها وريدة أو نجمة ، وهى مخرمة فى الجص[٣] .

---

(١) البلاطة عبارة عن المساحة المحصورة بين صفين من العقود أو بين صف من العقود (Arcade) والحائط — المترجم .

(٢) يلاحظ تأثير فن سامرا على الزخارف الجصية فى هذا المسجد — المترجم .

(٣) أنظر كتاب Art of the Saracens in Egypt, pp. 54-9 ، وهذه النوافذ لا يبعد أن تكون راجعة الى عصر متأخر .



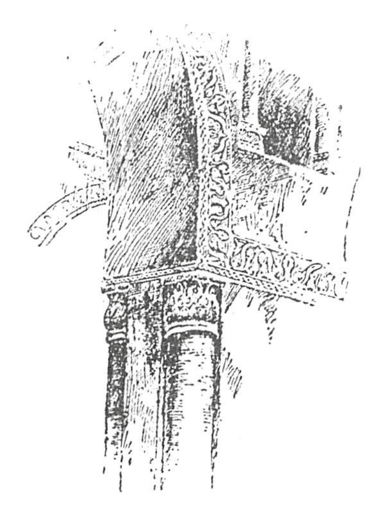
(داخل رواق القبلة فى مسجد ابن طولون)

ويشبه مسجد أحمد بن طولون من حيث التخطيط مسجد عمرو بن العاص بعد أن أعيد بناؤه ؛ وهذا لا يختلف عن تخطيط مساجد القاهرة بين القرنين التاسع والثالث عشر . وكان صحن الجامع الفسيح المربع الشكل ، الذى تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة ، يتسع لأكبر عدد من المصلين . أما الأروقة المسقوفة فقد حالت دون تسرب أشعة الشمس إلى جماعات الطلاب وأهل الورع والفقراء الذين كانوا يتخذون من المساجد مأوى لهم . والرواق الجنوبى الشرقى ، أو رواق القبلة أو قاعة الصلاة[1] ، بما فيه من بلاطات عميقة ، كان يشتمل على المقصورة الخاصة ، على حين يوجه المحراب المصلين نحو الكعبة . وهو تجويف معقود داخل فى الحائط ،

(١) سماها لينبول «ليوان» ، وهى تسمية خطأ وتطلق على القاعة المغطاة بقبو ، وهى مفتوحة من جهة ومسدودة من الجهة الأخرى ، والأصل فيها إيوان كسرى بالمدائن (طيشفون) . المترجم

ومحمول من جهتيه على عمودين . أما المنبر والدكة فكانا ـ ولا يزالان ـ يساعدان المؤذنين والمبلغين على سماع المصلين خطبة الجمعة وقراءة القرآن . وفوق المحراب قبة محمولة على مقرنصات ترجع إلى عصر السلطان لاچين .

أما من حيث الابتكار أو التجديد فلا نجد فى هذا الجامع شيئا جديدا[١] . ولا يبعد أن يكون العرب قد اقتبسوا شكله من معابد الساميين القديمة ، كما لا يبعد أن يمثل الصحن الفسيح الفناء الواسع فى الكنيسة البيزنطية على شكل البازيليكا (Basilica) ، ويمثل الليوان أو الإيوان الكنيسة نفسها[٢] ، غير أنه يقوم على دعامات بدلا من السقوف المغطاة بالأقبية . كذلك نرى فى الحائط المحراب المجوف الذى يوجه المصلين نحو الكعبة . ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب يلائم تمام الملاءمة ما يتطلبه الجو ، فلم يكن ثمة حاجة إلى تغيير أو تبديل .



زخرفة حول العقود والدعائم وأعلى الدعائم وتيجان الأعمدة

أما القبة والمأذنة ، وهما من مميزات مساجد القاهرة التى بنيت بعد ذلك ، فإن جامع ابن طولون يختلف عنها فى شكل المنارة ، فهى على شكل برج حلزونى درجاته من الخارج ، وهى تشبه الآثار الأشورية المعروفة بالزيجورات ، وقد بنيت على طراز « الملوية » [وهى مأذنة مسجد المتوكل فى سامرا على نهر دجلة] . ولا يبعد أن يكون الجزء العلوى الذى نراه على شكل مبخرة قد أعيد بناؤه فى زمن متأخر . ولو أن منارة جامع ابن طولون كانت من غير شك لا تزال على حالها الأول فى سنة ١٠٤٧ م حيث وصفها ناصر خسرو ، فإنه من الصعب أن نسميها مأذنة بما

---

(١) يلاحظ أنه متأثر بمساجد العراق من ناحية التخطيط ومادة البناء والزخارف الجصية . المترجم .

(٢) المقصود بالايوان هنا رواق القبلة . المترجم

تدل عليه هذه الكلمة[1] . وليست هناك قبة ، إذ لا شأن لها بالصلاة وبالتالى بالجامع[2] فهى التغطية الأصلية لسقف ضريح . ولا توجد إلا حيث يوجد تغطية هذه القبة ، أو على الأقل إذا عقد العزم على بناء ضريح تحت هذه القبة . ولا نجد قبة إلا حيث يوجد بناء ملحق بالمسجد يضم فى العادة قبر منشىء هذا المسجد أو أسرته . وليس من الضرورى أن تكون هذه القبة قريبة من مكان الصلاة . على أنه قد يكون من قبيل المصادفة أن يكون من مساجد القاهرة عدد كبير من هذه المساجد التى يضم كل منها حجرة تضم قبر مؤسس المسجد . وإن تلك القباب التى لا عدد لها والتى تشاهد من قلعة الجبل ، لما يوحى إلينا بهذه الفكرة الطبيعية ، وهى أن لكل مسجد من مساجد القاهرة ضريحا خاصا به . حقيقة أن لمعظم المساجد التى بها أضرحة قبابا ، غير أنه فى الوقت نفسه لانرى مسجدا لم يكن من المقرر أن يبنى فيه ضريح فى أول الأمر ، يحتوى على قبة ما . وقد ترجع القبة فى أصلها إلى تلك القباب التى كانت تعلو قبور بابل ، والتى لابد أن يكون الكثير منها مألوفا لدى العرب [بل أكثر من ذلك لدى الأتراك] الذين احتفظوا بشكل القبة على حين لم يعملوا قط على استمالها ، مثلهم فى ذلك مثل القبط والبيزنطيين حينما اقتبسوا سقوف كنائسهم وواجهاتها .

ولكن إذا لم يكن هناك إلا القليل من الابتكار فى شكل المسجد ، فإن أروقته المدببة ونقوشه جديرة بالدرس . كذلك نجد الأروقة المدببة فى مقياس النيل الذى بنى فى جزيرة الروضة سنة ٨٦١ م ، أى قبل بناء جامع أحمد بن طولون بخمس عشرة سنة . ويقال إن المهندس الذى بنى هذا المقياس من أهالى فرغانة على نهر سيحون .

(١) يقول المقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٨٤) إن مأذنة جامع أقبغا الصغير (الذى كان من بين مبانى الأزهر والذى تم بناؤه فى سنة ١٣٣١) كانت أول مأذنة بنيت من الحجر بالديار المصرية بعد المنصورية التى بناها المنصور قلاوون. ومن ذلك نستنتج أن مأذنة قلاوون (سنة ١٢٨٤ م) كانت أول مأذنة من الحجر عرفها المقريزى . ومن المحتمل أنه لم يكن ليسمى منارة جامع أحمد ابن طولون مأذنة بالمعنى الصحيح . ومن الواضح أنه لم يعرف شيئا عن مآذن جامع الحاكم التى بنيت من الحجر . أنظر جامع الحاكم .

(٢) هناك قبة صغيرة فوق المحراب ، غير أن هذه القبة ، كالمنبر والزخارف التى عملت فى المسجد يرجع تاريخها الى الاصلاح الذى قام به لاشين فى سنة ١٢٩٦ ، وكذا الميضأة التى تعلوها قبة فى وسط الصحن ، فترجع إلى عصر متأخر إذ حلت محل الفوارة الرخامية المسقوفة والمقامة على أعمدة .

وليس ثمة دليل على أن تلك الأروقة قد بنيت على مثال الكنيسة القبطية ، ولكننا نجد من جهة أخرى أن النقوش المختلفة الخالية من التكلف والمصنوعة من الجص والتي وضع رسمها المهندس القبطي ، قد اقتبسها كلها بلا ريب من النقوش التي حذقها مواطنوه[١]. ولم يكن العرب في وقت من الأوقات ، من الفنانين أو حتى من الصناع المهرة . فقد استحضروا الفرس والروم ليبنوا لهم دورهم ومساجدهم ويزينوها . ولكنهم كانوا أكثر من هذا يستخدمون القبط الذين كانوا صناع مصر المهرة خلال آلاف السنين التي مرت بتاريخها . ونحن إذ نقارن بين النقوش المصنوعة من الجص في مسجد أحمد بن طولون وبين النقوش القبطية المحفورة التي نراها بدار الآثار المصرية في القاهرة ، وتلك النقوش التي أحضرت من مقابر عين الصيرة والمودعة بدار الآثار العربية ، تبين لنا في جلاء مصدر الزخارف التي على شكل زهور ، والتي يرجع تاريخها إلى المدرسة البيزنطية في سورية ومصر[٢]. أما النقوش الكوفية المحفورة على الخشب فهي ترجع في الواقع إلى الفن العربي الخالص ; وقد تطورت فيما بعد حتى أصبحت من أهم مميزات الفن العربي[٣] . كذلك الزخارف الهندسية الموجودة في النوافذ ترجع إلى أصل إغريقي ، كما قرر ذلك مسيو M. Bourgouin في رسالته المستفيضة عن الزخارف . غير أنه ليس من المؤكد أن تاريخ هذه الزخارف يرجع إلى المباني الأصلية . كما أن الأشكال التي على هيئة نجوم توحي إلينا بأن النوافذ المفتوحة قد تكون جزءا من الإصلاحات التي تمت فيما بعد[٤] .

غير أن اهتمام أحمد بن طولون بالبناء لم يقف في سبيل مطامعه في الفتوح . فلقد قام بدور ملحوظ في سياسة بلاد العراق ، وكاد أن ينجح في أن يجعل الخليفة في قبضة يده . وكان الرئيس الديني في الإسلام [المعتمد] يسره أن يهرب من أخيه

---

(١) يلاحظ أن الزخارف الجصية متأثرة بالأساليب الزخرفية في سامرا .

(٢) توجد في القاعة المجاورة لمدخل دار الآثار العربية إلى يمين الداخل ، مجموعة من الزخارف التي تشبه زخارف سامرا والتي نقلت عنها .

(٣) هناك بعض نماذج للنقوش العربية المحفورة على الخشب من جامع احمد بن طولون نراها في دار الآثار العربية بالقاهرة .

(٤) M. van Berchem, Notes d'Archéologie Arabe, Extr. du Journal Asiatique, 125 (1891).

الطاغية وهو الموفق ، غير ان هذه الخطة قد منيت بالإخفاق . وبذلك فقدت مصر الفرصة التى أتيحت لها لتصبح مقرا للخلافة الإسلامية ، وكان من أثر ذلك أن أصبح ذلك الأمير الطموح يلعن فى مساجد العراق ، وكذلك عجز ابن طولون عن الاستيلاء على مدينة مكة المقدسة . غير أن حكمه انتهى بحملات مظفرة قام بها فى وجه إمبراطور الروم ، حيث هزمت القوات المصرية العدو على مقربة من طرسوس ، وقتلت — على ما يقال — ستين ألفا من المسيحيين ، ووقع فى أيديهم كثير من الصلبان الذهبية والفضية والجوهرات والأوانى المقدسة . غير أن ابن طولون سار نحو الشمال ليخضع نائبه . وكان الشتاء فى ذلك الوقت قارسا . فأرسل نائبه الماء من نهر البردان ، ففاض على الأراضى وكاد يغرق عسكر ابن طولون فى « أذنة » . وهنا لم يجد ابن طولون بدا من العودة إلى أنطاكية ، حيث شرب كثيرا من لبن البقر — على أثر ما شعر به من الجوع والإجهاد فى المعركة — ومرض بالدوسنتاريا وطلب العودة إلى مصر ، وثقل عليه ركوب الدواب ، فعملت له عجلة كانت تجرها الرجال ، ولما وصل إلى الفسطاط ساءت حالته . وكان هذا الأمير فى مرضه مصدر فزع أطبائه الذين لم يستمع إلى إرشاداتهم وأبى أن يتناول الغذاء الذى كانوا يشيرون عليه بتناوله ، ولما زادت علته أمر بضرب طبيبه بالسياط . وذهبت سدى صلوات المسلمين واليهود والنصارى ودعواتهم بشفائه ، ولم يستطع القرآن أو التوراة أو الإنجيل أن ينقذ حياته ، ومات فى شهر مايو سنة ٨٨٤ م قبل أن يبلغ الخمسين من عمره .

ولقد أضاف خليفته خمارويه الكثير إلى حاضرة أبيه الزاهرة . ولاغرابة فقد شارك أباه ميوله فى إقامة المبانى الفخمة وفى سياسته التى كانت تهدف إلى التوسع فى الفتوح . لذلك زاد فى القصر ، وحول « الميدان » إلى بستان غرس فيه الأشجار النادرة والرياحين على اختلافها . وتأنق فى هذا البستان فكسى جذوع الأشجار نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وجذوع الشجر أنابيب الرصاص وأجرى فيها الماء . وكانت مياه هذه الأنابيب لا تزود الأشجار وحدها بالماء ، بل كان يخرج من تضاعيف الشجر عيون الماء منحدرة إلى نافورات يفيض منها الماء إلى مجار تسقى البستان على اتساعه . أما الريحان فكان على صورة نقوش وكتابات يتعهدها البستانى بالمقراض . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق

والأصفر ، واستورد عيدان النيلوفر العجيب الشكل ، كما أهدى إليه من البلاد عيدان الثمار والزهور ، وطعم شجر المشمش باللوز والليمون وغيرهما . وفى وسط البستان بنى خمارويه برجا فيه أصناف القمارى والنونيات وغيرها من الطيور المشجية التى كانت تسبح فى القنوات الجارية فى البرج . كما طلى حيطان بيت الذهب فى القصر بالذهب المحلى باللازورد ، واتخذ على حيطانه صورا بارزة من الخشب تمثله وتمثل حظاياه ومغنياته بأشكال بلغت حد الكمال ودقة الزخرف . وعلى رءوس تماثيل النساء ، أكاليل من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر ؛ وعلى آذانها المثبتة فى الحيطان بمسامير، أجراس ثقال الوزن محكمة الصنع . وقد لونت أجسادها بالأصباغ العجيبة التى تبدو للرائى كأنها ثياب حقيقية . وبنى خمارويه أمام القصر فسقية مملوءة بالزئبق ، وقد أشار عليه طبيبه باتخاذ هذه الفسقية بعد أن شكا إليه ما كان يصيبه من الأرق . وكان طولها عشرين ذراعا وعرضها عشرين ذراعا (٢٢٥ مترا مربعا) . فإذا نام خمارويه على فرش من أدم يملأ بالريح حتى ينتفخ ، ارتج الفراش وتحرك بحركة الزئبق لأنه رجراج ، وإذا نام خمارويه سهر زريق أسده الأمين على حراسته . وبعد أن زال القصر بزمن طويل ، ظل الناس يحفرون فى الأرض التماسا للزئبق المنساب بين شقوق البركة التى كانت بمثابة أرجوحة للأمير .

كذلك بنى خمارويه فى هذا القصر بيتا على مثال قبة الهواء أطلق عليه «الدكة» ، وضعت فيه الستائر والبسط الفاخرة ، وكان خمارويه يجلس فى هذا المكان ويشرف على ما فى قصره وبستانه ، فيشاهد النيل والجبل والصحراء . وفى بيت آخر بناه أبوه أحمد بن طولون أقام المكبرون الذين كانوا يكبرون ويعلنون أوقات الصلاة ، ويرتلون الآيات القرآنية الكريمة . وكان خمارويه إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون ، أمر المغنيات بوقف الغناء ، وأخذ يسمع أصوات المكبرين فى سكون وخشوع . وقد أسهب المقريزى[1] فى ذكر عجائب دار الحيوان وما كانت تحويه من السباع والنمور والفهود والفيلة والزرافات ، واسطبلاته التى وقف عليها كورا بأكملها كانت تزرع بها العلوفات ، ومطابخه التى كان ينفق عليها إثنى عشر ألف دينار فى الشهر ، وأبهة حرسه الذين جمعهم من عرب الدلتا وشناترة الضياع ،

---

(١) خطط جـ ١ ص ٣١٨.

« وكان مهابا ذا سطوة . وقد وقع فى قلوب الكافة أنه متى أشار إليه أحد بإصبعه أو تكلم أو قرب منه لحقه مكروه عظيم ، فكان إذا أقبل لا يسمع من أحد كلمة ولا سعلة ولا عطسة ولا تنحنحة البتة كأنما على رءوسهم الطير » . ومن المحزن حقا أنه لم يبق لكل هذه العظمة والأبهـــة من أثر بعد سنين قليلة ، اللهم إلا آثار بركة الزئبق .

غير أن السبع أو الحرس الذى اتخذه خمارويه من شبان العرب الأشداء لم يستطيعوا أن يعملوا على إنقاذه من غيرة حريمه . ففى مستهل سنة ٨٩٦ م انتهت المؤامرة التى دبرها له الخدم والجوارى بذبحه فى دمشق ، وصلب قتلته . وفى غمرة العويل والصراخ ، دفن جثمان خمارويه إلى جانب جثمان أبيه على مقربة من قصره تحت سفح المقطم .

ولم تدم أسرة خمارويه بن أحمد بن طولون بعده طويلا . ذلك أن ولديه الصغيرين لم يتمكنا من مقاومة جهود الخليفة فى سبيل استرداد ولايتى مصر وسورية الغنيتين، اللتين دخلتا تحت سلطان أحمد بن طولون وابنه ثلاثين سنة. ففى سنة ٩٠٥م دخل القائد العباسى محمد بن سليمان مدينة القطائع وقتل جند الطولونيين من السودان وضرب مبانيها الجميلة . وهكذا أصبحت العسكر مرة أخرى مقرا للحكومة ـــ كما كانت فى عهد ولاة العباسيين الأولين . أما القطائع ، فإن ما تبقى منها بعد أن عاث فيها الجند أربعة أشهر ، أخذ يتهدم على مر الزمن ، وتقوضت المائة ألف منزل (إذا كان لنا أن نصدق المؤرخين) تدريجا . غير أن الخراب قد زال نهائيا فى عهد المستنصر فى القرن الحادى عشر حين انتشرت المجاعة وشاعت الفوضى فى البلاد . وسوف نتحدث بعد، عن هذا الحكم الملىء بالفوضى والاضطراب. غير أنه يجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى ما انتهت إليه كل من العسكر والقطائع . ففى سنة ١٠٧٠ م كانت هاتان المدينتان قد وصلتا إلى درجة كبيرة من الخراب ، حتى إنهم بنوا سورا على طول الطريق بين قصر القاهرة الجديد إلى الفسطاط ـــ وبعبارة أخرى من باب زويلة إلى ما يقرب من جامع عمرو بن العاص ، حتى لا يستاء الخليفة من منظر هذه المدن المتهدمة إذا خرج ممتطيا جواده . وقد أصبحت أطلال القطائع والعسكر كما لو كانتا محجرا يزوّد الناس بمواد البناء ليستعينوا بها فى أماكن أخرى . كما أن الفضاء الذى كان يقع بين القاهرة الجديدة والفسطاط قد تحول كله

إلى ما يشبه الصحراء ، اللهم إلا بضع حدائق ومنازل ريفية . ومع أن الناس أخذوا يبنون دورهم خارج باب زويلة بعد سنة ١١٢٥ م ، بقي سائر موقعي هاتين المدينتين غير آهل بالسكان ، اللهم إلا حول جامع أحمد بن طولون . وقد ظلت الحال كذلك إلى اليوم الذى كتب فيه المقريزى فى سنة ١٤٢٤ م .

ولا عجب إذا أصبح المكان القريب من جبل يشكر الذى يعرف بقلعة الكبش[١] — حيث قامت « مصطبة فرعون » فى يوم من الأيام فى المكان الذى قدم فيه سيدنا إبراهيم قربانه — مسكنا للجن . وفى القرن الثامن عشر كان هناك تابوت قديم بداخله جثة سيدة تنتمى إلى الأسرة السادسة والعشرين لا يزال يحتل مكان مصطبة فرعون . وكل شيء كان الناس يحضرونه إلى هناك — حتى ولو كان كومة من البلح — لابد أنه كان يتحول مباشرة إلى ذهب . أما الآن فإن علم الكيمياء قد انتهى ، واحتل التابوت مكانه فى المتحف البريطانى حيث لم تحدث معجزة من هذا القبيل ، بل إن الجن قد هجر ذلك المكان .

(١) أنظر صورة قلعة الكبش (شكل ١٥) . وهذا البناء العجيب بناه الصالح — حفيد صلاح الدين الايوبى — حول سنة ١٢٤٥ (ولا يبعد أن يكون قد بناه على أساس قديم) ، وكان يستعمله بمثابة قصر ملكى . وفى هذا المكان نصب بيبرس الأول ، الخليفة الحاكم العباسى ، ثم أعاد الناصر بناء قلعة الكبش فى سنة ١٣٢٣ ، وعاش فيه الامير صرغتمش ، وبنى له السور والأبراج [illegible] . غير أن الاشرف شعبان هدم جانبا منه وأصبح يستخدم للسكن (المقريزى ج ٢ ص ١٣٣) .

الباب الرابع

مصر

مصر — الفسطاط الحاضرة التجارية — وزراء المادرائيين — الإخشيد — المسعودى فى مصر — جزيرة الروضة — رجال الدين فى مصر — الشعراء — بلاط كافور — ثورات المسلمين — حكومة كافور — مصر فى القرنين العاشر والحادى عشر — وصف ناصر خسرو — حريق مصر — إعادة بعض المبانى إلى ما كانت عليه — وصف ابن سعيد .

أصبحت مصر بعد سقوط البيت الطولونى ، ولاية تابعة للخلافة فى بغداد . وبعد أن دمّر الغزاة مدينة القطائع ، اتخذ الحكام الجدد « العسكر » مقرا لهم ، غير أن اسم العسكر سرعان ما زال حينما أصبحت هذه الناحية جزءا من الفسطاط أو مصر . وفى طوال الوقت الذى كانت تقوم فيه مقاطعة حكومية أو تزول فيه مقاطعة أخرى ، كانت مصر — حاضرة القطر المصرى الحقيقية — آخذة فى النمو والازدهار . فلقد كان وجود قواد القصر وموظفيه فى عزلة فى المقاطعات الرسمية — فى الوقت الذى كان يحرم فيه سائر الشعب من بعض ألوان التجارة — سيما فى أنها تخلصت من قسوة الجنود السود وطغيان الموظفين الحكوميين ، كما أنها تركتهم يتجرون كيفما شاءوا . ولقد كان جزء كبير من تجارة الهند وبلاد العرب مع أوربا — تلك التجارة التى أصبحت فيما بعد ذات أهمية عظمى — يمر فى مصر ، التى كانت أرصفتها على الدوام مكدسة بالسلع من مختلف البلدان . والواقع أنه لمدة ثلاثين عاما بعد سقوط الطولونيين ، كان القطر المصرى وحاضرته فريسة لاستبداد الجند وعدوانهم ، وكان قواد الخلفاء يفعلون ما يحلو لهم ، إذ لم يكن للخلفاء فى بغداد سلطة قوية عليهم . تلك كانت أيام قاسية فى مصر ، حيث كان يطالب أحد الشبان الثائرين — ويدعى الخلنجى — بعودة الدولة الطولونية التى كان قد تمّ سقوطها ، وكان الشعب يتحمس لفكرته ويعضده مما ساعده على طرد القوات البغيضة والاستيلاء على الحاضرة وعلى الاسكندرية وقهر جيش جديد أتى خصيصا من بغداد . غير أنه بعد انقضاء ثمانية أشهر على هذا الصراع ، حدثت

هناك مؤامرة ضد الخلنجى كان من أثرها أن قتل فى سنة ٩٠٦ م . وكأن هذه الأحداث لم تكن تكفى المصريين فى ذلك الوقت ، إذ أخذ خلفاء الفاطميين فى المغرب يرسلون إلى المصريين جيشا دخل مصر واعتدى على المعسكر الواقع على نهر النيل عند الجيزة ، حيث كان جيش الاحتلال الذى أرسلته بغداد قد حفر خنادق كثيرة تحميه من اعتداء الثوار ، وكان هذا الجيش بقيـــادة ذُكا الرومى . وانتهت حملة الفاطميين على مصر فى سنة ٩٢٠ م بالإخفاق . غير أن أحوال البلاد لم تتحسن على الرغم من ذلك . فقد كان الحاكم التركى يحتفظ بقواته فى قصره الخاص لحمايته . وبعد موته ، طرد ابنه من البلاد على أيدى الجند الذين طالبوا بما تأخر لهم من رواتب . وهنا اختفى المادرائى عامل الخراج وأخذ الحكام المتنافسون يتنازعون على السلطة ويحشدون قواهم وينتشرون فى الأراضى الثائرة . وقد حدث فى ذلك الوقت زلزال مروّع أتى على الكثير من المنـــازل والقرى ، أعقبه وابل من الشهب المفزعة مما أدخل الرعب فى قلوب الناس .

وكان أكثر الناس استفادة من هذه الفوضى ، المشرفون على خزانة الدولة ، إذ يبدو أنهم تصرفوا كيفما شاءوا بدخل الحكومة . ولقد شغل هذه الوظيفة السامية ثلاثة من أفراد أسرة المادرائى التى تنتسب إلى قرية مادرايا بالقرب من البصرة على نهر دجلة . وقد تقلد تلك الوظيفة أحد هؤلاء الثلاثة أثناء حكم خمارويه وولديه وبعض الولاة الذين بعث بهم الخلفاء من بغداد واثنين من رجال الدولة التى أتت بعد ذلك . وعلى الرغم من كل ما انتاب الميزانية من صعوبات ، جعـــل محمد المـادرائى الدخل يصل إلى مائتى ألف جنيه فى السنة ، عدا الإيجارات المختلفة . غير أنه كان يجمع كثيرا ، ويعطى كثيرا أيضا ، فقد كان يوزع كل شهر على الفقراء مائة ألف رطل من الطعام ، كما حرّر بضعة آلاف من الرقيق ، وأقام كثيرا من المبانى الخيرية والدينية ، وكان ينفق كل عام من ستين ألفا إلى ثمانين ألفا من الجنيهات على رحلاته التى كانت تبلغ إحدى وعشرين . ولقد كان رجلا تقيا ورعا ، يقوم بالفروض الدينية من صلاة وصوم على أكمل وجه ، ممسكا بالقرآن الكريم فى يده على الدوام . ومما أثر عن إحسانه الواسع النطاق ، أنه كان حين يزور مكة ، يشمل كل سكانهـــا بحدبه وكرمه . ويشبه المادرائى هذا ، القاضى العظيم ابن حربويه ، الذى لم يكن يقف للحكام فى زياراتهم الرسمية — إذ أن الظلم أو القسوة

لم يعرف إلى نفسيهما سبيلا .

وفى النهاية ، تَقَلَّد الحكم أحد الأتراك الأقوياء . وإذا كان محمد الذى تلقب بالإخشيد كأسلافه من ملوك فرغانة — لم يترك أى أثر فى مصر كآثار سلفه العظيم ابن طولون ، وكانت سياسته قد قامت على أساس الحذر وقنع بأن يمتد ملكه حتى دمشق بدلا من نهر الفرات ، فإنه استطاع برغم ذلك أن يحفظ النظام فى مصر ، ويبعد عنها الغزاة من الفاطميين . كما أنه نجح فى حرب سورية ، وجعل قصره العظيم فى « حديقة كافور » — غربى سوق النحاسين الحالى — مقرا له . وهناك الكثير من القصص عن بطولته ، التى تجلت فى أثناء حربه مع ابن رائق القائد التركى الذى استولى على سورية ردحا من الزمن . فقد حزن هذا القائد كثيرا حين وجد جثة أحد أخوات الإخشيد بين القتلى ، فأرسل ابنه إلى خصمه ليتصرف فيه كيف شاء . وهنا تجلت شهامة الإخشيد ، فقد خلع على هذا الابن وأرسله إلى أبيه مكرما ، وتزوج هذا الشاب من ابنة مضيفه الكريم .

وفى صيف سنة ٩٣٥ م شهد سكان مصر موكبا رائعا من سفن الإخشيد الحربية وهى تتقدم فى النيل من دمياط وتحتل جزيرة الروضة التى كان يصلها بالمدينة أحد الكبارى العائمة . وفى أغسطس من تلك السنة دخلت القوات قلب الحاضرة وأخذت فى السلب والنهب مدة يومين حتى صدر إليها فى النهاية الأمر من قائدها ، بالعدول عن ذلك . وبعد الفوضى التى حلت بالبلاد خلال ثلاثين سنة تلت سقوط الطولونيين ، بذل الحاكم الجديد جهده فى سبيل خير البلاد . ولقد عبّر الناس عن مشاعرهم حينما قفز ابن الخلنى بحماس على الحصان الخشبى القائم أمام قصره ، ثم ترك حمامة لتطير إلى الأمير الجديد بعد أن عطرها بالمسك وماء الورد(١) . وقد استعاد جامع عمرو بن العاص ما كان له من مكانة سابقة كأهم مكان للعبادة ، كما زوّده الإخشيد بحصر جديدة مصنوعة من الأسيل ، وكذلك وضع فيه الكثير من المصابيح والعطور . هذا إلى أنه كان يحضر بنفسه فى الليلة الأخيرة من شهر رمضان مرتديا الملابس البيضاء ومن ورائه خمسمائة تابع يحملون المشاعل والصولجانات . وفى أول أيام عيد الفطر كان يقيم عرضا على النحو الذى كان يقام به فى أيام ابن

(١) ابن سعيد ص ١٤ .

طولون . وقد جرت العادة أن يشترك الجيش فى هذا العرض ، وكان أربعمائة ألف رجل ومن خلفه ثمانية آلاف مملوك ، كل منهم يحمل سلاحا لامعا ، ويمر هؤلاء جميعا أمام دار الإمارة . وفى اليوم التالى — أى فى اليوم الثانى من أيام العيد — كان الأمير يحضر الصلاة فى الجامع ويشرف على الشعب بنفسه . ولما أرسل الخليفة إلى الإخشيد الخلعة ازدانت الشوارع والأسواق بالملابس الفاخرة والبسط الثمينة ، وغطيت أبواب الجامع العتيق بالديباج الموشى بالذهب ، وذلك بمناسبة مرور موكب الأمير — وهو مرتد خلعته الجديدة — فى طريقه إلى الصلاة[1] .

تلك كانت أيام زاهرة فى تاريخ مصر . ولئن كانت فى بعض الأحيان تبدو بعض سحائب القسوة فى سماء الحكم ، فإنها كانت تنقشع أمام بهجة هذا الحكم الساطعة . ولقد أخذ الأدب العربى فى الازدهار فى الحاضرة الواقعة على النيل ، على الرغم من تلك المسافة الشاسعة التى كانت بينها وبين حاضرة الخلفاء على نهر دجلة حيث كان لبلاد فارس أثر فى ظهور دراسات لم يكن الجو قد تهيأ بعد لوصولها إلى حاضرة مصر . ومن ثم كانت الدراسات العربية لا تزال فى المهد فى عهد الإخشيد ، غير أن الشعر كان مزدهرا على الرغم مما ساده من التقليد . وبدأ التاريخ يدون بصورة واضحة ، وأما العلوم فإنها لم تمتد إليها يد البحث اللهم إلا فى صورة ناقصة تتمثل فى علم التنجيم ، ولم تكن هناك أسماء عربية تلمع فى محيط الأدب إلا فيما ندر. وكان الكتاب يتناولون حياة النبي ويصيغونها فى شكل تاريخ ، ومن أشهر هؤلاء الطبرى والمسعودى اللذان عاشا فى عصر الإخشيد . والواقع أن المسعودى زار مصر فى سنة ٩٤٢ م ؛ ولو أنه — لسوء حظنا — لم يصف حاضرة هذه البلاد المصرية كما شاهدها ، فإنه وصف «ليلة الغطاس» ، وكانت من المواسم المسيحية التى كان المسلمون يحتفلون بها كذلك ، مما يبين أن أهل مصر يحبون المرح دائما . وفى ذلك يقول : « لليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها ، وهى ليلة عشر تمضى من كانون الثانى . ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس فى مصر ، والإخشيد محمد بن طغج قد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل

---

(١) كان الاخشيد مولعا بالعنبر . وقد اعتاد الناس أن يقدموا له كميات كبيرة منه فى أول العام الجديد وفى حفلات الربيع ، وكان يبيعها بثمن غال . ولما توفى أحرق منزل أرملته ، وكان به من العنبر ما يساوى خمسين ألف جنيه (ابن سعيد) .

غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر فى تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم من فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية للنيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والرقص ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سرورا ، ولا تغلق بها الدروب ، ويغطس أكثرهم فى النيل ، ويدعون أنه أمان من المرض »[1] .

ويحدثنا هذا الرحالة كيف أن النـاس كانوا يطلبون من الإخشيد السماح لهم بالتنقيب علهم يعثرون على الكنوز التى ورد ذكرها فى النصوص القديمة . غير أنهم لم يجدوا سوى بضعة كهوف ملآى بالعظام والأتربة أو بقايا جثث الموتى . ويذكر لنـا المسعودى مقياسىْ النيل اللذين أقيما فى جزيرة الروضة التى يسميها « دار الصناعة » . أما المقياس الأول الذى لا يزال قائما إلى الآن ، فقد بناه أسامه ، وبنى الثانى — أو على الأصح أعاد بناءه — ابن طولون ، ولم يكن يستعمل إلا وقت الفيضان . كذلك شاهد هذا الرحالة الجسر الذى كان يصل مصر بجزيرة الروضة ، والجسر الآخر الذى كان يصل هذه الجزيرة بالجيزة من الضفة الغربية . كما قابل فى مصر كثيرين من تجار القسطنطينية . غير أنه لم يذكر لنا شيئا عن المدينة نفسها . وقد ذكر ابن سعيد وغيره من المؤرخين أن الإخشيد بنى فى مصر دارا للصناعة حلت محل الأحواض القديمة بجزيرة الروضة . أما مكان هذه الأحواض فقد أقيمت فيها حديقة غنـاء . وقد بلغ من ميل الإخشيد إلى الاقتصاد أنه لمـا بلغته قيمة نفقات إنشاء هذه الحديقة ، صـــاح قائلا : ماذا ؟ ثلاثون ألف دينار لحديقة للنزهة ؟ ! ؟ ثم أمر فى الحال بإنقاص تلك التكاليف إلى خمسة آلاف فقط . وكما أن دار الصناعة فى الروضـة حلت محل دار صناعة مصر ، كذلك حلت محلها فيما بعد ميناء المقس . أما دار الإخشيد التى بناها للنزهة فى جزيرة الروضة فلم يبق منها أى أثر . غير أن جزيرة الروضة نفسها بقيت المكان الذى كان يفضله أمراء مصر . وأغلب الظن أن بناء الإخشيد قد هدم ليحل محله « هودج الأمير » وغير ذلك من مبانى الأيوبيين الفاخرة .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ . ولقد قابل المسعودى المؤرخ أوتيخا Eutychius فى مصر حيث انتهى من وضع كتابه « التنبيه » وذلك سنة ٣٤٥ هـ .

وكان شغل رجال العلم الشاغل فى ذلك الوقت تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف وإبراز آراء علماء الدين فيهما . ولما كان القرآن من الكتب السماوية ، كان لزاما على القاضى المسلم أن يكون من رجال الدين . وكان علماء مصر فى صدر الإسلام من الفقهاء بالمعنى الصحيح . وكان للمدارس التى تمثل المذاهب الدينية الأربع — الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى — مكان من جامع عمرو بن العاص . أما الشافعية والمالكية فكان لكل منهم خمسة عشر فناء ، وأما الحنفية فكان لهم ثلاثة فقط ، وكان الفناء الكبير يضج بمنازعاتهم جميعا . وقد تبدو لنا الآن ضآلة الفرق بين هذه المذاهب ، غير أنها لم تكن كذلك بالنسبة المسلمين فى ذلك الوقت ، فقد كانت فروقا لها أهميتها وخطرها ، وكثيرا ما كان علماء الدين يحتدون فى أثناء مناقشاتهم وجدلهم فى الجامع القديم حتى اضطر الإخشيد فى نهاية الأمر إلى إزالة الحصر والوسائد المصنوعة من الأسيل وإغلاق المسجد ردحا من الزمن ، بحيث لم يكن يفتح إلا فى أوقات الصلاة وحدها . وكانت المساجد فى ذلك الوقت — كما هى الحال بالنسبة إلى بعضها فى الوقت الحاضر — دوراً للعلم وليست مجرد أماكن لتحقيق الأغراض الدينية . وكان شعراء العرب قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ينشدون قصائدهم فى الأسواق أمام جمهور النقاد من مواطنيهم . أما فى العصر الإسلامى فقد كان النقد يتخذ صورة أخرى ، إذ بينما كان الشاعر ينشد شعرا يزعم أنه قد أجاد فيه ، يسرع إلى المسجد حيث يتناقش مع جمهور النقاد . وهنالك يجد فريقا من الفقهاء ، والشعراء ، والنقاد ، وقد جلسوا جميعا القرفصاء على الحصر حول صحن الجامع ، وأخذوا يشرحون للفيف من الطلبة الجالسين من حولهم بلاغة الأسلوب ودقته . وكان الشاعر ينشد قصيدته أمام النقاد فى زهو ، ولكن فى شىء من الخوف والوجل . تلك كانت تجربة قاسية ، إذ أن المستمعين كان بعضهم من المنافسين له ، كما أن جميعهم كانوا نقادا لاذعين ممن لا يسمحون بأية هفوة أو خروج عن الوزن أو خطأ فى المعنى ، وكانت لهم فوق هذا طريقة قاسية للتعبير عن آرائهم . حينئذ كنت تسمع الجدال يحتد ، ثم تنشد بضعة أبيات من شعر الشعراء المتقدمين ويبدأ الامتحان ، ويدافع الشاعر حيال هذا كله عن قصيدته ويدلى بحججه ، ولا ينصرف فى نهاية الأمر إلا بعد أن يكون قد

استهدف لأقسى تجربة مر بها (١) .

وليست المسائل الدينية وحدها هى التى كان يخصص لها جامع عمرو بن العاص فى عهد الإخشيد . فإنه على الرغم من أنه كان هناك كثير من الثقات الذين دون ابن سعيد تاريخ حياتهم فى الفقه وغير ذلك ؛ كان كثيرون غير هؤلاء . فقد كانت هناك أسرة طباطبا التى ترجع فى نسبها إلى على بن أبى طالب — وكل أفرادها من الشعراء ، وشعرهم حافل بحب الطبيعة وبالحب نفسه . غير أنه لم يمتدح الخمر ، على الرغم من أنه كان محببا إلى شعراء جميع عصور الإسلام .

وكان هناك كذلك أبو الفضل من أسرة بنى الفرات المشهورة الذى كان — فضلا عن كونه ثقة فى نقل الروايات — شاعرا مجيدا ، وحتى منصور الفقيه كان ينشد أحيانا بعض الشعر الرصين ، على الرغم من أنه هو الذى أحدث جلبة كثيرة نتيجة لما أدلى به عن إعالة الزوجات المطلقات فى عهد الحاكم دوكاس . وكانت النتيجة أنه كان يسير بحراسة الجند ، وكانت هنالك مشاهد مروعة حين كانت السيوف والسكاكين تشهر حول نعشه ، واعتقد الناس أنه قتل على أيدى أحد القضاة الذين خالفوه فى الرأى . وكان القاضى بكار — شاعر القصر الطاعن فى السن — معينا لا ينضب من القصص المسلية الممتعة ، حتى إن الإخشيد كثيرا ما كان يستدعيه فى المساء ليروى له إحدى قصصه .

أما المسبحى المؤلف المشهور فقد عاش فى عصر متأخر نوعا ، إذ أنه لم يولد إلا فى سنة ٩٧٧ م ؛ غير أن مؤلفاته تصطبغ بما يصطبغ به القرن العاشر فى مصر . وقد كتب ثلاثين كتابا تشتمل على نحو أربعين ألف صفحة ، وتشمل الكثير من الموضوعات المختلفة كالشعر والنقد ، وتاريخ مصر ودياناتها ، كما دون رسائل فى الخمر واللهو وألوان الطعام . وكذلك يتناول هذه الكتب علم التنجيم والشياطين والأحلام والقسم والقصص والأمثال ونظم الحكم وغير ذلك من الموضوعات الشائقة . والواقع أن ازدهار الأدب يرجع فى الغالب إلى ذلك العبد الحبشى المحب للهو وهو « كافور الإخشيدى » الذى حكم هذه البلاد بعد موت الإخشيد سنة ٩٤٦ م

---

(١) أنظر ما كتبه المؤلف تحت عنوان Arab Classic فى كتابه Among my Books ص ٩٠ .

اثنتين وعشرين سنة . وكان حكمه فى بادىء الأمر بوصفه وصيا على ولدى الإخشيد اللذين عاشا دون أن يعرفا شيئا عن أمور العالم اللهم إلا مايتعلق باللهو والمجون . أما السنتان أو الثلاث سنوات الأخيرة من حياته فقد تولى إمارة مصر فيها بصفة رسمية . والواقع أننا قلما نجد بين الشخصيات التـــاريخية ، أغرب من هذا العبد الأسود ، بما كان له من بطن ضخم وأرجل معوجة وشفاه غليظة ـــ تلك الأشياء التى أخذ المتنبى ـــ آخر شعراء العرب الكلاسيكيين ـــ يسخر منها ويهزأ بها بعد أن وجد أن مديحه للأمير الأسود لم يحقق ما كان يرجوه منه . وقد أصبح كافور بعد ذلك لوكولاس Lucullus وميسيناس Maecenas عصره . ذلك أنه نال قسطا لا بأس به من الثقافة والمعرفة ، شأنه فى ذلك شأن أغلب العبيد الأذكياء . كما أنه كان كلفا بأن يحيط نفسه دائما بالشعراء والنقـاد ليستمع إلى مناقشاتهم فى المساء ، أو يطلب إليهم أن يقصوا عليه تاريخ الخلفاء الأولين . وكانت هذه الحلقات تجمع كثيرين من العلماء ورجال الفكر . هنالك كنت تجد الكندى الذى كتب كتاب « فضـــائل مصر » والذى يدين له المقريزى بالكثير مما كتب . وكذلك كنت ترى البحترى عالم النحو المشهور . وابن القـاسم الذى كتب الكثير من الشعر الغنائى ، وكان كافور يثنى على هؤلاء جميعا . كما كان يحب الموسيقى ، شأنه فى ذلك شأن جميع السودان ، هذا إلى أنه كان يملك مبالغ ضخمة من الأموال ، ينفقها على هؤلاء الأدباء دون حساب ، ولم يكن ينال منهم سوى المديح الذى كان ينطوى على الشىء الكثير من التملق . مثال ذلك أن ابن القاسم حينما نظم قصيدة أنشد فيها إن الزلازل المتكرره التى كانت تحدث فى ذلك الوقت لم تكن سوى رقص مصر فرحا بما كان يتمتع به كافور من فضائل ، تملك ذلك الأمير السرور فألقى لذلك الشاعر بألف دينار . أما ما يتعلق بالطعام فقد كان كافور مسرفا فى كرمه . وكان يجلب إلى مطبخ القصر فى كل يوم مائة خروف ، ومائة حمل ، ومائتان وخمسون أوزة ، وخمسمائة دجاجة ، وألف حمامة وغير ذلك من الطيور ، هذا عدا مائة خابية ملأى بالحلوى . وكان الاستهلاك اليومى يربو على ألف وسبعمائة رطل من اللحم ، عدا الطيور والحلوى ، وخمسين وعاء من النبيذ التى كان يستهلكها الخدم وحدهم . وكان عصير التفاح فى ذلك الوقت من الشراب المفضل ، لذلك كان قاضى أسيوط

يرسل إلى كافور خمسين ألف تفاحة فى كل موسم[١] .

وعلى الرغم من تمسك الناس بالدين فى ذلك الوقت وإيمانهم بالقضاء والقدر ، وما كان لذلك من أثر ، فإن العرب كانوا فى العصور الوسطى يعرفون كيف يتمتعون بحياتهم كما كان يفعل أجدادهم فى الصحراء . والغريب فى أمر هذا المجتمع الإسلامى القديم أنه كان كما كان على الرغم من ظهور الإسلام . فإلى جانب الصلاة والصوم والطقوس الدينية المختلفة ، كان المسلمون فى العصور الوسطى يعرفون كيف ينعمون بوقتهم ، بل كانوا يجدون فرصة للمرح حتى فى دينهم . فقد كانوا يقيمون كثيرا من الحفلات الدينية ويرتدون أنخر الملابس وأغلاها ، ويحتفلون بزيارة قبور الموتى ، ويتقدون الخدم ليروحوا عن أنفسهم وسط شوارع المدينة المضاءة بالأنوار والتى كانت تحفل بالراقصين والمغنين والمقرئين ، أو فى المساجد حيث كان الدراويش يقومون بطقوسهم الدينية العجيبة . ومثل هذه الملاهى كانت تضفى على الحياة بهجة وبهاء ، على الرغم من التعذيب الذى كان يستهدف له بعض المتطرفين فى الدين ، كأن يطيل أحدهم النظر إلى حائط أبيض حتى يرى اسم « الله » يلمع عليه .

غير أن الطعام كان أكثر ما يدخل السرور على المسلمين فى العصور الوسطى . والواقع أن العرب لم يعرفوا الطهى العلمى الذى نعرفه اليوم ، كما أنهم لم يتفننوا فى انتقاء ألوان الطعام . فهم كانوا يشربون حتى الثمالة ، ويأكلون حتى تمتلىء بطونهم . ونحن نسمع أحيانا عن مأدبة عامة من مآدب العرب كان يغطى السماط فيها إحدى وعشرون صحفة مختلفة تحتوى على واحد وعشرين خروفا كبيرا وثلاثمائة وخمسين دجاجة وحمامة ، وقد تكدست هذه جميعها فوق بعضها البعض حتى كان يصل ارتفاعها إلى ارتفاع الرجل ، وكانت تغطى بألوان الحلوى المختلفة . وبين هذه الصحاف الكبيرة الواسعة خمسمائة طبق صغير يحتوى كل منها على سبع دجاجات عدا الحلوى . وكانت الورود تنثر فوق المائدة وتزينها ويصنع الخبز على شكل فطائر . أما الحلوى فكانت توضع فى صحفتين كبيرتين تحتوى كل منها على سبعة عشر قطار حافلة بمختلف الألوان ، وكان يؤتى بها إلى المائدة فوق أعمدة يحملها الرجال على أكتافهم . وكان الرجل بحيث يستطيع أن يأكل خروفا بأكمله دون أن يتعرض

(١) انظر كتاب Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 88 — 89 .
وابن سعيد ص ٧٨ وما يليها .

لأى ضرر . وإذا أصابته التخمة أحيانا تناول الخمر فى إسراف ، وكانت الكأس وقتئذ تسع لترا كاملا من الخمر .

ومهما يكن من أمر تلك المآدب وذلك الإفراط فى الطعام فإن هناك مسألة يجب ألا تغرب عن بالنا . ذلك أن العربى لم يكن يروقه شرب الخمر فى وحدته ، بل كان يحب دائما الاجتماعات التى يسودها المرح والبهجة ، كما كان يحب أن تمتلىء مائدته بالأزهار والعطور . وكان العرب على العموم يهتمون بملابسهم ويعطّرون لحاهم بعطر خاص ويرشون ماء الورد على أجسامهم . ولم تكن حجراتهم تخلو من مبخرة يحترق فيها العنبر فينبعث دخانه فى كل مكان . وكانت الموسيقى من مستلزمات اللهو والمرح ، ولم تكن للأعياد عندهم بهجة بغير المغنين من الرجال والنساء على السواء ، فكنت ترى إحدى الجوارى ذات القوام الممشوق ، والوجه الذى يشبه البدر فى تمامه ، تغنى بصوت ساحر جميل بعض الأغانى الحزينة العذبة ، وكانت تصحب العود فى غنائها ، حتى كان يستولى الفرح على نفوس الجميع . وكانت معظم الولائم يحضرها أحد الظرفاء المشهورين بسرعة البديهة ، ولم يكن ذلك الظريف مجرد شخص قادر على استخدام الجناس من قبيل المزاح ؛ بل كان رجلا متمكنا من الأدب العربى واسع الثقافة والمعرفة ، بحيث كان يستطيع أن يكمل فى الحال أية عبارة مقتبسة ، وكان هذا الظريف بحق زينة الأدباء . ولقد بلغ حب الخلفاء والوزراء للشعر والأغانى مبلغا عظيما ، حتى إنهم لم يبخلوا بأى شىء على من كان يرضيهم من الشعراء . بل إن المتسول الذى كان يجيب إجابة منمقة لائقة ، كان الخليفة يملأ له وعاء من الذهب . أما الأديب الذى كان يظهر بداهة فى الجواب ، فكان يأخذ قسطا وافرا من المجوهرات ، وكانت خزانة ملابسه تمتلىء بكل نفيس من الملابس الفاخرة . ولقد حدث أن توفى أحد الشعراء وخلف من ورائه مائة ثوب من أثواب الشرف ، ومائتى قميص وخمسمائة عمامة .

ولكن كافور كان أكثر من محب للهو أو مسرف فى الملذات . لقد كان قويا كالحصان ، ولكنه كان رقيقا كالمارد . وكان مجدا فى عمله ، يميل إلى المرح فى الوقت نفسه . كما كان من السياسيين المخلصين ، إذ كان يمضى جانبا كبيرا من وقته فى رعاية شئون الدولة العامة ، وكثيرا ما كان يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل . واشتهر بالحلم والكرم والتقوى . وعلى الرغم من أنه ترك ثروة طائلة بعد موته تحتوى

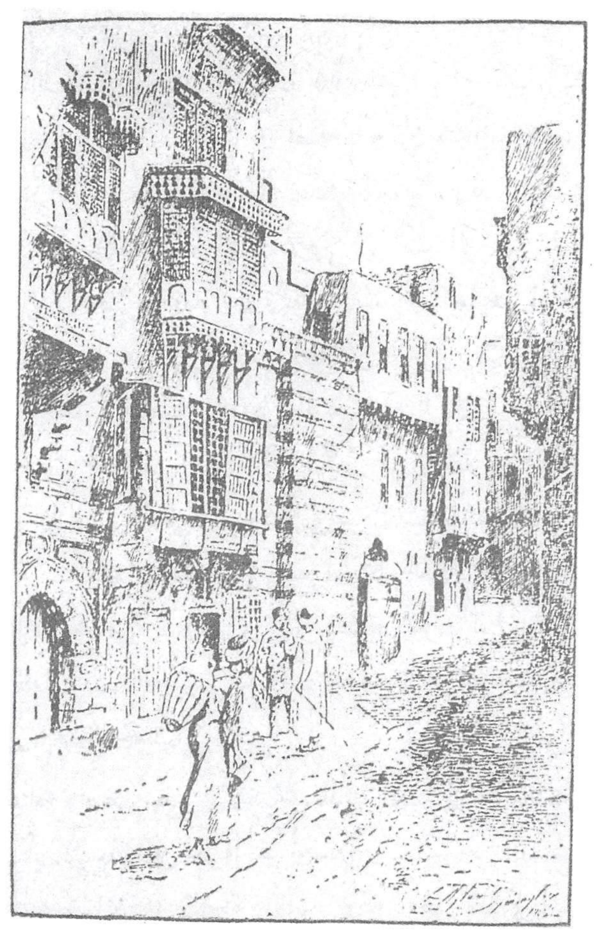
على الكثير من الذهب والأحجار الكريمة والعبيـــد والحيوانات ، إلا أنه كان يغدق الكثير في وجوه الخير وينفق بغير حساب . وقد توفي في عام ٩٦٨ حيث كتب على قبره في دمشق :

ما بال قبرك ياكافورُ منفردا بالصَّحْصَحِ المرْت بعدالعسكر اللجب
يدوس قبرك أحـــاد الرجال وقد كانت أسود الشَّرى تخشاك في الكتب

وفي هذه الكلمات شيء من الصحة ، ولو أنها مبالغ فيها كثيرا . حقيقة كان كافور شجاعا ، غير أنه لا يمكننا أن نصفه بأنه كان قائدا ناجحا ، على الرغم من انتصارين أحرزهما في سوريا في مستهل حياته العملية . وقد كان لنشاط موظفيه وجنده الفضل في عظمة المملكة — وهي التي تمتد الآن إلى الحدود الشمالية لسوريا وتشمل الحجاز بما فيها مكة والمدينة — حتى سادها الأمن والطمأنينة طوال مدة إمارته ، على الرغم من انخفاض النيل أكثر من مرة ، مما أدى إلى انتشار القحط والجدب ، وعلى الرغم من الزلازل المروعة التي انتابت البلاد ، والحريق الهائل الذي دمر أكثر من ألف وسبعمائة منزل في مصر سنة ٩٥٤ م . ذلك أن الخصي الأسود كان يعرف كيف ينظم شئون البلاد . ومن سوء الحظ أنه — مثله في ذلك مثل جميع الحكام العظام ذوي السلطة المطلقة — لم يترك من يخلفه بعد موته . وكان من أثر ذلك أن غزت البلاد ، تلك القوات التي كان يعدها الخلفاء الفـــاطميون منذ وقت بعيد ، نتيجة للضعف الذي كانت عليه حكومة الأمير الجديد حفيد الإخشيد .

وليس هناك وصف جدير بالاقتباس لمدينة مصر في هذا العصر الذي عرف بالثراء . غير أن الرحالة ابن حوقل قد وصفها وصفا موجزا بعد سنة ٩٧٨ بقليل ، حيث يقدر مساحتها بثلث مساحة بغداد . وهو يخص بالذكر أسواقها البديعة ، وشوارعها الضيقة ، ومنازلها المبنية من الطوب والتي كانت تصل إلى خمس طبقات بل إلى سبع في بعض الأحيان ، تلك الدور التي كان الواحد منها يتسع لمائتي نفس . أضف إلى ذلك الحدائق وأماكن النزهة التي كانت تحيط بتلك المدينة . وكان مسجد عمرو بن العاص في وسط المدينة ، وكان لا يزال أهم ما يلفت النظر من بين المباني القائمة ، مما يدل على أنه لم تكن هناك قصور فخمة أو دور شاهقة للحكومة . وكان قصر كافور يقع خارج المدينة ، وأغلب الظن أنه كان في

الحديقة المسماه « بحديقة كافور » ، على الرغم من أنه بنى لنفسه فى وقت من الأوقات قصرا جديدا كلفه مائة ألف دينار ، وكان على مقربة من بركة قارون القريبة من جامع ابن طولون . غير أن العفونة التى كانت تنبعث من المياه الراكدة دفعته إلى ترك ذلك القصر . وكانت تلك الحاضرة تقع فى مكان غير المكان الذى



(شارع بمصر القديمة)

تقع فيه مدينة القاهرة الحالية ، ذلك أن النيل كان قد أخذ فى ذلك الوقت يغير مجراه نحو الغرب مما أدى إلى تكوين جزيرة بولاق أو « الجزيرة » . وفى أيام الإخشيد ، كانت مياه النيل تجرى تحت أسوار حصن بابليون ، وتحف بالعسكر، وتمر بجوار الأماكن التى تعرف الآن بباب اللوق وباب الحديد[1] . وكانت المياه

---

(١) أنظر المقريزى ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١٦٣ ، ١٧٧ ، ١٨٥ وغيرها .

تعمر وتمتد جميع أحياء مصر القديمة وقصر العيني وقصر الدوبارة وبولاق. وكانت الحاضرة تمتد على جانبي النيل وتصل إلى جامع ابن طولون تقريبا .

ولعل أحسن وصف فى هذا الصدد ما أورده ناصر خسرو الفارسى الذى زار مصر فى سنة ١٠٤٧ م أى بعد وفاة كافور بثمانين سنة . حقا — ولو أن ذلك ليس من المحتمل — أن تكون هناك تغيرات ذات أهمية قد حدثت فى خلال تلك الفترة ، وناصر خسرو هذا لا يعرف شيئا عن القطائع . ومن ثنايا وصفه لمصر كمدينة بنيت على أرض مرتفعة ، يتضح لنا فى جلاء أن القطائع فى ذلك الوقت الذى وصفها فيه ناصر خسرو كانت جزءا من مدينة مصر ، وأنه كانت لا تزال هناك بعض الدور على الرغم من الدمار الذى أعقب زوال الدولة الطولونية . وكان مسجد ابن طولون يقع فى ظاهر المدينة ، يحيط به سور مزدوج أقوى مما شاهده هذا الرحالة فى بلد من البلاد ، اللهم إلا إذا استثنينا آمد وميافارقين . وليس من شك فى أنه كانت هنالك مأذنة فى ذلك الوقت(١) . وكانت هنالك سبعة مساجد فى المدينة القديمة أهمها مسجد عمرو بن العاص وكان به محراب مغطى بالرخام الأبيض نقشت عليه آيات قرآنية . وكان صحن هذا المسجد حافلا على الدوام بالأساتذة والطلاب وغيرهم من مختلف الطبقات ، الذين كانوا يتخذون هذا الصحن لعقد الاجتماعات العامة وبحث شئونهم المختلفة . وقد انتهى أمر هذا الجامع إلى أن اشتراه الخليفة الحاكم الفاطمى — الذى سنتكلم عنه فى الباب التالى — بمائة ألف دينار ، مع أنه أنفق عليه مائة خمسة وثلاثون ألف دينار ، وأجرى فيه بعض الإصطلاحات . كما زوّده بمصباح كبير من الفضة علق فيه سبعمائة قنديل . وقد بلغ من كبر حجم هذا المصباح أنهم أرغموا على خلع أحد أبواب المسجد ليتمكنوا من إدخاله . وكان قاضى القضاة حتى ذلك الوقت لا يزال يعقد مجالسه فى صحن هذا المسجد.

أما فى الخارج فقد كانت أبواب المسجد تطل على الأسواق ، وفى الشمال شارع القناديل وهو الشارع الذى لم ير له ناصر خسرو مثيلا فى أى مكان آخر . ولقد أعجب هذا الرحالة بما كان معروضا هنالك من بللور وأصداف وغير ذلك من النقوش الدقيقة ، كما شاهد كثيرا من العاج وريش النعام وغير ذلك من منتجات

السودان والحبشة . وفى ذات يوم — أو إذا شئنا التدقيق فى الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٠٤٨ — أحصى أنواع الأزهار والخضروات والفواكه التى شاهدها فى أسواق مصر: الورد الأحمر ، والزنبق ، والنرجس ، والبرتقال الحامض والحلو، والليمون ، والتفاح ، والياسمين ، والبطيخ ،والموز ، والزيتون ، والبلح ، والعنب ، وقصب السكر ، والقرع ، والبصل ، والثوم ، والباذنجان ، والجزر ، والبنجر ، مع أن هذه الأشياء جميعها كانت تظهر فى مواسم مختلفة . إلا أن ناصر خسرو يقول إن القطر المصرى عبارة عن أرض فسيحة تنتج الفواكه التى تنمو فى الجو البارد والحار على السواء . كما أن منتجات جميع الكور كانت تجلب إلى الحاضرة وتكون معدة للبيع فى الأسواق . وقد بلغ من إتقانهم صناعة الفخار أن كان ناصر خسرو يستطيع أن يرى يده من خلاله ، كما كان يلوّن بألوان جميلة بحيث كان يشبه الثياب القلمونية . وكان هنالك أيضا زجاج أخضر شفاف غالى الثمن . وقد أمكن التحقق من ذلك كله من بقايا القمامة التى عثر عليها بين أطلال المدينة الدارسة . ومما شاهده ناصر خسرو كذلك ، الأوانى النحاسية الكبيرة المصنوعة من النحاس الذى كان يستورد من دمشق . وقد حدث أن وجدت هناك امرأة تملك خمسة آلاف من هذه الأوانى وكانت تؤجر الواحدة منها بدرهم واحد فى الشهر . وكان من دواعى اغتباط ناصرخسرو أنه اكتشف أنه لم تكن هناك حاجة لأن يحمل المرء معه قارورة أو ورقة إذا ذهب إلى الأماكن التى تباع فيها العقاقير أو إلى تجار الحديد ، فقد كان هؤلاء يزودون عملاءهم بما يودعون فيه مشترواتهم . والأغرب من هذا حقا أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة بدلا من المساومة التى كانت مألوفة من قبل . وإذا سولت أحد التجار نفسه بالغش ، ركب جملا مر به فى السوق وحمل جرسا وصاح قائلا : لقد ارتكبت غشا وها أنذا أنال جزائى ، ولعل الله أن ينزل عقابه بمن يرتكب هذا الجرم .

وكان جميع التجار يذهبون إلى حوانيتهم ممتطين الحمير ، وكانت هناك عند مفترق الطرق حمير كثيرة للأجرة بلغ عددها خمسين ألفا — على ما علمت — ولم

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة — طبعة Schefer ص ١٤٥ .

يكن يركب الخيل سوى الجنود .

وكانت المدينة تمتد على طول شـــاطىء النيل ، وكانت الأروقة والأكشاك تشرف على النهر ، حيث كان الشخص يستطيع أن يحصل على الماء عن طريق الأحبال المدلاة . وكان السقاؤون يحملون الماء ـــ كما يحملونه الآن ـــ فى قرب كبيرة يحملونها على ظهورهم أو فوق الجمال أحيانا . وكانت بعض الدور تتألف من سبع طبقات ، فى الطابق العلوى منها حديقة للفواكه ، وعلى الأخص البرتقال ، وكانت ترويها ساقيـة يديرها ثور كان يحمل إلى أعلى المنزل عنـدما كان لايزال عجلا صغيرا . وكان حجم الدور كبيرا جدا لدرجة أن الدار الواحدة كانت تسع ثلثمائة وخمسين شخصا . وكانت بعض الشوارع والأسـواق المسقوفة تضاء بالمصابيح دائما لأن ضوء الشمس لم يكن يصل إليهـا . ولـكى يعبر المرء الجزيرة ، كان هناك جسر مكون من ستة وثلاثين قاربا . غير أنه لم يكن هناك فى ذلك الوقت جسر آخر يصل بين الروضة والجيزة ، ومن ثم كان على المرء أن يركب قاربا أو « معدية » . ومن حسن الحظ أن عدد القوارب فى مصر كان فى ذلك الوقت أكثر منه فى البصرة أو فى بغداد . ويذكر لنا ناصر خسرو أن سكان المدينة كانوا يتمتعون برخاء كبير فى سنة ١٠٤٨ . وقد حدث فى ذلك الوقت أن ولد أمير جديد ، فأخذ الناس يقيمون معالم الزينة فى المدينة ، حتى اعتقد أن النـاس لن يصدقوا وصف ما شاهده . والواقع أن ناصر خسرو لم يعرف قطرا تمتع بما تمتعت به مصر من رخاء ونظام . وهو يحدثنا عن قصة رجل مسيحى موسر التقى به فى مصر ، وكان هذا الرجل يملك تجارة ضخمة وضياعا واسعة . وقد حدث أنه حين لجأ إليه الوزير فى إحدى سنى القحط ، أن قال له هذا الرجل الثرى إنه يملك مخازن من القمح تسد حاجة الحاضرة ست سنين . أما الخان الذى كان يعرف بدار الوزير فقد بلغت إيجاراته إثنى عشر ألف دينار فى السنة ، وقد قيل إنه كان يوجد هناك مائتان من هذه الخانات .

ومن المحتمل أن تكون تلك المدينة التى وصفها ناصر خسرو فى سنتى ١٠٤٧ ـــ ١٠٤٨ م قد تغيرت قليلا فى أواخر ذلك القرن الذى نعمت فيه بالثراء . وكان أساس القاهرة قد فصل مرة أخرى الدوائر الرسمية والقضائية عن مدينة مصر قبل

زيارة ناصر خسرو لها بثمانين سنة . ومع ذلك فإن الحاضرة القديمة احتفظت بروائها باعتبارها مركزا تجاريا هاما ، وليس هناك ما يدعو إلى الزعم بأن شأنه قد انحط فى المائة والعشرين سنة التالية . ولقد تتبعنا مجرى الحوادث حين وصفنا مصر على ما كانت عليه فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ويجدر بنا هنا أن نختتم هذا الموضوع بالكلام على ما لحق بها فى القرن الثانى عشر . ففى سنة ١١٦٨ م تقدم عمورى ، ملك بيت المقدس اللاتينى ، نحو القاهرة لغزو مصر التى آمن الصليبيون بأهميتها بالنسبة لسلامتهم فى فلسطين . ففى شهر نوفمبر تمكن من الاستيلاء على بلبيس ، وقد لطخ إسمه بذبحه كل رجل أو امرأة أو طفل . وكان الخوف من وقوع مذابح أخرى مشابهة ، ومن خطر وصول الغزاة إلى مدينة القاهرة وسيلة لتدمير الفسطاط أن أمر شاور — وزير الخليفة الفاطمى فى مصر — بإحراق الفسطاط . ففى الثانى عشر من شهر نوفمبر أشعلت النيران فى عشرين ألف برميل مملوءة بزيت النفط . واستمرت هذه النيران مشتعلة أربعة وخمسين يوما كاملة . ويمكن أن نجد بعض آثار الحريق فى ثنايا التلال الرملية جنوبى القاهرة والممتدة عدة أميال فوق البقايا المطمورة . وكان الناس يهربون من الحريق ، كما لوكان قد نفخ فى السور فإذا هم من الأجداث ينسلون ، وقد هجر الأب أولاده ، والأخ يترك أخاه ، وتدافعوا إلى مدينة القاهرة للنجاة بأرواحهم . وقد استغل أصحاب الجمال هذه الكارثة المفجعة فكان الواحد منهم يؤجر جمله بثلاثين قطعة ذهبية لقطع مسافة ميل أو ميلين[١] . وكان الدخان المتصاعد من النيران يرتفع إلى السماء فى شكل سحب كثيفة سوداء ، مما اضطر الغزاة إلى أن يعسكروا على مسافة بعيدة منها . وربما كان هذا الإجراء القاسى ضرورة لا بد منها ، على الرغم من أن مدينة القاهرة قد أمكن تخليصها بوسائل أخرى . غير أننا فى الوقت نفسه إذ نتطلع إلى تلك التلال الرملية الخاوية التى تحدد لنا موقع مدينة الفسطاط وتحمل إلى أذهاننا ذلك الرخاء والخير الذى حدثنا عنه الرحالة الفارسى [٢] ، يبدو لنا أن ألفا من غزاة الصليبيين كانوا أهون بكثير من ضياع تلك المدينة القديمة وهى « مصر » .

---

(١) أنظر كتاب Saladin, p. 93

(٢) ناصر خسرو .

وعلى الرغم من أن هذه المدينة لم تسترد مكانتها بعد ما لحق بها من الحرائق ، فإن بعض الجهود قد بذلت فى سبيل إصلاحها . وليس من السهل أن يغير الإنسان المكان الذى اعتاد أن يعيش فيه ، فما أن طرد الصليبيون حتى أخذ الناس يعودون إلى مصر ، ويبحثون عن دورهم ويحاولون إصلاحها ليقيموا فيها من جديد . ولما زار ابن جبير ، الرحالة العربى الأندلسى ، مصر فى سنة ١١٨٣ ، أى بعد ذلك الحريق الهائل بأربع عشرة سنة فقط ، وجد المدينة أقل خرابا عما قد يتبادر إلى أذهاننا ، إذا علمنا أنها احترقت أربعا وخمسين يوما كاملا . وقد أمضى وقتا سعيدا فى فندق « أبى الثناء » فى شارع القناديل ، وقد سمى بهذا الإسم لأنه كان يسكنه طبقة من النبلاء أمام دار كل منهم قنديل ، وكان لا يزال يقع بالقرب من جامع عمرو بن العاص . وعلى الرغم من الآثار التى تبعث الحزن فى النفس ، إلا أن كثيرا من الدور كان قد أعيد بناؤها . وكانت المبانى الجديدة فى صفوف لا تكاد تنقطع وقد تكونت منها مدينة عظيمة بالإضافة إلى بقايا المدينة السابقة الممتدة من خلفها وحولها . وكل هذه المبانى تبين فى وضوح إلى أى حد كانت تمتد المدينة القديمة من قبل(١) ، غير أن الجهود التى بذلت فى سبيل إعادة المدينة إلى ما كانت عليه لم تصادف شيئا من النجاح . وليس أدل على نقص عدد السكان ، من أنه على الرغم من أن صلاح الدين وخلفاءه بنوا فى مصر وحولها عشرة معاهد للعلم ، اعتقادا منهم أن هذه المدينة سوف تأخذ فى النمو ، فإنه لم يبن بها مسجد واحد بعد ذلك الحريق المروّع ، وكانت القاهرة فى ذلك الوقت قد بدأت تحل محلها . ولما زار ابن سعيد مصر خلال سنة ١٢٤٠ م ، أحزنه كثيرا منظر الجدران السوداء والدور المتهدمة وغير ذلك من مظاهر القذارة والإهمال . وكان لا يزال هناك جمهور كبير فى الشوارع الملتوية ، ولفيف من الباعة المتجولين ينادون على سلعهم بين الطلاب والأطفال فى الجامع القديم ، الذى كان يغطيه إذ ذاك نسيج العنكبوت وتنثر عليه أكوام القاذورات . كما أن السفن التجارية كانت تختلف الى مدينة الفسطاط ، كما كانت هناك مصانع للسكر وللصابون لا يزال يجرى العمل فيها(٢) . إلا أن الخراب كان برغم هذا يعم المدينة بأسرها ، ذلك أن التلف كان قد لحقها ، كما أن النمو والازدهار كان قد بدأ يتسرب إلى مدينة القاهرة .

---

(١) ابن جبير طبعة Wright ص ٥١ . (٢) المقريزى ج ١ ص ٣٤١ .

الباب الخامس

القـــاهرة

إنقلاب الشيعة ــ الخلافة الفاطمية ــ المعز ــ فتح مصر ــ تأسيس القاهرة ــ نتائج الانقلاب ــ القبط تحت الحكم الفاطمى ــ العزيز ــ الجامعة الأزهرية ــ مدينة القصر ــ القصر العظيم ــ أبواب القاهرة ــ باب زويلة ــ وصف «وليم الصورى» البلاط الفاطمى ميناء المقس والأسطول ــ الثروة والفن والترف أيام الفاطميين ــ جامع الحاكم ــ الخليفة الحاكم ــ دار العلم ــ ألوهية الحاكم ــ الاستبداد العسكرى وضياع الأقاليم ــ القاهرة فى سنة ١٠٤٧ ــ جبر الخليج ــ اليازورى ــ الأتراك والنهب والسلب ــ مجاعة السبع سنين ــ بدر الجمالى ــ السور الثانى لأبواب القاهرة ــ الوزراء الأرمن ــ حكم الوزراء ــ الاغتيالات والاستبداد العسكرى ــ ابن رزّيق ــ فن البناء الفاطمى.

إن تأسيس القاهرة الحقيقية ، التى تتميز عن مدينة مصر القديمة وما كانت تحويه من ضواحى مختلفة ، يسير جنبا إلى جنب مع إنقلاب خطير ، لا يقتصر أثره على مجرد تغيير دولة بأخرى ، أو انتقال إلى مقر جديد . فلقد كان الغزو الفاطمى ، الذى تمخض عن المدينة الجديدة ، بمثابة انقلاب فى الدين والثقافة ونظام الحكم . والواقع أن الاختلافات الدينية التى جعلت من جامع عمرو بن العاص مكانا لا نظام ولا ترتيب فيه أيام الإخشيد ، لم تكن شيئا إن هى قيست إلى بعد الشقة بين العقيدة القديمة وبين هرطقة القادمين الجدد . وإن نحن أمعنا فى مذهب الشيعة ، وهو مذهب الفاطميين ، وجدناه فى جوهره لا يمت إلى الإسلام بصلة ، ذلك أنه في الواقع لم يفعل أكثر من أنه اتخذ ذلك الانقسام الذى حدث فى الإسلام أساسا يبنى عليه حركة سياسية واسعة النطاق ذات صبغة جديدة مختلفة . وكان ذلك الشقاق القديم قد نجم عمن يرث الخلافة ، ثم استحال إلى ذلك الخلاف القديم بين نظريتى الانتخاب العام والحق الإلهى . فقد قال أصحاب المذهب القديم ، أو مذهب السنة ، إن انتخاب أول ثلاثة من الخلفاء الراشدين وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، كان شوريا ؛ فى حين قال أصحاب مذهب الشيعة أن أصحاب الحق الإلهى فى وراثة الخلافة هم أفراد عائلة الرسول . وعلى ذلك يكون من لهم الحق فى الخلافة : هم علىّ زوج فاطمة بنت النبي ، ومن بعده أولاده . فهؤلاء وحدهم

هم ورثة النبي . وهكذا أصبح على بن أبى طالب بدوره رابع الخلفاء الراشدين ؛ غير أنه لقى معارضة شديدة وانتهى أمره بالقتل . وهنا أقصى أولاده ، أحفاد النبي ، عن الخلافة ، وحينما حاول أحدهم ، وهو الحسين ، أن يطالب بحقه فيها ، هزم وقتل . ومنذ ذلك الوقت ومأساة الاستشهاد فى كربلاء بدأت تثير مشاعر الشيعة فى المحرم من كل عام .

وكان اضطهاد الخلفاء الأمويين لآل محمد ، داعيا إلى عطف الناس عليهم والتأثر لمحنتهم . غير أن أحدا من خلفـــائهم لم يلمع نجمه فى سماء السياسة ، ومن ثم فإن الثورات العلوية التى كانت تحدث بين الفينة والفينة لم يكن لها شأن يذكر . وقد كان يمكن ألا تكون تلك الحركة أكثر من عارض حدث فى عالم السياسة ، أو بمثابة تجربة سجُلت على صفحات التاريخ . غير أن شيئا من هذا لم يحدث بفضل التطور الذى أدخله على تلك الحركة عبد الله بن ميمون طبيب العيون الفـارسى الذى كان يشتغل بالسحر والشعوذة فى آن الوقت . ولقد دبر هذا الرجل ، الذى كان يمقت العرب وخلفاءهم مقتا شديدا ، مؤامرة للقضاء على الدين الإسلامى ولتقوية نفوذ الفرس مرة أخرى . ولقد شجع مذهبه ، الذى اشتق من رأى العلويين القائل بالحق الإلهى ، كثيرا من الناس على الخروج على الدين الإسلامى والانضمام إليه ، وكذلك أولئك المتحمسون الذين كانوا لا يزالون يبكون مأساة كربلاء . ذلك إنه قال إن الله كان على الدوام مجسدا فى بعض الزعماء الروحانيين أو الأئمة أمثال آدم وابراهيم وهكذا حتى على . ولم يكن العالم فى يوم من الأيام بدون إمام ، غير أنه ليس من الضرورى أن يكون هذا الإمام مما تراه العين ، وهذا هو بيت القصيد فى الموضوع . وعلى ذلك فقد حدث أن قطعت سلسلة الخلافة من بعد على ابن ابى طالب . غير أنه على الرغم من ذلك ، كان يوجد فى الوقت نفسه إمام مختفى يتحين الفرصة للكشف عن نفسه أمام العـالم ، وحينما ظهر هذا الإمام المختفى إذا بالناس يجدونه « المهدى » فيصرفون نظرهم عن الخلفاء الذين اغتصبوا سلطته ، وأثناء هذه المدة كان لا بد لأولئك الذين ينتظرونه من أن يعدّوا عدتهم من الرجال ولئن كان الإمام لا يزال مختفيا ، فإن هذا لا يمنع من أن يعمل أنصاره على دعوة الناس إلى الحق .

وهكذا كانت الدعاية سائرة على قدم وساق . وكانت هناك جمعية سرية تعمل

فى الخفاء فى العالم الإسلامى ، وقد لقيت نجاحا على الأخص فى بلاد العرب وبلاد الموصل وشمال أفريقيا ، وكان دعاة الشيعة يختارون بعناية ويدربون على تعليم تلك المبادىء حتى يهتدى بها الناس . أما أولئك الذين لم يتذوقوا العلوم والمعارف فكان لهم معهم سبيل آخر ، ذلك أنهم كانوا يلقنونهم ما يبدو فى ظاهره دروس مستفادة من القرآن ، ولو أنها كانت ممزوجة على الدوام بالإشارة إلى قرب وصول المهدى ، تلك الشخصية الرائعة الغامضة . وأما المثقفون ذوو العقول المستنيرة فكانوا يلجأون معهم إلى المناقشات التى تتناسب مع أفقهم الواسع ، وبذلك يصلون بهم إلى ما يبغون . ولم يكن هؤلاء الدعاة يشبهون المسلمين فى شىء ؛ فقد كانوا فيما بين أنفسهم زنادقة ، وأمام الناس كل شىء . كما أن أهدافهم كانت سياسية محضة تتلخص فى قلب الإسلام على أعقابه ، وسلب المسلمين سلطتهم . ولقد استخدموا جميع الديانات المختلفة فى غير مبالاة ، ولئن كانت تلك الديانات فاسدة بالنسبة إليهم ولا تعنيهم فى شىء ، إلا أنها كانت درجات لها قيمتها فى توصيلهم إلى غايتهم . وكانوا يبذلون قصارى جهدهم فى استرضاء من يعتنقون مذهبهم والاحتفاظ بهم ، فإنهم كانوا يودعونهم أسرارهم حتى يساوونهم بهم . وكانوا يستخدمون الإسم المقدس لسيدنا على بن أبى طالب ، ويبشرون بقرب مجىء مسيح جديد ، لا لأنهم كانوا يعتقدون فى أحدهما أو فى الخلافة أو فى التجسد الروحى ، وإنما كان لا بد لهم من أن يضربوا على وتر رنان حتى يطرب الناس بنغماته .

ولقد أصاب دعاة الشيعة [1] ثلاث خطوات من النجاح : الخطوة الأولى هى سيادة القرامطة على بلاد العرب وبلاد الموصل وسوريا فى القرنين التاسع والعاشر ، والخطوة الثانية هى امتداد الخلافة الفاطمية إلى شمال أفريقيا والقطر المصرى ، أما الخطوة الثالثة والأخيرة فكانت خشية الإسماعيليين أو الحشاشين فى بلاد الفرس ولبنان . والذى يهمنا هنا على الأخص هو الخطوة الثانية ، على الرغم من أن كلا القرامطة والحشاشين كان لهما تأثير على مصر .

وكانت الخلافة الفاطمية ، التى اشتقت إسمها من فاطمة زوجة على بن أبى طالب وبنت النبى ، هى أقوى وأبرز ما تمخضت عنه حركة الشيعة ، ووجد الشيعة بلاد البرابرة أرضا خصبا لنشر مبادئها بين البربر السذج . ولقد نجح الانقلاب حينما

---

(١) أو الإسماعيلية .

أفلحت الدعوة فى إيجاد خليفة لعلى بن أبى طالب وزوجته فاطمة فى شخص عبيدالله المهدى فى القيروان عاصمة البلاد التى تسمى الآن تونس ، وكان ذلك فى عام ٩١٠ . ولقد خضعت بلاد المغرب ، من فاس فى مراكش حتى الحدود المصرية ، لنفوذ المهدى ، وذلك بعد أن غزاها مرتين . وقد استولت الأساطيل الفاطمية على أملاك أسرة الأغالبة فى تونس ، وهى الأسرة التى كانت تعتبر قوة بحرية عظمى فى أواسط البحر الأبيض المتوسط ، والتى كان قد تم لها الاستيلاء على صقلية وسردينيا وقورسيقا ومالطة، ومنذ ذلك الحين أخذت تعمل على تدمير سواحل فرنسا وإيطاليا، فكانت تسلب وتنهب وتحرق أينما حلت . والخليفة المعز ، رابع الخلفاء الفاطميين من أسرة المهدى وصاحب الفضل فى فتح مصر ، كان رجلا قادرا نزيهـــا ذكيا ، وسياسيا بارعا متضلعا فى شئون السياسة . وكان إلى جانب ذلك خطيبا مفوها ، باللغات اليونانية والعربية والبربرية . وعلى الجملة فقد كان يبدو مسلما عادلا أمينا لمذهب الشيعة [١] . وقد كانت هناك تفرقة واضحة بين المذهب الغامض والمذهب الواضح فى نظر أصحاب مذهب الشيعة ، حتى ليستحيل علينا أن نقطع برأى واحد . ولو أنه من المرجح ألا يكون المعزّ ، مثله فى ذلك مثل معظم من جاءوا بعده ، قد شارك آراء الشيعة المتطرفة ، ولكنه اعتنق مبادىء القرآن بعد أن عدّلتها آراء العلويين وتفسيراتهم الرمزية .

ذلك هو الخليفة الفاطمى الذى عزم أخيرا ـــ بعد تقدمه فى مستعمراته الأفريقية وحمل سلاحه حتى ساحل المحيط الأطلنطى (عام ٩٥٩) ، على أن يتم غزوه لمصر ، ذلك القطر الذى حاول جده الاستيلاء عليه دون جدوى ، رغم أن ذلك كان منتهى ما تصبو إليه نفسه . ولم تكن أرض بلاد المغرب الجدباء ولا قبائلها الثائرة لتقارن بوادى مصر الخصب وتجارته الرائجة . ومن ثم كان الخليفة قد وضع الخطة لغزو مصر . ولم يكن الغزو إذ ذاك أمرا عسيرا ، ذلك أن جوهرا ، عبده

---

(١) يجمل بنا هنا لاستجلاء الأمر أن نشير إلى الثلمة التى كانت بينه وبين القرامطة ، على الرغم من أن هؤلاء كانوا مصدر الانقلاب الفاطمى . فلقد غزوا مصر مرتين بعد فترة وجيزة من الفتح الفاطمى ، وكان ذلك فى عامى ٩٧١ ، ٩٧٤ م . وقد حاصروا القاهرة وشقوا لأنفسهم طريقـا بالقوة من أحد أبوابهـا . وليس ثمة ريب فى أن كره المعز الزائد لأولئك الأعراب اللصوص كان له أساسه السياسى .

الرومانى الذى نشأ فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، قاد له مائة ألف مقاتل من القيروان فى شهر فبراير من عام ٩٦٩ ، فسلمت مدينة الإسكندرية بدون قيد ولا شرط ، كما أن المصريين لم يقاوموا مقاومة تذكر، إذ كان الإجهاد قد أصابهم نتيجة مجاعة أعقبت انتشار طاعون(١) فى البلاد ، وكانوا فى حاجة إلى قائد كفء ، كما أن الجنود المصرية كانت قد لجأت إلى العصيان . وأخيرا كان هناك كثير من المعضدين للخلافة الفاطمية ممن كانوا يعملون فى السر ، وممن كان لهم أثر فى مصر . ولذا لم تدم رحى الحرب طويلا ، وبعدها عبر جوهر النيل بالقوة حيث فر المدافعون وأخذت نساء مصر تطالبن بالرحمة . وقد أعقب التسلم عفو شامل وأمر بالكف عن النهب والسلب . وهكذا استطاع الجيش الفاطمى أن يركب إلى مصر فى الخامس من شهر أغسطس .

وفى نفس تلك الليلة وضع جوهر أساس مدينة جديدة ، أو على الأصح أساس قصر حصين ، وذلك لاستقبال سيده العظيم، وكان هو قد عسكر فى الأراضى الرملية التى كانت تمتد فى شمال شرقى الفسطاط على الطريق المؤدى إلى هليوبوليس. وهناك على مسافة تبعد عن النهر بما يقرب من ميل ، وضع حدود العاصمة الجديدة . ولم تكن هناك مبانى سوى « دير العظام » القديم ، كذلك لم يكن هناك زرع سوى تلك الحديقة الجميلة المسماة «بحديقة كافور» . وكان هذا الدير وهذه الحديقة مما عاق جوهر فى بادىء الأمر عن تنفيذ خطته . وقد وضعت القوائم فى مربع يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ألف ومائتين ياردة . وأخذ المنجمون المغاربة ، الذين كان المعز يثق فيهم ثقة عمياء ، يتشاورون فيما بينهم على تحديد موعد للافتتاح العظيم . وكانت الأجراس معلقة على الأحبال الممتدة من عمود إلى آخر ، وذلك انتظارا للموعد الذى يحدده أولئك الحكماء لكى تضرب ، حتى يبدأ العمال فورا فى العمل . غير أنه حدث هناك ما عجّل بالأمر وسبق كلمة المنجمين ، إذ وقف غراب على طرف أحد الأعمدة وبذلك أخذت جميع النواقيس تدق . ومن ثم بدأت المعاول تعمل فى الأرض وتحفر الحفر اللازمة للبناء ، وكان ذلك طالعاً غير سعيد ، فقد كان الكوكب مارس Mars (القاهر) فى صعود . غير أن شيئا مما تم عمله ، لم يمكن نقضه على الإطلاق . وهكذا سمى المكان «القاهرة» نسبة إلى هذا الطالع غير السعيد ، أملا فى أن يتحول الفأل المشئوم إلى نتيجة مظفرة . والواقع أنه يمكن القول بأن

القاهرة قد خيبت أوهام المنجمين . وكان اسم الخليفة العباسي قد حذف في الحال من صلوات يوم الجمعة فى مسجد عمرو بن العاص القديم ، كما أن ملابس العباسيين السوداء قد حرّم لبسها . وكان الواعظ يرتدى ملابس ناصعة البياض ويتلو خطبة للإمام المعز ، أمير المؤمنين ، ويطلب له ولأجداده ـ على بن أبى طالب وفاطمة وجميع أفراد الأسرة المقدسة ـ البركة والنعمة . وكانت الدعوة إلى الصلاة من فوق المأذنة مما يتفق ورغبات الشيعة ، وكل هذه الأخبار السارة قد وصلت إلى الخليفة الفاطمى بواسطة الجمال التى تحمل رءوس القتلى ، وصكت النقود بحيث تحمل عقائد الفاطميين ، وهذا بالإضافة إلى عقائد المسلمين الأخرى . وقد أيد صك النقود على هذا النحو ، آراء الشيعة ومبادئها لمدة قرنين من الزمن(١) .

غير أن هذا التحول كان أكثر من مجرد إبدال عقيدة بأخرى . ومما لاريب فيه أنه بفضل التسامح السياسى لفاتح مصر وتجنب مبادىء الشيعة المتطرفة ، وافق الناس على النظام الجديد دون أى مغالاة أو تعقب للمذهب القديم ، اللهم إلا حينما احتفل القادمون الجدد أمام أعينهم باحتفال محرم لذكرى شهداء كربلاء . وكانت الغالبية العظمى قد ظلت غير مقتنعة بالعقائد الجديدة ، وكان ذلك الموقف يماثل موقفهم حينما استقبلوا إحياء المذهب القديم بعد ذلك بقرنين . على أن التغيير الصحيح كان من الناحية السياسية ، فلم تعد القاهرة عاصمة ولاية تابعة للخلافة القديمة ، أو حتى ولاية مستقلة ضمنـــاً متصله بتلك الخلافة ، وإنما كانت عاصمة دولة منافسة هى إمبراطورية البحر الأبيض المتوسط . حقيقة إن الإمبراطورية لم تلبث أن فقدت إيالاتها الإفريقية البعيدة وجزرها الأوربية ، وانكمشت حتى لم تعد تشمل سوى إيالة ابن طولون . غير أن قوة الدولة الفاطمية وغناها كان شيئاً جديداً . وقد كان للتنافس بين القاهرة وبغداد ، بين خلافة الشيعة الناشئة القوية وبين النظام السنى المتداعى ، أثر بعيد المدى فى مضمار السياسة والحضارة . وقد كان لقوة الفاطميين البحرية واتصالاتهم بدول أوربا أثره فى إيجاد عنصر جديد فى السياسة الخارجية ، وتنشيط التجارة ، وتغيير حضارة مصر وسوريا من نواحى كثيرة مختلفة .

ومن جهة أخرى نجد أن عزل القاهرة أدّى إلى نمو ثقافة منفصلة لم تكن من

---

(١) أنظر كتاب المؤلف A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 103 — 104

الخير بالنسبة لها . ذلك أن الهرطقة عزلتها عن المراكز الثقافية الهامة فى العالم العربى ـ بغداد ودمشق وقرطبة ـ . ثم إن الامتزاج القديم ، الذى كان من شأنه أن يجلب الأساتذة والطلاب من كل أنحاء الإمبراطورية الإسلامية إلى مساجد المدن الكبيرة ، أصبح مستحيلا فى عاصمة مثل مصر كانت المساجد فيها فى أيدى هراطقة. ومن ثم كانت القاهرة بمعزل عن تقدم الدراسات الإسلامية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وقلما ظهر هناك قادة فى محيط الفكر أو الأدب العربى تحت الحكم الفاطمى . وفى بعض الفروع مثل الفلسفة والعلوم الطبيعية والطبية ، كان من المنتظر أن تكون هناك بعض النتائج الحسنة التى تمخضت عن تفكير الشيعة الحر . وليس من شك فى أن بعض هذه النتائج قد حدث بالفعل ، إذ حقق بعض الأطباء المسيحيين واليهود شيئا من التقدم . غير أن هذه الحالات الفردية القليلة لا تعد شيئا إن هى قيست بالنسبة إلى الخسارة العامة التى عادت على مصر من عزلتها عن بقيـــة العالم الثقافى . وقد يكون هراطقة القاهرة استفادوا بعد ذلك بقليل من اختلاطهم بأوربا ، غير أن أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر لم تكن شيئا يعتد به فى مضمار الثقافة .

على أن الذين استفادوا حقا من تغيير الحكومة هم الأقباط المسيحيون ، لحتى ذلك الوقت كان مصيرهم على الدوام يتوقف على طبع الحكام العرب أو الأتراك المختلفين ، غير أنه بوصول الخلفاء الفاطميين بدأت فترة من التسامح واللين لا عهد لهم بهما ، فقد كان الحكام الجدد ، باستثناء واحد فقط منهم ، يرعون على الدوام رعاياهم المسيحيين ، وكثيرا ما بنيت أو أصلحت كنائس فى عهدهم .

وقد كان للخليفة العزيز بن المعز ـ والذى حكم من عام ٩٧٥ إلى ٩٩٦ م ـ زوجة مسيحية ، وكان إثنان من أخواتها بطاركة ملكانيين ، كما أن كلا من البطريرك اليعقوبى افريم وسفيروس أسقف أشمونين كانا من خيرة أصدقائه . فقد كان الأسقف يُشجع على المجىء إلى القصر والتحدث فى اللاهوت مع رئيس القضاة ، كما أن البطريرك قد سمح له بإصلاح كنيسة القديس مركاريوس(١) التى كانت توجد خارج مصر . ويحدثنا أحد الكتاب الأرمنيين بأنه كانت توجد قديما كنيسة مكرَّسة

---

(١) كنيسة أبى سيفين بمصر العتيقة الآن .

لهذا القديس ، تقع على ضفة النهر . غير أنها كانت متهدمة وتستعمل كمخزن لقصب السكر . وبعد ذلك ، فى عهد هذا البطريرك ، بدأت الأسئلة تدور حول قانون الإيمان عند المسيحيين ، وهل كانوا يعتقدون فى الكذب أم فى الإيمان . وهنا اجتمع المسيحيون وذهبوا إلى الجبل ، وكان المسلمون واليهود قد خرجوا فى نفس الوقت لغرض آخر . وقد تقدم كثير من زعماء الإسلام وأخذوا يصلون وينادون « الله أكبر » ويتضرّعون إلى الله طالبين معونته ، غير أن أية علامة لم تظهر لهم . وبعد ذلك تبعهم اليهود ، إلا أن حظهم لم يكن بأحسن من حظ المسلمين ، وهنا تقدم البطريرك يتبعه الدبّاغ ، الذى كان الله قد حقق له معجزة عجيبة ، ومن ورائهما جميع المؤمنين ، ثم أخذا يصليان إلى الله العلىّ العظيم ، ويحرقون البخور ، ويصيحون ثلاث مرات قائلين « كيرياليسون » ، وما أن أتما ذلك حتى كان الله قد أتى بالعجائب . ذلك أن الجبل كان قد تحرك ؛ ونقصد بالجبل ذلك الجزء من جبل المقطم القريب من تل الكبش بين القاهرة ومصر . وقد حدثت هذه المعجزة خلال إيمان الدبّاغ الذى كان قد اقتلع عينه فى حضرة العزيز وكبار رجال حكومته وقضاة الإسلام . وحينما شاهد العزيز هذه المعجزة العظيمة قال : « كفى أيها البطريرك ، فنحن نعترف بما فعل الله لك » . وبعد ذلك أضاف قائلا : « اطلب منى ما تشاء ، وسوف أحققه لك » . ومهما يكن من شىء ، فإن البطريرك رفض هذا الطلب شاكرا . غير أن العزيز ألح عليه فى أن يطلب شيئا ، وهنا طلب منه البطريرك فى أن يأذن له بإصلاح كنيسة قديمة كان قد لحقها الخراب . وبالفعل حقق له العزيز ما أراد وأمر بأن تصلح الكنيسة ، ويقال إن تلك هى كنيسة القديس مركريوس Mercurius (١) . ويلاحظ أن البطريرك لم يقبل المال الذى منحه إياه العزيز ، بل أصلح الكنيسة من ماله الخاص . وقد تم العمل تحت حراسة قوات الخليفة التى كانت تحمى المسيحيين من « عامة المسلمين » الذين لم يطيقوا التساهل مع أولئك « المشركين » .

ولقد كان أحد وزراء العزيز يهوديا فى أصله ، وكان ابن نسطوروس مسيحيا . وبطبيعة الحال كان المسلمون لا يظهرون ارتياحهم لمثل هذا التسامح الدينى مما دعاهم إلى هجاء الخليفة . أما النساء فكن دائما فى صف المسيحيين ، وكانت لهم طريقهن الخاص كما هى العادة . وحتى فى أيام الحاكم — الذى سبقت الإشارة إلى أنه كان

(١) Abu-Sàlih, ed. Evetts, vol. 35 .

دون الخلفاء جميعا فى معاملته للأقباط والذى جاء وقت كان يضطهدهم فيه اضطهادا مريرا ، كانت الوظائف الكبرى لا تزال فى أيدى المسيحيين . وعلى الرغم من أنه حدث كثير من الاغتصاب والنهب أيام الوزير اليازورى فى منتصف القرن الحادى عشر، إلا أنه يبدو أن ذلك كان نتيجة عسر مالى وليس نتيجة اضطهاد دينى . وليس من شك فى أن التأثير العظيم الذى أحدثه الوزراء الأرمنيون فى النصف الأخير من ذلك القرن قد تمخض عن شعور طيب ، حتى أن الخليفة الحافظ فى القرن الثانى عشر كان يتلقى درسين فى التاريخ كل أسبوع من البطريرك الأرمنى . كما أن كثيرا من الخلفاء الذين جاءوا بعده كانوا يزورون الحدائق ذات الظلال الوارفة فى أديرة الأقباط ، حيث كان يستقبلهم الرهبان ويتغالون فى إكرامهم . وكثيرا ما نقرأ عن مساعدات قيمة أسديت لإقامة إحدى الكنائس أو الأديرة. وكان للخليفة « أمير » من الرهبان بمثابة ساعده الأيمن ، كما أنه بنى استراحة له فى أحد الأديرة بقرب الجيزة ليستخدمها حينما يذهب للصيد ، وكان فى كل مرة يذهب إلى هناك يدفع ألف درهم للرهبان ، وكان يداخله السرور حينما كان يقف فى مكان القسس فى الكنيسة ، غير أنه كان يتجنب الدخول من الجانب الخلفى حتى يتحاشى الانحناء ، حينما يدخل من الباب المنخفض . كذلك كان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، يلجأ إلى دير العذراء ، على بعد بضعة أميال من القاهرة ، حيث كان يتمتع بالهواء وبمنظر النيل الخلاب[1] .

وكما كان يعنى بأمر الكنائس ، فإن المساجد لم يكن نصيبها من العناية بأقل من ذلك . وعلى الرغم من أنه يقيم خلال الحكم الفاطمى فى مصر مساجد على يد ذوى الخير والمروءة ، مما تميزت به فترة حكم المماليك الأخيرة ، إلا أن ذلك الحكم اقترن بإنشاء جامعين كبيرين فى القاهرة كانت تعقد فيهما إجتماعات حافلة . فقد كان أول ما عمله جوهر بعد أن بدأ فى بناء أسوار القاهرة ، هو وضع أساس ذلك الجامع الذى لا يزال قائما حتى اليوم ، والذى يعرفه العالم بأسره باسم الجامع الأزهر .

---

(١) هناك أدلة كثيرة على هذه العلاقة الوثيقة بين الخلفاء والرهبان الأقباط ، وردت في فى كتاب أبى صالح الأرمنى المسيحى الذى كتب فيما بين عامى ١١٧٣ ، ١٢٠٨ ، والذى ترجمه وعلق عليه ونشره المستر ايفتس Mr B.T.A. Evetts بمساعدة الدكتور بتلر Dr A.J.Butler « كنائس مصر وأديرتها » The Churches and Monasteries of Egypt.

وكان اليوم الذى وُضع فيه أساس هذا المسجد العظيم هو يوم الأحد الموافق ٤ إبريل عام ٩٧٠ م . وقد تم بناؤه فى الرابع والعشرين من شهر يونيه عام ٩٧٢ . وفى عام ٩٨٨ أصبح العلماء يؤمونه من كل حدب وصوب . ومنذ ذلك الوقت صار ذلك الجامع من أهم الجامعات الإسلامية كافة ، يجتمع فيه عدد وفير من الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، من ساحل الذهب حتى ولايات الملايو . ولكل شعب رواق خاص به . ويتلقى هؤلاء الطلاب على أيدى الشيوخ دروساً فى مختلف فروع الثقافة العربية القديمة : القرآن والحديث والتفسير والفقه والقواعد وعلم العروض والمنطق والبلاغة والجبر وما إلى ذلك . وإلى عام ١٩٠١ كان يذهب إلى الجامع الأزهر أكثر من تسعة آلاف طالب يتلقون علومهم على أيدى مائتين وتسع وثلاثين من الأساتذة . ويتعلم هؤلاء الطلاب بالمجان ، ولم يبخل أهل العلم والأدب فى القاهرة وفى كثير من العواصم الأجنبية بعلمهم وثقافتهم على طلابهم، وكانوا يكسبون عيشهم من التدريس ومن نسخ الكتب الخطية . وكان الطلاب الأجانب لا يتلقون العلم بدون مقابل فحسب ، بل كانوا يعطون قدرا من الطعام ينفق عليه من المال الموقوف[1] . وكانت الثقافة الأزهرية فى بادىء الأمر محدودة ، ولكن على الرغم من ذلك فإنه مثال طيب للتعليم الحر الذى يفتح أبوابه للفقراء دون تمييز فى الجنس أو اللغة أو الطبقة ، وليس من السهل على المرء أن ينسى منظر الطلاب وقد التفوا حلقة حول أستاذهم وأخذوا ينصتون إليه كأن على رءوسهم الطير ، أو منظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين يستظهرون ما تعلموه من أستاذهم . والواقع أن هؤلاء يمثلون فى أذهاننا ما كانت عليه الثقافة العربية فى العصور الوسطى ، حيث الرغبة الصادقة فى العلم ، التى لا تتحمس فى طلبه بقصد الحصول على الجوائز ، أو اجتياز الامتحانات ، وذلك مما تفتقر إليه الجامعات الغربية .

والواقع أن قسما من البناء الحالى للأزهر ، يمثل البناء الأصلى القديم . فقد تم إصلاحه أكثر من مرة ، وأعيد بناؤه على نطاق واسع فى القرن الثامن عشر وأواسط القرن التاسع عشر ، الميلاديين . وعلى الرغم من أنه يوجد به بعض الأفاريز

---

(١) الجراية .

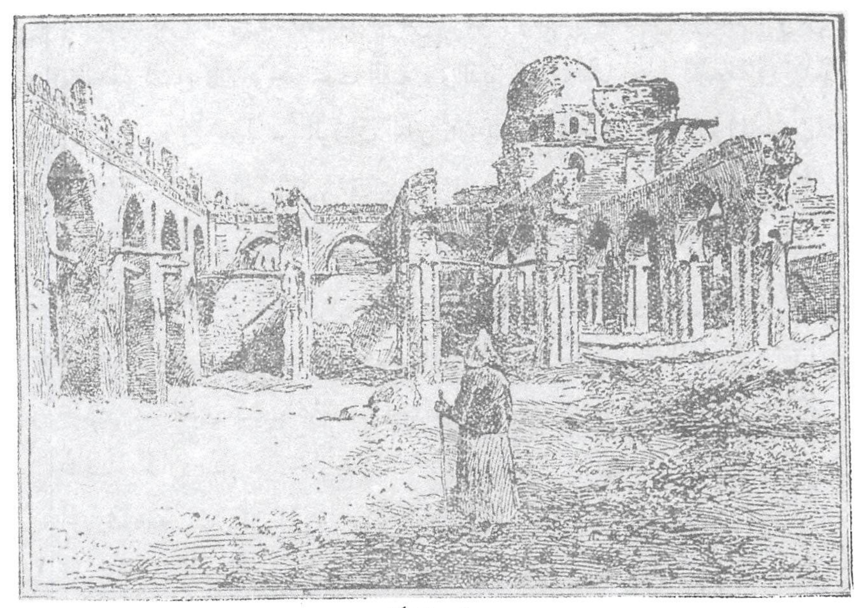
الكوفية الجميلة والأروقة الفارسية التي تتميز بها فترة الحكم الفاطمي ، إلا أن صبغته الآن على وجه العموم صبغة حديثة . ومهما يكن من شيء ، فإن الفناء المربع الشكل يقع في نفس المكان الذي قام فيه الخليفة المعز بالصلاة في عام ٩٩٣ م . وكان ذلك بعد هذا النصر الحافل ، الذي تم بعد أن بعث جثث أسلافه ، إلى تلك المدينة الجديدة التي بناها قائده جوهر الأمين ، دون أن يحفل بالفسطاط ، العاصمة الأولى لمصر الإسلامية ، التي احتفلت بمقدمه احتفالا رائعا . وقد أم الصلاة في ذلك الاحتفال الذي أعقب شهر الصوم ، وكانت المسحة الدينية تعلوه حينما كان يلقي خطبته ، وغادر المسجد في موكب تحف به قواته ، وفي حراسة أولاده الأربعة المسلحين ، يتقدمه إثنان من الفيلة ، وظل على ذلك حتى وصل إلى القصر الذي كان جوهر قد أعده له. ولم يكن الغرض من بناء تلك الأسوار الحصينة التي بنيت حول المدينة أن يبنى في داخلها عاصمة للقطر المصري ، إنما كان الغرض منها أن تكون مقراً للخليفة ورجاله وعبيده وموظفيه وقواته من المغاربة . ولم يكن العامة من أهل مصر يدخلون إليها فلم يكن يسمح لأحد بالدخول من الأبواب بدون إذن ، بل أكثر من ذلك أن سفراء الدول الأجنبية كانوا يترجّلون حينما يصلون إلى الأسوار ، ثم يصلون إلى القصر في حراسة بعض الجند كما كان الحال في النظام البيزنطي . والواقع أن القاهرة كانت مكانا ملكيا ، وليست مدينة عامة ، وجدرانها المرتفعة وأبوابها المقام عليها الحراس ، تمثل العزلة والغموض الذي كان يشغف به الخليفة ، كما أن اسمها الذي تعرف به وهو « القاهرة المحروسة » يوضح تلك العزلة وذلك الغموض .

وكانت الجدران الأصلية القديمة قد بنيت من الطوب الكبير الحجم الذي يبلغ طوله تقريبا قدمين وعرضه خمسة عشر بوصة . وكان سمك هذه الجدران بحيث كان يستطيع فارسان أن يركبا من فوقها ، الواحد بجوار الآخر . ولقد قاس المقريزي ما تبقى من هذا الحائط الأول في عام ١٤٠٠ ، وقال إن الأيام لم تبق على شيء من هذا الحائط(١) . وقد كانت المساحة الأصلية القديمة أقل بمقدار مائة قدم من كل جهة عن المساحة التي بنى فيها في عام ١٠٨٧ . ومن السهل علينا أن ندرك طول المدينة الأصلية التي بناها جوهر إذا علمنا أن باب الفتوح الحالي (بما في ذلك جامع الحاكم)

---

(١) المقريزي . جزء أول ص ٣٧٧ .

وباب زويلة (بما فى ذلك جامع المؤيد) تقع خارج المساحة الأصلية بقليل . أما عرض تلك المدينة فكان يمتد من باب الغريب خلف الأزهر شرقا إلى الخليج غربا . والحد الغربى الذى كان يحازى الخليج لا يزال يتمثل فى الشارع الذى يسمى بين السورين فى آخر الموسكى . وهكذا كان المكان كله ، يبلغ طوله من كل جهة ألف ومائتى ياردة ، ومساحته تقريبا نصف ميل مربع .



جامع الحاكم

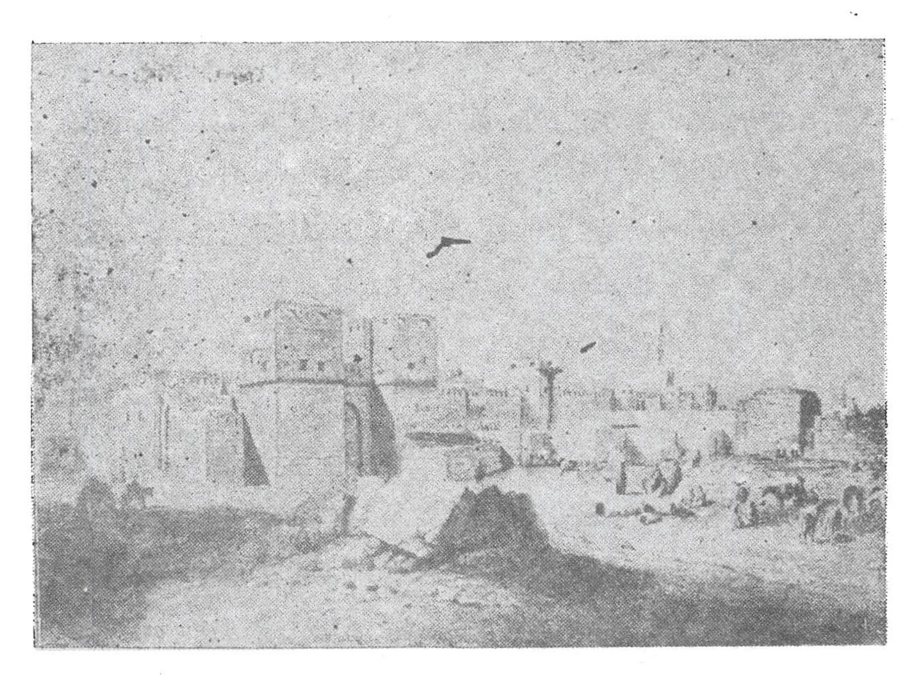
وبالقرب من الوسط ، كان يوجد ذلك الميدان المسمى « بين القصرين » وهو الإسم الذى لا يزال يوجد فى الموقع الأصلى القديم فى جانب من الشارع الذى يعرف بسوق النحاسين ، والذى يتاخمه الآن بعض المساجد التى يرجع تاريخها إلى ما بعد ذلك . والإسم يفسر نفسه : ذلك أن الميدان الذى كان أعرض بكثير من الطريق الحالى وكان يتسع لعشرة آلاف جندى للاستعراض فيه ، كان يفصل ما بين قصرين يواجهانه : هنالك كانت تعقد الاجتماعات العامة بالمدينة . أما القصر الذى كان يقع على الجانب الشرقى فهو قصر المعز العظيم ، الذى يقع خان الخليلى على أحد جوانبه الآن والحسين على جانب آخر . وأما القصر الآخر ، وهو الذى بناه العزيز بعد ذلك بقليل ، فكان أصغر حجما ، وكان يواجهه على الجانب الآخر (حيث يحتل مارستان قلاوون جانبا من موقعه) ، وكان ظهره يطل على حديقة

كافور الواسعة التى كان يقع فيها بيت الإخشيد . ويخصص المقريزى ما يقرب من مائتى صفحة لوصف هذين القصرين العجيبين . فنحن نقرأ عن أربعة آلاف حجرة ، وعن البوابة الذهبية التى كانت تفتح إلى البهو الذهبى ؛ وعن الاستراحة الفخمة التى كان يجلس فيها الخليفة فوق عرشه الذهبى محاطا بحجّابه وأتباعه (وكانوا فى العادة يونانيين أو سودانيين) حيث كان يشاهد احتفـالات المسلمين من خلف ستارة ذهبية . كذلك نقرأ عن ردهة مصنوعة من الزمرّد وفيها أعمدة من الرخام ؛ وعن الإيوان العظيم الذى كان يوجد تحت القبة ، والذى كان يجلس عليه الخليفة فى أيام الاثنين والخميس ؛ وأخيرا عن الرواق الذى كان يستمع فيه إلى المذنبين والمتظلمين .

هذه الأبنية المختلفة التى تكون فى مجموعها ما يعرف بالقصر العظيم ، لم تكن وليدة عام واحد أو من عمل حاكم واحد . فقد بدأ جوهر فى بناء القصر فى نفس الليلة التى خط فيها أساس المدينة فى يوليه عام ٩٦٩ . وفى شهر مارس التالى كان قد تم بناء بوابتين ، وفى عام ٩٧٠ — ٩٧١ أقيم حائط حول القصر . ويقول ناصر خسرو — الذى كتب عن هذا الحائط بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن — إن قصر الخلفاء كان يبدو من خارج المدينة كأنه جبل ، وذلك لما كان يوجد فيه من مبانى شاهقة . غير أن المرء حينما كان يقترب منه ، قلما كان يتبين منه شيئا وذلك لارتفاع الحائط الذى كان يوجد حوله[1] . وكان الخليفة المعز نفسه هو الذى وضع تصميم هذا القصر الأصلى القديم الذى لم يتضمن نصف الأبهاء الفخمة التى وصفها المقريزى . وقد بنى الخليفة الذى اعتلى العرش من بعده ، وهو العزيز ، البهو الذهبى ، والإيوان العظيم ، والقصر الغربى الأصغر ، والمبنى الذى كان يستريح فيه فى حديقة كافور . وقد وسّع الخلفاء والوزراء هذا القصر بعد ذلك ، وعدّلوا فيه . وكانت القصور الزاهرة — كما كانت تسمى جميعها مجتمعة — تشمل بضعة مساكن منفصلة ، وعدة غرف يتلو بعضها البعض بنيت فى تواريخ مختلفة . وكان للقصر العظيم وحده عشرة بوابات ، عدا ممر تحت الأرض كان يصل منه الخليفة راكبا إلى الجانب المخصص للحريم ، وكان يتبعه حينئذ عدد من الجوارى . وفى القرن الحادى عشر كان يوجد إثنا عشر ألف خادم فى تلك القصور . وإذا

(١) من الواضح أنه يشير هنا إلى حائط القصر ، لأنه يذكر لنا فى صراحة أن حائط المدينة لم يكن له وجود .

ما أضفنا النساء إلى هؤلاء ، وجدنا أن عدد من يقيمون فى تلك القصور كان يصل إلى ثلاثين ألف .

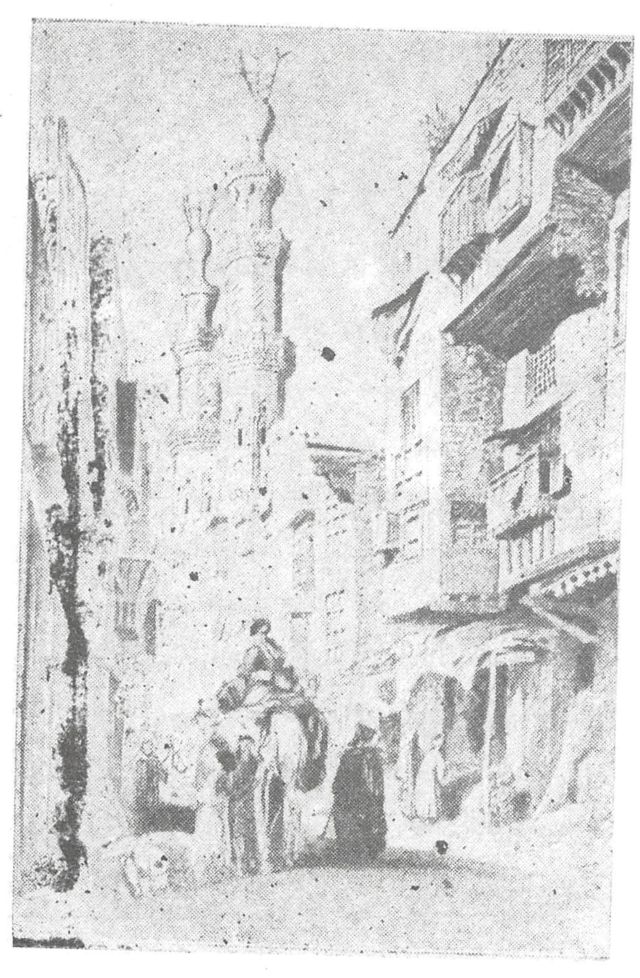


باب النصر

وقد رسم راڤيس Ravisse تصميم القصور الفاطمية وبيّن دخائلها مستعينا بوصف المقريزى ، وذلك فى كتابين لهما قيمتهما(١) . وعلى الرغم من أن بعض التفصيلات يجب أن ينظر إليها على أنها ناقصة ومعرضة للنقد والمراجعة ، إلا أنه من المحتمل فى الوقت نفسه أن تكون النتائج العامة تمثل التنظيم الحقيقى للمدينة الفاطمية . ووفقا لما جاء فى هذه الأبحاث الشيقة نجد أن القصر الشرقى العظيم كان يحتوى على الأخص على ثلاثة مبانى كبيرة مستطيلة الشكل مختلفة الأحجام تكون فى مجموعها ثلاثة أرباع المربع ؛ أما الجزء أو الرُّبع الباقى فكان يوجد فيه قصر الاحتفالات ، وهو مكان مكشوف يقع بين القصر العظيم وقصر الوزراء ، حيث كان الناس يحتفلون بأيام الأعياد . وكان هذا القصر العظيم — الذى يحده الأزهر ودار الوزارة ، يحتل المكان ما بين خان الخليلى وحى الحسين فى الوقت الحاضر ،

(١) Mémoires de la Mission Archéologique au Caire, tomes I. and III. وهذا الكتاب القيم يجب أن يرجع إليه كل من يريد دراسة القصور الفاطمية .

حتى شارع الجمالية حيث يقع جامع بيبرس الجاشنكير . وكانت الأبهاء والقاعات والمكاتب المختلفة موزعة فى تلك المبانى . أما المرابط والمخازن فكانت لها أبنية أخرى بعيدة منعزلة . وإلى الجانب الآخر من «بين القصرين» ، كان القصر الغربى يبدأ من حيث يوجد المارستان الآن ، إلى حارة برجوان ؛ وكان له جناحان بارزان فى كلا الطرفين لكى يمتد بين القصرين . أما المسافة بين القصر الغربى والحائط الغربى فكانت تحتلها حديقة كافور بما فيها من أكشاك مختلفة تطل على الخليج . أما بقية المدينة المسوَّرة خارج القصور فكان يوجد فيها حارات فرق الجيش الفاطمى المختلفة ، مثل الجودرية ، والديلم ، وكتامة ، والبرقية ، وزويلة .



مآذن على باب زويلة

كذلك كانت توجد حارة الروم ، وهكذا . أما أبواب المدينة فكانت « باب النصر » و « باب الفتوح » فى الشمال ، و « باب القنطرة » المؤدى إلى جسر جوهر فوق الخليج ، و « باب الفرج » أو « باب الشعرية »[١] — كما يسمى أحيانا — « وباب السعادة »[٢] و « باب الخوخة » فى الغرب بحيث كانت تفتح إلى الخليج ، ثم « باب زويلة »[٣] فى الجنوب . أما فى الشرق فكان يوجد « باب المحروق » الذى سمى كذلك لأن بعض المماليك أحرقوه فى القرن الثالث عشر ، و « الباب الجديد » الذى بناه الحاكم ، و « باب البرقية » الذى يعرف الآن باسم « باب الغريب » .

وقد سبق لنا أن ذكرنا بعض الخرافات الحديثة المتصلة بباب زويلة ، غير أنه كان على الدوام بقعة آهلة بالسكان . والقول بأن الإعدام كان يتم خارج هذا الباب لا يغير من الاعتقاد السائد شيئا . ويذكر لنا المقريزى أن الباب الأصلى ، الذى كان يوجد بجوار معبد شم Shem (ابن سيدنا نوح) ، كان يتكون من قنطرتين أو رواقين وكانت إحداهما تسمى « باب القنطرة » . وكان هذا الباب الذى دخل منه المعز حينما جاء إلى القاهرة الجديدة فى زيارة رسمية ، وحذا حذوه الناس جميعا . أما القنطرة الثانية فكانت تعتبر شئوما ، ومن ثم لم يكن يعبر منها أحد . ويقول المقريزى أن هذا الباب الثانى لم يعد له وجود وليس هناك أى أثر له ، والمكان الذى كان يوجد فيه يسمى « الحجرين » وهناك تباع الآلات الموسيقية مثل الطبول والعيدان وما إلى ذلك ، ومن العقائد الشائعة بين الناس أن كل من يعبر من هناك سوف لا يستطيع أن يحقق رغباته فى الحياة . ويقال إن السبب فى هذا الاعتقاد أن تلك الآلات الموسيقية لا تستخدم إلا فى اللهو والعبث ولا توجد إلا فى منازل الموسيقيين والمغنين ، سواء منهم الذكور أو الإناث . غير أن الأمر على خلاف ما يقول هؤلاء ، ذلك أن هذا الاعتقاد كان سائدا بين سكان القاهرة منذ أن دخلها المعز ، وقبل أن يصبح ذلك المكان سوقا تباع فيه الآلات الموسيقية[٤] .

---

(١) نسبة إلى إحدى قبائل البربر .

(٢) نسبة إلى أحد قواد المعز .

(٣) ينطق الاسم فى العادة هكذا : Zuweyla (زويلة) . أما النطق الصحيح فهو Zawila زويلة نسبة إلى إحدى القبائل البربر .

(٤) المقريزى : جزء أول ص ٣٨١ .

ولعل تلك التفاصيل الطبوغرافية تهم رجل الآثار أكثر من غيره ، ونحن يجب أن نبحث هنا فى سجلات الرحالة عن الأوصاف التى تتعلق بالشكل والرسم . غير أنه من سوء الحظ أن الأجانب الذين كانوا يزورون ذلك القصر الفاطمى كانوا من الندرة بمكان كبير ، ومن ثم فإننا قلما نجد وصفا جديدا نضيفه إلى ما قدمه لنا المقريزى . حقيقة إن الرحالة الفارسى ناصر خسرو ذهب إلى هنـــاك فى عام ١٠٤٧ م ، غير أن وصفه ليس واضحا تماما ، ولذلك فنحن نلمس وصفا يكتنفه الغموض حينما نقرأ عن الحجرة التى كان يوجد فيها العرش الذهبى المنقوش عليه بعض الصور التى تمثل الصيد ، والذى كانت تتقدمه درجات من الفضة . ولعل أحسن وصف هنا هو ما ذكره وليم الصورى William of Tyre فيما يختص بحملة الصليبيين عام ١١٦٧ حينما قدم عمورى على أنه حامى الخليفة ، على الرغم من أن القصر كان قد تغير كثيرا بعـــد مضى قرنين من إنشائه . وكان مثول السفراء المسيحيين أمام الحضرة المقدسة ، مما لم يسبق حدوثه ، لأنه لم يكن يتاح سوى للقليل من المسلمين . غير أن عمورى كان قويا ، وتمكن بذلك من أن يملى شروطه الخاصة ، وعلى هذا فقد تم له السماح بالدخول ، واختار جوفرى وهاغ سفيرين له ؛ وقد قادهما الوزير بنفسه فى احتفال باهر إلى قصر الفاطميين العظيم ، حيث سارا فى ردهات غامضـة ، وأبواب يقف عليها حراس سودانيون أشداء يؤدون لهما التحية بسيوفهم اللامعة . وبعد ذلك وصلا إلى فناء فسيح مكشوف ومحاط بأروقة مقامة على أعمدة رخامية . وكانت السقوف تغشاها الصفائح وتزينها النقوش الذهبية الجميلة والألوان الزاهية البديعة . أما البلاط فكان من طراز الموزايك وقد انبهرت عيون الفارسين فى إعجاب ودهشة لـكل ما قابلهما حينما سارا . هنالك كانت توجد نافورات رخامية ، وطيور ذات أصوات جميلة وريش بديع اللون مما لا يوجد له مثيل فى العالم الغربى . وفى قاعة أخرى كانت توجد حيوانات مختلفة ، تلك الحيوانات التى تتناولها يد الفنان بالرسم ، وتضعها قريحة الشاعر فى إحدى قصائده ، وينسجها خيال النائم فى حلمه وكلها حيوانات مما كان يستورد من جهات الشرق والجنوب المختلفة ، والتى قلما سمع الغرب عنها .

وفى النهاية ، وبعد عمل المراسم المعتادة ، وصلا إلى الحجرة التى بها العرش الذهبى ، حيث كان يقف عدد كبير من الخدم والأتباع يمثلون عظمة سيدهم الخليفة

وقد ارتدوا جميعا ملابس فاخرة سنية . وهنا أخرج الوزير سيفه من غمده وانحنى أمام الخليفة فى خشوع زائد ثلاث مرات ، كما لو كان فى معبد من المعابد يبتهل إلى الله . وبعد ذلك فتحت الستائر الثقيلة الموشاة بالذهب واللالىء إلى الجانبين ، وهنا ظهر الخليفة العظيم جالسا على عرش ذهبى ، وقد ارتدى ملابس فاخرة ، لم يتح الكثير من الملوك إذ ذاك لبسها .

ثم قدّم الوزير الفارسين الأجنبيين فى أدب جم وخشوع زائد ، وأعلن فى صوت منخفض الخطر الخارجى ، وصداقة ملك بيت المقدس الوطيدة . وهنا أجاب الخليفة الشاب فى وقار وجلال بأنه كان راضيا عن تلك العلاقة بينه وبين حليفه العزيز . غير أنه حينما طُلب منه أن يمد يده وأن يتعهد بذلك، تردّد فى الموافقة . وهنا تملك الفارسين الغضب والغيظ من ذلك الشعور بالقوة الذى بدا من الخليفة ، ولكن بعد فترة قصيرة مدّ الخليفة يده — وكان يلبس القفاز — إلى سير هاغ . غير أن الفارس الفظ قال له فى صراحة : « سيدى إن العهد ليس له غطاء ، وثقة الأمراء دائما مكشوفة مجردة » . وأخيرا خلع الخليفة قفازه فى ألم وكأن وقاره قد تخلى عنه وابتسم ابتسامة شاحبة ، ثم وضع يده فى يد سير هاغ ، وأخذ يؤدى القسم كلمة كلمة حتى يكون وعده كاملا لامرية فيه (١) .

وليس هناك من شك فى أن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر جلالا وعظمة وبهاء . ولم يكن المعزّ نفسه يحيط نفسه بسياج من الترف والأبهة والجلال ، فقد كان يستمع بنفسه على الدوام إلى كل كبيرة وصغيرة من شئون الحكم ، وكان يشرف على الأحكام فى ساحة القضاء ، ويدبر شئون الجيش الذى كان يستمد منه قوته وسلطته . وبنى المعز حوضا فى المكس لكى ترسو فيه السفن أكثر انخفاضا فى النهر من الأحواض السابقة فى الروضة ومصر ، وبالقرب من موقع الأزبكية الحالى . ولقد بقيت المكس ترسانة القاهرة وميناءها حتى ظهرت بولاق حينما غير النيل مجراه ، وبنيت هناك بعدئذ ستمائة سفينة . وقد رأى

---

(١) William of Tyre : Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, l.b. xixi , cap. 19, 20.

راجع كذلك كتاب المؤلف « صلاح الدين الأيوبى Saladin » ص ٨٦ — ٨٨ . ويلاحظ أن هذه البعثة لم يذكرها المؤرخون العرب .

ناصر خسرو فى عام ١٠٤٧ بعض سفن المعزّ راسية هناك فى المكس ؛ وكان طول الواحدة يبلغ حوالى ٢٧٥ قدماً وعرضها ١١٠ قدماً[١] . وعلى الرغم من أن المعز كان يميل إلى الجد والعمل ؛ إلا أنه كان يميل إلى حب الظهور فى الوقت نفسه . فقد كان يذهب فى عظمة وجلال ليقيم جسرا فوق الخليج ؛ كما كان ينفق مبالغ طائلة على غطاء الكعبة المكسو بالقصب فى مكة ، تلك المدينة التى تعترف الآن بفضله وعظمته ، وكان ذلك الغطاء يعرض للناس فى عيد الأضحى . والمعز هو واضع تصميم جميع مبانى القصر ، ولم يكن جوهر أكثر من كاتب له فى أعماله المختلفة . وكانت تلك المدينة الجديدة العظيمة أكبر دليل على ميل الخليفة إلى الترف وعلى تعدد موارده وكثرتها . والواقع أن ثراء الفاطميين الذى يصوّره لنا المؤرخون يفوق كل وصف . ونحن نقرأ عن ابنتى المعزّ التى تركت احداهما مليونين وسبعمائة ألف دينار ، وتركت الأخرى حجرة تشغلها بجوهراتها وفيها خمسة حقائب مملوءة بالزمرّد ، وثلاثة آلاف صندوق من الفضة ، والوشى والديباج المصنوع فى صقلية ، تلك الأشياء التى استهلكت أربعين رطلا من الشمع لختمها . ولقد اشترى المعز نفسه ستارة حريرية من بلاد فارس بمبلغ إثنى عشر ألف جنيه ، رسم عليها أقطار العالم وبلدانها . كما أن زوجته أنفقت مالا كثيرا فى عام ٩٦٦ على مسجدها فى القرافة ، وهو الذى وضع تصميمه الحسن الفارسى ، وقام بتزيينه رسامو البصرة .

ومن مزايا الهرطقة أنها كانت تقبل الآراء الفنية التى كان يمقتها أصحاب المذهب القديم ، والتى عمل على تشجيعها الفاطميون . من ذلك رسم الأشخاص وتمثيلهم فى مختلف نواحى الفن ، ذلك الشيء الذى كان محرماً فى نظر النبى[٢] . ومهما يكن من شيء ، فإن ذلك المسجد الذى يوجد به ضريح والمسمى بمسجد القرافة يفوق كل شيء فى هذا المضمار فى مصر ، اللهم قصر خمارويه فى مدينة القطائع . وهذا المسجد عبارة عن فناء مربع الشكل تحيط به الأروقة من جميع الجهات ، كما هو الحال فى جامع الأزهر ، غير أن النقوش الموجودة فيه كانت عظيمة . وتؤدى الأبواب المربعة الأربعة عشر إلى الإيوان ، تعلوها أروقة مقامة على ثلاثة أعمدة

---

(١) Safar Nàma, ed. Schefer, 126.

(٢) للتوسع فى فن الفاطميين وصناعتهم انظر كتاب المؤلف « فن العرب فى مصر » "Art of the Saracens in Egypt" ص ٣٠ ، ١٦٣ ، ٢٠١ ، ٢٤١ .

رخامية مطلية باللون الأزرق والأحمر والأخضر . وكانت السقوف كذلك تطلى بالألوان ، ويقوم بذلك رسامون من البصرة . وفى مواجهة الباب الأوسط يوجد رواق مرسوم عليه أحد الكبارى فى إتقان تام بحيث كان يبدو للرائى كأنه حقيق ، وكان الرسامون يأتون من كل حدب وصوب ليشاهدونه ، ولكن أحدا منهم لم يستطع تقليده . ونحن نقرأ عن اثنين من الفنانين المتنافسين وهما القاصر وابن عزيز ، ويحميهما الوزير اليازورى . وقد رسم الفنان الأول منها صورة لفتاة ترقص وترتدى الملابس البيضاء على ظهر إحدى الأروقة ، وكانت تبدو كأنها فى داخل الرواق . أما الفنان الثانى فقد رسم فتاة أخرى ترتدى الملابس الحمراء وتبدو كأنها واقفة أمام إحدى الأروقة الصفراء . وكان يوجد فى أحد المنازل فى القرافة صورة رسمها القطامى ، وهو أحد الذين اشتركوا فى زخرفة ذلك المسجد وتمثل تلك الصورة يوسفا وهو فى الهاوية يستغيث[١] .

وكانت نفقات ذلك القصر الفخم ، بسكانه البالغ عددهم ما بين عشرين وثلاثين ألفاً ، وبما كان فيه من أوجه البذخ والترف ، تدفع من الضرائب الباهظة والأجور المتأخرة التى كانت تجمع فى قسوة لم تعرف حتى ذلك العهد . كذلك أقيم ديوان مركزى للضرائب فى بيت الإمارة القديم بجوار جامع ابن طولون ، وذلك بدلا من النظام البالى لمحصلى الضرائب المحليين . وكانت مدينة مصر وحدها تدفع من الضرائب فى اليوم الواحد من ٢٦ ألف إلى ٦٢ ألف جنيه ، وذلك وفقا للحالة التى عليها المدينة . وكانت جميع الضرائب تدفع بالعملة الفاطمية الجديدة ، لأن النقود العباسية لم يعد تداولها مباحا .

أما العزيز — الخليفة التالى — فقد اشتهر بتقديره للأحجار الثمينة . كما أنه أوجد بدعة جديدة فى لبس العمامة الموشاة بالذهب ، والأحزمة المرصعة بالجوهرات والمعطرة بالعنبر الأسود ، والسرج الموشى بالذهب للحصان ، وبعض مظاهر الترف والبذخ فوق المائدة مثل الكمأة من جبل المقطم ، والأسماك الجيلة من البحر . وكان شغوفا بالحيوانات الغريبة ، شأنه فى ذلك شأن خمارويه . وكثيرا ما كان يستورد بعض الطيور والحيوانات من السودان ، غير أنه فى الوقت نفسه

---

(١) المقريزى : جزء ثان ص ٣١٨ .

كان يشبه أباه فى حبه للسياسة وإدارة شئون البلاد ، ولم يكن لما عرف عنه من حب الترف أو البذخ أثر فى الحد من مقدرته السياسية أو الإدارية . فقد بنى أسطولا ليحارب به الامبراطور باسيل كما أنه شهد بنفسه حملة موفقة على سوريا التى لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين . وكان عهده عهد سلام دائم فى مصر ، وكان اسمه يذكر فى صلاة الجمعة فى المساجد من بلاد العرب حتى المحيط الأطلنطى ، كما أنه كان يقف أمام الناس فى الجامع الأزهر كرئيس دينى ودنيوى .

أما الجامع المعروف باسم جامع الحاكم ، فيرجع الفضل فى وضع أساسه فى أواخر عام ٩٩٠ إلى العزيز ووزيره ابن كلس الذى أتمه بحيث كانت تؤدى فيه صلاة الجمعة بعد ذلك بعام . أما الزخرفة والمآذن وغير ذلك من الأشياء الثانوية ، فلم تتم إلا فى عهد ابنه الحاكم الذى أنجز جميع هذه الأعمال فى عام ١٠٠٣ ، ووضع النقش النهائى على المنبر فى شهر مارس عام ١٠١٣ . وهكذا شهدت القاهرة مسجدا ثانيا كبيرا تقام فيه الاجتماعات يعرف بجامع الحاكم ، وكان يسمى فى الأصل « الجامع الجديد » أو « جامع الأنور » (على غرار الجامع الأزهر) . ولقد عانى هذا الجامع فى تاريخ حياته أكثر مما عانى جامع عمرو القديم . فحينما احتل الصليبيون القاهرة فى عام ١١٦٧ ، حوّلوا جانبا من جامع الحاكم إلى الكنيسة . وأثناء إعادة الأيوبيين للعقائد الإسلامية القديمة ، لم يكن الجامع الأزهر يستعمل لفترة من الزمن على اعتبار أنه المقر الرئيس للهرطقة ، وأصبح جامع الحاكم المكان الرسمى للعبادة . أما بعد ذلك فيبدو أنه قد استعمل كمرابط واصطبلات ؛ وفى صيف عام ١٣٠٣ قوّض دعائمه زلزال مروّع ، ثم أعيد بناؤه فى العام التالى بواسطة بيبرس . وإلى ذلك الوقت الذى كتب فيه المقريزى عنه فى عام ١٤٢٠ ، كان ذلك المسجد حطاما مرة أخرى بفعل الحريق والإهمال ، وبدأ سقفه يتساقط وحتى ذلك الحين كان قد تهدم فى عهد يسوده البؤس والشقاء . أما الفناء فقد تحول بدوره إلى ملعب ومكان للتنزه ، ويصل إليه الإنسان من قهوة أو حانة أو غير ذلك ، ثم استعمل كمكان لمتحف الفن العربى ، الذى كان يشغل فى العشرين السنة الماضية جانبا من أروقة الطرف الشرقى ، حيث كانت النقوش الكوفية والأروقة الجميلة لا تزال تحتفظ بشيء من جمالها القديم ، وهى كثيرة الشبه بالفن العربى .

وعلى الرغم من الكآبة التى تبدو الآن على فناء جامع الحاكم الفسيح وما حوله من الجدران والأروقة المتهدمة ، فإنه لا يزال محتفظا بأهميته. ويلاحظ أن الأروقة هى الاستثناء الوحيد للشكل الفارسى الشائع فى البناء فى العصر الفاطمى . ومن الواضح أن السبب فى ذلك يرجع إلى تاريخها القديم وإلى تقليد بناء جامع ابن طولون. ومما يتميز به ذلك الجامع مآذنه التى يطلق عليها فى العادة « مباخر » ، وذلك نسبة إلى شكلها المميز . ويلاحظ أن متانة أساس ذلك المسجد لا شأن له بالمآذن الأصلية على الإطلاق ، تلك المآذن التى كان يبنى الجزء الأسفل منها بحجر منتظم الشكل ، يوجد عليه بعض النقوش الفاطمية . وقد قام كل من هرز بك Herz Bey وڤان برشم M. Van Berchem بأبحاث خرجا منها بأن إستعمال قوالب الطوب فى بناء المآذن يرجع إلى فترة الإصلاح السريع فى عام ١٣٠٤ التى أعقبت الزلزال ، وسبقت الإشارة إليها . ولم يحاول بيبرس أن يبذل أى جهد لإعادة المآذن إلى ما كانت عليه من قبل ، بل وضع لها قمما مصنوعة من الطوب ، وأغلب الظن أنه قوى الأساس القديم بمكعبات كانت من عوامل اضطراب أفكار علماء الآثار وعدم استقرارهم على رأى معين حول شكل المآذن القديمة . ومهما يكن من أمر تلك المكعبات ، فإن عهدها يرجع إلى ما بعد ذلك ، وقد يكون لها علاقة بالحماية العسكرية لبوابة المدينة المجاورة . وبقايا المآذن الحجرية القديمة الموجودة بداخل تلك المكعبات لها أهمية خاصة ، حيث أنها هى الدليل الوحيد الذى لا يتطرق إليه الشك فيما يختص بتكوين المآذن فى عصر الفاطميين . ويلاحظ أن المقريزى لم يكن يعلم فى الغالب عن تلك المآذن حينما كتب يقول إنه لم توجد أية مآذن حجرية قبل مأذنة جامع قلاوون التى بنيت فى عام ١٢٨٤ . وهذه المآذن تشبه تماما فى تكوينها تلك التى بنيت فى أواخر عهد المماليك ، وهى تبدأ بأساس مربع الشكل ثم تتحول إلى مثمن (ذى ثمانى أضلاع) وأخيرا تنتهى بجزء اسطوانى الشكل . وفى الداخل كانت توجد درجات حلزونية الشكل تؤدى إلى النوافذ حيث كان المؤذنون يدعون منها إلى الصلاة[1] .

والخليفة الحاكم من أبرز شخصيات التاريخ المصرى ، ولو أنه شخصية متناقضة غريبة ، حتى أن المؤرخين الذين كتبوا عنه كانوا فى آخر الأمر يفسرون سلوكه

(1) M. Van Berchem : Notes d'Archéologie Arabe (1891), 27—36

بضعف وانحلال فى عقله . وقد كان الحاكم الإبن الوحيد للعزيز وزوجته المسيحية، التى كانت أختا لإثنين من البطاركة . وذلك مصداق للقول بأن أقارب رجال الدين ليسوا بأحسن من سائر الناس فى أحوالهم العامة . ولم يكن الطفل الغضّ ليفهم شيئا عن الحكم حينما وجد نفسه يعتلى العرش طفرة واحدة وهو فى سن الحادية عشرة . وكان قائده برجوان ، العبد السلافى ، الذى لا نزال نقرأ إسمه على إحدى الحارات التى تبعد عن « بين القصرين » ، ينعم فى قصر اللؤلؤة فى حديقة كافور ، بينما كانت قوات البربر والأتراك تحارب بعضها البعض فى الشوارع . وقد حدث وقتذاك أن أتى الحارس التركى إلى الحاكم برأس القائد المغربى . وكانت تلك خطوة قصيرة نحو قتل نائب الخليفة ، وبعد أربعة أعوام من الوصاية عليه ، وصل الشاب وهو فى سن الخامسة عشرة إلى ذروة السلطة .

وكلما بدا الخليفة الصغير أمام الشعب ، ظهر شذوذ خلقه وتناقضه . وقد كان وجهه الغريب وعيناه الزرقاوان المخيفتان تجعل الناس يهابونه ؛ كما أن صوته الأجش جعلهم يرتجفون منه . وكان معلّمه يطلق عليه « حرذون » (سِحْلية) lizard ، وذلك أنه كانت له طريقة زلقة خاصة فى التحرك بين رعاياه مثلما يفعل الحرذون تماما . وكان شغوفا جدا بالظلام ، إذ كان يجمع مجلسه على الدوام فى الليل . وكثيرا ما ركب حماره الرمادى الصغير وجاب به الشوارع ليلا ليتجسس على الناس ويطلع على ما يجيش فى صدورهم ، فى حين كان يدعى أنه إنما كان يفتش على الموازين والمكاييل فى الأسواق . وكان فى الإمكان أن يأتمر الليل بأمره ويصبح نهارا ، ذلك أنه أصدر قرارا بأن تباشر الأعمال ويتم البيع والشراء بعد غروب الشمس ، حيث تفتح الحوانيت وتضاء المنازل تحقيقا لرغبته . وأصدر إلى العامة أوامر مشددة بمراعاة ذلك . وحرم على النساء مغادرة منازلهن ، ومنع الرجال من الجلوس فى الخيام . ولم يسمح لصانعى الأحذية بعمل أحذية للنساء حتى لا يتمكن من مغادرة منازلهن . وكانت نساء القاهرة لا ينظرن من النوافذ ، ولا يصعدن إلى أسطح المنازل للتمتع بالهواء النقى . وأصدر بعض التعليمات الخاصة بتنظيم الطعام والشراب. ولم يكن الحاكم يشرب الخمر، شأنه فى ذلك شأن جميع المسلمين كما ينبغى أن يكونوا ، وقد كانت الجعة محرَّمة ، والخمر يصادر على الدوام ، والكروم تقطع ، بل حتى العنب المجفف كان من المحرمات . وكانت الملوخية يحرم أكلها كذلك ، كما كان

العسل يجمع ويلقى به فى النيل . ولم يكن يسمح بلعب الشطرنج ؛ وكانت لوحاته التى تضبط تحرق حتى لا يلعب بها أحد . وكانت الكلاب تقتل حيثما وجدت فى الشوارع . أما الأنواع الجيدة من الماشية فلم يكن يسمح بذبحها إلا فى عيد الأضحى. وكل من تسوّل له نفسه بمخالفة إحدى هذه التعليمات كان يعاقب بالجلد وبقطع الرأس ، أو يلقى حتفه بإحدى الوسائل الغريبة التى كان يفخر الخليفة الفذ بابتداعها . وليس من شك فى أن كثيرا من هذه اللوائح أو التعليمات قد أملته روح الإصلاح الحقة ، غير أنها كانت روح مصلح مجنون . لقد كان الواجب دائما ألا تترك نساء القاهرة المرحات على هواهن يفعلن ما يبدو لهن . ولكن من كان يظن أن يكون السبيل إلى ذلك هو مصادرة أحذيتهن ؟ أما تحريم الخمر ولعب الميسر وغير ذلك من وسائل التسلية العامة ، فكان صادرا على شخص متعمق فى أمور الدين ، مطرحا للزخارف والملاهى ، رائده فى ذلك العمل على رفع المستوى الخلقى فى البلاد ، غير مراع ما جره ذلك من استياء رعاياه وسخطهم . وقد تمت هذه التجوّلات الليلية ، والتقييدات التى لا داعى لها ، والأحكام التعسفية الصارمة على عقل لا اتزان فيه . وقد فعل الحاكم كل هذا برأيه الخاص .

ومن الصعب علينا أن نسبر غور هذا الجنون أو نميط عنه اللثام . فقد كان المسيحيون فى بادىء الأمر يحتملون ما ينزل بهم من عسف ، ولكن حوالى عام ١٠٠٥، بدأت سلسلة من الاضطهادات والمضايقات وهدم الكنائس وتخريبها. غير أن المسلمين فى الوقت نفسه لم يكن حالهم بأحسن من حال هؤلاء . فقد كان الوزراء سواء منهم المسلمون والمسيحيون ، يقتلون ويعدمون بلا تفرقة أو تمييز . وقد حدث أن اغتيل حفيد جوهر العظيم غدرا فى القصر ، كما أن الموظفين على اختلاف طبقاتهم وعقائدهم كانوا يعذّبون ويقتلون لأقل سبب . فقد أخمد أحد القواد المشهورين ثورة طالما أحدثت القلاقل فى مصر لمدة عامين ؛ ثم جاء فى اللحظة التى كان الخليفة يقطع جثة أحد الأطفال ، فأمر الحاكم بقتله عقابا له على قلة ذوقه وإزعاجه إياه . غير أنه على الرغم من كل هذا التعذيب والإرهاب ، كان الخليفة الصغير يشرف باهتمام عظيم على ذلك الجامع الذى يحمل اسمه (١) ؛ وعلى تزيينه كما

---

(١) مما بناه الحاكم كذلك « مصلى العيد » بجوار باب النصر ، وجامع فى المكس بجوار النيل ، وآخر فى الحى الذى كان يسمى « رشيدة » جنوب القطائع بالقرب من المقطم . انظر كتاب المؤلف : History of Egypt in the Middle Ages, 126.

أنشأ المعهد المعروف باسم « دار العلم » فى دائرة القصر العظيم ، حيث كان الرجال المثقفون على اختلاف آرائهم يجتمعون ويتناقشون فى شتى الموضوعات تحت ضوء الشمس ، تساعدهم فى ذلك مكتبة قيمة . وهذه الاجتماعات الدينية تذكرنا بصالة العبادة التى بناها الأكبر فى أجرا . وليس هذا هو وجه الشبه الوحيد بين الرجلين العظيمين على الرغم من أوجه الخلاف الكثيرة بينهما . فقد سمح أكبر لنفسه بأن يعبده الناس كإله ؛ ووصل الحاكم فى النهاية إلى نفس النتيجة ، وكان كلا الرجلين يسيران تحت تأثير الشيعة .

وليس ثمة ريب فى أن جولات الحاكم الفردية فوق الحمار الرمادى على تلال المقطم المقفرة ، وتلك الليالى الطويلة فى المرصد فوق المنحدرات حيث كان يقوم برصد النجوم ، وكلها تنم على عقل تشبع بتعاليم الشيعة ، وقد كان الحاكم — فى نظر نفسه — إماما تجسم الله فى شخصه ، كما كان المالك الوحيد للأسرار الإلهية . وقد استغرق وصوله إلى هذه الدرجة أكثر من عشرين سنة ، وقد ساعده فى ذلك بعض المتصوفين الفرس الذين استقدمهم فى عام ١٠١٨ . حقيقة أن هؤلاء لم يفلحوا كثيرا فى دعوتهم ، والمناداة بتألية الحاكم فقد قتل المسلمين وأصحاب العقائد القديمة ، أحدهم ، وذبحوا آخرين ممن استباحوا مسجد عمرو القديم ودنسوه بتجديفهم . كما أن الدرزى ، الذى اشتق اسمه من الدروز أصحاب المذهب الغريب فى لبنان ، قبض عليه واقتيد إلى القصر ، ولم ينج بحياته إلا بعد جهد شديد ، حينما تدخل الخليفة فى الأمر . ولم يكن أحد ليقبل المذهب الجديد الذى كان يبدو شاذا فى نظر أصحاب المذهب القديم ، ويظهر أن الشيعة من المعتدلين ، كانوا فى الواقع سنيين من المدرسة القديمة . وقد كانت مصر صاخبة وقاب قوسين أو أدنى من الثورة ، إلا أن القوات السودانية ارتكبت عدة أعمال غاية فى الهمجية ، إذ نهبت العاصمة وسلبتها ، واقتحمت المنازل ، وشرّدت السكان ، ولم يخمد صراخ الاستغاثة إلا سحابة مخيفة من الرعب والفزع خيمت على الناس وجعلتهم يرضخون لما هم فيه ، وهنا تجمع القوم فى المساجد يطلبون النجدة والمعونة .

وقد جاءتهم المعونة فعلا ، ولكن من طريق لا يتوقعه أحد . ذلك أن القوات السودانية حينما لم تقف أعمالها عند حد ، أخذ منافسوها من الأتراك والمغاربة

بعد أن تغلبت الإنسانية فى الفريقين على مطامعهم فى السلطة — يعملون معاً على قهر عدوهم المشترك ، وفقد الحاكم سلطته على الجيش . وإلى جانب ذلك جعل النساء يحملن عليه حملة شعواء ؛ فقدطعن أخته فى شرفها ، ومن ثم وجدنا الأميرة بعد هذا ترفض الوقوف فى صف أخيها ، ودبرت مؤامرة ضده . فبينما هو فى إحدى جولاته على التلال فى اليوم الثالث عشر من فبراير عام ١٠٢١ ، يسير فى غير مبالاة ولا اكتراث كما كانت عادته ، عاجلته بضعة طعنات قضت على حياته . وقد وجد الحمار الذى كان يركبه والرداء الذى كان يرتديه وعليهما آثار الجريمة ؛ أما الجثة نفسها فلم يعثر لها على أثر . وقد ظل الناس ردحا طويلا من الزمن يتوقعون عودته فى خوف ووجل ، شأنهم فى ذلك شأن الدروز فى لبنان حتى يومنا هذا .

وبعد زوال ذلك الكابوس المروّع ، كانت القاهرة فى حاجة إلى الراحة والاستقرار . وقد تحققت لها فعلا تلك الراحة وذلك الاستقرار . ولم يكن ذلك طفرة واحدة ، فقد أعقب الحكم العسكرى القاسى حكم آخر فاسد فى يد عصبة من رجال البلاط . وفى عام ١٠٢٥ حدثت مجاعة مروّعة دفعت بالناس الجائعين إلى قطع الطرق ، وقد أرهقت نتيجة ذلك ميزانية الدولة وسلك عبيد القصر طريق التمرد والعصيان . وكانت سوريا وقتذاك في ثورة ، بينما كان الظاهر الخليفة الجديد — ابن الحاكم — يروّح عن نفسه بالاستماع إلى المغنيين والراقصين ، وقرمدة الفتيات الصغيرات فى المسجد حتى يمتن جوعاً . إلا أن حظ الفاطميين على الرغم من كل هذا حالفها مرة أخرى ، فإن فيضانات النيل الخصبة ، وإخماد الثورة فى سوريا بواسطة نائب الخليفة النشط ، ثم العمل على إسكات الجند إلى حين — كل هذا جعل مصر تهدأ نسبيا لمدة ربع قرن . وكان وادى النيل فى ذلك الوقت هو كل ما تبقى للفاطميين تقريبا . ذلك أنهم كانوا قد فقدوا مستعمراتهم العظيمة فى بلاد المغرب فى عام ١٠٤٦ ؛ كما أن سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط قد ذهبت إلى حيث لا رجعة . وقد اضطرت سوريا إلى التسليم بعد جهد أمام قوة السلاح . وعلى الرغم من أن بلاد العرب — من المدينه إلى اليمن وحضرموت — كانت تخضع دواما للحكام المصريين ، إلا أن أميرها الشيعى لم يكن سوى حاكم مستقل . وأما ذكر اسم الخليفة الفاطمى لمدة أربعين أسبوعا فى عام ١٠٥٨ — ١٠٥٩ على منابر

مساجد بغداد القديمة (١) ، فهو دلالة على الدسائس والمكايد السياسية فى الخلافة الشرقية ، أكثر من دلالته على أى قوة حقيقية للفاطميين .

وعلى كل حال ، فإنه لم يكن ثمة ما يقلق الفاطميين فى مصر ، فقد اعتلى الخلافة فى عام ١٠٣٦ طفل صغير يبلغ من العمر ثمانية أشهر يدعى المستنصر ، واستطاع — دون أى مجهود من جانبه — أن يحتفظ لنفسه بالخلافة حتى عام ١٠٩٤ . وقد اقترنت تلك الفترة الطويلة منذ أن اعتلى العرش ، ولا يصح أن نقول منذ أن حكم ، بنجاح باهر وفشل ذريع . وعلى الرغم مما كان لوالدته السودانية من تأثير سيء ، لجلبها كثيرا من أبناء وطنها المتبربرين لإفزاع سكان العاصمة وإرهابهم ، فإن البلاد خيّم عليها السكون فى أواسط القرن الحادى عشر مما لم يكن له مثيل من قبل . ولدينا هنا ما رواه ناصر خسرو فيما بين عامى ١٠٤٧ — ١٠٤٩ فقد ذكر أن مصر عامة كانت فى ذلك الوقت فى يسر ورخاء واستقرار وهدوء ، مما لم تشهده البلاد من قبل . ولقد كان الخليفة المستنصر محبوبا من الشعب إلى حد بعيد ، ولم يكن أحد يتملكه الفزع أو الخوف حينما كان يوجد فى حضرته . وقد ساد الأمن والنظام فى ذلك الوقت ، لدرجة أن بائعى المجوهرات لم يعبأوا كثيرا بإغلاق متاجرهم ، خوفا من أن تمتد إليها أيدى اللصوص . وكان فى القاهرة وحدها ما يربو على عشرين ألف متجر ، كانت كلها ملكا للخليفة ، وكان كل متجر يدفع له من دينارين إلى عشرة فى الشهر . وقد قيل إنه كان يمتلك عشرين ألف منزل ، ارتفاع الواحد منها خمس أو ست طبقات ، وكان إيجار الواحد منها فى المتوسط يبلغ إحدى عشر دينارا فى الشهر (أى سبعين جنيها فى السنة) وكانت المنازل تبنى بعناية تامة ، بالأحجار وليس بالآجر ، وكان يفصلها عن بعضها البعض حدائق جميلة . ولم تكن هناك فى ذلك الوقت أسوار منيعة للمدينة ، إذ كانت الجدران الأولى قد تهدمت ؛ وأما الثانية فلم يتم بناؤها إلا بعد أربعين عاما من ذلك التاريخ ، غير أن المنازل المرتفعة كانت

---

(١) كان من المعتقد أن الخليفة العباسى سوف يرسل أسيرا إلى القاهرة ، وأن منافسه الفاطمى كانت لديه عربة ذهبية صنعت خصيصاً من أجله ، وأنه أنفق مليونى دينارا لتهيئة القصر الغربى لاستقبال ضيفه . والواقع أن العرش العباسى والملابس والعمامة العباسيــة قد بقيت جميعها فى القاهرة حتى وقت صلاح الدين الأيوبى الذى استرد الملابس ؛ أما العرش فقد احتفظ به ، ثم نقل فيما بعد إلى جامع بيبرس الجاشنكير . أنظر كتاب المؤلف History of Egypt in the Middle Ages ص ١٣٩ .

فى حد ذاتها ، كما يقول ناصر خسرو ، بمثابة تحصين منيع ، كما أن كل قصر أو منزل كان حصنا فى ذاته(١). وكانت هناك مسافة تبلغ ميلا ما بين القاهرة ومصر، وكانت مغطاة بالحدائق والمنازل الريفية ، إلا أنها كانت تبدو كأنها بحر أثناء فيضان النيل .

ولقد شهد الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، أحد الاحتفالات الرائعة التى كانت تقام فى القاهرة وهى حفلة وفاء النيل أو جبر الخليج ، التى كان المستنصر يشهدها بنفسه ، فقال إن الخليفة كان يركب على رأس عشرة آلاف فارس ، كل منهم فوق سرج موشى بالذهب والأحجار الكريمة ، وفوقه غطاء حريرى ثمين منقوش عليه إسم الخليفة . وكانت الجمال يحمل كل منها هودجا مرصعا بالزينة والنقوش الفاخرة وحتى البغال كان لها نصيب فى السروج المرصعة بالجواهر الثمينة . وكانت فصائل الجيش تسير الواحدة وراء الأخرى تجاه مصب الخليج ، وكانت تتكون من البرابرة من قبيلة كتامة وكانوا عشرين ألفا من الجند الأقوياء ، والمغاربة ويبلغ عددهم خمسة عشر ألفا ، والمصمودة ويبلغ عددهم عشرين ألفا ، والأتراك والفرس — وكانوا يسمون « المشارقة » على الرغم من أنهم ولدوا فى مصر — وكان يبلغ عددهم عشرة آلاف ، والبدو من الحجاز وكان عددهم نحو خمسة عشر ألفا ، والسودانيين السود وعددهم ثلاثين ألفا ، ثم العبيد والحجاب والموظفين على اختلاف طبقاتهم ، والشعراء ، والأطباء ، وأمراء مراكش واليمن وبلاد النوبة والحبشة وآسيا الصغرى والقوقاز والتركستان ، وحتى أبناء أحد سلاطين دلهى الذى كانت أمه تقيم فى القاهرة . أما الخليفة نفسه فكانت له طلعة بهية ؛ إذ كان حليق الذقن ، يرتدى ثوبا طويلا ناصع البياض ، ويركب بغلا مجردا من أى زينة . ثم هناك ثلاثمائة من الفرس من الديلم سائرين على الأقدام يحملون الحراب ويرتدون الملابس اليونانية الموشاة بالقصب ، ويكونون حرسا خاصا للخليفة . وإلى جانب الخليفة يسير أحد كبار رجال الدولة حاملا شارة المملكة ؛ وعلى كلا الجانبين

---

(١) يذكر لنا ناصر خسرو أن المدينة كانت فى ذلك الوقت مقسمة إلى عشرة أحياء وهى : حارة برجوان ، حارة زويلة ، حارة الجودرية (نسبة إلى قوات خاصة أصلها من بلاد المغرب)، حارة الأمراء ، حارة الديالمة (الفرس) ، حارة الروم ، حارة الباطلية (نسبة إلى بعض جنود جوهر) ، قصر الشوق (وهو قصر ثانوى) ، وعبيد الشراء ، وحارة المصامدة (المغاربة المصمودة) . وهو يذكر لنا كذلك خمسة أبواب فقط : باب النصر، باب الفتوح ، باب القنطرة باب زويلة ، وباب الخليج .

يسير بعض الأغوات يحرقون البخور . وكان جميع الناس ينحنون فى إجلال وخشوع حينما كان الخليفة يمر إلى الخيمة الحريرية عند مصب الخليج ، وحين يقذف بحراب إلى السدّ ، فيعمل الجميع بمجارفهم ومعاولهم إلى أن تسيل مياه النيل . وحينئذ يأخذ الناس فى النزهة فى النهر يتقدمهم قارب مملوء بلفيف من الصم أو البكم حتى يكونوا فألا طيبا .

ولقد كان ذلك الرحالة الفارسى - ناصر خسرو - سعيد الحظ حينما زار مصر . ذلك أن الأيام التالية لزيارته كانت تخبيء شرا مستطيرا ، فقد قاست القاهرة كثيرا من أعمال السلب والنهب وواجهت ذلك لأول مرة منذ تأسيسها من قرن مضى . وقد استطاع الوزير الكفء اليازورى أن يسيطر على جميع الأحزاب ويقضى على الخلافات الحزبية ، كما أنه بذل جهودا موفقة فى معالجة المجاعات المتكررة ؛ ومن الممكن أن تكون بقايا مخازن الغلال الكائنة بجوار مصر القديمة تمثل مخازن القمح التى بناها لكى تسد حاجة البلاد فى أيام القحط . ولم يكن هناك فى تلك الأيام Willcocks أو Scott Moncrieff لوضع تصميم قناطر أو سدود حتى يصبح النهر العظيم فى خدمة الفلاحين الفقراء . وإذا لم يرتفع النيل فى موسم الفيضان على مقياس النيل بالروضة فوق الخطوط التى تعرف باسم «مُنْكر وناكر» ، كان لابد من حدوث مجاعة ، وكثيرا ما كان يصحب المجاعة انتشار إحدى الأوبئة . وحينئذ يؤدى البؤس والجوع إلى الفوضى والإجرام .

وقد دفعت مخازن اليازورى الخطر عن العاصمة لبعض الوقت ؛ ولكن حينما دُسّ له السم ومات فى عام ١٠٥٨ ، لم يكن هناك من يسيطر مكانه على الخلافات والانقسامات الناشبة . وليس أدل على عدم استقرار الحكم بعد ذلك من أنه جاء هناك أربعون وزيرا فى فترة لا تتجاوز تسع سنوات . وكان الخليفة يستمع إلى نصيحة أى إنسان ، وأصبح صغار القوم ينضمون إلى مجلسه . والواقع أن الحكم كان فى الحقيقة فى أيدى القوات التركية التى انضمت إلى صفوف البرابرة وتمكنت من طرد السودانيين المكرهين من القاهرة . وقد استقر السود فى صعيد مصر ، حيث روعت أعمالهم الناس ووقفت حجر عثره فى سبيل الزراعة . ثم لم يلبث البرابرة أن طردوا بدورهم وانتشروا فى أنحاء الدلتا حيث أخذوا يفسدوا نظام الرى ليصلوا إلى هلاك الفلاحين . وفى أثناء ذلك كان الأتراك

ينهبون العاصمة ويسلبونها ، ويجرّدون قصور الخلفـــاء الفخمة مما فيها ، ويشتتون مجموعات التحف الفنية (١) التى كانوا يجدونها بها ، وكذلك الأحجار الكريمة والمجوهرات . وأسوأ من هذا كله ، اقتحموا المكتبة النفيسة التى لم يكن يوجد لها نظير والتى كانت تحتوى على مائة ألف نسخة خطية ، وهى التى مازال المستشرقون يبحثون عن بعضها عبثا ، ثم استخدموا تلك الكنوز الثقافية النفيسة لإصلاح أحذيتهم وإشعال النيران ، بل كانوا يلقون بها فى بعض الأحيان فوق أكوام القاذورات .

وحينما أصبحت مصر العليا والسفلى فى قبضة السودانيين والبرابرة ، انقطعت المؤن عن العاصمة ، وبدأت المجاعة العظمى فى عام ١٠٦٦ . ولقد استغرقت هذه المجاعة المروّعة سبع سنوات قاست مصر منها الأمرين ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الخراب . وكان الجنود المتفرقون فى المقاطعات المختلفة يدخلون الرعب والوجل فى قلوب الفلاحين ويشلونهم عن العمل ؛ وبذلك لم يكن ثمة جهد فى سبيل محو آثار الفيضانات المنخفضة ، أو البذر للموسم التالى . وحينما انقطعت الموارد والمؤن العادية التى كانت تصل إلى القاهرة ومصر ، شعرت المدينتان بالحاجة والحرمان . ونحن نقرأ عن الرغيف من الخبز الذى بيع بثمانية جنيهات . والمنزل الذى تنازل عنه صاحبه فى مقابل ربع مثقال من الدقيق ، والنساء الغنيات اللائى كن يلقين بمجوهراتهن الثمينة لقاء جزء من الطعام ، ولم يكن يجدن من يأخذها منهن ،

---

(١) يذكر لنا المقريزى عرضا مستفيضا ، أطول من أن يقتبس جانب منه هنا . ويشمل هذا العرض عددا الكميات الوافرة من الأحجار الكريمة والأوانى الفضية ، والأوعية المصنوعة من الذهب والبلور ، والملابس الموشاة بالذهب ، وجميع أنواع الفخار — كؤوس محفور عليها اسم هارون الرشيد ، أوانى معدنية ، هدية امبراطور رومانى إلى العزيز ، سيف النبى ؛ درع الشهيد الحسين ، سيف المعز ، كميات من الخناجر المرصعة بالجواهر ، حراب وبعض الأسلحة الاخرى الثمينة ، أطباق ومجامر ذهبية ؛ رقاع الشطرنج موشاة على الحرير بالذهب والفضة والابنوس والعاج ، مرايا من الصلب ، كؤوس للعنبر ؛ منضدة من العقيق ، طاووس من الذهب له عينان من الياقوت الاحمر وريش من المعدن ؛ ظبى مرصع باللآلىء التى كان يبلغ وزنها ١٧ رطلا ، ثمانية وثلاثون زورقا بينها واحد من الفضة ؛ خيمة الخليفة الظاهر ذات الخيوط الذهبية والاوتاد المصنوعة من الفضة ؛ خيمة اليازورى ذات النقوش البديعة التى استغرق فى صنعها تسع سنوات كاملة عمل خلالها فيها خمسون رساما ، وكان يبلغ طول عمودها مائة وعشرين قدما ، ومحيط الخيمة حوالى ألف قدم .

والأحصنة والحمير - وحتى الكلاب والقطط - التى كانت تباع بثمن غال ، وتؤكل بشره ونهم . والأعجب من هذا أن الناس بدأوا يخطفون ويأكلون بعضهم البعض . وكان القصابون يبيعون اللحوم البشرية . وتلا هذه المجاعة وباء حصد الأرواح بمنجله حصدا ذريعا . ولم يفرق الوباء والجوع بين غنى وفقير ؛ فقد كان الجميع يقاسون تلك المحنة على السواء . وكان الأشراف المتعالون يحاولون الحصول على كسرة من الخبز فى مقابل العمل فى أحد الحمامات العامة . أما الخليفة نفسه ، فبعد أن سلبه الأتراك وهجرته زوجته وبناته إلى بغداد تخلصا من الوباء ، كانت تقدم إليه بنت أحد العلماء رغيف من الخبز كل يوم ، إبقاء على حياته .

ولم يحدث أن عرفت مصر فى حياتها من قبل مثل تلك السنوات السبع العجاف غير أن كل شىء له نهاية ، إذ انتهت تلك الفترة المشئومة ، فقد كان محصول عام ١٠٧٣ وفيرا ، كما أن قائد الأتراك قتل وقطعت جثته إربا إربا . وفى عام ١٠٧٤ جاء وزير عظيم لإنقاذ تلك الدولة المتداعية وهو بدر الجمالى الذى أرسل إليه الخليفة يستدعيه إبان محنته. وقد كان بدر أرمينيا -وليس مسيحياً- بدأ حياته كأحد العبيد. وكانت قدرته الفائقة سببا فى رفع شأنه وتقلبه فى أرفع المناصب كحاكم لدمشق ثم لعكا فيما بعد. وكان بحق رجل الساعة. وقد حدث أن دخل بدر الجمالى على الخليفة ، حينما كان يتلو له أحد المقرئين آية من القرآن الكريم[1] فصاح الخليفة مبتهجا : « لو أنك قرأت أكثر من هذا لأمرت بقطع رأسك . » وبعد ذلك أخذ القائد المشهور يتحدث فى إيجاز عن حكم الأقلية الأتراك . وما هى إلا عشية وضحاها حتى كان جميع القواد قد لقوا حتفهم نتيجة خدعة غادرة ، ولو أنها خدعة لم تخلُ من فائدة ، وهكذا انتهى عهد الإرهاب فى القاهرة . ثم عيّن بدر الجمالى قائدا عاما للجند ، ووزير السيف والقلم ، ورئيس القضاة ، وداعى الدعاة . وقد عمل فى بادىء الأمر على إعادة النظام فى العاصمة ، ثم سار بعد ذلك إلى الأقاليم وأخضع لأمره البرابرة والسودانيين والعرب فى قسوة زائدة ، ولم يكن يتردد فى قتلهم إذ استدعت الحال ، وبذلك ساد النظام البلاد من الأسكندرية إلى أسوان . وقد بدأ الفلاحون — بعد أن عاد إليهم

---

(١) تشير الآية التى كان يقرؤها إذ ذاك إلى غزوة بدر التى حدثت أيام محمد .

الأمن والطمأنينة – يزرعون أرضهم مرة أخرى . فزادت موارد الدولة ، واستردت البلاد لمدة عشرين عاما نشاطها وحياتها .

والواقع أن القاهرة استفادت إلى حد بعيد من تلك السياسة الرشيدة البعيدة المدى التى اتبعها ذلك الأرمنى العظيم ، بدر الجمالى . فقد ظلت لمدة قرن تقريبا منذ أن بنى العزيز القصر الغربى وهى لا تتمتع بشىء جديد له قيمته ، مع أننا نعلم بأن الحاكم أتم بناء مسجد والده وبنى « قاعة العلم » . وكان أفضل مكان يلجأ إليه المستنصر هو قصره الريفى فى هليوبوليس ، حيث كان يوجد كشك على نمط الكعبة الشريفة فى مكة ، وبركة من الخزف تمثل بئر زمزم . هنالك كان يتسلى كثيرا ، حيث كان يتهكم على الحجر الأسود وعلى المياه الرديئة ذات الأصل العربى . وحينما جاء حكم بدر الجمالى ، سمعت القاهرة مرة أخرى صوت مواجل البنائين . ذلك أن البلاد كانت فى حاجة ملحة إلى التحصين وإصلاح ماسبق أن أفسدته القوات المتمردة فيها . فالسور القديم المصنوع من الآجر كان قد اختفى فى ثنايا المدينة التى اتسعت فى ذلك الوقت وأصبحت تصل إلى خارج الأبواب الثلاثة التى بناها جوهر . وهذه الأبواب الثلاثة هدمت ثم أعيد بناؤها من الحجر فيما بين عامى ١١٨٧ و ١١٩١ حتى تحيط بمساحة أكبر ، فقد دخل الحى اليونانى مثلا وكان يوجد إلى الجنوب ، فى نطاق هذه الأبواب . كما بنى حائط جديد من الآجر حول المدينة . وقد عمل صلاح الدين الأيوبى على توسيع هذا الحائط فيما بعد ، إلا أن جانبا من الحائط الأصلى الذى بناه بدر الجمالى لا يزال موجودا . أما فى الشمال فكان هذا الحائط لا يزال يصل بين باب النصر وباب الفتوح ، ويمتد إلى طابيه على مسافة ثلاثمائة وثلاثين قدما غرب باب الفتوح ، وإلى زاوية شرق باب النصر بما يقرب من مائتى قدم . كذلك يوجد جانب من هذا الحائط بين المنازل القريبة من باب زويلة جنوب السياج . وإلى عام ١٨٤٢ كان لا يزال يوجد من السور الغربى إلى الجهة الغربية من الأزبكية .

أما الأبواب الثلاثة الكبيرة فلم يطرأ عليها تغيير كبير ، ولو أن أبراج باب زويلة قصرت لكى تستقبل مآذن جامع المؤيد فى القرن الخامس عشر . وهذه الأبواب هى فى الواقع أروع آثار الفاطميين ، إلا أنها بيزنطية وليست عربية إسلامية . ويذكر لنا المؤرخ أبو صالح الأرمنى أن أحد الأقباط – ويدعى جون –

هو الذى وضع تصميم الأسوار والأبواب الوزير الأرمنى . ولكن مهما يكن نصيب هذا الرجل فى وضع تصميم تلك الجدران ، فلا يمكن أن يكون هو المهندس الذى بنى تلك الأبواب التى كانت على الطراز النورماندى[١] . ومن الواضح أن المقريزى كان على حق حينما ذكر لنا أنها بنيت بواسطة إخوة ثلاثة من الرها ـ وهى مدينة حافلة بالأرمنيين حيث كان من الطبيعى أن يبحث بدر الجمالى ـ بخبرته فى سوريا ـ عن مهندسين له . وقد بنى كل واحد من هؤلاء الإخوة واحدا من تلك الأبواب . وهذا القول الذى يعضده الطراز الذى يرجع إلى المدرسة السورية البيزنطية . وعلى الجملة ـ وكما أوضح فان برشم ـ فإن أبواب القاهرة وأسوارها ترجع إلى طراز الـ Templar فى فن البناء العسكرى : المدرسة البيزنطية والعربية العظيمة التى يمكن تتبع خصائصها فى مختلف البلدان والعصور فى القسطنطينية ونيقيا وبروسة ، وفى الحصون العربية القديمة شمال سوريا ، على طراز الـ Templar ومبانى العرب الحربية قبل الحروب الصليبية ، قبل أسوار بيت المقدس وغير ذلك.

وأهم ما يميز هذا الطراز هو الحصون المربعة الشكل والفتحات المربعة كذلك ، على خلاف الأروقة الفارسية فى المساجد الفاطمية ، والحصون المستديرة فى حائط صلاح الدين الأيوبى . أما الستائر فيبلغ سمكها من إحدى عشرة إلى ثلاثة عشر قدما ، وتحتوى على غرف للرماة (القوّاسين) وعلى آلات الحرب المختلفة . وتتكون الأبواب من ممر له قنطرة ، ذى رواق مستدير ، يقع بين أبراج بها طبقات معدة لإصابة العدو منها ، ومتصلة بواسطة ممر رأسى فوق القنطرة ، حيث يوجد مكان يمكن أن يرمى منه الطوب والقذائف على العدو . ومما يزين باب النصر ، درجات حلزونية بديعة الشكل ، وأفاريز رائعة ، وبضعة دروع منقوشة ، وكتابة كوفية جميلة[٢] . وهذه الكتابة — شأنها فى ذلك شأن كتابة أخرى على باب الفتوح — تعبر عن عقيدة الشيعة ؛ إلا أنها على الرغم من ذلك بقيت كما هى طوال فترة استغرقت ثمانية قرون كانت العقائد القديمة فيها هى السائدة . والأبواب الثلاثة العظيمة هى فى

---

(١) Abu-Salih, f. 51 a; Makrizy, i. 381; M. Van Berchem : Notes d'Archeologie Arabe, (1801), 37-72,
وذلك للتوسع فى هندسة بناء تلك الجدران والأبواب .

(٢) نشر هذه الكتابة المستر . ه . ك . كاى Mr. H. C. Kay فى مجلة Journal R. Asiatic Soc., N. S. xviii.

الواقع أثر رائع لواحد من وزراء القاهرة العظام فى العصر الوسيط .

والحقيقة أن مصر استفادت كثيرا من حكم الأرمينيين لمدة تقرب من ستين عاما . وقد مات بدر الجمالى فى عام ١٠٩٤ ، وهو نفس العام الذى توفى فيه الخليفة المستنصر . إلا أن الأفضل ، بن بدر الجمالى ، خلف أباه فى الحكم ، وحكم مصر حتى عام ١١٢١ حينما أمر الخليفة الأمير بقتله . وفى عام ١١٣١ انتقلت السلطة إلى يد أبى على بن الأفضل الذى حكم باسم « المهدى المنتظر » ، وبذلك عاد إلى نظرية الشيعة القديمة التى تقول باختفاء الإمام ، وتجاهل جميع مطالب الدولة الفاطمية . وحينما قتل بدوره وهو فى طريقه إلى ملعب البولو ، أصبح يانس ، أحد عبيد الأفضل الأرمينيين ، وزيرا ؛ ومن بعده بهرام ، وهو أرمنى مسيحى حكم حتى عام ١١٣٧ . وإلى ذلك الوقت كان نفوذ الأرمينيين المتزايد قد أدى إلى جعل جميع الوظائف الرئيسية فى مختلف دواوين الحكومة فى أيديهم . إلا أن هذه السلطة العظيمة كان لها رد فعل طبيعى ، فقد طُرد بهرام ومعه ألفان من بنى جلدته ، وبذلك ذوت زهرة الأرمينيين ، بعد أن خدموا البلاد خدمات جليلة ، إذ حكموها على وجه العموم بحكمة وبُعد نظر . فقد أسدى حكم بدر الجمالى وابنه ، ذلك الحكم الناجح المقرون بالحزم والاعتدال ، مزايا لا يستهان بها لأهل مصر . ولئن كانا قد جمعا ثروة طائلة[١] ، فقد جمعاها بالجد والعمل المنطوى على الذكاء والتفكير ، فقد جمعا فى شخصيتهما صفات العدل والكرم . كما أن السياسة التى أتبعها إزاء القبط ، ألهجت ألسنتهم بشكره والثناء عليه . وحتى أبو على ، الذى أحيا العقيدة القائلة بالإمام المختفى الذى كان مرسوما على النقود ، قد ورث عن أبيه وجده صفاتهما الطيبة ، ولذا أظهر اعتدالا وتسامحا إزاء المسيحيين ، وبدا صديقا حميما لهم ، ونصيرا للعلم والثقافة .

وسوف نرى أنه منذ عهد وزارة بدر الجمالى أصبحت مصر لا يحكمها الخلفاء ، وإنما الوزراء . وهذا يشبه ما كان حادثا قديما فى النظام الميروفنجى[٢] Merovingian

---

(١) قيل إن الأفضل ترك بعد وفاته أكثر من ثلاثة ملايين جنيها من الذهب ، وإن ثمن اللبن الذى كان يجلب من أبقاره بلغ فى عام واحد ١٥٫٧٥٠ جنيهاً .

(٢) نسبة إلى أول أسره من الملوك الـ Frankish فى فرنسا القديمة — وأصل الاسم من Merwig جد Clovis وملك الـ Franks الغربيين .

الذى شعاره major domo، كما لو كانت القصة القديمة ذاتها قد نقلت إلى العربية.
والواقع أنه منذ عهد استبداد الحاكم، لم يحاول أى خليفة أن تكون له سلطة مباشرة فى شئون الدولة، إلا الآمر الخليفة الفاطمى الذى حاول لبضعة سنوات أن يكون وزير نفسه بمساعدة الراهب ابن كنّسه، غير أن هذه التجربة لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، إذ تملك هذا الراهب الزهو والعجب بنفسه، حتى أمر الآمر بقتله. وقد كانت قسوة الآمر سببا فى كرهه. وفى ذات يوم، بينما كان عائدا من « الهودج »، ذلك المنزل الصغير فى جزيرة الروضة الذى كان يذهب إليه ليستطلع فيه آراء عروسه البدوية وميلها إلى الصحراء، قتله بعض الإسماعيليين، وكان ذلك فى عام ١١٣٠. وكل ما كان للخليفة الآمر من فضل أنه بنى جامع الأقمر فيما بين القصرين. ومنذ مقتل الآمر تنازل الخلفاء عن السلطة للوزراء الذين كانوا هم أنفسهم أداة تحركها الانقسامات والأحزاب العسكرية. وكانت التقوى الروحية والعزلة التى ينادى بها رجال الدين الفاطميون لا تزال تراعى فى ذلك الوقت، كما رأينا فى وصف وفادة الفارسين. غير أننا يجب أن نعرف أن ذلك التبجيل والاحترام الزائد تحول إلى الهزل دون الجد. فقتل كل من الآمر والظافر، وحبس الحافظ، وقتل الوزير رضوان أمام جامع الأقمر على يد حراسه السود المدمنين على الخمر. ودس الخليفة السم لابنه على أيدى طبيبه المسيحى. ثم منظر سفك الدماء المروّع فى القصر، حيث أظهر الطفل « الفائز » أمام رجال القصر على أنه إمامهم الروحى[1]. كل هذا لا يدل على أى احترام حقيق لخلافة الشيعه الغامضة. ولقد كانت بغداد تعرف الخلفاء الإسميين منذ وقت طويل؛ وكان منافسوهم على ضفاف النيل ظلالا لأسماء لها جلالها.

وكان الرعب الذى حل بالبلاد أخيرا أكثر من أن يحتمله سكان القاهرة الذين طالما قاسوا واحتملوا. فإن قتل الخليفة الظاهر الذى حدث بعد إغتيال الوزير الكردى ابن السلار بفترة وجيزة؛ والمذبحة المروعة التى حدثت فى القصر، والجرائم التى تمت بتدبير الأقرباء والندماء؛ والوحشية الفظيعة التى ينطوى عليها عرض

---

(١) هذا المشهد يصفه لنا الامير العربي أسامه الذى كان موجودا فى القاهرة فى ذلك الوقت، والذى كان صديقا لعباس قاتل الخليفة والوزير على السواء. أنظر Derenbourg, Vie d'Ousama, 205-260

الخليفة الطفل البالغ من العمر أربع سنوات فى القصر وسط هالة من الرعب والفزع .
لا شك أن كل هذا آثار عاصفة من الانتقام ، وبينما كان الوزير الجديد عباس هاربا قتل بالقرب من البحر الميت ، أما القاتل ، ويدعى نصر ، فقد تسلمته جماعة الداوية Templars فى فلسطين مقابل ثلاثين ألف جنيه وأرسلته إلى نساء القصر اللاتى عذبنه وأرسلنه مُقَـعَّـداً فاقد البصر لكى يعرض فى شوارع القاهرة ثم يصلب حيا عند باب زويلة . وبينما سحائب الضيق والحزن تخيم عليهن ، أرسلت النساء إلى حاكم أشمونين فى صعيد مصر خصائل من شعرهن ؛ وقد أجابهن الأمير طلائع بن رزيق إلى ملتمسهن فى لطف وأدب زائدين ، وكان ذلك عام ١١٥٤ ، وبعد ذلك لوّح بالخصائل ثم ركب إلى القاهرة يتبعه حارس عربى ، وحينما جلس على كرسى الوزارة فى دار المأمون(١)، استعادت العاصمة ثقتها . وكان طلائع ، الذى أتبع عادة الوزراء المحدثين وجعل من نفسه ملكا وتسمى بإسم الملك الصالح ، هو آخر دعامة فى الدولة المتداعية . فقد كان رجلا واسع الأفق وشاعرا فى الوقت نفسه ، كما كان كريما ومتواضعا وسياسيا . ثم أن مسجده ، الذى لا يزال يوجد بالقرب من باب زويله ، ينم عن السخاء والتقوى . ولقد حاول جهده أن يبعد عن مصر العاصفة التى كانت تهددها من الارتباكات السياسية فى سوريا وفلسطين إلا أن نساء القصر وجدن أنهن قد استدعين لإنقاذهن رجلا قاسيا ، فقتلنه دون أى تقدير لفضله . وقد كانت آخر كلماته هو أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنجة ، وتحذيره لابنه لكى يحترس من شاور الحاكم العربى لصعيد مصر . وكان صادقا فى أسفه وتحذيره : فإن شاور عزل رزيق « ابن الوزير » وقتله فى مستهل عام ١١٦٣ ، وفى غضون العام نفسه ، كان ملك بيت المقدس المسيحى فى مصر .

وقبل أن ننتقل إلى غزو الصليبيين للقاهرة ، وفتح صلاح الدين الأيوبى ، ونهاية الفاطميين بموت آخر خلفائهم العاضد ، يجمل بنا أن نذكر شيئا عن بقايا المدينة التى خلقتها تلك الدولة الآيلة للسقوط واحتفظت ببهجتها وجمالها . ومن بين جميع مبانيهم ، لا يوجد ما يشهد على عظمة الفاطميين سوى الأبواب العظيمة الثلاثة ،

(١) بنى هذا القصر وزير سابق ثم حوله صلاح الدين الايوبى الى معهد علمى ، وكان يوجد بالقرب من الجامع الحالى الذى يسمى جامع الاشرف فى شارع النورية .

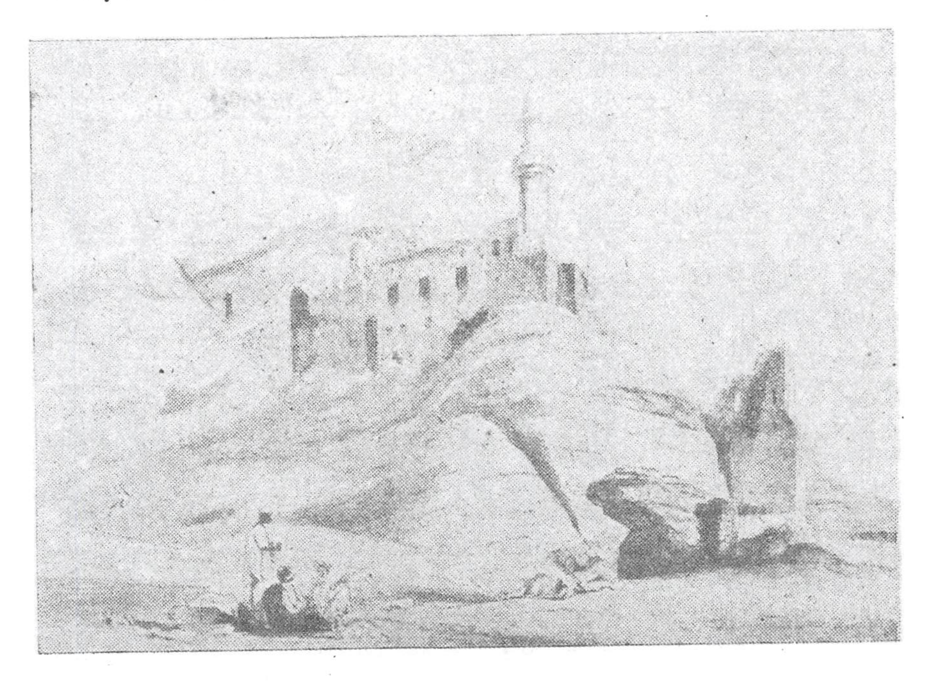
وجانب من الجدران ، وبقايا أربعة[١] مساجد . وقد ذهبت المساجد تماما ؛ ذلك أن خلفاء الفاطميين لم يستعملوها ، ومن ثم أخذت تتهدم على مر الزمن . ولقد أنشد الشاعر عمارة اليمنى قبل عام ١١٧٤ يشير إلى ذلك . كذلك إختفت دار العلم ودار المأمون ودار الوزير وجميع القصور الأخرى التى كان يستعملها خلفاء الشيعة وأتباعهم . غير أنه لم يحدث هناك خراب أو دمار عام ، وكل ما هنالك أن المبانى قد هجرها وأهملها القادمون الجدد ، فكان ذلك سببا فى تهدمها وتداعيها . ومن بين الآثار القليلة الباقية ، نجد أن أقدمها وأصدقها هو جامع الحاكم . ذلك أن الأزهر لا يحتفظ إلا بالقليل من بنائه الأصلى وزخرفته القديمة . وجامع الأقمر الذى بناه الخليفة الآمر فيما بين القصرين ، هو أول مسجد بنى من الحجر ، إذ كانت جميع المساجد من قبل تبنى من الآجر. ومهما يكن من أمر هذا المسجد ، فإن واجهته وحدها هى التى بنيت من الحجر، وكانت منتظمة الشكل وجميلة النقش . أما الأروقة الداخلية فكانت من الآجر أو الأعمدة الرخامية . وعلى الرغم من صغره وتهدمه فإنه يتميز ، من بين سائر المساجد الفاطمية ، بواجهة جميلة تختلف كثيرا عن الواجهات العادية البسيطة للمساجد السابقة . كذلك يسترعى إنتباها خاصا تلك النقوش الموجودة فى المشكاة ، والتدبيج الجميل المنقوش على الأعمدة ، والأفريز الكوفى الذى يحيط بالمشكاة الجانبية »[٢] . وهناك نقشان يحملان إسم الآمر وتاريخ ٥١٩ هجرية (١١٢٥ ميلادية) يتعلقان بالأساس . ثم هناك آخران يسجلان إعادة بناء الجامع بواسطة الأمير يلبغا السالمى فى عام ٧٩٩ هجرية (١٣٩٦ ميلادية). غير أنه من حسن الحظ أن إعادة البناء هذه لم تتناول المسجد بالكثير من التغيير. وعلى الرغم من أن مسجد الوزير طلائع رزيق بالقرب من باب زويلة (١١٦٠) قد تهدم كثيرا ، إلا أنه يرينا تقدما ملحوظا فى مضمار البراعة فى فن النقش . فمن الصعب علينا أن نجد مثيلا لتلك النقوش العربية فى أى مسجد جاء بعد ذلك . وهناك

---

(١) أسس الخليفة الظافر فى عام ١١٢٩ المسجد المعروف باسمه والذى لا يزال يوجد فى ركن السكرية (سوق السكر) ويعرف باسم جامع الفكهانى ؛ غير أنه قد أعيد بناؤه تماماً فى عام ١٧٣٥ .

(٢) Herz Bey : Cataloque of the National Museum of Arab Art, edited by S. Lane-Poole, xxiv.

أمثلة عديدة هامة فى متحف الفن العربى تصور لنا فى جلاء قدرة الفاطميين وبراعتهم فى فن النقش. ونحن نخص بالذكر هنا الأبواب المغشاة بالصفائح المأطورة، بما عليها من نحت وكتابة للحاكم فى جامع الأزهر. كذلك نذكر المحاريب الثلاثة، التى منها إثنان من الجامع الأزهر وبينهما واحد يحمل كتابة تسجل تشييده هناك بواسطة الآمر فى عام ١١٢٥، والثالث من ضريح السيدة رقية حوالى عام ١١٣٥، وهذا الأخير يحوى نقوشا هندسية معقدة بالغة الروعة، وزخارف عربية وكوفية بديعة.



جامع الجيوشى

ومن سوء الحظ أنه إذا كانت الآراء والعقائد التى هى أقرب إلى البدع، قد عملت على تشجيع النواحى الفنية، إلا أنها فى الوقت نفسه أدت إلى هدم ما تم لها عمله. فلو أن الفاطميين لم يكونوا هراطقة، لأبقى خلفاؤهم على قصورهم الجميلة، بما فيها من أوجه فنية رائعة. وكان القوم الأتقياء الذين جاءوا بعد ذلك يتحمسون لإزالة كل ما يمت إلى الخلفاء الشيعيين بصلة، أولئك الخلفاء الذين أنفقوا أموالا طائلة على تزيين مدينتهم بكل ما ينم عن ذوق جميل.

الباب السادس

قلعة صلاح الدين

عوامل غزو مصر ـ الاتراك والصليبيون ـ شاور وضرغام ـ عمورى وشيركوه فى مصر ـ صلاح الدين يتقلد الوزارة ـ عزله الخليفة الفاطمى ـ حروب صلاح الدين ـ أعمال صلاح الدين فى القاهرة ـ الاسوار الجديدة ـ القلعة ـ سدود خزان الجيزة ـ الثورات فى القاهرة ـ رأس الحسين ـ صلاح الدين يشيد المدارس السنية ـ عبارة ابن جبير ـ المستشفيات ـ خصائص المدارس والمساجد ـ أثر إحياء المذهب السنى وتشجيع العلم .

كانت القاهرة فى مستهل القرن الثالث عشر مدينة تختلف تمام الإختلاف عنها يوم كانت مقراً للفاطميين . ذلك أنها كانت تغطى مساحة أكبر ، وتحتوى على عدد من المبانى الجديدة ذات صبغة لم تعرفها مصر من قبل ، كذلك كان يوجد بها قلعة . وكل هذه التغييرات ترجع الى صلاح الدين الأيوبى ، ولو أنه لم يعش ليراها حتى نهايتها. والواقع أننا إذا أردنا أن نتتبع فى شىء من التفصيل الأسباب التى أدت إلى غزو مصر بواسطة ملك بيت المقدس الصليبى وطرد الفرنجة بواسطة جيوش نور الدين سلطان دمشق ، فإذا سوف نخرج بذلك عن الموضوع الأصلى الذى نحن بصدده. ولقد كان العنصر الأساسى فى الموقف السياسى يتلخص فى تقسيم سوريا بين قوتين عدائتين جديدتين، هما الصربين والأتراك السلاجقة. وكان تسرب الضباط الأتراك التدريجى إلى خلافة بغداد ، قد أدى إلى غزو كبير ، يقوده السلاجقة الذين أخضعوا بلاد الفرس وبلاد الموصل بأكملها فى أواسط القرن الحادى عشر، وجعلوا الخليفة العباسى آلة فى أيديهم ، وأكثر من هذا غزوا المستعمرات الفاطمية فى سوريا التى لم يكن من السهل القبض على زمامها ، واستولوا على دمشق فى عام ١٠٧٦ . وكان العائق الوحيد الذى منعهم من غزو مصر هو الرشاوى التى دفعها الوزير الأرمينى بدر الجمالى والإستحكامات الحربية التى أقامها . وفى أواخر ذلك القرن انتهت امبراطورية السلاجقة ، إلا أن سوريا بزعامة زنكى وابنه نور الدين، كانت أقل ضررا للفاطميين من بقاء امبراطورية السلاجقة . وفى الوقت نفسه كان هناك تعقيد جديد قد دخل في

السياسة السورية عند ابتداء الحروب الصليبية ، ذلك هو استعادة المسيحيين لبيت المقدس في عام ١٠٩٩ وتكوين المملكة اللاتينية هناك : وكان الجند الفاطميون يطردون تدريجياً نحو الجنوب . وبعد أن حاول الأفضل الأرمينى ، ابن بدر الجمالى المفاوضة ، قام بعدة حروب فى فلسطين . إلا أن تقدم الصليبيين لم يكن فى الإمكان منعه ، فنى عام ١١٠٩ سقطت طرابلس ، وفى عام ١١٢٤ سقطت صور . وبعد فترة طويلة سلمت Ascalon ، آخر معاقل الفاطميين ، فى عام ١١٥٣ . وقد أصبح الصليبيون بعد ذلك على الحدود المصرية وكانت حصونهم فى الكرك ومنتربال عند البحر الميت سبباً فى قطع المواصلات مع سوريا .

وكانت كلا القوتين مملكة بيت المقدس اللاتينية وسلطنة دمشق التركية ، عاجزة عن أن تستحق إحداهما الأخرى . وكانت مصر هى الحل الوحيد لذلك الموقف. فإذا ما استطاعت إحدى القوتين أن تستولى على نهر النيل ، كان من السهل عليها أن تجاب القوة المعادية إلى احدى جانبيه ثم تستولى عليها . وكان الامتزاج الطبيعى هو بين الدولتين المسلمتين : القاهرة ودمشق ، إلا أن التشيع الدينى وقف حائلا فى الطريق . فقد كان نور الدين مسلماً متحمساً للمذهب القديم ، ولم يكن له شأن بهراطقة الشيعة . حقيقة أن الوزيرين ابن السلار وطلائع دخلا فى مفاوضات دبلوماسية مع ملك دمشق ، إلا أنهما لقيا تشجيعاً قليلا . وقد اضطر نور الدين أخيراً أن يرسل قواته إلى مصر حينما وصل جيش الصليبيين إلى القاهرة . وكان الإعتراض راجعاً إلى خصومة الوزراء المتنافسين الذين كانوا يتنازعون على ماتبقى من حكم الفاطميين. وكان أحد هؤلاء ، ويدعى شاور ، قد طرده ضرغام ، ومن ثم لجأ إلى نور الدين أما ضرغام فقد لجأ إلى محالفة عمورى ملك بيت المقدس ، الذى كان قد تم له غزو مصر ليطالب بالإعانة المالية السنوية (١) التى كانت الحكومة الفاطمية المتداعية تدفعها أخيراً كأتاوة إلى جارتها المسيحية . وقد عاد شاور فى عام ١١٦٤ يعاونه فى ذلك جيش سورى بقيادة شيركوه ومعه أركان حربه صلاح الدين الأيوبى ابن أخيه. أما ضرغام ، فبعد أن هزم فى بلبيس ، وقف مرة أخرى فى القاهرة حيث استولى على المدينة الفاطمية ، بينما احتل شاور والسوريون مصر . وكان ضرغام شخصاً محبوباً ، إذ كان عربياً شجاعاً اشتبك مع الصليبيين فى غزه وقاد كتيبة من الجيش

---

(١) يسمى William of tyre هذه الاعانة Annua tributi pensio .

الفاطمى من أهل برقة . وقد كان ذلك حافزا له على أن يستولى على أموال الوقف ليواجه حاجات قواته ، وتخلى عنه أتباعه نتيجة لذلك وامتنع الخليفة عن مساعدته وكان المشهد الأخير مفجعاً .

فبعد ما اضطر إلى القتال ، نفخ فى بوقه يدعو الجند للحرب ، ولكن الطبول كانت تدق ، والأبواق كانت تنادى دون جدوى . كما أن عبارة الله أكبر كانت تتردد من فوق الحصون ، إلا أن أحداً من الرجال لم يكن ليجيب . وعبثاً وقف الأمير اليائس ومن حوله حرسه المؤلف من خمسمائة فارس هو ما تبقى له من جيشه القوى ، يتوسل أمام قصر الخليفة يوماً كاملا ، حتى بعد أن آوت الشمس إلى مخدعها ويتضرع إليه مستحلفاً إياه بأجداده ، أن يتقدم إلى النافذة ويهتم بدعواه . إلا أنه لم يكن ثمة جواب ، وكان الحرس نفسه قد بدأ يتشتت حتى لم يتبق منه سوى ثلاثين فارساً . وفجأة سمـــع صوت صياح ينذره : أنظر إلى نفسك وأنقذ حياتك ، وهنالك كانت تسمع طبول شاور وأبواقه ، صادرة من باب القنطرة . وبعد ذلك ركب القائد المخذول وخرج من باب زويلة . إلا أن القوم المتذمرين قطعوا رأسه وطافوا بها الشوارع مبتهجين أما جثته فقد تركوها فريسة للكلاب . تلك كانت النهاية المفجعة لشاعر شجاع وبطل شهم .

وبعد أن استغنى عن ضرغام ، طفق شاور الخائن يولى وجهه شطر منقذيه ويطلب مساعدة عمورى لطرد السوريين . وبعد نزاع دام طويلا ، عقدت فى نهاية الأمر هدنة ، وانسحب الجيشـــان المسيحى والسورى دون أية نتيجة مباشرة . غير أن الغزو كان بداية احتلال دائم . وبينما كانت القوات السورية عائدة فى طريقها إلى دمشق أخذت تصف ضعف الحـكم الفاطمى وتحث نور الدين على غزو مصر موضحة له أهمية ذلك . ولم يكن من السهل إغراء السلطان الحذر ، غير أن حينما وصلته أنباء خبراها أن عمورى يدبر مؤامرة مع شاور مرة أخرى انطلق الجيش السورى ثانية إلى النيل حيث عبره كما فعل الصليبيون تماماً ، وكان ذلك فى عام ١١٦٧ . ومهما يكن من أمر عمورى فإنه نجح فى الاستيلاء على القاهرة وعمل معاهدة مع الخليفـة ، تلك المعاهدة التى سبقت الاشارة إليها ووصف قدوم الفارسين [١] . ومن جهة أخرى فإن شيركوه غزا مصر العليا ، كما أن صلاح الدين

---

(١) راجع الفصل الخامس .

الأيوبى استولى على مدينة الاسكندرية لمدة خمس وسبعين يوماً ، وبعد ذلك نظمت هدنة جديدة ، وعاد الجيشان إلى سوريا وفلسطين . ومهما يكن من شيء ، فإن الفرنجة تركوا نائباً فى القاهرة ، وسلموا حراس الأبواب ، كما وضعوا حارساً فى مسجد الحاكم . وكان هؤلاء النواب ، الذين كانوا بمثابة شاهدين على فوضى حكومة مصر وضعفها ، مدعاة إلى قدوم عمورى ثانية فى العام التالى عاقداً النية على ضم البلاد . وكان هذا ـ بالاضافة إلى المجزرة البشرية الوحشية التى تلت ذلك فى بلبيس ، مما أشاع الرعب والجزع فى قلوب المصريين ، حتى أنهم أرسلوا بضعة التماسات عاجلة إلى نور الدين . وقد دخل معه الخليفة فى نقاش حرج حول خصائل شعر زوجته . وللمرة الثالثة ، فى أوائل عام ١١٦٩ ، وصل شيركوه وصلاح الدين الأيوبى إلى مصر وكانت إقامتهما فى هذه المرة خيراً وبركة عليهما . فقد انسحب عمورى دون أن يشتبك فى قتال ، كما أن شاور ، بعد أن دبر مؤامرة لاغتيال منقذيه قبض عليه وأعدم . وقد عين شيركوه بعد ذلك وزيراً ، وحينما وافته منيته بعد شهرين من ذلك التعيين ، تقلد صلاح الدين الأيوبى مهام منصبه فى مارس عام ١١٦٩ .

ومن الواضح أن منصب صلاح الدين الأيوبى كوزير للخليفة الشيعى ، وكنائب فى الوقت نفسه لسلطان دمشق من أصحاب المذهب القديم ، لم يكن من السهل الدفاع عنه . وعلى الرغم من أنه اضطلع بأعباء الحكم فى ذلك المنصب الشاذ لمدة عامين ، إلا أنه كان من الجلى أن الخلافة الفاطمية لم تكن لتدوم طويلا ، وأنها كانت تشرف على نهايتها . ففى صلاة يوم الجمعة العاشر من شهر سبتمبر عام ١١٧١ ، نودى بخليفة بغداد العباسى فى مساجد القاهره . وقد روى رحالة عربى من أسبانيا وصف الإحتفال بعد ذلك التاريخ باثنى عشر عاماً .

وفى واحد من تلك المساجد أقيمت صلاة الجمعة . هنالك قام الواعظ بالطقوس الدينية مستهلا وعظه بدعاء الصحابة والتابعين وأمهات المؤمنين اللائى هن زوجات النبى ، وإلى عميه الكريمين حمزة والعباس : وبعد ذلك قام بوعظ بليغ ، وبحديث مؤثر كان له أعظم الأثر فى نفوس سامعيه ، حتى لانت له أصلب القلوب ، وذرفت عيونهم الدمع السخين . وكان يقوم بالوعظ مرتدياً الملابس السوداء وفقاً لقواعد العباسيين . ذلك أنه كان يلبس مشملة سوداء عليها طيلسان من الكتان الأسود الجميل — وتسمى فى أسبانيا « أحرام » — وكانت عمامته كذلك سوداء

اللون كما أنه كان متمنطقاً بسيف . وحينما صعد إلى المنبر طرق على الدرجة بغمده حيث بدأ فى الصعود ، لكى يسمعه جمهور المصلين ، إشارة منه إلى التزام السكون وفى منتصف السلم طرق مرة أخرى وحينما وصل إلى القمة طرق مرة ثالثة ، أخذ بعدها يتلو الدعاء وكان يقف هناك بين علمين أسودين عليهما علامات بيضاء اللون كانا مثبتين فى الجزء العلوى من المنبر . وفى هذه المناسبة دعا أولا إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله ؛ وبعد ذلك إلى معيد سلطانه يوسف بن أيوب وهو السلطان صلاح الدين الأيوبى ؛ ثم إلى أخيه ووريثه أبى بكر، الذى يسمى سيف الدين [1].

ولم تدهش تلك الصلاة الجمهور الذى سمعها فى عام ١١٧١ ، كما أن أحداً لم يكن ليتذمر فى ذلك الوقت ، إذ من المحتمل ألا تكون الدعوة الشيعية قد تغلبت فى النفوس . وكان جمهرة الناس لا يظهرون ميلهم إلى العقائد القديمة على الرغم من سيادة هرطقة الشيعة لمدة قرنين . وفى النهاية تم الإنقلاب دون مقاومة . فقد قضى على آخر الخلفاء الفاطميين دون أن يثير أية ضجة ، وأسر أقاربه ، وشتت عبيده وأتباعه وكانت القصور أفخم مما تستلزمه حاجات صلاح الدين المتواضعة ؛ ومن ثم أسكن فيها ضباط جيشه ، واحتل هو نفسه دار الوزير . أما المكتبة النفيسة التى كانت تحتوى على مائة وعشرين ألف كتابا جمعت بعناية بعد أن أتلفت المكتبة الأولى منذ قرن مضى ، فقد أعطيت إلى القاضى الفاضل ووزعت الأشياء النفيسة أو بيعت ، كذلك اختفت قصور الفاطميين وكل آثارهم بالتدريج ، عدا مساجدهم . وهكذا ساد المذهب القديم مرة أخرى فى مصر .

وكانت أغلب حياة نصير الإسلام العظيم خارج مصر . ذلك أن صلاح الدين الأيوبى لم ينفق من حكمه البالغ أربعة وعشرين عاما سوى ثمانية أعوام فى مصر ، وكان حكمه فعلياً منذ البداية ، على الرغم من أنه كان تابعا اسميا للملك دمشق لمدة الخمس سنوات الأولى ، كما أن أعظم انتصاراته ونكباته على السواء حدثت فى سوريا وبلاد الموصل وفلسطين . وحينما ترك القاهرة فى الحادى عشر من شهر مايو عام ١١٨٢ ، حضر إلى ركابه ضباط القصر العظام ليودعونه ؛ وعندما توقف الموكب عند « بركة الحبش » سمع صوت يطغى على أنغام الموسيقى والغناء

ولم توجد كرة فى مصر لصلاح الدين بعد ذلك ، كما أن القاهرة لم تر له بعدها وجهاً . فقد غزا أرض الفرات ، واستولى على دمشق التى كان قد تم له ضمها بعد

---

(١) ابن جبير — طبعة Wright ص ٤٦ — ٤٧

موت نور الدين . كما أنه انتصر على الصليبيين انتصاراً باهراً فى موقعة حطين ؛ واسترد بيت المقدس ، التى كانت مقدسة بالنسبة له كما كانت بالنسبة إلى الصليبيين وأخضع له الأرض المقدسة بأسرها . كذلك حارب طويلا فرسان أربا حيث دام القتال فى عكا حوالى عامين ، وانجلى فى نهاية الأمر عن تلك المعركة مع ريتشارد التى جعلت اسم صلاح الدين يتردد حتى فى أوربا . وبعد الهجوم الأخير على يافا وما تبع ذلك من رد فعل ، أمضيت معاهدة السلم ، وفى شهر مارس التالى من عام ١١٩٣ توفى صلاح الدين الأيوبى ودفن فى دمشق .

لقد انتهت الحرب المقدسة ، وانتهى معها صراع خمس سنوات ، وقبل الانتصار الباهر فى موقعة حطين فى شهر يوليه عام ١١٨٧ ، لم يكن هناك شبر واحد من فلسطين غرب الأردن فى أيدى المسلمين . أما بعد صلح الرملة فى سبتمبر عام ١١٩٢ فقد أصبحت جميع الأراضى ملكاً لهم ، ماعدا جزء ضيق من الساحل مابين مدينتى صور ويافا . وعلى أثر نداء البابا هبت المسيحية بأسرها تذود عن حوضها ، فالامبراطور ، وملوك انجلترا وفرنسا وصقلية ، وليوبولد امبراطور النمسا ، ودوق برجاندى ، وكونت الفلاندرز ، ومئات مشاهير البارونات والفرسان من جميع الأقطار ـ كل هؤلاء انضموا إلى ملك فلسطين وأمرائها وفرسان المعبد والداوية بقصد إنقاذ المدينة المقدسة واسترداد مملكة بيت المقدس التى كانت قد تلاشت . إلا أن الامبراطور توفى ؛ وعاد الملوك من حيث أتوا ، ودفن كثير من أتباعهم فى الأرض المقدسة . وكانت بيت المقدس لا تزال مدينة صلاح الدين الأيوبى ؛ وكان ملكها الإسمى يحكم مملكة صغيرة فى عكا . هذا إلى أن جميع قوى المسيحيين التى تركزت فى الحرب الصليبية الثالثة لم تفت من عضد صلاح الدين . فحينما انتهت حرب السنوات الخمس بما كانت تحويه من محن قاسية ، كان لايزال يحكم حكماً مطلقا من جبال كردستان حتى صحراء ليبيا . وخلف هذه الحدود ، كان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينيا وسلطان قونية وامبراطور القسطنطينية يتوددون إليه ويتطلعون إلى صداقته وتحالفه [١] » .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين الأيوبى لم يقم طويلا فى القاهرة ، إلا أن أحداً ممن سبقوه من الحكام لم يترك فيها مثلما ترك صلاح الدين من آثار . فإليه

---

(١) Stanly Lane—Poole : .Saladin,358—360.

يرجع الفضل فى اتساع العاصمة وشكلها منذ ذلك الوقت حتى عهد قريب ، كما أن القلعة - وهى من أجلى مظاهرها - من عمل صلاح الدين ، وهو الذى أدخل نظام المدرسة فى القاهرة ، كل هذه التغييرات يرجع الفضل فيها إلى قدرته ونشاطه . وحينما غادر القاهرة بعد ثمانية أعوام لم يفتأ يزورها بين الحين والحين ليرسل جنودها إلى حروبه السنوية ، وترك من ورائه بعض الضباط والأقارب لينجزوا ماسبق أن بدأه من أعمال . وكانت هذه الأعمال بعضها دفاعياً والبعض الآخر دينياً . أما الأعمال الدفاعية فكانت تنحصر فى القلعة والسور الجديد والسد العظيم ، وكلها ذات خصائص جديدة لم تكن توجد من قبل . وحتى ذلك الوقت كان حكام مصر المختلفين يقنعون ببناء ضواحى حكومية أو ملكية ، كل منها يبعد نحو ميل إلى الشمال الشرقى . وحتى مدينة الفاطميين « القاهرة » - كما سبق أن رأينا - كانت مقراً رسمياً وقصراً فخماً للخلفاء ، وليست عاصمة لمصر . أما صلاح الدين الأيوبى فقد كان أول من أحكم وضع تصميم جامع لعاصمة عظيمة . فبدلا من أن يحذو حذو من سبقوه من الحكام ويبنى مثلما بنوا من ضواحى جديدة ، عقد العزم على أن يوحد الأحياء المسكونة التى كانت توجد وقتئذ ، ويحيطها بسور واحد عظيم ، ثم يتوج الجميع بقلعة رائعة . وقد صمم كذلك على أن يحيى مدينة مصر التى كانت قد احترقت والتى كانت تناضل فى ذلك الوقت ، لتزيح رمادها وتتنفس الحياة مرة أخرى ؛ وكانت المبانى المبعثرة فوق موقع الأحياء المتهدمة تقترب بعضها من بعض وكذلك عمل على ضم ميناء المقس إلى المدينة بواسطة سور ، على نحو ما كانت عليه بيروس بالنسبة إلى أثينا . وكان ذلك السور العظيم المحيط بالمدينة يصنع من الحجر ويمد فى استحكامات بدر الجمالى الارمينى إلى المقس غرباً ، وإلى جبل المقطم جنوباً ثم يحيط بعد ذلك ببقايا مدينة الخيمة القديمة حتى يحف بالنيل .

إلا أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط . ذلك أن صلاح الدين - واضع المشروع - كان مشغولا فى حروبه فى سوريا . ومن المرجح أن أعوانه فى القاهرة كان لديهم الكفاية على العمل لجمع المال والرجال لمعونته دون أن يشيدوا من المبانى إلا ما كان ضروريا . ومن المحتمل كذلك أن يكون إعادة التفكير فى المشروع قد هدته - أو هدت مبعوثيه - إلى أن فكرة ضم مدينة بالية مثل مصر لم تكن توازى نفقات سور ضخم يبلغ طوله ميلين . إنما الذى تم بناؤه فعلا هو مد سور بدر

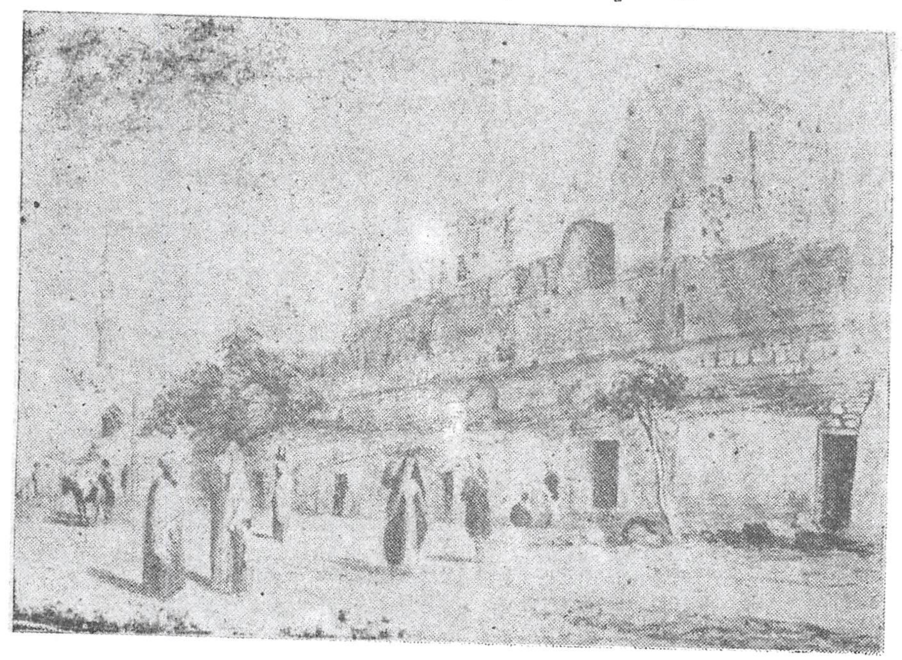
شمالا من نهايته عند الخليج إلى النيل ، حيث أقيم حصن المقس المنيع . أما من جهة الشرق ، فقد مد الحائط القديم جنوبا حتى باب الوزير ، بالقرب من سور القلعة الجديدة . إلا أن موت السلطان أدى إلى وقف العمل قبل أن يتم ضم الأسوار ؛ وحتى الأسوار الجنوبية والغربية لم يكن قد بدأ فى بنائها . ويلاحظ أن جانباً كبيراً من أسوار صلاح الدين لا تزال قائمة حتى الآن . وعلى الرغم من أنها كثيراً ماضاعت بين المنازل ، إلا أنه يمكن تتبعها فيما بين الخليج وباب الحديد (الذى كان يسمى من قبل باب البحر ، جوار حصن المقس الذى لم يعد له وجود) ، حيث يمكن المقارنة بين القلعة القديمة المربعة الشكل فى حائط الفاطميين ، وبين القلعة المستديرة القريبة فى سور صلاح الدين بما فيها من حدبات وأبراج ومنافذ للمراقبة. ونفس هذه الخصائص توجد فوق السور الشرقى الذى يفصل المدينة من قرافة قايتباى ، حتى يظهر طراز حديث عند باب الوزير [1]. وهناك جانب من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية ـ بما فيه من برج الظافر ـ يوجد خارجاً فى الصحراء ويدل على أنه فى تلك البقعة وحدها انكمشت المدينة الجديدة فى داخل حدود القرن الثامن عشر .

والواقع أن الأسوار لم تكن إلا تطوراً لأسوار بدر الجمالى القديمة ، أما القلعة فكانت فكرة جديدة . وقد يكون صلاح الدين استوحى تلك الفكرة إلى حد ما نتيجة كرهه للقصور الخاصة بالخلفاء الشيعيين ، فعلى الرغم من أنه لم يعش ليقيم فى القلعة ـ اللهم فى زيارة قصيرة ـ إلا أنه مامن شك فى أنه عزم على أن يجعل منها مقراً له ؛ ولقد فعل خلفاؤه ذلك . غير أن التفسير الواضح لبناء القلعة هو مارآه صلاح الدين فى سوريا . هناك كانت كل مدينة لها قلعتها ، فكان من الطبيعى إذن أن ينظر صلاح الدين إلى قمة جبل المقطم ، فيدرك لأول وهلة ـ ومن وجهة نظره العسكرية ـ أنها مكان صالح لبناء قلعة . حقيقة أن القلعة ولو أنها كانت تسيطر على القاهرة من علو مائتى وخمسين قدماً ، إلا أن هناك مواضع أخرى فى جبل المقطم تعلو هذه القلعة . ولكن مهما يكن من أمر هذا العيب ، فإنه لم يكن بذى خطر فى وقت كان يستخدم فيه قذف الأحجار كوسيلة من وسائل القتال . ولقد كان موقع القلعة حصيناً ، فيه الكفاية بالنسبة لمهندسى القرن الثامن عشر ،

---

(1) M. Van Berchem : Notes d'Archéologie Arabe (1891), 55,68-70.

ولم يأل هؤلاء جهداً فى جعلها حصينة من أسفل فى حالة إذا ماقامت هناك ثورة فى المدينة . وقد بدأ العمل فى عام ١١٧٦ - ١١٧٧ تحت إشراف الأغا قراقوش - أحد أمراء صلاح الدين المخلصين - الذى اختلط فى أذهان الشرقيين بتلك التسمية المضحكة ، على الرغم مما قام به من خدمات جليلة وأعمال حربية كثيرة . ولم يوضع اسم مؤسس القلعة عليها إلا بعد ست سنوات من ذلك التاريخ ، حيث كان ولايزال يعلو « باب المدرج » فى الجزء الغربى الأصلى من القلعة .



قلعة الكبش

وكانت أهرامات الجيزة تستعمل بمثابة محاجر لجلب الأحجار اللازمة ، كما أن جانبا من البناء قد تم بواسطة الأسرى الفرنجة أو الأوربيين الذين أسروا فى حروب صلاح الدين . ولقد شاهد الرحالة الأندلسى ابن جبير ، العمل يتم على قدم وساق حينما زار القاهرة عام ١١٨٣ . فهو يحدثنا بأن كل العمال الذين استخدموا بالقوة فى بناء القلعة وكذلك المشرفين على عملهم كانوا من الأسرى المسيحيين من الفرنجة وكان عدد هؤلاء من الكثرة بحيث يتعذر حصره ، وبدونهم لم تكن ثمة وسيلة لانجاز ذلك العمل . ذلك أنهم وحدهم هم الذين يحتملون مشقة نشر الرخام ، وتهميق الكتل الحجرية الكبيرة ، وحفر القناية حول سور القلعة ، تلك القناية التى استخدمت فيها المعتل لقطع الحجر الصلب ، والتى ستظل أعجوبة العجائب إلى الأبد

ثم أن هناك فى مكان آخر يوجد أحد الأبنية الأخرى الخاصة بالسلطان والتى يقوم بالعمل فيها الأسرى الفرنجة . ولكن حتى المسلمين ، الذين يخدمون فى مثل هذه الأعمال العامة وغيرها ، يجب أن يقوموا بالعمل بدون مقابل، ذلك أنه ما من أجر يدفع لمن يقوم بالعمل هنا . والواقع أن السخرة لم تكن شيئاً جديداً فى مصر، مهما بدت من الغرابة فى نظر الرحالة الأندلسى .

ولم يكتمل بناء القلعة إلا فى عام ١٢٠٧ — ١٢٠٨ ، حينما كان الكامل ابن أخى صلاح الدين ملكا . ولقد كانت هذه القلعة المقر الرئيسى والحصن المنيع لكل الحكام الذين تعاقبوا حتى عام ١٨٥٠ ، ومن ثم تناولها كثير من السلاطين المماليك بالتغيير والتوسيع ، وأخيراً عدل فيها محمد على باشا حتى لم يعد هناك فيها مسجد أو أى أثر لقصر يرجع تاريخه إلى عصر صلاح الدين الأيوبى . فالجامع القديم بناه الناصر فى عام ١٣١٨ ، وأما المسجد الأكثر وضوحاً ذو المآذن التركية الرقيقة فقد بدأه محمد على باشا فى عام ١٨٢٤ . و « قاعة يوسف » التى يعتقد كثيرون أنها خاصة بصلاح الدين ، لم تكن سوى جانب من أحد قصور المماليك وكذلك الأبراج الداخلية ليست جديدة والباب الذى يفتح إلى الرميلة ، قد بنى فى أواسط القرن الثامن عشر ولكن فى الوقت نفسه لا يزال هناك كثير من بقايا المبانى الأصلية إلى جانب بئر السبع سقايات ، التى يبلغ عمقها مائتين وثمانين قدماً والتى كان حفرها قراقوش. ثم أن هناك جانباً كبيراً من أسوار صلاح الدين لا زالت على حالها، ورغم ذلك يجب معرفة هندسة فن البناء ليتميز هذه الأسوار من تلك التى أضيفت عليها بعد ذلك ، كما أن هناك بعض الممرات الداخلية التى يرجع تاريخها إلى تاريخ وضع الأساس . والواقع أن الاستعمال السائد هناك هو للأبراج الدائرية والبارزة التى تطل على جانب كبير من السور ، وعدم وجود حجرات داخلية أو منافذ فى الأسوار والفتحات المربعة، يضاف إلى جانب ذلك بعض المميزات الخاصة فى البناء . كل هذا يميط لنا اللثام عن البناء الأصلى القديم ، ويجعله أقرب إلى المدرسة الفرنسية السورية Franco-Syrian School منه إلى المدرسة البيزنطية Byzantine School ، فى فن البناء .

وآخر الأعمال الدفاعية هو قناطر الجيزة العظيمة على الشاطىء الغربى للنيل . ويصف لنا ابن جبير هذه القناطر فيقول : إنه كمفخر وكعمل خالد من شأنه أن يخدم حاجة المسلمين ، بدأ السلطان يبنى سدا عظيما ذا قناطر إلى الجهة الغربية من

مصر ، وعلى بعد سبعة أميال منها . وهذه القناطر بمثابة تكملة للسد الذى يبدأ فى مواجهة مصر ويمتد على جانب النيل بحيث يشبه تلا انبسط عن الأرض ، والذى بعد أن تعبره تصل إلى القناطر التى تكمله بعد أن تكون قد قطعت ستة أميال . وهذه القناطر تتكون من أربعين قنطرة من القناطر الكبيرة الحجم التى تستخدم فى الكبارى ، وتمتد اتجاه الدلتا التى تجرى بعد ذلك إلى الأسكندرية . وهى تعتبر عملا عجيبا لا يفكر فيه سوى ملك بعيد النظر ، بحيث يجعل منه تحصينا ضد الهجوم المفاجىء لعدو قادم من حدود الأسكندرية فى وقت الفيضان ، حيث تطغى المياه على الأرض فيصبح الطريق العادى من المتعذر مرور القوات فيه . وهكذا فإن هذه القناطر تكون ممرا يفيد جميع الحاجات المختلفة(١) . والغرض من هذا الدفاع واضح كل الوضوح ، ذلك أن صلاح الدين لم يكن قد نسى تاريخ الغزوات الفاطمية المتعاقبة من جهة ليبيا ، حينما لم يكن هناك ما يمنعهم من التقدم للغزو ، ومن ثم وجدناه يتخذ الحيطة والحذر ويستعد لمثل هذا العدوان . ويذكر لنا ابن جبير أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الـ Almohades الذين ، بعد أن أخضعوا جميع مراكش وجنوب أسبانيا ـ غزوا الجزائر وتونس وطرابلس فى عام ١١٥٨ ، حتى أصبحت التخوم التى وصل إليها قائدهم المنتصر عبد المؤمن ، تحف بحدود مصر الغربية . والواقع أن صلاح الدين أحسن باتخاذه الحيطة ، على الرغم من أنه لم يحدث ثمة غزو يهدده .

هذه الأعمال الدفاعية ضد الأعداء الخارجين كان يصحبها فى الوقت نفسه اجراءات خاصة بأعمال أخرى تختص بالنظام الداخلى . ويجب ألا نفرض أن النظام الجديد قد لاقى شيئا من الصعوبة اعترضت سبيله . وعلى الرغم من أن الناس كانوا على وجه العموم راضين عن حاكم مثل صلاح الدين الأيوبى أظهر كثيرا من الشهامة والكرم ، ولو أنه لم يكن من السهل قهره . إلا أن تقاليد قرنين من الزمن لم يكن من السهل القضاء عليها فى يوم وليلة . فقد كان أنصار الدولة الفاطمية متعددين وذوى نشاط موفور . وقبل موت الخليفة الفاطمى العاضد ، حدثت هناك ثورة مروعة قامت بها القوات السود ، وأذكى نارها الخليفة نفسه ، ولم يكن من السهل على صلاح الدين أن يخمدها . وفى النهاية طرد السودانيون إلى الخليج وبدأ

(١) ابن جبير ــ طبعة Wright ص ٤٩ . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٥١ :

الذبح فيهم واستمر لمدة يومين . وكذلك حرق ذلك الجزء المسمى المنصورية — خارج باب زويلة — الذى كانوا يقيمون فيه ثكناتهم ، وتحول إلى حدائق ، بحيث أن صلاح الدين (بعد بضعة سنوات) حينما كان يركب من القصر إلى القلعة الجديدة كان يمر من بين الأشجار والزهور . وحينما كان يقف بجامع ابن طولون ، كان يستطيع أن يرى باب زويلة دون أية أبنية أخرى . وأعقب ذلك عدة مؤامرات أذكى نارها الفرنجة الذين هددوا الإسكندرية ، ومن ثم كان لابد من اتخاذ اجراءات شديدة قبل أن يشعر السلطان الجديد بأن سلطته فى أمان . وطالما كانت هناك جبهة قوية تعطف على أسرى الدولة التى تم سقوطها ، كان هناك خطر على الدوام .

ونستطيع أن تدرك مدى تحمس الشيعة وقتئذ من خلال المشهد الذى يصفه لنا الرحالة الأندلسى فى الضريح الذى حفظ فيه رأس الشهيد حسين ، المسجد الذى يتاخم قصر الفاطميين العظيم . فالرأس محفوظة فى صندوق من الفضة مدفون تحت الأرض ، شيد فوقه بناء ضخم يعجز عن تصويره كل وصف . فجدرانه موشاة بالديباج من مختلف الألوان ، كما يحيط به ما هو أشبه بأعمدة ضخمة بها مصابيح بيضاء ، ولو أن بعضها صغير الحجم ؛ وأغلبها بها شمعدنات من الفضة الخالصة أو مطلاة بالفضة . وإلى أعلى توجد مصابيح فضية مدلاة ، وجميع الجزء الذى فوق ذلك به مصابيح ذهبية مرتبة بشكل يشبه الروضة — الضريح الذى دفن فيه النبى فى المدينة . والواقع أن الجمال والبهاء هناك ، مما يبهر الأنظار ؛ ذلك أنه يوجد هناك مختلف أنواع الرخام الملون على الطراز الموازيك mosaic الذى يفوق كل وصف ؛ كما أن كل من يحاول وصفه سوف يبوء بالفشل . والداخل إلى ذلك الضريح يمر من خلال مسجد لا يقل عنه روعة وجمالا ؛ ذلك أن جميع جدرانه كانت موشاة بالرخام على النحو الذى تقدم . وإلى يمين الضريح (حيث توجد الرأس) وإلى يساره توجد حجرتان إذ تدخلهما تجد أنه ينطبق عليهما كل تفاصيل الوصف المتقدم . هنالك توجد ستائر موشاة على جميع الجوانب . غير أن أغرب الأشياء التى شاهدناها هناك كانت توجد عند مدخل الجامع ، ذلك أنه يوجد هناك حجر فى الحائط الذى يواجه الداخل إلى المسجد . وهذا الحجر من السواد والطلاوة بحيث تنعكس عليه صورة الداخل بأكملها كما لو كانت تبدو على صقال مرآة من الصلب الهندى صقلت حديثاً . ولقد رأينا الناس يقبلون هذا الضريح

المقدس (حيث يوجد رأس الحسين) ويضمونه بأذرعهم ويخرون ساجدين أمامه ، ثم يضعون أيديهم فوق البساط الذى يغطى الضريح وهم يتزاحمون فوق بعضهم البعض ، ويلتفون حول البناء ، ويصلون ، ويبكون ، ويتضرعون إلى الله ، الذى له الحمد والشكر ، أن يبارك فى ذلك الضريح المقدس ، ويذلون أنفسهم أمامه بطريقة تشيع فى النفس الأسى وتتملك شعور المتفرج ؛ وهذا أمر غريب ، ومشهد يبعث الفزع . ألا فليهيأ لنا الله فرصة الاستفادة من البركات التى خصصت لذلك الضريح المقدس (١).

ومثل هذه المظاهر التى يكتنفها الفرح والسرور يدلنا على أنه بعد اثنتى عشرة سنة بعد عزل آخر الخلفاء الفاطميين وموته ، كان التعصب الشيعى لا يزال قويا فى القاهرة . ولقد كانت سياسة صلاح الدين الأيوبى فى معاملته إزاء هذا المذهب ، تصطبغ بصبغة خاصة . فعلى الرغم من طبيعته السمحة الكريمة ، كانت له القدرة على الاضطهاد الشديد ، وذلك من أجل التقوى ومحافظة على البر والصلاح . فالمسلم الصحيح ـ من معتنق المذهب القديم ـ الذى تأثر إلى حد بعيد بالآراء القويمة فى الدين التى كان يتناقش فيها مع رجال الدين المتعصبين ، لم يكن ليتساهل مع الهراطقة والكفار . كما أن اضطهاد الأقباط المعيب وتخريب كنائسهم عند قيامهم بحركة الإصلاح الدينى ، يدلنا فى جلاء على أن عظمة صلاح الدين الأيوبى لم تمتد إلى مسائل الدين . غير أنه فى حالة الشيعة ، وجد نفسه إزاء حركة أقوى وأخطر ، كان قد تم لها السيادة منذ قرنين من الزمن ، وهو لم يقابلها بالاضطهاد الصريح ، بل بدعاية مقابلة . ومن ثم كان ينبغى على الناس جميعاً فى القاهرة أن يتعلموا الدين الصحيح ، وحينئذ لايكون ثمة خوف من الهرطقة . وعند ارتقائه الحكم ، لم يكن يوجد فى مصر معهد واحد لتعليم الدين الصحيح . وهكذا عمل صلاح الدين فى الحال على سد هذا النقص ، وبدأ يبنى تلك « المدارس » ـ أو المعاهد الدينية ـ التى أصبحت بعد ذلك الحين أهم ماتصطبغ به القاهرة فى مضمار البناء .

ففى عام ١١٧٦ بنى أول « مدرسة » وجدت فى مصر . وكانت هذه المدرسة تجاور ضريح الامام الشافعى الذى أسس مدرسة المذهب القديم الذى انتمى إليه معظم المسلمين من المصريين . وقد يكون الضريح لايزال يزوره الكثيرون فى وسط

(١) ابن جبير ـ طبعه Wright, ص ٤١ ـ ٤٢ .

القبور جنوب القاهرة ؛ إلا أن المدرسة نفسها قد اختفت منذ أمد بعيد . ويصف لنا ابن جبير هذا الضريح فى عام ١١٨٣ بأنه معبد فخم عظيم السعة ، متين البناء ، يقع فى مواجهة المدرسة . وقد بلغ من كبره وكثرة إحاطة المبانى به أن أصبح يشبه أكناف مدينة بأسرها ، وبحذائه يوجد الحمام ، وجميع المكاتب الأخرى اللازمة ، والبناء وملحقاته لا يزال يجرى فيها العمل بنفقات طائلة . ويشرف على ذلك الشيخ نجم الدين الخبشانى بنفسه بوصفه إمام المسجد ومن الرجال المثقفين الأتقياء . وقد عمل السلطان صلاح الدين الأيوبى على تزويد البناء بكل ما يحتاج إليه فى كرم وسخاء ، وأمر بالاعتناء بالمبانى وتجميلها . وبأن تدون له جميع النفقات.. ولقد قابلنا الخبشانى هذا وكسبنا نعمة صلاته ووصلت شهرته إلينا حتى فى الأندلس ولقد زرناه فى مسجده وفى مسكنه الخاص داخل المنطقة ، وكان منزلا صغيرا له فناء ضيق ، وهنا صلى من أجلنا حينما غادرنا المكان . والواقع أننا لم نجد له مثيلا فى مصر بأسرها (١) .

---

(١) ابن جبير — طبعة Wright ص ٤٤ — ٤٥ . هـذا الرحالة القدير الذى ندين له بالكثير من الوصف الخاص بعصر صلاح الدين الأيوبى ، يعطينا وصفاً دقيقاً للقرافة الكبيرة الموجودة جنوب القاهرة ، والتى تعتبر إحدى الأماكن القليلة التى تعود بنا الى أيام الفتح العربى فهناك ترقد عظام معظم المحاربين الأولين والشعراء ورجال الدين الذين كانوا ينتموا إلى مدينة الخيمة (الفسطاط) ، على الرغم من أنه لاتميز قبورهم الآن غير الرواية وحدها . ومن الواضح أن التميز فى أيام ابن جبير كان يكتنفه الشك، ذلك أنه يرفض أن يتحمل صحة مسئولية ما نقله عن المؤرخين ، على الرغم من أنه يصرح لنا بأن صحة رواياتهم أبعد من أن يتسرب إليها الشك . ونحن إزاء تلك الروايات عن المقابر مثل ضريح النبى صالح وضريح روبن بن يعقوب وضريح آسيا زوجة فرعون ؛ نجد وصفاً لمدافن أربع عشرة من خلفاء على بن ابى طالب من الرجال ، وخمسة من النساء ، وكل ضريح منها له حارس خاص به ووقف للانفاق عليه ، ومن بين تلك الأضرحة ضريح زين العابدين — ابن الشهيد حسين — وزينب حفيدته ، وأم كلثوم بنت الإمام السادس جعفر الصادق . كذلك كانت توجد أضرحة عقبة (حامل علم النبى) ، وأبو الحسن (صفيه الخاص) ، وسارية الجبل (الذى احتفل باسمه باقامة مسجد له فى القلعة ، على الرغم من أنه لايوجد هناك مايربطه بمصر) وولدى الخليفة أبو بكر الصديق وبنته ، وابن الزبير القائد أيام عمرو بن العاص ، وابن عبد الحكم ، والجوهرى ، هذا إلى جانب بعض الشواذ مثل الرجل الذى اشتهر بالأعاجيب حيث كان يذكر آيات القرآن وهو فى قبره ، الذى ظل أربعين عاماً لايتنبس ببنت شفة ، والعروس التى ظهرت لها أعجوبة حينما رفعت الحجاب عن نفسها لزوجها . كذلك كان يوجد مكان الشهداء حيث كان يدفن المحاربون الذين سقطوا شهداء وهم يحاربون من أجل الإسلام بقيادة «سارية» وكان السهل مغطى فى كل مكان بربى قبورهم . وجميع مبانى القرافة ، سواء مساجد أو أضرحة ، تحتضن الغرباء من الأتقياء والمثقفين والمستعطين على السواء=

وإلى جانب المدرسة الشافعية ، بنى صلاح الدين مدرسة قريبة من حصن العدو ، ضريح الحسين ، وحوّل قصر المأمون القديم إلى مدرسة سيف الدين لأصحاب المذهب الحنفى ، وبنى مدرسة أخرى للشافعيين ، وخامسة للملكانيين فى مصر . ونحن إذ نسجل أعمال صلاح الدين الخيرية يجب ألا يغرب عن بالنا مابناه من مستشفيات . فكل منا يعرف المارستان أو مستشفى السلطان قلاوون المملوكى فى سوق النحاسين ، غير أنه ليس من المعروف دائما أن هذا البناء الانسانى كان قد فكر فيه صلاح الدين من قبل . وهنا يقول لنا ابن جبير :

ومن بين المنشآت الشهيرة التى شاهدناها لهذا السلطان ، المارستان (أو المستشفى) الذى يوجد فى مدينة القاهرة . وهو واحد من القصور العظيمة هناك ؛ فهو فسيح وفخم . والشيء الوحيد الذى دفع السلطان إلى بناء هذا المستشفى الخيرى ، أمله فى أن يكتسب نعمة الله ، والثواب فى العالم الآخر . ولقد عين له مديراً ، وهو رجل ذو علم موفور ، وضع تحت تصرفه كمية كبيرة من العقاقير ، ومنح سلطة مزج هذه العقاقير بعضها ببعض وفقاً للوصفات الطبية ، ووصفها ، وتوضيح استعمالها . وفى حجرات هذا القصر كانت توجد مضاجع يستعملها جماعة المرضى كأسرة ، وكل من هذه المضاجع كان مزوداً بملابس للنوم . وكان لدى المدير خدم يأتمرون بأمره ، من واجبهم أن يستفسروا عن صحة المرضى كل صباح ومساء ، وكان الطعام والدواء يعطى إلى المرضى بالنسبة إلى مراكزهم . وبإزاء هذا المارستان يوجد مستشفى آخر منفصل عنه ، ومخصص لمرضى النساء ، وكان لأولئك أيضاً من يرعاهن ، وفى ملاصقة هذين المستشفيين يوجد بناء آخر له فناء فسيح ، وتوجد به حجرات ذات قضبان حديدية تستخدم لإقامة المجانين ، وكذلك لفحص من يأتون لزيارتها كل يوم وتزويدهم بما يؤدى إلى تحسين حالتهم . ويفتش السلطان بنفسه على حالة هذه الأبنية المختلفة ، يحقق فى كل شيء ، ويسأل عن كل شيء ، ويتأكد من أن العمل يسير على مايرام ، مهما كلفه هذا من جهد وعناء . كما أنه يوجد فى مصر أيضاً مستشفى آخر على نفس نمط المستشفى الذى تقدم وصفه .

= ذلك أن كل بناء له رصيد خاص يدفع نصفه لمساعدة السلطان ، والنصف الآخر لمدارس القاهرة ومصر . ولقد قيل لنا إن مجموع تلك المنح كان يربو على ألفى دينار مصرياً كل شهر ، أى مايعادل أربعة آلاف دينار مراكشى . أما فيما يتعلق بجامع عمرو بن العاص العظيم فى مصر ، فقد قيل لنا إن نفقاته كانت تربو على ثلاثين ديناراً مصرياً كل يوم للحراس والمقرئين وغيرهم .

وبين مصر والقاهرة ، يوجد ذلك الجامع العظيم المسمى باسم منشئة أحمد بن طولون ، والذى يعتبر أحد المساجد القديمة التى تقام فيها صلاة الجمعة . وهو رائع البناء ، عظيم الاتساع ، جعل منه السلطان فى الوقت الحاضر مأوى للغرباء من البلاد الغربية ، حيث يمكنهم أن يقيموا ويعقدوا اجتماعاتهم ؛ كما أن السلطان قرر إعانات شهرية لهم . ومن أغرب المسائل التى وصلت إلى أسماعنا مارواه لنا أحد العارفين بالأمور من أن السلطان يسمح للغرباء بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم تماما ولا يفرض عليهم سلطته ؛ ذلك أنهم ينتخبون من بينهم حاكما لهم يصدعون بأمره ويرضون بحكمه فى كل مايتعلق بأمورهم . فهم قوم يبحثون عن العيش فى كنف الصلاح والسلام ، ولا ينشغلون إلا فى عبادة الله . وهكذا ـ وعن طريق حظوتهم لدى السلطان ـ يكتسبون نعمة توصلهم إلى الصراط المستقيم . والواقع أنه لا يوجد جامع كبير أو صغير أو أى ضريح من الأضرحة المقامة فوق قبور الأولياء ، وكذلك لا يوجد معهد أو مدرسة : إلا ونجده موضع رعاية السلطان . كما أن أموال الخزينة العامة تنفق بإسراف على كل من يتردد على هذه الأماكن أو يقطن فيها بحكم الضرورة ، وذلك سداً لحاجة المحتاجين .

وذلك البناء الذى أدخله صلاح الدين والذى يسمى « المدرسة » يعتبر فتحاً جديداً فى عالم البناء فى القاهرة ، فحتى ذلك الوقت كانت المساجد ذات شكل واحد فحسب ، هو شكل الجامع (وسمى كذلك لأنه كان يجمع الناس فى الاجتماعات العامة) حيث كانت تؤدى فيه صلاة الجمعة . وكان ذلك الجامع من الاتساع بحيث يسع جمع غفير من الناس ، فكان « الإيوان » يوجد فى الطرف الشرقى ، ليستطيع لفيف كبير من المصلين أن يسجد هناك ومن فوقه مايغطيه . أما إذا وجدت أعداد وفيرة ـ كما كان يحدث فى بعض الأعياد والاحتفالات ـ فإن الفناء المكشوف العظيم كان يمكن عدد كبير من الناس أن يولى وجهه شطر القبلة . وأما الأروقة التى تحيط بالفناء ، فكان يستخدمها الأساتذة بمثابة فصول للدراسة ، وكمأوى للفقراء والمتسولين . غير أن هذه الأروقة ليست جزءاً أساسياً فى الجامع الذى كان الغرض منه ـ كما سبق أن رأينا من مدلول اسمه ـ عقد الاجتماعات للصلاة فحسب . وعند ما زار ابن جبير القاهرة لم تكن فيها سوى أربعة جوامع من هذا القبيل ، وهى الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون ، وجامع عمرو بن العاص . أما المساجد القليلة الأخرى التى كانت توجد فى ذلك الوقت ـ مثل مسجد الأقمر ومسجد الصالح طلائع

واثنين أو ثلاثة غيرهما ، فقد لحقها الخراب ، ومع أنها كانت فى شكل الجامع وكانت تستخدم فى وقت من الأوقات للصلاة الجامعة ، إلا أن استخدامها قد بطل منذ وفاة مؤسسيها أو لأى سبب آخر ، ومن ثم لم تصبح فى عداد المساجد العصرية وقتئذ . ولقد كانت تبنى هناك جوامع جديدة على الدوام من آن إلى آخر ، كما سنرى فى الفصل القادم . وكانت ولاتزال تعتبر على الدوام أهم المساجد فى القاهرة ؛ إلا أنها على أى حال لم تكن النوع الوحيد من المساجد .

وكلمة « مسجد » نفسها تأتى فى أصلها من الكلمة الإيطالية القديمة meschita (وبالأسبانية mesquita) التى تطورت فيما بعد فأصبحت moschea ، ومعناها «مكان للعبادة» ، ولكنها لاتدل على معنى الاجتماع . وكانت المساجد التى تعرف «بالجوامع» قليلة العدد نسبياً ، وكانت تلك التى تحمل هذا الاسم منها صغيرة الحجم تستخدم على وجه الخصوص للصلاة الخاصة (١). وهناك اسم آخر يستخدم كثيراً وهو «زاوية» ومعناها الصحيح هو مدلول نفس هذه الكلمة ، أى زاوية . غير أننا لانلمس فرقاً كبيراً عند استخدام كلمة «زاوية» للمسجد ، اللهم إذا كانت الزاوية التى تستخدم كاستراحة أو كمكان لاجتماع الطلاب أو المتعبدين ، تدل على فرق بين الاثنين. والواقع أن المسجد والزاوية هى أبنية لا تتميز بشىء خاص نسبيا ، ونحن نشك كثيراً فيما إذا كان أى زائر عادى إلى القاهرة قد لاحظ شيئاً خاصاً فى أى منهما ، اللهم كشىء يزين الزقاق الذى توجد فيه .

والواقع أن الأبنية التى تعرف والتى تسمى بالمساجد تعتبر « مدارس » بالمعنى الصحيح . وهى تشمل أحسن ما فى المدينة من أبنية مشهورة ، مثل مساجد السلطان حسن ، وبرقوق ، وابن مظهر ، والناصر ، وقلاوون ، وما إلى ذلك ، وهى تختلف تماماً عن الجوامع ، سواء فى الشكل أو فى الغرض الذى أنشئت من أجله . ذلك

(١) يصف لنا المقريزى تسعة عشر مسجداً فقط (بخلاف مايوجد فى القرافة ») ، إلى جانب ٨٧ جامعاً . ويبدو أن المساجد التسعة عشر لم يكن لها شأن كبير : وهى مما بناه الفاطميون أو الأيوبيون ، وتوجد خارج أبواب زويلة والنصر والقنطرة والسعادة ، أو فى حديقة كافور ولو أنه كان يوجد ثلاثة منها فيما بين القصرين أو بالقرب منها إلا أن هذه المساجد لايوجد لها أثر الآن ؛ فقد اختفت جميعاً . ويذكر لنا المقريزى كذلك خمسة وعشرين « زاوية » .وكلها ــ ماعدا واحدة من بناء المماليك . وكان سبعة منها خارج باب النصر أو باب الفتوح ؛ وأربعة خارج أبواب أخرى مختلفة ؛ وخمسة عند المقس أو بالقرب منها . وعلى الجملة فانه يبدو لنا أن كلمه « مسجد » كانت تطلق أيام المقريزى على أماكن العبادة القديمة الواقعة فى الضواحى بينما « الزاوية » كانت تطلق على تلك الواقعة فى الجهات البعيدة والخاصة بفترة المماليك .

أنها لم تستخدم لإقامة صلاة الجمعة فحسب ، بل كانت تبنى لغرض التثقيف الدينى خاصة وكان هذا الغرض بطبيعة الحال له تأثير فى تصميم شكل المسجد . فبدلا من إقامة فناء فسيح مكشوف ، يستطيع أن يتجمع فيه جمهور كبير من المصلين فى أيام الجمعة ، كان يوجد مربع فى الوسط . وكان هذا المربع فى معظم الحالات يغطى بسقف مكون من ألواح مطلية ، وربما كانت توجد هناك قبة صغيرة أو كوة فى الوسط . أما الأجناب ، فبدلا من أن تكون محاطة بأروقة طويلة ، كانت تتكون من أربعة أجنحة كل منها له قنطرة مرتفعة خاصة . والجناح الذى تجاه الشرق ـ الذى يكون الإيوان ـ أعمق من الأجنحة الثلاثة الباقية ، وبه محراب ومنبر وغير ذلك من مستلزمات الصلاة حيث كانت الصلاة تقام هناك ، وكل واحد من الأجنحة الأربعة كان فى الأصل مخصصاً ـ أو على استعداد لأن يخصص ـ لواحدة من المدارس الأربعة القديمة ، أصحاب المذهب الشافعى والمذهب المالكى والمذهب الحنفى والمذهب الحنبلى وفى كل منها كنا نجد لفيفاً من الطلاب يتلقون تعليمهم على أيدى أستاذهم وفى أغلب الأحيان كان يوجد للطلاب والأساتذة مسكن خاص فى المدرسة كما كان يوجد هناك قاعات للدرس ومكاتب ومعامل وغير ذلك من الأبنية الملحقة فى الأماكن الواقعة بين الداخل الذى على شكل صليب ، والخارج الذى على شكل مربع .

تلك إذن كانت خطة صلاح الدين فى مقاومة الهرطقة ، وهى بناء عدد من المدارس لتلقين الدين الصحيح ، وبطبيعة الحال كانت الدولة تنفق على تلك المدارس. ولم تكن تلك الفكرة خاصة ؛ إنما استمدها من سوريا ، حيث كان يحرص نور الدين على بناء مثل تلك المدارس للحنفيين فى دمشق وغيرها من المدن . وحتى نور الدين نفسه لم يفعل أكثر من أن حذا حذو السلطان ملكشاه السلجوقى العظيم ، الذى كان وزيره ، نظام الملك المشهور وصديق عمر الخيام ، قد بنى المدرسة النظامية فى بغداد . ومهما يكن من أمر إدخال المدارس فى مصر ، فإنه كان بمثابة انقلاب فى الثقافة والبناء على السواء . فقد زالت وصمة الهرطقة من جبين مصر ، كما أخذت الثقافات المختلفة تتدفق إلى القاهرة مرة أخرى من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وذلك بفضل تلك المعاهد التى بنيت فيها . وكانت السلطة العليا فى مصر أثناء غياب صلاح الدين الطويل فى أيدى أخيه أو ابنه ، اللذين كانا يعملان بنصائح

القاضي الفاضل ، وهو عربي من أسكالون ، ورجل عاقل ذو ثقافة واسعة ، يتكلم دائماً بما ينم عن حكمة وعقل ، وبفضل تأثيره بدأ الطلاب الأجانب مرة أخرى يفدون على مساجد القاهرة . وبذلك ازدهر الإسلام فى مصر . فقد كان الأساتذة من أقصى مدن بلاد فارس ، يقابلون رجال قرطبة المثقفين . فى عام ١١٧٦ على سبيل المثال ، وصل هناك رجل أجنبي من أقاصى استراليا ، وقد استهوته فى الشرق حركة إحياء العلوم والثقافة . ذلك هو ابن فرو . Ibn Firro الذى كتب قصيدة رائعة مكونة من ١١٧٣ بيتاً وموضوعها الدروس المختلفة الموجودة فى القرآن . وحسب ذلك الرحل علماً وثقافة أنه تمكن من وضع هذه المعجزة الثقافية . ومع ذلك ، فإنه حينما جاء موعد القائها بين الجمهور المحتشد من المستمعين ، لم تكن هناك كلمة واحدة زائدة لا تدل على معنى من المعانى . ومن ثم لم يكن من العجيب أن يسكنه القاضى الفاضل - رئيس القضاة وحاكم مصر فى ظل صلاح الدين ، فى منزله الخاص ويواريه التراب بعد موته فى مقبرته . والواقع أن وجود مثل أولئك الفلاسفة كان من شأنه أن يخفف مما كان به الرؤساء من نهب وسلب . فقد كان كبار الرجال العسكريين فى ذلك الوقت يحبون مجالسة ذوى الثقافة والفكر . وكان نور الدين يميل إلى مجالس المثقفين ؛ فكان الشعراء والأدباء يجتمعون فى قصره كما أن صلاح الدين كان له شغف خاص فى مناقشة رجال الدين والفقهاء [١] . ويقول لنا عبد اللطيف — طبيب بغداد — إنه وجده أميراً عظيما يوحى مظهره لأول وهلة بالاحترام والحب . كما كان سهل المقابلة ، واسع الأفق ، لطيفاً ، حسن التفكير . كذلك يذكر لنا أنه وجده محاطاً بلفيف من رجال الفكر يتناقشون فى شتى العلوم ، وكان هو ينصت إليهم فى اهتمام ويتجاذب معهم أطراف الحديث . ويكفى صلاح الدين شهرة وإسماً أنه أدخل نظام المساجد المدرسية فى القاهرة . حقيقة قد يكون التعليم فى تلك المدارس فى ذلك الوقت على نطاق ضيق ، إلا أنه على أى حال كان النظام السائد فى العالم الإسلامى بأسره ، ومن ثم كان تطبيقه القاهرة مما جعلها فى مصاف المراكز الإسلامية الشهيرة .

---

(١) Lane-Poole : Saladin, 20.

الباب السابع

بناة القبـــاب

العادل سيف الدين ـ المجاعة العظمى ـ غزو الصليبيين ـ فردريك الثاني والكامل ـ نظام المماليك ـ شجرة الدر والمماليك البحرية ـ حملة لويس التاسع ـ المماليك الأتراك ـ حروبهم ضد المغول ـ حروبهم ضد الفرنجة ـ إحياء الخلافة العباسية ـ بيبرس ـ قصر المماليك ـ طيش الأمراء ـ بيت قلاوون ـ الناصر ـ التسامح الدينى بالنسبة للمسيحيين ـ التعصب المحبوب ـ الفتن ـ الناصر وأبو الفداء ـ الإنتاج الفنى ـ مساجد الأمراء ـ أسلوب المماليك الأول فى البناء ـ السلطان حسن ـ مسجد السلطان حسن ـ المماليك الشراكسة ـ الفساد ـ الحروب ـ الذوق الراقى ـ فن البناء ـ قايتباى ـ مبانى قايتباى ـ المساجد داخل الجدران ـ الوكالة ـ مساجد الأمراء والقاضى ابن مظهر ـ المدرسة الجديدة ـ مبانى الغورى ـ الفتح العثمانى .

أولا ـ المماليك البحرية

لقد استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يرفع القاهرة مرة أخرى إلى مرتبة العواصم العالمية الشهيرة وذلك بفضل تحصيناته لها من هجمات العدو ، وما شيده فيها من أماكن لنشر الدين والعلم ، حتى أصبحت حلقة ذات قيمة فى سلسلة الثقافة الإسلامية العظيمة . وليس ثمة ريب فى أنه أضاف كثيراً إلى أعباء حكام مصر المقبلين ومسئولياتهم ، حيث وجدوا أنفسهم أمام مشاكل ونضال وحرب مع حكام مدن سوريا ممن لم يكن لهم شأن كبير ، أقرباء صلاح الدين ، وكذلك مع فرنجة ساحل فلسطين الذين لم يكن قد فارقهم بعد حلمهم العزيز ، والذين كان يدور بخلدهم وقتئذ أن الطريق الذى يؤدى إلى المدينة المقدسة ـ ولو أنه كان يبدو ملتوياً ـ كان يخترق مصر . ونحن لا يعنينا عند التحدث عن تاريخ القاهرة أن نسرد قصة الحروب التى شنها العادل سيف الدين ، أخو صلاح الدين وصديق الملك ريتشارد الذى قلد أحد أبناء سيف الدين الفروسية المسيحية ، كما أن Humphrey of Toron كان قد قلده لصلاح الدين نفسه . والواقع أن العادل بعد أن حكم امبراطورية أخيه فى عام ١٢٠٠ ، أثبت بحق أن فقدان البطل لم يذهب إلى غير رجعة . فلقد خدم صلاح الدين بإخلاص كساعده الأيمن لمدة ربع قرن من الزمن . ولمدة ربع

قرن آخر وجدناه يقبض على زمام الامبراطورية التى لم يأل أقاربه جهداً فى العمل على تشتيتها وتقسيمها . ولقد استخدم الفطنة فى إبقاء علاقته مع الفرنجة وذلك بتنازله عن اثنين من الموانى فى فلسطين . وكل عداء حدث على الرغم من هذا التساهل ، لم يقلل من منزلته العالية مثقال ذرة . ولقد وصفه أحد معارفه بأنه رجل كثير الخبرة ، واسع المعرفة ، بعيد النظر ، قوى البنية ، عالى النفس ، فى وسعه أن يأكل حملا بأكمله فى وجبة واحدة . ويذكر لنا أحد الشعراء العرب المعاصرين نشاطه وسيطرته على جميع أنحاء مستعمراته الواسعة .

ومهما يكن من أمر تيقظه ، فإنه لم يستطع أن يدرأ عن البلاد تلك الكارثة التى طالما هددت مصر فى العصر الوسيط ـ ألا وهو نقص الفيضان وما كان يصحبه من وباء وفساد ومجاعة . ولقد حدث ذلك فى عام ١٢٠١ ثم تكرر حدوثه فى عام ١٢٠٢ ، وكانت النتائج التى تمخض عنها وخيمة إلى حد بعيد . ولدينا رواية شاهد عيان تنطوى على صورة صادقة لما كان فى ذلك العهد من رعب وفزع .

دون عبد اللطيف ـ طبيب بغداد الذى عاش فى القاهرة لمدة عشر سنوات (١١٩٤ - ١٢٠٤) ، واستمع إلى محاضرات الأساتذة فى جامع الأزهر ـ ماصحب المجاعة من أحداث مروعة . فلقد بلغ من عظم النكبة أن كان السكان يرحلون جماعات عن الأحياء والقرى التى أصبحت خاوية منهم ، أما أولئك الذين بقوا حيث كانوا ، فقد كانت تواجههم أخطار لاطاقة لهم بها . وكان من المألوف أن يأكل الناس اللحوم البشرية ، وحتى الآباء كانوا يذبحون أبناءهم ويطهونهم ، ولقد وجدت امرأة وهى تأكل لحم زوجها نيئاً . وكان الرجال يكمنون للنساء فى الشوارع ليستولوا على أطفالهن ، بل إن الناس كانوا ينبشون القبور بحثاً وراء الطعام . وكان كل هذا يحدث فى مصر من أقصـــاها إلى أقصاها ، فقد أصبحت الطرقات مكدسة بالموتى ، وساد القتل والسرقة دون حساب ، وسارت النساء فى طريق الغواية والضلال وراء الأشرار الذين عمل اليأس والفوضى على فسادهم . وكانت الفتيات الأحرار يبعن بما يوازى خمسة شلنات للواحدة ، كما أن كثيراً من النساء جئن يتوسلن لكى تباع الواحدة منهن مع العبيد حتى لا تهلك جوعاً . وكان الثور يباع بسبعين ديناراً والمد[1] من القمح بأكثر من عشرة شلنات . وكانت

(١) المد : مكيال يسع ٢٥ أقة .

الجثث تبقى غير مدفونة فى الشوارع والمنازل ، مما أدى إلى انتشار طاعون مخيف فى أنحاء الدلتا . وفى البرية وفى الطرق الزراعية ، كانت العقبان والضباع وبنات آوى تتعقب طريق الموت . وكان الرجال يخرون صرعى بجوار المحراث بفعل الوباء . ولقد حدث فى يوم واحد فى الإسكندرية أن أدى أحد الأئمة صلاة الموت لأكثر من سبعمائة شخص ؛ كما أنه حدث فى شهر واحد أن جاءت إحدى الثروات لأربعين وريثاً على التوالى . ولقد نقصت قيمة الأملاك إلى حد عجيب ، ونظراً لتناقص عدد السكان ، انخفضت إيجارات المنازل فى القاهرة إلى سبع ما كانت عليه . وكانت أثاثات القصور وتحفه تكسر لتوقد بها الأفران . هذا إلى أن الزلازل العنيفة التى كانت تهدد سوريا وشمالا حتى أرمينيا ، أخذت تهدم عدداً لاحصر له من المنازل ، وتخرب مدناً بأسرها ، فتزيد بذلك من هول البلاء .

ثم أن غزو جان دى برين الذى استولى على دمياط ، جعل مصر فى قلق وجزع مدة ثلاثة أعوام (١٢١٨ - ١٢٢١) . غير أن العادل - الذى توفى فى أوائل ذلك الضيق - خلف من بعده ابناً كفئاً ، هو الكامل . فلقد رحل الصليبيون يجرون أذيال العار ، وعند ما أتى الإمبراطور فردريك الثانى بنفسه حاملا الصليب إلى فلسطين ، لم يكتف السلطان العاقل بأن سمح للامبراطور بتتويج نفسه فى بيت المقدس دون أى نضال ، بل عقد محالفة دفاعية مع فردريك ضد الفرنجة فى سوريا (١٢٢٩) . ولقد سلمت المدينة المقدسة والطريق المؤدى إليها إلى المسيحيين ؛ غير أن المسلمين احتفظوا بجامع عمرو المقدس وما يحيط به ؛ وهو كل ما كانوا يهتمون به . وقد كانت المعاهدة المتقدمة الذكر هى أغرب ما تم بين قوتين مسيحية وإسلامية . غير أنه يجب ألا يغرب عن بالنا فى الوقت نفسه أن البابا أطلق على فردريك بأنه من أتباع محمد ، وأن مراسلات الإمبراطور مع الفيلسوف العربى ابن سبعين والمناقشات الميتافيزيقية التى تمت بينه وبين سفراء الكامل - كلها تدل على وجهات نظر متسامحة ، جلبت خطراً داهما للقوم الوجلين المتزعزعين . وكان الكتاب العرب يعجبون كثيرا بفردريك ويشيدون به ؛ أما الكامل فقد أثبت بحق أنه واسع العقل ، إذ رحب برسول الإمبراطور - الأسقف برنارد - فى القاهرة ، وأطلق سراح المسجونين الذين أسروا فى « حملة الأطفال الصليبية » ، وبذلك سار وفقا للمعاهدة . وليس من العجيب بعد ذلك أن ينظر إليه أفاضل القوم من المسلمين ، نظرة أسقف روما

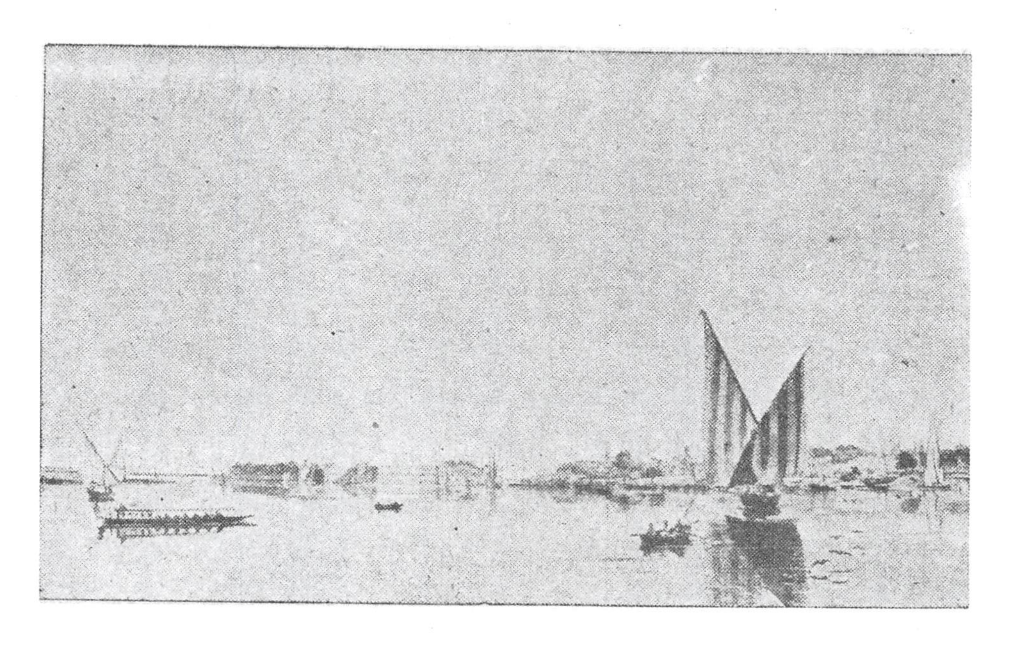
الإمبراطور . ومهما يكن من شيء ، فإنهم كانوا مخطئين ، ذلك أن الكامل كان مسلماً صادقاً ، ولم يتعامل مع رئيس المسيحيين إلا لتحقيق السلام . ثم إن المعهد الذى بناه «دار الحديث» أو «الكاملية» ، والذى لا تزال توجد بعض آثاره فيما بين القصرين ، يشهد على مبلغ غيرته على الإسلام واهتمامه به . ولطالما كانت عقلية والده الجبارة تشرق فى ذهن الابن حينما كان يشترك فى اجتماعات العلماء فى قصره مساء كل خميس . هذا إلى أن القاهرة تدين له بإتمام القلعة التى اتخذها مقراً لنفسه . كذلك تحسنت مصر من الناحية الزراعية ، بفضل إشرافه الدائم على شئونها ، وحفره الترع وإقامة السدود أكثر مما كان يقام من قبل .

وكانت الخطة الجديدة التى انتهجها الأيوبيون من خلفاء صلاح الدين ، قد أوجدت شيئاً آخر إلى جانب نظام الحكم وإحياء العلوم والثقافات القديمة ، هو نظام الإقطاع الذى ساد مصر ـ لحسن حظها أو لسوء ه لمدة ستمائة عاماً ، مما كان له أثر ظاهر فى الحياة الاجتماعية ، وفى الفنون والآداب والنواحى المادية فى القاهرة . ويمكن القول بأن فترة المماليك بدأت بصلاح الدين . وفى الواقع كان يوجد هناك مماليك ـ أى أرقاء بيض ـ منذ أمد بعيد ، وأن كثيراً منهم قد أصبح لهم شأن كبير . فابن طولون ـ أو على الأقل أبوه ـ كان مملوكا ، كما أن كثيراً من الحكام الذين جاءوا بعد ذلك ينتمون إلى نفس طبقة العبيد المتمردين سواء الأتراك منهم أو اليونان ـ من آسيا الصغرى أو من التركستان . ولقد استطاع العبيد فى عهد الخلفاء الفاطميين أن يرتفعوا إلى أسمى الدرجات . فقد كان جوهر ـ مؤسس القاهرة ـ من اليونانيين أو السلاف ـ ولو أننا لا نستطيع أن نذكر من أيهما كان على وجه التحديد . كذلك رأينا كيف أن العبد الأرمنى « بدر » قد أصبح فى الواقع سيداً لمصر ، فليس الرق فى الشرق إذن من العار فى شيء ، بل على العكس من ذلك نجد القرابة تطغى وتسمو على مجرد الخدمة المأجورة . ذلك أن العبد كان يعتبر فى العادة كأحد الأبناء . ونحن نجد مثالا لطيفاً لهذا الشعور يتجلى فى وصمة العار التى انطبعت على جبين الأمير المشهور توزون فى القرن الرابع عشر ، حينما لم يحالفه الحظ ليصبح عبداً ، شأنه شأن سائر القوم فى ذلك الوقت ! ولقد كانت جيوش الفاطميين حافلة بمثل هؤلاء المماليك ممن أحرزوا جاهاً وثروة . غير أن هذا النظام أو المذهب لم يكن قد وصل إلى الكمال الذى نجده

فى عهد خلفاء صلاح الدين . ولقد ترعرع بطل الإسلام الأعظم فى كنف النظام المملوكى ، كما وضعه السلاجقة وأتباعهم ، ممن كانت تركز قوتهم على أساس عسكرى مكوّن من قوات مأجورة أو مشتراة ، تدفع لها رواتبها من مستغلات الإقطاعات والأراضى والقصور والمدن ، أو حتى الإيالات بأجمعها . وكانت هذه القوات تقوم على أساس نظام عسكرى بالغ الصرامة . وكان الكبار من أصحاب الإقطاعات يؤجرون جانباً من إقطاعاتهم لأتباعهم الأقل شأناً ، الذين كان عليهم أن يحضروا عدداً معيناً من الرجال لسيدهم . كما أن هذا السيد بدوره كان عليه أن يحضر جنوده لمساعدة السلطان فى حروبه . وكان هذا النظام سائداً فى جميع الإيالات التى يحكمها ضباط إمبراطورية السلاجقة . ولقد عمل نور الدين ، الذى كان من الضباط السلاجقة ، على إدخال هذا النظام فى سوريا ، كما أن صلاح الدين ـ الذى تدرب فى ظل نور الدين ـ أوجده فى مصر ، حيث كانت الأراضى والقرى تقسم على قواد جيوشه الذين كانوا يعيشون فيها فى الشتاء ، فإذا ما أقبل فصل الصيف ، موسم الحرب فى ذلك الوقت ، ساروا على رأس أتباعهم ليلحقوا بسيدهم الأعظم .

ونحن نجد أن نظام الإقطاع هذا كان سائداً فى مصر منذ وصول صلاح الدين وجنوده الأتراك ، حتى تولى محمد على باشا الحكم فى القرن التاسع عشر . وقد تجلت سيادته فى القاهرة حينما كون العادل ـ حفيد الصالح ـ كتيبة مختارة من المماليك فى القصر الجديد والثكنات التى بناها فوق جزيرة الروضة فى مواجهة مدينة مصر . ومن موقع هذه الثكنات على النهر (البحر) ، عرف أولئك المماليك باسم « المماليك النيلية » أو « المماليك البحرية » . ولقد كانت بسالتهم الرائعة فى موقعة المنصورة ، بقيادة بيبرس ، حداً فاصلا فى مصير حرب لويس التاسع الصليبية . ومن ذلك الحين أخذوا يحكمون مصر لمدة قرن ونصف . وعلى الرغم من الفوضى والاستبداد والجور والدسائس والمذابح ـ مما كان سائداً فى ذلك الوقت ـ فإن حكم المماليك البحرية يعد من أروع الصفحات التى سجلها تاريخ القاهرة . ويجب ألا يغرب عن بالنا أن انتصارهم الباهر فى موقعة المنصورة لم يكن بالشىء اليسير ، إذ كانت تحكمهم فى ذلك الوقت امرأة . ونحن نعلم أن التاريخ الإسلامى لا يشتمل على ملكات إلا فيما ندر ، ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف ضد ذلك الأمر . غير أنه من بين النساء

المسلمات الثلاث أو الأربع اللاتى ارتقين على العرش ، كانت الملكة «شجرة الدر» تحتل المكانة الأولى . ولم تكن شجرة الدر هذه سوى واحدة من العبيد . ولقد مات سيدها وزوجها الصالح ـ حفيد العادل ـ أثناء الحرب مع الصليبيين ، ومن ثم هبت هى فى الحال للقيادة ، وجعلت من خبر موت السلطان سراً مطوياً حتى يحضر ابنه من أقاصى الإمبراطورية . وهكذا أمسكت زمام الحكومة ، ونظمت الدفاع ، وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام الخاضعين لها ، وبذلك استطاعت بفضل شجاعتها وفائق ذكائها أن تسيطر على الدولة كلها . وعندما حضر الوريث فى عام ١٢٥٠ تخلت عن نيابتها للملك . غير أنه حينما قام المماليك الحانقون على الوريث القاسى وقتلوه ـ وكان ذلك بعد شهرين تقريباً ـ استعادت شجرة الدر سلطانها . ويمكن القول إن القديس لويس يدين بحياته إلى كرم أخلاق الملكة وشهامتها لقبول الفدية منه .



جزيرة الروضة

كانت شجرة الدر ذات صفات عظيمة ، تحمل لقباً انتقل اليها بولادتها ابنا للسلطان الأيوبى الراحل . ولقد مات الطفل ، ولكنها حكمت بعد ذلك باسم

الأمومة . وكانت امضاؤها ونقودها(١) تحمل صفوفا من الألقاب النسائية: آخرها: «والدة الملك المنتصر خليل».

إلا أن شجرة الدر لم تترك لتحكم بمفردها طويلا ، ذلك أن فكرة تولى النساء العرش كانت أكثر من أن يحتملها تحيز المسلمين وتحاملهم . وهنـــا تدخل خليفة بغداد فى الأمر بكل ما أوتى من قوة وسلطان . فقد كتب إلى أمراء القاهرة يقول: «إذا كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا» . ومن ثم تزوج القائد «أيبك» الملكة شجرة الدر ، وعين ـ باعتباره من أقارب صلاح الدين ـ سلطانا يرعى شئون الدولة الراحلة . إلا أن شجرة الدر استمرت تحكم بالفعل ، إذ وضعت يدها على الخزينة ، كما أنه من الواضح أنها لم تكن تعامل زوجها الجديد بالاحترام الواجب . والواقع أنها لم تكن بأكثر من امرأة ، فقد انتابتهـا الغيرة وجعلته يطلق زوجة أخرى . كما أنه حينما سولت له نفسه الاقتران بإحدى أميرات الموصل ، استسلمت الملكة بادىء الأمر وطوت الخبر على حقد مرير . غير أنها لم تلبث أن استدرجته بكلماتها المعسولة إلى القلعة ، وهناك مات أيبك على يد غلمانها فى الحمام ، وكان ذلك فى عام ١٢٥٧ . وكان جزاؤها على تلك الفعلة الشنعاء سريعا ورادعا ، فبعد ثلاثة أيام كان كل شىء قد انتهى . ذلك أن المماليـــك وضعوها فى البرج الأحمر حيث أخذت تسحق بجوهراتها وحليها فى هاون حتى لاتتزين بها امرأة أخرى من بعدها . وكان الحقد وهى تقوم بذلك العمل يمزق فؤادها تمزيقا . ثم سيقت أمام الزوجة التى أكرهت أيبك على تطليقها ، وما لبثت أن لقيت مصرعها بقباقيب النساء . وقد بقيت جثتها فى صحن القلعة بضعة أيام حتى تكون عبرة لمن يعتبر، إلى أن جاء أخيرا بعض السامريين وتولوا دفنها . ويمكن مشاهدة قبرها الذى مازال قائما بجوار ضريح «الست نفيسة» ، ولقد قام أحد أفاضل القوم فغطاه بقماش مكتوب عليه اسم «شجرة الدر» بالذهب .

---

(١) العملة التى تحمل اسم شجرة الدر توجـــد فى المتحف البريطانى . (أنظر كتاب المؤلف Catalogue of Oriental Coins الفصل الرابع ص ١٣٦) . وكان لقب شجرة الدر هو «عصمة الدين» وكانت تلقب «بالسلطان» ، وذلك لأن «سلطانة» ليس لقباً عربياً .

وهنا بدأ حكم المماليك البحرية خالصا دون أن تشوبه شائبة ، بسلطان من بيت صلاح الدين ، ولو أنه فى الوقت نفسه لم يسلم من المعارضة والدسائس من جانب أفراد الأسرة فى سوريا ، ولا من العداء من جانب عرب مصر الذين قاموا بحركة وطنية ، ولكن لم يلبثوا أن سكتوا حينما استخدمت معهم القسوة والقوة . والواقع أن القائمة المجردة التى تدلنا على الثلاث عشرين سلطانا من المماليك البحرية ـ وجميعهم من الأتراك وأغلبهم من القفجاق الذين خلفوا « أيبك » وحكموا من عام ١٢٥٧ إلى عام ١٣٨٢ ـ قد تضللنا ما لم نضع نصب أعيننا الظروف التى أحاطت بحكمهم . ومن بين الثلاث والعشرين هؤلاء ، لا يوجد سوى أربعة فقط حكموا فترة طويلة . فمجموع الفترات التى حكمها « بيبرس » و « قلاوون» و « الناصر » و « حسن » تبلغ أكثر من نصف مجموع الفترات التى حكمها الثلاث والعشرون سلطانا . ولم يكن السلطان فى الواقع بأكثر من مملوك كبير المقام ينتخبه رفقاؤه ، وكان يشعر الواحد منهم بأنه ندّ له . مثال ذلك حينما انتخب لاچين سلطاناً نتيجة دسيسة الأمراء ، سار هؤلاء فى ركابه وأقسموا له يمين الطاعة والولاء . غير أنهم فى الوقت نفسه جعلوه يقسم ، ثم يعيد القسم ، بأنه سوف يكون واحداً منهم ، لا يعمل شيئاً دون أن يستشيرهم ، ولا يؤثر مماليكه دونهم . وحينما عاد لحنث فى يمينه وخص بعضهم دون البعض الآخر ، لم يكن نصيبه سوى الاغتيال من هؤلاء الأمراء الذين أردوه قتيلا . والواقع أنه لم يكن ليصمد طويلا فى ذلك المنصب الخطير سوى الأقوياء وحدهم . ولعل بعض الفضل فى بقاء بيبرس طويلا فى منصبه، يرجع إلى تلك الحروب الرائعة التى قام بها فى سوريا . وحينما أطاح القدر بحياة هذا الرجل القوى ، كان على ابنه أن يعتلى العرش سداً للثلمة التى حدثت ، بينما أخذ الأمراء المتنافسون يتبارون فى إظهار قوتهم ، ويعقدون الاجتماعات ، ويستميلون خصومهم . وهنا يتقدم أكثرهم قوة ـ أو أكثرهم سياسة ودهاء ـ ليعتلى العرش ويحتفظ به على قدر استطاعته ، ثم تمضى السنون تترى ، وتظهر المشكلة من جديد ، وهكذا دواليك .

ولا يخفى أنه يجب علينا أن نوفى المماليك حقهم كجنود أكفاء . فقد كان عليهم أن يواجهوا أربع مرات أبشع الغارات ، التى شنها عليهم قبائل المغول بقيادة خلفاء جنكيزخان ، وكانوا فى كل مرة يردونهم على أعقابهم . وكان قطز أشدهم بأساً فى القتال . وكان رسل هولاكو من المغول يفدون على القاهرة ، يلتمسون الإذعان

والتسليم فى خضوع تام . إلا أن قطز قطع رءوسهم وعلقها فوق باب زويلة ، ثم تقدم إلى سوريا حيث هزم المغول هزيمة ساحقة عند عين جالوت فى عام ١٢٦٠ ، فخلص منهم البلاد . كما أن « بيبرس » عبر نهر الفرات عائما على رأس قواته وهزم المغول فى بيرا عام ١٢٧٣ ، ثم اتجه إلى الغرب حيث قتل سبعة آلاف رجل من الأعداء فى أبلستين وارتقى عرش السلاجقة الذى اغتصبه المغول ، وذلك فى Caesarea of Cappadocia . أما « قلاوون » فقد رد غزوا آخر فى عام ١٢٨١ ، واستطاع بفضل سيطرته وسلطانه أن يجند الحراس من المماليك ، وكذلك الأتراك وبدو الصحراء ، وعرب الفرات والحجاز . وكان يشد أزر هؤلاء جميعاً جنود « حماة » المحنكين (وكان لا يزال يوجد فى « حماة » أحد الأمراء من عائلة صلاح الدين) ، وبذلك أحرز السلطان نصراً مبيناً فى إمسًّا حيث خاض جيشه غمار معركة حاسمة ، وهكذا حرّر سوريا مرة أخرى من جشع المغول . غير أن هؤلاء ما لبثوا أن عادوا أثناء حكم ابنه « الناصر » ، ولكن الجيش المصرى انخذل هذه المرة فى معركة Treasurer's Ghyll بالقرب من Emesa عام ١٢٩٩ . وقد سقطت مدينة دمشق ، وظهر فى القاهرة رسل المغول ، كى يعملوا على أن يذعن السلطان . إلا أن المماليك على الرغم من هذا لم يفقدوا روحهم المعنوية ، فقد كان صناع الأسلحة فى القاهرة يقومون بعملهم فى جد ونشاط ، وكان المجندون يفدون جماعات من كل حدب وصوب . وقد بلغ من شدة الحاجة إلى الجياد أن ارتفع ثمن الواحد منها طفرة واحدة من اثنى عشرة جنيهاً إلى أربعين جنيهاً . أما سوريا فكانت تخيم عليها سحابة من الرعب ، عقب ما خلفه فيها المغول من فوضى ومجون . إلا أن كبار الأمراء ، بيبرس الجاشنكير ورؤساء المماليك الآخرين ، ركبوا فى كبرياء فى طريقهم إلى النصر . وهكذا تقابل الجيشان المتعاديان مرة أخرى . وفى السهل المسمى « مرج الصفر » عام ١٣٠٣ ، وللمرة الرابعة والأخيرة ، هزم المغول وطردوا من سوريا . ولقد عاد الناصر إلى القاهرة متوجاً بإكليل من المجد والفخر . وكان الرسل قد أذاعوا الأنباء ، وأخذ الأمراء يتنافسون فيما بينهم على إقامة السرادقات والخيام النفيسة على جانبى الطريق الذى سيمر فيه الموكب . وكان محرماً على العمال فى ذلك الوقت أن يقوموا بأى عمل آخر سوى تشييد تلك الزينات الفاخرة . وأجرت الحجرات التى على جانبى الطريق ،

حتى تراوح إيجار الحجرة الواحدة منها بين جنيهين وأربع جنيهات فى ذلك اليوم ، وقد بسطت الطنافس الحريرية على طول الطريق ، وأخذ السلطان الفخور يمر بركابه بين الزينات الرائعة ويأخذه العجب مما أقامه الأمراء ، بينما سارت جماعات الأسرى من المغول ، كل أسير منها يحمل رأس زميل له من المغول مربوطة فى عنقه وتتدلى منه ، حتى تتم بذلك بهجة النصر . وكانت الأصوات والهتافات تنبعث فى كل مكان وأنغام الموسيقى وقرع الطبول يصم الآذان .

ولم يكن المغول وحدهم هم الذين لقوا الأمرين ولمسوا شدة بأس المماليك . فبيبرس الأول وهو تركى أزرق العينين من القبچاق أصابه مرض فى عينيه ، فاضطر إلى النزوح إلى سوق الرقيق مقابل عشرين جنيهاً . وعلى الرغم من نشأته المتواضعة ، كان له من الشجاعة والحماس ما جعله يطمع فى أن يصبح يوماً مثل صلاح الدين . ومن ثم وجدناه يقوم بالحرب المقدسة لمدة عشر سنوات فى فلسطين ، حيث كان يميل الفرنجة إلى التحالف مع المغول . ولقد استولى على كل من قيصرية وأرسوف فى عام ١٢٦٥ بعد أن أحالها أطلالا دارسة ، ثم جر حماتهما إلى القاهرة بعد مالحقهم من خزى وعار ، وهناك استعرضهم وهم يحملون الأعلام المنكسة والصلبان المكسورة . وعلى الرغم من أن بيت المقدس كانت قد استردت من المسيحيين قبل ذلك بعشرين عاماً ، فإن آثار الحرب الصليبية كانت لا تزال تضطرم تحت الرماد على الساحل وفى بعض الحصون الداخلية . ولقد عقد بيبرس العزم أن يخمد آخر جذوة هناك : ففى عام ١٢٦٨ سقطت يافا ، ثم استسلمت بلفورت ، أما أنطاكية العاصمة المسيحية لشمال سوريا فقد حوصرت وأحرقت عن آخرها ، وبعد ذلك بثلاث سنوات سقطت قلعة فرسان المعبد العظيمة ونكست علمها ، وفقد الفرسان الجرمان [١] ، وحتى جزيرة قبرص التى كان يستورد منها الفرنجة مؤنهم قد غزاها أسطول المماليك ، وقد تم الاستيلاء على الحصون الموجودة فى الجبال وتجريدها من السلاح . وقبل أن يلقى بيبرس حتفه ، كانت أوامره تطاع من بيراموس Pyramus ونهر الفرات حتى جنوب بلاد العرب والشلال الرابع

(١) تم كسر شوكة الصليبيين حينما هزم « قلاوون » مارجات وطرابلس ، وحينما حاصر « خليل مدينة عكا فى عام ١٢٩٢ ، أما المدن القليلة الباقية فقد سقطت بعد ذلك مباشرة . وبذلك عفا كل أثر للصليبيين هناك .

للنيل . كما أن المدن المقدسة : مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، كانت ملكا له . كذلك استولى على مينائى «سواكن» و «أيدهاب» Aydhab على البحر الأحمر . وكان عرب الصحراء جميعاً طوع أمره ، كما أن رؤساء المغاربة كانوا يدفعون له جزية . وكان الخان الأعظم Ilkhan للقبيلة الذهبية Golden Horde على نهر الفولجا حليفاً له ، وقد أرسل إليه ابنته لتكون زوجة له . فعلى الرغم من أن «بركة خان» كان مغولياً ، إلا أنه كان عدوا قديما للمغول فى بلاد فارس وهم الذين كانوا قد انتشروا فى سوريا ، كما أن السفارات قد تبودلت مع الإمبراطور الشرقى الذى سمح بإعادة بناء أحد المساجد فى القسطنطينية ، بينما زوّده بيبرس بأحد البطاركة كذلك كانت هناك ثمة علاقات سياسية وتجارية مع كل من Manfred of Sicily و James of Aragon و Alfonso of Seville و Charles of Anjou ولكى يتوج بيبرس انتصاراته هذه بأكليل من الغـــار ، عمل على إحياء الخلافة العباسية القديمة التى أسقطها المغول فى بغداد عام ١٢٥٨ . ومن ثم أحضر إلى القاهرة رجلا من سلالة الخليفة العباسى ، حيث أسكنه فى القلعة تحوطه الأبهة والجلال ، وبذلك جعله الخليفة الشرعى الأعلى للإسلام . وقد مثل هذا بين يدى الخليفة فى خشوع حيث تسلم الرداء الأرجوانى والعمامة السوداء والسلسلة الذهبية والخاتم الذى كان يرمز لسلطان تقره القوة الروحية . ومنذ ذلك الوقت أصبح يوجد فى القاهرة خليفة ـ على الرغم من أنه كان ألعوبة فى يد السلطان ـ حتى جاء الغزو العثمانى واتخذ السلاطنة الأتراك الخلافة فى عام ١٥٣٨ [١].

ولم يكن بيبرس جنديا محنكا وسياسياً ماهرا فحسب ، بل كان قادراً على إدارة شئون البلاد فى قوة وحزم ، ففى عهده تمت السيطرة على الأراضى المقدسة ، ولم يكن مجهوده فى ذلك خافياً . وكان يبدو وكأنه فى عدة أماكن فى وقت واحد ، ذلك أن رحلاته كانت سرية وحثيثة . ومن الحيل المحببة إليه أنه كان يظل مختفياً فى القلعة لبضعة أيام يراقب أعمال نوابه ، فى الوقت الذى كان يسود فيه اعتقاد جازم بأنه قد سافر إلى سوريا . ولقد أمضى الجانب الأكبر من حكمه فى حروب خارج مصر ،

(١) اكتشف ا. ت روجرز بك E. T. Rogers Bey فى عام ١٨٨٣ مقبرتين لإثنين من خلفاء عصر العباسيين وبعض أقاربهم ، وذلك بالقرب من مسجد السيدة نفيسة فى الجانب الجنوبى من القاهرة .

ولكنه كان يمضى شهور الشتاء فى القاهرة عادة ، بينما كانت قواته تبقى حيث هى ، إذ كان يعوق سيرها الثلج والمطر . وكان ينتهز تلك الفترات ليقوم بإصلاح البلاد وعاصمتها . ولم يكن شغفه بالشئون العامة يتجلى فقط فى بناء المساجد والمـــدارس وإحيائها ، أو إعادة بناء «قاعة العدل» عند سفح القلعـــة . فقد عمل على توسيع قنوات الرى القديمة وحفر أخرى جديدة ، كما مد الطرق ، وبنى الكبارى ، وحصن مدينة الأسكندرية وأصلح المنارة . كذلك عمل على حماية مصبى النيل من خطر الغزو الأجنبى ، وأحيا الأسطول المصرى بأن بنى أربعين سفينة حربية . وكان عدد قواته المنظمة اثنى عشر ألفاً ، وهذا بطبيعة الحال عدا الجنود المصريين والعرب والجند المؤقتة . ومن الطبيعى أن نفقات الحرب الطائلة هذه ، كانت تقتضى منه جمع ضرائب باهظة . وعلى الرغم من أنه حينما تولى الحكم أراد أن يحبب الناس فيه ، فعمل على تخفيض الضرائب التى فرضها قطز إلى ستمائة ألف دينار فى السنة ، إلا أنه وجد نفسه مضطراً فى نهاية الأمر إلى مواجهـــة نفقات حروبه بفرض ضرائب ثقيلة . ومع ذلك فنحن كثيراً ما نقرأ عن إلغاء ضرائب قديمة أكثر مما نقرأ عن فرض ضرائب جديدة ، كما أن خزينة الدولة لم تكن تملؤها ضرائب مصر مثلما كانت تملؤها العطايا من البلدان المهزومة وأنحاء سوريا ، وكذلك الجزية من الأقطار التابعة ، ثم رسوم الجمارك من الموانى .

وكانت حكومته مستنيرة ، عادلة ، حازمة . فلقد واجه مجاعة عام ١٢٦٤ القاسية باستعداد سريع ينطوى على كثير من التعقل والكرم ؛ ذلك أنه نظم مكيال القمح وعمل ـ وأرغم الأمراء والضباط أن يعملوا معه ـ على إيجاد مايكفى المعوزين من القوت لمدة ثلاثة أشهر . كما أنه لم يسمح للخمر (على الرغم من أن الضرائب المفروضة عليها كانت تصل إلى ستة آلاف دينار فى العام) ولا للجعة أو الحشيش بالدخول فى مستعمراته ، كذلك حاول أن يستأصل شأفة الأمراض المعدية بواسطة الطرق العلمية . وكان بالغ الصرامة فيما يختص بأخلاق رعاياه ، إذ أغلق الحانات والمواخير وأقصى النساء الأوربيات عن المدينة ، وذلك على الرغم من أنه هو نفسه كان منهمكا فى الملذات . إلا أنه مع ذلك لم يكن مترفاً ، فقد كان يقبل على العمل فى نشاط قلما نجد له مثيلا . وإذا كان قد وهب النهار للقنص ورمى الرمح والتنشين والرياضة المختلفة ، فإنه كان يخص الليل بالعمل ، إذ كان الرسول الذى يصل فى

وقت السحر يتسلم الرد بعد ثلاث ساعات دون تأخير أو إمهال . وفى بعض الأحيان كان يملى أكثر من خمسين رسالة ثم يوقعها ويختمها فى الهجيع الأخير من الليل بعد أن يكون قد أمضى وقتا طويلا فى التريض المضنى . وكان البريد يرسـل مرتين فى الأسبوع بواسطة الخيول المعدة لذلك ، هذا إلى جانب الحمام الزاجل المنتظم .

ليس بعجيب إذن أن يكون مثل هـذا الرجل محبوباً لدى الشعب الذى اتخذه مثالا للملك الذى تتجلى فيه صفات الكرم والشهامة ، والذى لايزال يصغى فى شغف تام إلى القصص التى تروى فى مقاهى القاهرة عن الظاهر بيبرس . وحتى رجال الدين كانوا يعجبون به ويرون فيه ملكا يرعى الأصول الدينية ، ويعادل بين المـدارس الأربعة المختلفة التى جعل لكل منها قاضياً خاصا بها . بيد أن الأمراء والضباط وحدهم هم الذين كانوا يخشونه ، لأنه - وإن كان حسن المعاملة مع كل من يطيع أمره - لم يكن يغفر لأحد منهم ، وكانت شكوكه تلاحقهم على الدوام فى حركاتهم وسكناتهم . ومن ثم اشتد به الحقد ، حتى مات كمدا بعد حكم زاهر ، دام سبع عشرة عاما بكأس من السم ، أغلب الظن أنه كان قد أعدها لغيره ، وانتهت حياته سنة ١٢٧٧ .

كان بيبرس المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ، والقائم على تنظيم سياستهم . ومنذ اليوم الذى تولى فيه قيادة حرس المماليك البحرية ضد لويس ملك فرنسا فى موقعة المنصورة ، دأب على تقوية الجيش وحمايته ، والتوسع فى التجنيد ، وتشجيع الخدمة الصالحة بواسطة توزيع الإقطاعات بكثرة . تلك كانت سياسته الأجنبية التى طبقها فى مصر سنوات عديدة ، واتخذ منها قصره أنموذجاً للسلاطين المتعاقبين . ولقد كان هذا القصر بالغ الروعة والبهاء ، حيث كان يجلس السلطان يحيط به كبار ضباط الدولة ورجال البلاط ، ونائب السلطان ، والقائد الأعلى للجند ، والقهرمان (كبير الطهاة) ، وقائد الحرس ، وحامل السلاح ، وأمير آخور Master of the horse ، والساقى ، والجاشنكير ، والبازدار ، وحامل الخف ، وأمير سلاح ، والأستادار ، وثلاثون من قارعى الطبول ، كل منهم يتبعه أربعون فارساً ، وجوقة مكونة من عشرة طبول وأربعة أبواق ومزمارين ، والغلمان ، والفرسان والحجاب ، وكاتمو الأسرار ، وأطباء القصر ، والقضاة ، ورجال الدين . كل هؤلاء الموظفون كان لهم رواتب وإقطاعات . فقارع الطبول مثلا كان يصل دخله إلى حوالى ستة عشر ألف جنيه فى العام . ونستطيع أن نقدر الأموال التى كانت تنفق على القصر

إذا علمنا أن عشرين ألف رطل من الطعام كانت تعد كل يوم فى بيت المئونة (الخزندار) . وكانت تباع أثمان اللحم والخضر فى القصر أيام الناصر ما بين ثمانمائة واثنى عشرة ألف جنيه فى اليوم الواحد .

وكان ضباط القصر العظام وضباط الجيش هم بطبيعة الحال أكثر الرجال سلطة بعد السلطان مباشرة ، وكان كل منهم يعد نفسه خلفا صالحا للسلطان . وعلى إخلاصهم وولائهم ، وخاصة إخلاص حرس السلطان الخاص ، وهو لواء مكون من عدة آلاف من الجند المختارين ممن كانت لهم إقطاعات واسعة فى مصر ، كانت ترتكز سلامة السلطان وسلطته ، ذلك السلطان الذى كان فى الواقع تحت رحمتهم . وكان كل واحد من الأمراء العظام — سواء كان من ضباط الحرس أو من رجال البلاط أو مجرد نبيل من النبلاء المقربين — صورة مصغرة للسلطان المملوكى . فقد كان له بدوره حرس خاص به من العبيد ، وكان هذا الحرس يقف بباب القصر عندما يغادره النبيل فى إحدى رحلاته ، كما كان رهين شارته لاقتحام الحمامات العامة وإخراج النساء منها . كذلك كان يعمل على حماية هذا النبيل عندما كان يحاصر قصره نبيل آخر منافس ، وأخيراً فقد كان يسير وراءه فى طريقه إلى ميدان القتال . هؤلاء السادة النبلاء ، وأتباعهم كانوا خطراً دائماً يهدد السلطان الحاكم . فقد كان يكون بعض الساخطين منهم أحياناً حلفاً يعضده بعض ضباط القصر أو الحرس الخاص ، وهنا يتجمع أتباعهم فى طريقهم لمواجهة السلطان ، بينما يوجه ساقى الخمر — أو غيره من الضباط الذين يقتضى عملهم ملازمته — الضربة القاضية للسلطان ، أو يدس له السم فى الكأس ، ثم يتقدم المتآمرون عقب قتله لينتخبوا من بينهم من يشغل منصب السلطان المقتول . إلا أن هذا لم يكن ليسلم أحياناً من بعض المقاومة ، ذلك أن حرس السلطان الخاص لم يكن من السهل دائماً رشوته أو مقاومته ، كما أن الجو لم يخل أحياناً من بعض النبلاء ممن لم يقنعوا فى العادة بأى خليفة للسلطان من بينهم ، فقد كان كل واحد منهم لا يرضى بغير نفسه بديلا ، ومن ثم كان عليه ألا يتردد فى مقاومة الخطة المرسومة للتآمر على السلطان . وهنــا يتمخض الموقف عن قتال فى الشوارع . فيغلق التجار حوانيتهم فزعين ويفروا إلى منازلهم ، ويوصد الناس من رعبهم الأبواب الكبيرة التى كانت تفصل بين الأحياء والأسواق المختلفة فى المدينة ، ويتقدم الحزب المنافس من المماليك راكباً ويطوف بالشوارع التى لم يتم

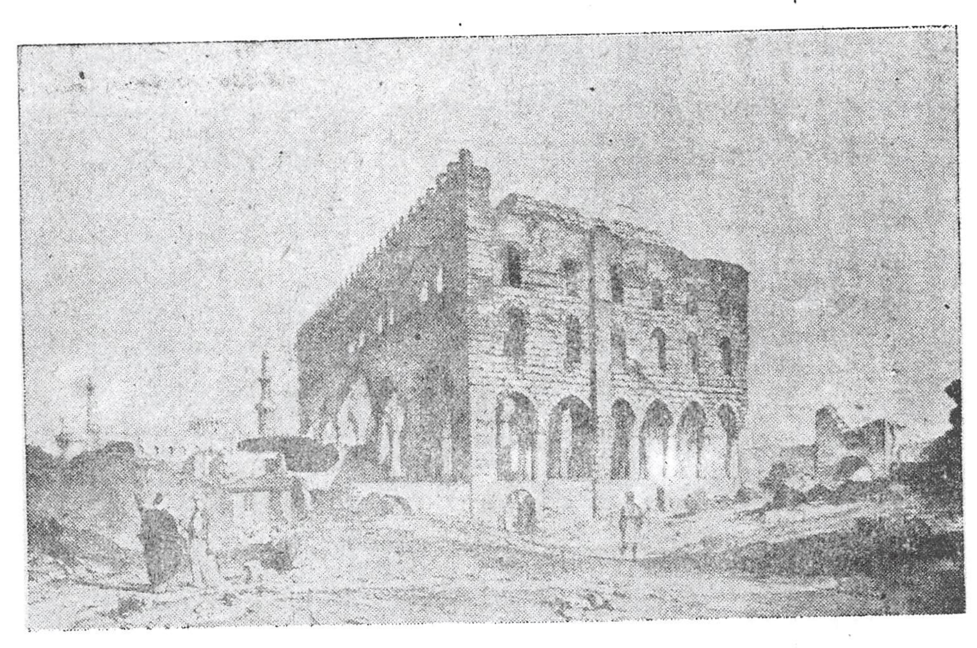
إغلاقها بعد، فيتلف منازل خصمه ويسلبها، ويخطف النساء والأطفال، ثم يتقدم ليقاتل عدوه أو ليلقى عليه وابلا من الرماح والحراب من خلال نوافذ المنازل التى يصعد فيها . ومثل هذه الاضطرابات لم تكن قليلة الحدوث ، وكانت دائماً تؤثر على حياة طبقة التجار فى القاهرة . ونحن نقرأ كيف أن السوق العظيم ـ خان الخليلى ـ كان يغلق أحياناً لمدة أسبوع كامل ، بينما كانت المعارك تدور فى الشوارع فى الخارج ، وكان تجار القاهرة الأثرياء يقفون خلف الأبواب الضخمة وهم يرتجفون فزعاً ورعباً .

ولقد حدث مثل هذا حينما عزل كتبغا السلطان الطفل «الناصر» فترة من الزمن . ذلك أن الأشرفية ، أو مماليك السلطان الأشرف خليل ، قاموا بثورة وحاصروا القلعة . وحينئذ ركبت قوات كتبغا لتقمع الثورة ، فاخترقت جموع المتظاهرين ومزقتهم تمزيقا . وكان نتيجه ذلك أن أصيب هؤلاء المتمردون بإصابات جسيمة قضت على الكثير منهم ، كما أن عدداً ليس قليلا منهم فقد بصره أو لقى حتفه غرقا . وهكذا بدأ حكم جديد فى عام ١٢٩٤ . ولقد أعقب ذلك انتشار وباء ، حيث أخرجت سبعمائة جثة من أحد أبواب القاهرة فى يوم واحد . غير أنه سرعان ما تلبد الجو بالغيوم وظهرت مؤامرة جديدة اضطر كتبغا إلى الهرب من أجلها ، فانتخب نائبه لاجين خلفا له . وبذا حلت الزينات فى الشوارع محل المجازر البشرية التى كانت تراق فيها الدماء ، وساد الفرح والارتياح البلاد . ذلك أن السلطان الجديد كان رجلا كريما ، وقد وعد بالتسامح فى جمع الضرائب ، وكان الخبز رخيصا، وهكذا أصبح لاجين محبوبا .

ومع أن فكرة وراثة الخلافة كانت غريبة تماما عن نظام المماليك ، إلا أنه كان فيها الخلاص الوحيد من تلك المشاهد الدامية التى كانت تحدث من آن إلى آخر لاغتصاب العرش . وبعد فترة من الزمن وجد هناك نوع من وراثة اللقب، فلقد خلف «قلاوون» ابنه «خليل» ، ثم جاء بعده ابن أصغر يدعى «الناصر محمد» فى عام ١٢٩٣ . وعلى الرغم من أن هذا الأخير عزل فترة من الوقت إلا أنه عاد إلى العرش مرة أخرى فى عام ١٢٩٨ بعد قتل صهره «لاجين» . وبعد محاولة أخرى لاغتصاب العرش قام بها «بيبرس الجاشنكير» فى عام ١٣٠٨ ، استرد الناصر سلطنته وبدأ حكماً ثالثاً استغرق واحداً وثلاثين عاما (١٣١٠ — ١٣٤١) . وبعد وفاته جلس خلفاؤه

الضعفاء على العرش ، ولم تكن لهم أى سلطة حقيقية ، وقد ظل الحال على هذا حتى نهاية الأسرة . وهكذا نجد أنه فى الفترة ما بين عامى ١٢٧٩-١٣٨٢ ، اللهم إلا ست أو سبع سنوات ، كان يحكم مصر أفراد بيت واحد ، بيت قلاوون . ولقد كان مؤسس هذه الأسرة ، الذى يدحض تاريخه النظرية القائلة بأن هؤلاء الأجانب كان حكمهم مجدباً فى مصر — شخصاً له مكانته ، قائداً شجاعاً ، وسياسيا حكيما ، وباعثاً على تشجيع التجارة وازدهارها . فقد كان يسمح للتجار بالذهاب حتى الهند والصين ، وكان يبذل أقصى ما فى وسعه لتنمية تجارة مصر . وكان بالإضافة إلى كل هذا ، مهتما بالبناء ، شأنه فى ذلك شأن أغلب سلاطين المماليك . وإنه لمن الغريب حقاً أن يشغف بالبناء رجال ، لم يكن لهم هم سوى الحروب وتدبير المؤامرات . فلقد بنت الملكة شجرة الدر — أول من حكم مصر من المماليك — ضريحا لزوجها «الصالح أيوب» لا يزال قائما فوق جانب من موقع قصر الفاطميين القديم فيما «بين القصرين» ، وكان ذلك فى عام ١٢٥٠ . وبنى «بيبرس» مدرسة عام ١٢٦٢ فى مكان آخر من القصر يسمى «قاعة الخيمة» ، وشيّد مسجدا كبيرا خارج «باب الفتوح» فى عام ١٢٦٧ - ١٢٦٩ ، ولا يزال كلا البنائين موجودا ، على الرغم من أن المدرسة قد أصبحت خراباً ، والمسجد كان يستعمل مخبزا للقوات الفرنسية منذ قرن مضى ، ثم تحول أخيراً إلى مجزر لذبح المواشى الخاصة بالجيش البريطانى . أما «قلاوون» فقد انتابه مرض خطير فتعهد ببناء مستشفى . ونحن لا نزال نرى «مارستان قلاوون» حتى الآن فى جهة «النحاسين» ، على الرغم من أنه لم يعد يستعمل للغرض الذى بنى من أجله ، ذلك أنه كان مأوى للمجانين إلى قرن مضى ، وهو يقع بالقرب من مسجد «قلاوون» وضريحه . ويتميز هذا الضريح بالنقوش المصنوعة من الجص ، والأعمدة المصنوعة من الجرانيت ، والمئذنة ذات النقوش البديعة والنحت الدقيق . ولقد بنى كل من «ابن طولون» و «صلاح الدين» بعض المستشفيات ؛ وكذلك سار «قلاوون» على هذا النهج القويم . فقد كانت حجرات القوم للمرضى تحيط بفنائين ، وكانت توجد على جوانب فناء آخر ، قاعات وحمامات ومكتبة وصيدلية وكل ما تحتاج إليه المستشفيات فى ذلك الوقت ، وحتى الموسيقى كانت توجد هناك لتخفف من آلام المرضى ، كما كان يوجد كذلك بعض المقرئين لترتيل القرآن . وكان الفقراء والأغنياء يعالجون دون مقابل سواء بسواء . وكانت توجد هناك

مدرسة مجاورة كان يتربى فيها ستون يتيما ويتلقون العلم بالمجان . ولا يزال الناس حتى اليوم يزورون المقبرة التى دفن فيها هذا السلطان العظيم وابنه « الناصر » ، وذلك لكى يلمسوا ملابسهما ، اعتقاداً منهم أنهم سوف يشفون من عللهم وأمراضهم المختلفة .



قاعة يوسف — قصر الناصر فى القلعة

ولقد كان حكم « الناصر » الذى دام طويلا ، عصراً ذهبياً لفن البناء المملوكى . وعلى الرغم من أن هذا السلطان استفاد كثيراً من الاستقرار الذى أوجده الأخذ بنظام الوراثة ، إلا أن جلوسه طويلا على عرشه ، يرجع إلى حد كبير إلى صفاته الشخصية . فإن هذا الرجل الرزين ذو الإرادة الحديدية الحاكم المستبد الذى يحكم بمفرده ، عديم التناسق فى تكوينه الجثمانى ، قصير القامة ، ذو ساق عرجاء ، وسحابة على العين ، هذا إلى جانب ملابسه البسيطة ، وأخلاقه الصارمة ، وذهنه المتقد ، ونشاطه الذى لا يعرف الكلل ، وذوقه المهذب ، وميوله المستنيرة ، وسياسته الحاذقة التى أخذت تضمحل حتى أصبحت مجرد خداع لا جدوى فيه ، وشكوكه الدائمة ، وانتقامه القاسى ، وقصره الفخم ، ومبانيه الرائعة . هذا الرجل واحد من أبرز رجال العصر الوسيط . وما من شك فى أن عصره كان الذروة التى وصلت فيها الثقافة والمدينة المصرية إلى أقصى مراحل الرقى . ولقد أكمل « الناصر » الأعمال

التى بدأها من قبله « بيبرس » و « قلاوون » ، وعقد محالفة مع القبيلة الذهبية ، Golden Horde وتزوج أميرة من الفولجا Volga اسمها « طلبية » لاتزال مقبرتها موجودة حتى الآن مع مقبرة زوجة أخرى له فى الجبانة الشرقية . وحافظ كذلك على حدود الإمبراطورية من بيراموس Pyramus ونهر الفرات حتى سواكن وأسوان ، ونظم - وإن لم يكن فى صورة تحالف - اتصالات سياسية مع امبراطور القسطنطينية وملك بلغاريا ، ومع حكام الحبشة وبلاد العرب . وقد زوج أحد عشر بنتاً له لأشرف النبلاء ، وكلفته كل زيجة نصف مليون جنيه . ولم يكن الناصر سياسياً فحسب ، بل كان فى الوقت نفسه مزارعاً ، ومربياً ، ورياضياً . فقد كان يدفع أربعة آلاف جنيه ثمناً للحصان الواحد ، وكان لديه سجل خاص بالخيول ، كما كان يعرف أصل هذه الخيول وأثمانها وأعمارها . ولديه ثلاثة آلاف رأس من الغنم وكان يستورد أحسن أصنافها من الخارج ، كما كان شغوفاً بصيد الباز ، كسائر سلاطين المماليك . ويصف لنا « ابن بطوطة » - الذى رأى الناصر فى عام ١٣٢٦- هذا السلطان فيقول إنه ذو خلق نبيل وفضائل جمة ، كريم بالنسبة للمسافرين ، ومثابر على واجبه الذى كان يجعله يجلس مرتين كل أسبوع يستمع بنفسه إلى الشكاوى والقضايا . ولقد أيسرت مصر كثيراً تحت حكمه ، فألغيت الضرائب الثقيلة ، وأنشأ نظام جديد لمسح الأرض . كذلك عوقب بالجلد أولئك الطحانين والخبازين الذين حاولوا رفع الأسعار فى السـنوات التى أصاب البلاد فيها القحط . وعندما وصل إليه أن أحد أزواج بناته ، الأمير العظيم « توزن » قد قام ببعض السلب والنهب ، لطمه بسيفه وضرب وكيل أعماله بالسياط . وكانت الأسعار منخفضة بفضل تيقظه وسهره ، وكان عقاب شرب الخمر والبغاء صارماً . ولئن كان الناصر قد أزال السلب والنهب بين صفوف النبلاء ، واقتلع نبات « الخشخاش[1] » دون ترو ، فإن الشعب قد استفاد كثيراً ونجح فى حكمه إلى أبعد حدود النجاح .

ولقد كان الناصر متسامحاً حتى مع الأقباط ، على الرغم من أن المسيحيين لم يجدوا أيام المماليك معاملة حسنة مثلما وجدوا تحت حكم الفاطميين وأيام «الكامل» .

---

(١) نبات تستخرج منه مادة الأفيون ويعرف باسم « ابو النوم » .

وعندما غزا صلاح الدين مصر ، حدث هناك تخريب هائل فى الكنائس ، إلا أن هذا يرجع فى الغالب إلى حرق مصر وفوضى الحرب ، أكثر مما يرجع إلى تعصب الفاتحين . ولم يكن صلاح الدين نفسه صديقاً للمسيحيين ، فقد كان متشددا فى دينه الإسلامى بحيث لم يكن يتسامح معهم . إلا أنه على الرغم من ذلك لم يكن يضطهدهم أو يلحق بهم أى أذى . ولقد كان سبب هروب ـ أو طرد ـ البطريرك الأرمنى هو وأتباعه ، يرجع إلى علاقة الأرمينيين الوثيقة بحكومة الفاطميين ، أكثر مما يرجع إلى التعصب الدينى . إلا أن الحرب المقدسة فى فلسطين ، على الرغم من أنها كانت ضد الفرع اللاتينى من الكنيسة الكاثوليكية ، كان لها رد فعل سيء على الأقباط . وكان العادل أخو صلاح الدين يعامل رعاياه المسيحيين معـــاملة بالغة الصرامة والقسوة ، وكثيراً ما كان ابنه « الكامل » يتشفع لهم . وحينما اعتلى هو نفسه عرش مصر أظهر روحاً نادرة من التسامح لم تكن مألوفة فى ذلك العهد ، ولقد أحسن استقبال « القديس فرنسيس St. Francis » من أسيسى Assisi . وأجمع المسيحيون على أن « الكامل » كان حاكما على جانب عظيم من التسامح الدينى . ويبدو أن ابنه « الصالح » سار على منواله خلال الفترة الوجيزة التى حكم فيها ، إذ كتب إلى « انوسنت الرابع Innocent IV » يعبر له عن أسفه لأنه لم يستطع التحدث مع الرهبان الدومينيكيين Dominicans بسبب جهله باللغة اللاتينية .

ومن الطبيعى أن تقلب حرب لويس التاسع الصليبية هذه العلاقات الودية رأساً على عقب . وليس بعجيب أن يوجه المسلمون انتقامهم إلى أكثر كنائس مصر فيخربونها ويعملون على إتلافها . كذلك لم يستطع خلق السلاطين المماليك المتعاقبين ـ بعد أن اهتاج بفعل الانتصارات المتكررة فوق بقاع الفرنجة فى سوريا ـ أن يؤدى بهم إلى تفاهم حسن مع رعاياهم المسيحيين . ثم أن المدارس الجديدة التى أنشأها صلاح الدين وخلفاؤه ، كان من شأنها أن تحدث تغييراً فى القاهرة . فقد كان مدرسو هذه المعاهد الدينية يشجعون روح التعصب، وقد أخذ نفوذ هؤلاء المدرسين يقوى شيئاً فشيئاً على مر الزمن . وفى عام ١٢٨٠ فصل جميع الكتبة الأقباط الذين كانوا يعملون فى ديوان الحربية ، وحل محلهم فى وظائفهم مسلمون . وفى عام ١٣٠١ أعيدت من جديد تلك الأحكام التى كان من شأنها أن تمتهن كرامة الأقباط عن طريق تخصيص زى خاص بهم . وفى عام ١٣٢١ حدثت هناك سلسلة من الثورات

كان من نتيجتها أن حل بالمسيحيين اضطهاد مروع . ولقد بدأ الاضطراب حينما أخذ عمال الناصر يحفرون بحيرة يطلق عليها « بركة الناصر » بالقرب من « جسر الأسد »[١] فأضعفوا أركان كنيسة الزهرى – التى كان الناصر قد أمر بعدم التعرض لها – وذلك بالحفر تحتها . وقد حدث أن اندفع الناس عقب صلاة أحد أيام الجمعة إلى الكنيسة فأتلفوها عن آخرها ، وكان ذلك بدون علم الحكومة . وبعد ذلك توجهوا إلى كنيسة القديس مينا فى « الحمرة » ونهبوها . وفعلوا مثل هذا أيضاً فى كنيسة العذارى بجوار طواحين المياه السبعة ، حيث أخرجوا منها الراهبات عنوة ثم أشعلوا فيها النيران بعد أن استولوا على ما فيها . إلا أن السلطان حينما وجد الدخان يتصاعد من الكنائس المتداعية ، انتابته سورة من الغضب ، وأرسل من فوره بعض القوات لكبح جماح الشعب . وفى تلك الأثناء ترامت الأنباء بأن ثمة كنيستين قد أتلفتا فى أحياء زويلة واليونان ، وأن الشعب يتعدى على « الكنيسة المعلقة » بحصن بابليون . ومن حسن الحظ أن قوات السلطان وصلت فى تلك الآونة لتحمى الكنيسة . ومن الواضح أنه كان هناك هياج عام من الصعب قمعه . وكان الدراوشة الثائرون يقفون فى المساجد ويهتفون : « تسقط كنائس الكفار! إلى الكنائس ! إلى الكنائس ! » وكان يحدث مثل هذا فى جميع أنحاء مصر ، كما كانت الكنائس تحرق فى الأسكندرية ودمشق وقوص .

وبعد ذلك بشهر أخذت تشتعل فى مصر نيران لم يعرف سبب اندلاعها . وبدأت ألسنة النيران تندلع فى كل مكان ، وكانت الرياح العاتية تساعد على انتشار اللهب هنا وهناك . هنا أخذ الناس يصعدون إلى المآذن ويضرعون إلى الله ، ظناً منهم أن المدينة بأسرها سوف تلتهمها النيران ، وكان هناك صراخ وعويل يصحبان تلف المنازل والأمتعة . ولقد بذل القوم ما فى وسعهم لإخماد النيران ، إذ حضر جميع السقائين من فورهم ، وكان هناك أربع وعشرون من أنبل الأمراء يعملون على رأس صفوف الرجال الذين كانت مهمتهم تحويل المياه من الحمامات والأحواض ، وهدم بعض المنازل الأنيقة لإفساح الطريق حول المبانى المحترقة . وكان الشارع من حى ديلم حتى باب زويلة تتدفق منه المياه كالنهر ، ولم يكن القوم لينتهوا من إخماد

---

(١) غرب باب اللوق بالقرب من جامع طيبرس .

إحدى النيران ، حتى كان يبدو لهم فى الأفق لهيب نار جديدة ، وهكذا كانت الحرائق تتكرر يوماً بعد يوم .

ولقد لوحظ أن هذه النيران كان هدفها الوضح هو المساجد ، وأن اشتعالها كان عمداً بدليل العثور على ملابس مغموسة فى الزيت والقطران والنفط . وقد ألقى القبض على أحد المسيحيين بجوار مسجد الظاهر ومعه كميات من النفط والقطران يحاول إشعالها فى المسجد . وعندما أخذ المسئولون يعملون على تعذيبه اعترف لهم بأن الحرائق كانت عملا منتظماً من صنع المسيحيين . كذلك اعترف إثنان من الرهبان – تحت تأثير التعذيب – بأنهما أشعلا النيران عمداً للانتقام لما لحق كنائسهم من تخريب ودمار . وهنا استدعى بطريرك الأقباط الذى صرح – والدمع ينهمر من عينيه – بأن هؤلاء ليسوا سوى متحمسين ثائرين أرادوا أن يجيبوا على مخربى الكنائس الحق بنفس الأسلوب الذى يفهمونه . وحينئذ أرسل إلى منزله وسط هالة من التبجيل والتكريم . ومهما يكن من شىء ، فإذا القوم وقتئذ لم يكن لديهم استعداد لأن يروا أمام أعينهم البطريرك مكرماً ، وكان بودهم لو مزقوه إرباً ، لولا وجود حارس السلطان معه . وقد حدث أن أحرقوا أربعة من رهبان « دير القصير » الملكانى فى تلال المقطم . وحينما ألقى القبض على إثنين من المسيحيين بتهمة الحرق عمداً ، أمر السلطان بحرقهما حيين فى حفرة بحضور جمهور سره كثيراً أن يرى مثل هذا المشهد . وقد تصادف أن مر فى ذلك الوقت كاتم سر قبطى برىء ، فلم ينقذه من الموت المحقق سوى مروقه السريع من الدين . والواقع أن الشعب كان يتحول من خطر إلى خطر يوماً بعد يوم . ولقد انزعج السلطان لذلك كثيراً ، فأمر باتخاذ إجراءات حاسمة ، وبذل أقصى ما فى وسعه لتهدئة القوم . ومن ثم صدرت الأوامر إلى القوات بالتوجه إلى جميع أنحاء القاهرة لتفرقة الشعب دون التعرض له ، إلا أن الأنباء كانت قد سبقتها . وهكذا وصلت هذه القوات فوجدت الأسواق مغلقة والشوارع مقفرة . ولم يكن يوجد هناك رجل واحد ما بين القلعة وباب النصر . وقد ألقى القبض على مائتى رجل بالقرب من النيل ، فأحضروا أمام السلطان الذى أمر بقتلهم أو بقطع أيديهم ، وعبثاً حاولوا إثبات براءتهم . وقد تشفع لهم الأمراء . إلا أن الناصر عقد العزم على أن يجعل منهم عبرة وعظة . وهكذا أقيمت المشانق على طول الطريق من باب زويلة حتى الرميلة ، وهنالك

شنق سيىء الحظ من المسلمين حتى يكون شنقهم درساً قاسياً يعلم الشعب ألا يثور مرة أخرى .

ولقد تمخضت هذه الإضطرابات عن إعادة الأحكام القديمة الخاصة بزى المسيحيين ، وهى الأحكام التى حاول الناصر إلغاءها منذ عام ١٣٠١ . وهكذا كان المسيحى الذى يضبط ممتطياً صهوة جواد ، أو لابساً عمامة بيضاء ، يقتل اساعته . وقد ألزم الأقباط بلبس عمائم زرقاء ، وتعليق جرس حول عنقهم فى الحمامات ، وركوب الحمير دون سواها ، على شرط أن يكونوا وجوههم شطر ذيلها . ولم يكن يسمح للأمراء بتشغيل خدم مسيحيين . كذلك لم يكن يشغل الأقباط أية وظائف فى الدولة على الإطلاق . ولم تكن لديهم الجرأة على الظهور فى الخارج ، وقد دخل الكثير منهم الدين الإسلامى . ولعل هذا هو أسوأ اضطهاد حدث منذ عهد الحاكم - قبل ذلك بثلاثة قرون . غير أنه يجب ألا يغرب عن بالنا فى الوقت نفسه، أنه كان هناك إثارة خواطر شديدة من كلا الطرفين ، وأن القلاقل كانت تحدث نتيجة غضب الشعب ، لا نتيجة تعصب الحكام ، ولقد استمر مثل هذا الاضطهاد - ولو أنه لم يكن على هذا النطاق الواسع - خلال [illegible] المماليك ، وبذلك دفع الأقباط - الذين عوملوا بالحسنى والتسامح خلال الفترة الأخيرة من حكم الفاطميين - ثمناً غالياً لذلك التساهل . والواقع أنهم كانوا ينحدرون شيئاً فشيئاً إلى زوايا النسيان والإهمال ، ولكنهم بدءوا يرتفعون أخيراً بعض الشيء .

وبينما كانت الكنائس تخرب وتدمر على تلك الصورة ، كان بناء المساجد يتم على قدم وساق فى اضطراد عجيب . والواقع أن كلا البناء والمهندس لم يلقيا رخاء مثلما لقيا فى عهد الناصر ، وكان السلطان نفسه فى هذا مثالا يحتذى . فقد كان رجلا له ذوق رفيع وثقافة عالية ، كما كان نصيراً للعلم والمتعلمين ، وصديقاً حميماً للمؤرخ العالم « أبى الفداء » الذى أعاده لإمارة « حماه » وهى الإمارة التى استولت عليها عائلته منذ أيام سلفه أخ صلاح الدين . وهكذا كان عصر الناصر عصراً حافلا بالإنتاج الفنى . كما أن المبالغ الطائلة التى أنفقها السلطان وأمراؤه على المبانى وأعمال الزخرفة ، تدل على أن ثروة البلاد كانت موفورة ، وأنها كانت تنفق فى أجمل الوجوه وأحسنها . ولقد أمكن الاحتفاظ ببعض أثاث الناصر نفسه[1] ، كما أن أهم بنائين

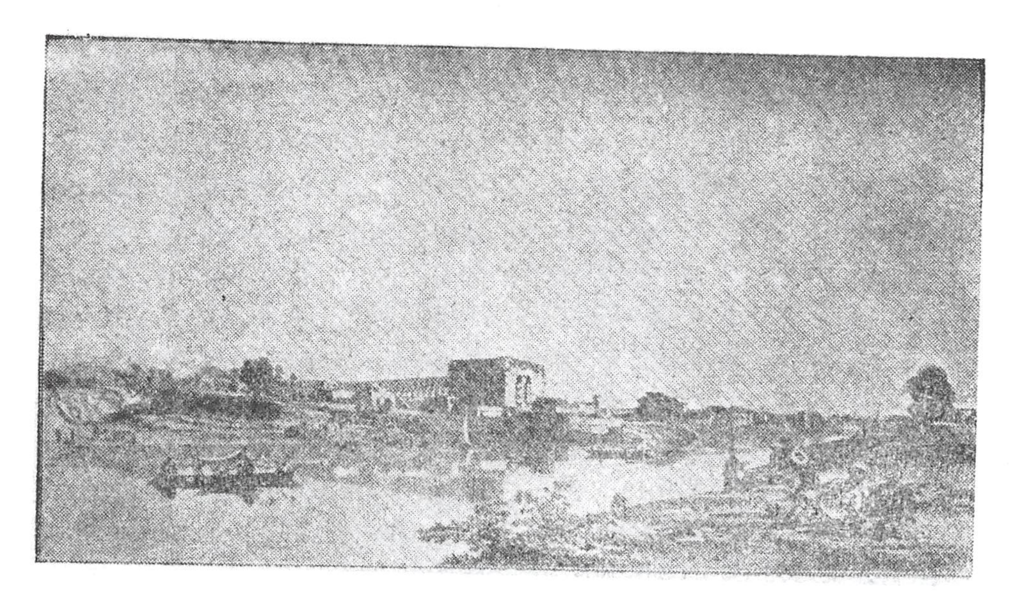
(١) يوجد له فى المتحف العربى بالقاهرة منضدتان منقوشتان بالفضة .

له هما المدرسة التى بين القصرين (١٣٠٤) بجوار المارستان ، التى فيها بوابة على الطراز القوطى[١] أحضرها من عكا أخوه « خليل » ، ثم الجامع القديم (١٣١٨) فى القلعة . وهذان البناءان يدلان على سلامة ذوقه ، على الرغم من أنهما ـ لسوء الحظ ـ لا يدلان إلا على القليل من آثارهما الأصلية . فقد سقطت القبة العظيمة التى كانت تعلو فيما مضى مسجد القلعة . كذلك اختفت أغلب الأحجار الرخامية الملونة التى كانت تزين القبلة ، والنافذة الحديدية التى كانت تفصل مقصورة السلطان . إلا أنه لا يزال يوجد صف من النوافذ حول المسجد ، وإن كان الزجاج المنقوش والملون لم يبق له أثر . ولكن على الرغم من ذلك فإن هناك عشرة أعمدة من الجرانيت ، ونقوش رخامية ملونة على الحائط الجنوبى ، أخرى مختلفة ، ترينا كلها أى مسجد كان هذا فى يوم من الأيام . ولعل أخص مايميزه هو وجود كتابة باللون الأخضر حول مآذنه ، مما قد يعزى إلى النفوذ التترى لزوجة الناصر التى كانت تنتمى إلى العائلة المالكة للقبيلة الذهبية . والفضل فى أن مسجد القلعة لم يتهدم تماماً . يرجع إلى عناية الكولونيل س . م . واتسون Colonel C. M. Watson الذى أنقذه من أن يصبح مخزناً للجيش ، وأزال الحواجز الخشبية التى كانت قد شيدت حينما تحول المسجد إلى سجن . ولقد كان يوجد فى يوم من الأيام « بهو الأعمدة » الخاص « بالقصر الأبلق » الذى بناه الناصر بالحجارة البيضاء والسوداء فى القلعة[٢] ، والذى كان لايزال قائماً منذ ثلاثة قرون . وقد أعيد تنظيم القلعة فى عصره وألحقت بها بعض الأبنية . كذلك فإن القناة التى كانت تمد القلعة بمياه النيل ـ على الرغم من أنها تنسب فى العادة إلى صلاح الدين ، ربما كانت عبارة عن إعادة حفر إحدى المجارى المائية الأيوبية ـ من عمل الناصر (١٣١١) ، ثم رممها « الغورى » فيما بعد بالحجارة ، هذا إلى أنه بنى مسجداً بجوار ضريح السيدة نفيسة ، و « قبة النصر » بجوار الجبل الأحمر ، وغير ذلك من المساجد والقباب .

وحيثما كان السلطان ، تبعه رجال البلاط . ولم يكن أمراء ذلك العهد يهدأ لهم بال مالم يبنوا مسجداً ، أو مدرسة ، أو ضريحاً ينهض دليلا على تقواهم ، ويجلب لهم النعم والخيرات . ولقد تأثر الرحالة المغربى « ابن بطوطه » ـ الذى كان فى

---

(١) أو الطراز التترى أو الجوجى Gothic ـ هندسة القرون الوسطى .
(٢) قيل إن هذا القصر تكلف بناؤه عشرين مليوناً ، ولو أن هذا الرقم يبدو خيالياً .



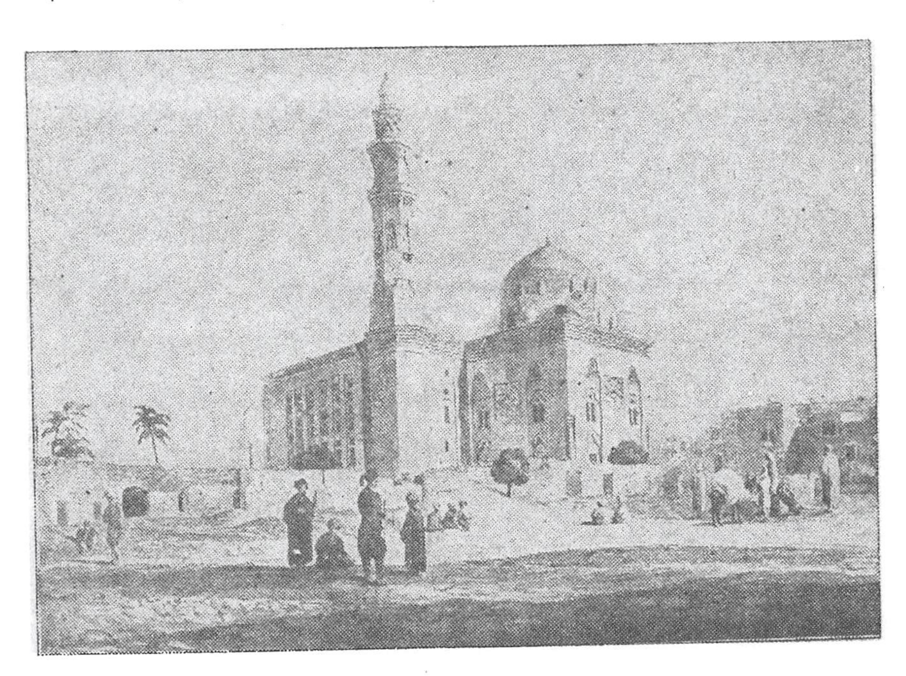
القنطرة المعلقة وراء السبع طواحين المائية

القاهرة عام ١٣٢٦ - من تنافس الأمراء العجيب فى بناء المساجد وصوامع النساء ، مثل « الخانكة » أو « صومعة بيبرس الجاشنكير » التى لا تزال قائمة ، وهو يعطينا وصفاً شائقاً لنظم النسك والعبادة فى ذلك الوقت(١) . كما أنه يذكر لنا أن المدارس كانت أكثر من أن يحصرها عد ، وأنه أعجب أيما اعجاب بمستشفى قلاوون بما فيه من أجهزة وعقاقير ، ونفقاته التى كانت تصل - على حد قوله - إلى ألف دينار كل يوم . ولقد أنشىء أكثر من أربعين مسجداً ومدرسة فيما بين عامى ١٣٢٠ و ١٣٦٠ - أى أكثر من ربع مجموع العدد الذى سجل منذ القرن الهجرى حتى أيام المقريزى - ولا يزال الكثير منها قائماً حتى اليوم ليشهد على كرم النبلاء العظام فى ذلك الوقت . ومن تلك المساجد « جامع الأمير حسين » (٧١٩ هـ - ١٣١٩ م) ، و«جامع الماس» حاجب السلطان (٧٣٠) ، و«جامع قوصون» (٧٣٠) ، و«جامع بشتاك» (٧٣٦) ، و«جامع التنبغا المردانى» ساقى الخمر (٧٤٠) ، و«جامع أسلم» حامل السلاح (٧٤٦) ، و«جامع أقسنقر» (٧٤٧) ، و «جامع أرغون الإسماعيلى» (٧٤٨) ، و«جامع منجك» الوالى (٧٥٠) ، و«جامع شيخو» (٧٥٠) . ومن المدارس :

---

(١) ابن بطوطة ح ١ ص ٧١ - ٧٤ .

«مدرسة الملك» مدرب لعبة ال Polo (٧١٩) ، و «مدرسة سنجر الجاولى» (٧٢٣) ، و«مدرسة أحمد المهمندار» رئيس الاحتفالات (٧٢٥) ، و«مدرسة أكبغا» القهرمان أو ناظر المطبخ (٧٣٤) ، و «مدرسة صرغتمش» رئيس الحرس السلطانى الخاص (٧٥٧) . ومن المعابد : «خانقاه قوصون» (٧٣٦) ، و « خانكة الجاولى » (٧٢٣) ، و«خانكة شيخو» (٧٥٦) . هذا إلى جانب « جامع السيدة مسكه»، وهى من موالى الناصر وتدعى « هوك » (٧٤٠) ، و « مدرسة السيده تتر الحجازية » بنت الناصر (٧٦١) ، و « جامع السلطان حسن » بن الناصر الذى يواجه القلعة (٧٥٧-٧٦٠).

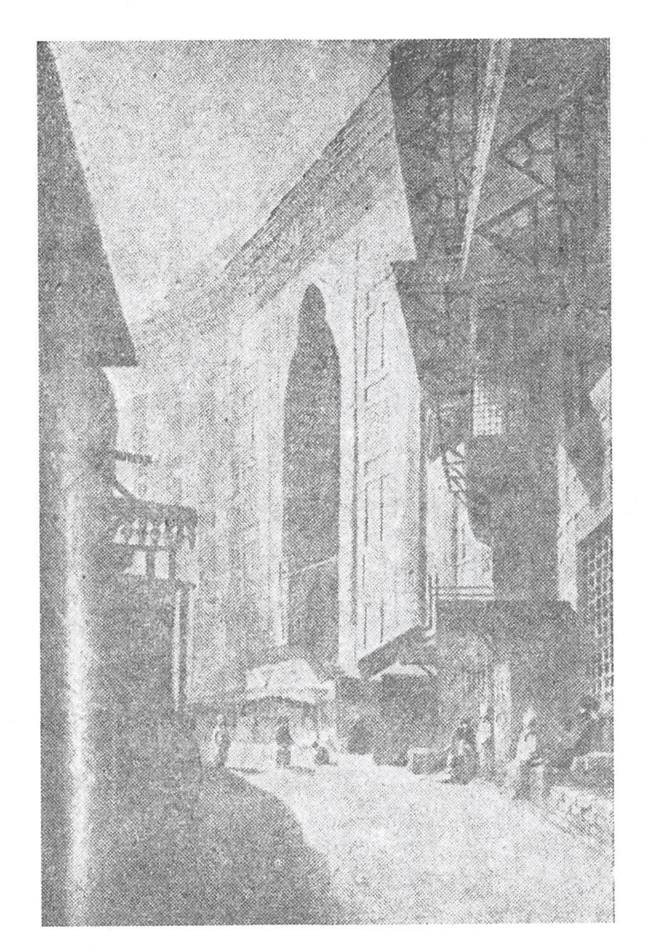


مسجد السلطان حسن

وإذا ما أردنا أن نسهب بعض الشىء فى وصف هذه المساجد الخاصة بفترة «الناصر»، كان علينا أن نكتب سفراً كاملا . حقيقة أن بعض هذه المساجد قد تهدم ولم يعد يمثل البناء الأصلى إلا قليلا . كذلك فإن بعضها قد تم اصلاحه ، مثل : «جامع أقسنقر» الذى أصلحه «ابراهيم أغا» عام ١٦٥٢ ، و«جامع إسماعيلى» الذى أصلحه أحد أفراد الأسرة الخديوية منذ ربع قرن مضى . وكان إصلاح الجامع الأول يدل على ذوق فنى كبير ، على عكس الجامع الثانى الذى لم يكن فيه مثقال ذرة من الذوق حينما أصلح . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن ماتبقى على صورته

الأصلية القديمة من المساجد الأحد عشرة التى سبق ذكرها ، يدل على تنوع واختلاف فى الشكل العام والتفاصيل والنقوش ، حتى أن الوصف هنا لا يمكن أن يعبر تعبيراً صادقا يستغنى به عن مشاهدة هذه المساجد . والواقع أن كلا من هذه المبانى جدير بالبحث الدقيق والدراسة الثاقبة على حدة . ومهما يكن من شىء ، فإننا نستطيع أن نذكر هنا ثلاثة خصائص تتميز بها تلك الأبنية . فالمساجد القديمة لم يكن بها نقوش من الخارج ، إذ كانت الجدران المحيطة بها خلواً من الزخارف والرسوم . ذلك أن واجهة المساجد لم تظهر إلا فى أواخر العهد الفاطمى فى « مسجد الأقمر » . أما مساجد المماليك ـ التى اقتبست من غير شك من مبانى الصليبيين فى فلسطين ـ فإنها تحتوى فى العادة على واجهات جميلة ، ونقوش غائرة ، وأبواب جانبية ، وأفاريز مزينة . والخاصة الثانية هى تطور المآذن التى أصبحت أكثر رونقاً وجمالا ، كما بدأت تبنى بحجارة جميلة الشكل ، وتحتوى على تفاصيل دقيقة وزخارف مختلفة . أما الخاصة الثالثة والأخيرة فهى بناء القباب ، فحتى ذلك الوقت ، كانت القبة الصغيرة فوق المحراب أو فوق المدخل ، هى أقصى ما استطاعت هندســـة البناء القديمة أن تنجزه . حقيقة أن خلفاء صلاح الدين أوجدوا القباب الكبيرة ، مثال ذلك القبة الموجودة فى ضريح الإمام الشافعى فى «القرافة» . وأغلب الظن أن ثمة أبنية أخرى تحتوى على مثل هذه القباب ، إلا أن ما تبقى لنا من أبنيه الأيوبيين ، من القلة بحيث لا يسمح لنا أن ندلى برأى قاطع فى شأنه .

على أن المماليك كانوا بحق سادة بناة القباب . وكان جانب غير قليل من مساجدهم ومدارسهم بمثابة أضرحة لمؤسسيها ، فكان القبر يلاصق البناء الرئيسى ، وكانت القباب شىء يختص بالأضرحة قبل كل شىء . وهكذا بدأت المدينة منذ عهد المماليك تزدان بتلك القباب الجميلة التى مازالت حتى اليوم تضفى على مبانيها صبغة خاصة . ولقـــد جاءت بعد القباب الصغيرة القديمة التى سلف ذكرها ، تلك القباب المنقوشة ، ثم القباب المغطاة بالزخارف الهندسية المختلفة ، والنقوش العربية ، والرسوم الدقيقة ، وجميعها منقوشة على الأحجار . والواقع أن أروع زخرفة ترجع إلى السلاطين الشراكسة فى القرن الخامس عشر ، إلا أن القباب فى القرن الرابع عشر كانت قد احتلت مكانها اللائق بين أهم ما يميز فن البناء العربى .



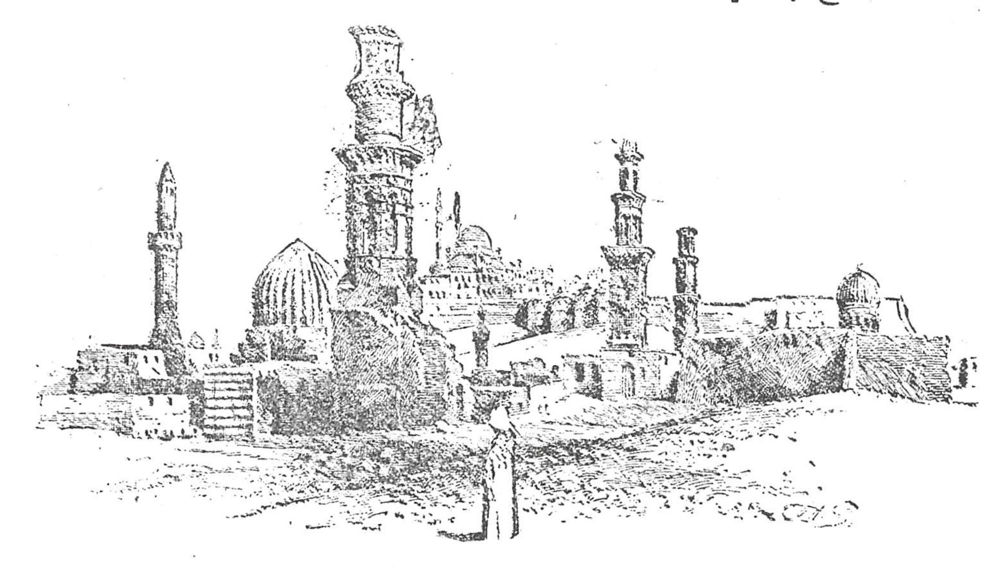
شارع مسجد السلطان حسن

ولعل أحسن مثال لدينا لأسلوب البناء فى القرن الرابع عشر هو جامع السلطان حسن العظيم ، الذى يحتوى على أغلب خصائص عصر الناصر ويعرضها لنا على نطاق واسع . ولقد كان السلطان حسن — الذى جلس على العرش من عام ١٣٤٧ إلى عام ١٣٥١ ، ثم عزله الأمراء ، وبعد ذلك أعيد إلى العرش من عام ١٣٥٤ إلى عام ١٣٦١ — أبعد من أن يكون شخصية محبوبة أو ذات قيمة ؛ إنما كان مسجده هو الشىء الوحيد الذى رفع من اسمه . وقد بنى هذا المسجد فيما بين عامى ١٣٥٦ ، ١٣٥٩ (٧٥٧ — ٧٦٠ ﻫ) ، وقيل إن بناءه كان يكلفه فى اليوم الواحد ألف دينار ، إلا أننا لا نصدق هذه الأرقام التى بالغ فيها مؤرخو الشرق .

ولقد بلغ من شدة إعجاب السلطان وشغفه بهذا المسجد الرائع ، أن أمر بقطع يد المهندس الذى قام بتشييده، ظنا منه أن هذا سوف يحد من عبقريته ولا يتيح له فرصة إعادة بناء مثل هذا المسجد الفريد. ويتكون مسجد السلطان حسن هذا على هيئة مدرسة، إذ يوجد به فناء فى الوسط ، وأربعة أروقة عميقة متفرعة منه . أما ضريح السلطان حسن نفسه ، فيمكن أن يقارن بالهيكل الذى يوجد خلف صحن الكنيسة . أما خارج المسجد فإنه لا يدل بطبيعة الحال على شكله الداخلى ، وذلك لأن زواياه المختلفة بها عدة حجرات ومكاتب . ولعل أول ما يلاحظه الناظر إلى هذا المسجد من الخارج هو ارتفاعه إذا قورن بالمساجد الأخرى المختلفة ، فارتفاع الجدران ١١٣ قدما ، وهى مبنية من حجارة دقيقة مأخوذة من الأهرامات . وتتميز ، على غير ما هو مألوف فى فن البناء العربى ، بوجود قاعدة مسطحة فى أسفلها . أما النوافذ ـ ومنها اثنتان يعلو كلا منهما قوس على شكل (حدوة الحصان) ، والباقية بها قضبان حديدية متقاطعة ـ فإنها على صورتها هذه لا تزين الحائط الضخم العظيم الاتساع ، وإنما الشيء الجميل حقا هو ذلك الإفريز الذى يتكون من ستة صفوف كل منها يعلو الآخر ، والذى يزين الجدار بأكمله . وهناك بعض الأعمدة المنقوشة فى الأركان ، وواجهة فخمة بها مشكاة مقوسة يبلغ ارتفاعها ٦٦ قدما ، وتحتل نصف دائرة مقامة على إثنى عشر صفا . ومما يزيد فى جمال هذه البداية ، تلك النقوش العربية المستديرة الشكل ، والزخارف الهندسية المأطورة ، والأعمـــدة ذات الرءوس المنقوشة الموجودة فى الأركان .

أما فى الداخل ، فإن أول ما يسترعى النظر هو اتساع المسجد العظيم . فالمسافة العظيمة التى توجد بين أضلاع الأروقة الأربع ، التى يبلغ ارتفاعها من الشرق ٩٠ قدما واتساعها ٧٠ قدما تقريبا ، لا مثيل لها فى القاهرة بأسرها . إلا أن الطلاء الداخلى من الجص ينتقص من التأثير العـــام لداخل المسجد . وكذلك الرخام والنقوش الملونة ـ وإن كانت جميلة حقا ـ فإنها لا تصل من حيث تصميمها وتناسقها إلى نظائرها مما يوجد فى محاريب المساجد الأخرى . هذا إلى أن الألوان السوداء والبيضاء والصفراء الموجودة على الجدران زاهية أكثر مما يجب ، وكذلك الحال فى ألوان المنبر . غير أن المشكاة المجوفة نفسها حافلة بالنقوش ، وبدل أن يكون المنبر عاديا مكونا من الخشب المسطح ، فإنه مقام على أعمدة حجرية بها رخام ملون بديع الشكل . وهناك إفريز من النقوش الكوفية حول أعلى الجدران. أما حجرة الضريح ، التى نصل إليها عن طريق المصلى من باب جميل الشكل عليه نقوش عربية

من البرونز ، فإنها محاطة بمسطح من الرخام ارتفاعه ٢٥ قدما ، مكتوب فوقه بالخشب آية الكرسى التى جاءت فى القرآن . وتصل الأركان إلى دائرة القبة بواسطة نقوش وزخارف من الخشب تآكل أكثرها ، أما فى الوسط فيوجد قبر مؤسس المسجد الرخامى . والقبة نفسها على الطراز الحديث نسبيا ، وهى ليست جديرة بهذا المسجد العظيم . وأما القبة الأصلية العظيمة التى أعجب بها « بيترو ديللافالى » Petro della Valle فى عام ١٦١٦ ، فقد سقطت فى عام ١٦٦٠ . وكان لابد أن يكون هناك أربع مآذن ، ولكن المئذنة الثالثة بنيت بصعوبة بعد أن هوت في عام ١٣٦٠ وسحقت ما يقرب من ثلاثمائة طفل فى المدرسة الواقعة فى أسفلها . وبعد ثلاثة وثلاثين يوما أغتيلت حياة السلطان حسن . ولقد تهدمت إحدى المئذنتين الباقيتين ثم أعيد بناؤها فى عام ١٦٥٩ ، غير أنها كانت بالغة القصر . أما المصابيح الكبيرة المصنوعة من البرونز ، والمصابيح الصغيرة ذات الزجاج المنقوش ، فمحفوظة فى متحف الفن العربى بالقاهرة . وفى عام ١٤١٠ نقل « المؤيد » باب المسجد الرئيسى ذا الصفائح البرونزية إلى مسجده الخاص .



مقبرة مسجد برقوق فرج

وكان موقع مسجد السلطان حسن سببا فيما أصابه من تلف . ذلك أن سطحه الفسيح كان مكانا رائعا لإطلاق النار منه خلال الثورات الكثيرة التى حدثت أثناء حكم المماليك . وكثيرا ما كانت النيران تتبادل بينه وبين القلعة حتى عهد محمد

على باشا . ونحن نستطيع أن نشاهد أثر الرصاص الذى ما زال موجوداً فى البناء حتى الآن . وحينما وجد « برقوق » أن هذا المسجد بالغ الخطر كمكان للهجوم ، أمر بهدم درجاته الأنيقة وإغلاق البوابة العظيمة . ولقد حدث أن ظل هذا المسجد مغلقا نصف قرن ، وكان على الطلاب والمصلين أن يلجوه عن طريق إحـــدى النوافذ أو الأبواب الجانبية . وحتى المئذنة العليا كان يربط المئذنة العليا كان يربط فيها حبل متين فى منتصف القرن الخامس عشر يصل إلى القلعة ، وذلك لكى يمشى من فوقه أحد الرياضيين الأوربيين أمام جمهور المتفرجين المعجبين . ومن الواضح أن المسجد كان يمكن أن يسلم من كل هذا لو أنه بنى فى مكان أكثر هدوءاً . ولكن على الرغم من ذلك ، وبعد أن شوه جدرانه الرصاص وزالت قبته ومآذنه الأصلية ، فإنه ما زال أبهى وأجمل أثر من آثار الفن العربى فى القرن الرابع عشر .

ثانيا ـ المماليك البرجية

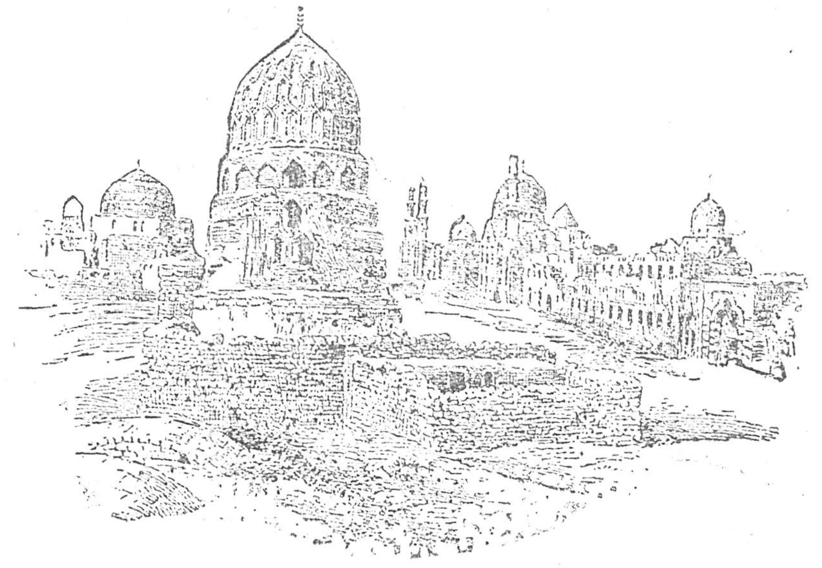
يعد أن حكم سلاطين المماليك من خلفاء الناصر محمد مدة أربعين يوماً ، لا قوا فيها الأمرين من تحكم بعض الأمراء الأقوياء من أمثال « قوصون » و « شيخو » و « صرغتمش » وغيرهم ، اغتصب الأمير « برقوق » السلطة فى عام ١٣٨٢ ، ولم يحدث هذا ثمة تغيير يذكر فى حكومة مصر . فقد كان مبدأ الوراثة فى الواقع أمراً صورياً ، ولم يعمل به فى مصر بصفة جدية إلا فى أواخر القرن التاسع عشر . وكانت الأسرة الحاكمة الجديدة تتكون من بعض الأمراء الذين كانوا يوصون أحياناً بالعرش لأحد الأبناء ـ ثم يأتى أمير آخر فيعزل السلطان القائم ، ومن لم يكن لهم بيت مالك قوى كما كان الحال بالنسبة إلى « قلاوون » . أما الأسرة الحاكمة الجديدة فكانت تسمى « المماليك البرجية » ـ أو مماليك البرج أو الحصن ، وذلك لأنها تنتمى إلى لواء من الجند كان مقيما فى القلعة منذ أن جنده قلاوون قبل ذلك التاريخ بما يقرب من مائة عام . كذلك كانوا يسمون « المماليك الشراكسة » نسبة إلى أصلهم الذى ينتمون إليه ، وذلك لأن أحداً منهم لم يكن تركياً ، ولو أن اثنين منهم كانا من اليونان . ومهما يكن من شىء ، فإنه لم يكن ثمة فارق كبير بين الشراكسة وأسلافهم الأتراك ، وكان التغيير على أى حال من سىء إلى أسوأ . ذلك أن سلاطين الأسرة المملوكية الجديدة أصبحوا تحت سيطرة قواد الجماعات العسكرية أكثر من ذى قبل . ثم أن حرس السلطان أخذ يكون لنفسه حزباً مستقلا ، وكان يسميه نسبة إلى السلطان الجالس على العرش ـ مثل « الأشرفى » و « المؤيدى » و « الناصرى » . أما بعد موته أو عزله ، فقد كان الحزب يبقى عاملا قائماً بذاته من عوامل السياسة ، ويشترك فى كل عام ما يحدث فى عصره من مؤامرات واغتيالات وثورات . ولم يكن السلاطين يستطيعون كبح جماح جنودهم إلا نادرا وإن كثرة تغيير الحكام لتربنا فى جلاء كيف أن العرش لم يكن مستقراً . فقد حكم ستة سلاطين من السلاطين البرجية لمدة مائة وثلاث سنوات من مجموع الفترة كلها التى تبلغ مائة وأربع وثلاثين سنة . ومعنى ذلك أن الإحدى وثلاثين سنة الباقية حكم فيها سبعة عشر حاكما ، أى أن كلا منهم حكم أقل من سنتين .

ولم يكن خلق الحكام يختلف كثيراً عمن سبقوهم ، مع أن الضعف كان يسود البلاد . فقلما كان يوجد بينهم من يعشق الحرب ، ولعل ذلك راجع إلى حد كبير إلى عدم اتصافهم بالهيبة والقوة ، ولم يظهر بذلك من بينهم حكام اتصفوا بخوض غمار الحروب ، من أمثال بيبرس وقلاوون . والواقع أن الشراكسة لم يكونوا جنوداً ، بل أصحاب مشروعات ليس إلا ، فقد كان اعتمادهم على النجاح فى الحرب أو الشجاعة الشخصية أقل من اعتمادهم على المؤامرات والخدع والحيل ، وذلك لرغبتهم فى الاحتفاظ بالسلطة . فقد فاق « خوشقدم » اليونانى سواه فى سياسته الحاذقة إزاء الأحزاب المتخاصمة وفى استيلائه على تلك الرشاوى الفادحة التى كان يستولى عليها نظير بيعه الوظائف العامة . فقد دفع حاكم دمشق خمسة وأربعين ألف دينار للحصول على هذا المنصب ، كما أن وظيفته السابقة بيعت إلى أحد الرجال بمبلغ عشرة آلاف دينار . أما وزراء الدولة فقد كانوا بمعزل عن هذا إذا ما أثار أعداؤهم قيمتها فى نظر اليونان ، ثم أن زيارات هذا السلطان الداهية كانت تكلف من يتشرفون بها كثيراً . ولقد ساد الفساد كثيراً خلال الفترة التى حكمت فيها أسرة الشراكسة ، ولم يكن للعدل أو النزاهة وزن فى سير الأمور الجارية ، حتى أن شيخ الإسلام - وهو الحاكم الدينى - كان يختلس أموال الودائع . وكان الجنود - ممن كانوا يشترون من العبيد البيض من اليونان والشراكسة والأتراك والمغول ، يقومون بثورات فى الشوارع ، حتى أن السيدات لم يجرأن على مغادرة منازلهن . وكان الفلاحون يخشون جلب حاصلاتهم إلى الأسواق حتى لا تقع غنيمة فى يد المماليك أو فى يد الحكومة . أما فى القرى فقد كان الناس يتلاشون إزاء ضغط الجند ، وقلما يوجد فى العاصمة سلام أو نظام . وفى بعض الأحيان كانت الأحزاب المتخاصمة يقاتل بعضها البعض من فوق أسوار القلعة ومن سقف مسجد السلطان حسن المقابل لها ، وتقام المتاريس فى الشوارع ، ويجعل من الأسواق ساحات للقتال ، حيث كان المتمردون يوثقون فى سروج الجمال حتى يلحقهم الموت . وكان كل هذا من الأمور العادية فى ذلك الوقت.

ولكن على الرغم من كل هذا العنف والفساد الذى ساد البلاد ، فقد كان السلاطين البرجية لا يحاولون الاحتفاظ بسلطة مصر فحسب ، وإنما كانوا يعملون على توسيع مستعمراتها وتنمية تجارتها . ولقد وقفوا فى حزم أمام تيمورلنك عام ١٣٩٩ ، ولو أنهم وجدوا فى نهاية الأمر أنه من الأفضل قبول شروطه . ولكن الفاتح العظيم فى الوقت نفسه لم يجرؤ على غزو مصر . ثم أنهم قاموا بعـــدة حملات على آسيا

الصغرى حيث أخضعوا حينا من الوقت كلا من كرمان وقيصرية ولازندا وحتى قبرص التى كانت وكراً للقراصنة الذين كانوا يهددون الملاحة المصرية ، وقد غزوها فى عام سنة ١٤٢٦ بأسطول بحرى مكون من عدة سفن مصنوعة في ميناء بولاق . وبعد أن أسروا الملك جيمس ملك لوزيجنان فى موقعة Chierocitia ، أحضروه ظافرين إلى قلعة القاهرة ومعه تاج قبرص وأعلامها المخذولة ، حيث أرغموه على تقبيل الأرض أمام السلطان بارسباى . ولقد افتداه قنصل البندقية والتجار الأربيون ، ومن ثم ركب خلال الشوارع والأسواق فى عظمة وجلال ، بعد أن أصبح تابعاً للملك مصر . وكانت قبرص تدفع جزية حتى نهاية دولة الشراكسة . إلا أن عدة محاولات لغزو رودس ما بين عامى ١٤٤٠ - ١٤٤٤ كان نصيبها الفشل ، إذ ردت على أعقابها بواسطة الفرسان . وحتى نهاية الأسرة الشركسية كانت الحدود المصرية لا تزال ممتدة شمالا حتى الا Pyramus ونهر الفرات . ولعل من أغرب ما روى فى تاريخ الشرق ، هو امتزاج ذلك الفساد والانحلال وتلك القسوة والوحشية بالرقى فى الحضارة المادية وانتعاش الفن ، مما نلمسه لدى سلاطين المماليك . والواقع أن الشراكسة لم يكونوا أقل من أسلافهم الأتراك فى مضمار هندسة البناء . ولقد كان كثير من سلالة المماليك الثانية ذوى ثقافة عالية ، فقد كان « برقوق » و « المؤيد » و « قايتباى » شغوفين بالمجتمع المثقف والدراسات الأدبية . وعلى الرغم من أن « بارسباى » لم يكن يعرف إلا قليلا من اللغة العربية ، فإنه كان يحب أن يستمع إلى « العينى » وهو يقرأ عليه التاريخ التركى وقصصه . ثم أن « تمربغا » اليونانى كان لغوياً ومؤرخاً وعالما دينياً . هذا إلى أنهم كانوا مسلمين حقيقيين ، يصومون بانتظام ويمتنعون عن شرب الخمر ، ويحجون إلى بيت الله الحرام ، ويضمنون مكانهم فى العالم الآخر ببناء المساجد والمدارس والمستشفيات والمعاهد الدينية . فقد كان « المؤيد » على سبيل المثال ، ولو أنه كان عاجزا تماماً عن إخماد الثورات والاضطرابات فى عهده ، رجل دين وعلم ، موسيقياً بارعاً ، شاعراً ، خطيباً ، مدققاً فى مراعاة أحكام الدين ، بسيطاً كل البساطة فى ملبسه ونظام معيشته ، يسلك سلوك أى مسلم عادى بين جمهرة المصلين ، ويلبس رداء من الصوف الأبيض البسيط حزناً على الوباء الذى اجتاح البلاد . والرواق الشرقى فى مسجده الرائع (١٤١٥ - ١٤٢١) لا يزال موجوداً فى شارع السكرية ، حيث يمكن أن نرى عدداً من الصبيان

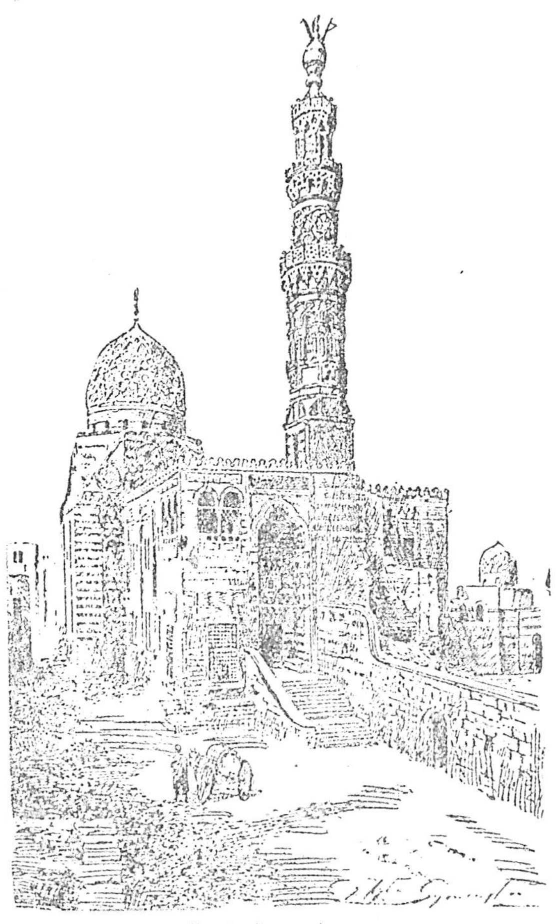
منكبين على الدرس ، ومن فوق رؤوسهم النقوش الذهبية البديعة والزخارف والرسوم المختلفة على الجدران ، وهى التى أحياها باعتناء «هرز بك» الذى اكتشف آثاراً للزخارف الأصلية القديمة التى كاد الزمن أن يذهب بها ، أما مآذن الجامع فمبنية على أبراج باب زويلة الجانبية . وهناك أيضاً مستشفى متهدم (المارستان المؤيدى ١٤١٨) بجوار القلعة مما يدل على تقواه وأعماله الخيرية . ولا يزال جامع بارسباى العظيم - الأشرفية ١٤٢٣ - مكاناً تعقد فيه الاجتماعات ، على جانب الموسكى حيث يؤدى إلى الغورية . ولقد بنى « برقوق » فى عام ١٣٨٦ مدرسة فخمة فيما بين القصرين ، وهى التى قام باصلاحها أخيراً هرز بك . كما يعد ضريحه ذو القبتين -وهو الذى بدأ العمل فيه فى عهده وأكمله من بعده ابنه السلطان فرج فى عام ١٤١٠ - واحداً من أروع ما تحويه المقابر الشرقية بما فيها من قباب جميلة ومآذن رفيعة رقيقة . إلا أن أقرب ضريح إلى الكمال فى تلك المجموعة ، هو ضريح قايتباى (١٤٧٢) ، الذى يمثل آخر ما وصلت إليه المدرسة المملوكية من رقى . والواقع أن النقوش العربية الرائعة الموجودة فى قبته الجميلة ، والانتقال التدريجى البديع فى مئذنته الفخمة من المربع إلى المثمن ، ومن المثمن إلى الدائرة ، ثم البراعة فى تغطية الزوايا المختلفة ، والرخام المنقوش الموجود فى الإيوان - كل هذه الأشياء تعتبر تحفاً فنية رائعة على الرغم من الإهمال والتخريب الذى لحقها فى القرون المختلفة .



القرافة الشرقية — مقابر الخلفاء

أما «قايتباى» ـ الذى يعتبر حكمه الذى بلغ ثمانية وعشرين عاماً (١٤٦٨ — ١٤٩٦) حادثاً غريبا فى تلك الدولة السريعة التغير ـ فقد شق طريقه بنفسه ، رغم أنه لم يكن من أصل نبيل . ذلك أن «بارسباى» اشتراه بادىء ذى بدء بمبلغ خمس وعشرين جنيها ، ثم طفق يتنقل من سيد إلى آخر ، ويرتقى من درجة إلى أخرى ، حتى انتهى به المطاف إلى أن أصبح القائد الأعلى للجيش أيام «تمربغا» اليونانى . ولقد كلف ذلك الجيش خزانة الدولة ما يقرب من ثلاثمائة ألف جنيه ، وهو اعتماد ضخم للجيش فى القرن الخامس عشر . وكان قايتباى جنديا محنكا ، وبارعا فى رمى الرماح ، وقد أكسبته حياته خبرة ودراية بالعالم ، وكان يتصف بالشجاعة ، والعدل ، وبعد النظر ، والنشاط ، والحزم . ولقد طغت شخصيته على مماليكه الذين كانوا يخلصون له ويخشون منافسيه . وكانت قوته الجثمانية تظهر أحيانا حينما كان يصفع بنفسه فى بعض الأحيان رئيس مجلس الدولة أو غيره من كبار الموظفين ، لحثهم على اغتصاب المال لخزانة الدولة . وقد كانت تلك الاغتصابات والضرائب الباهظة ضرورية لمواجهة الحروب التى كان عليه أن يشنها . ومن ثم وجدناه لا يكتفى بضريبة الأرض التى كانت تبلغ خمس المحصول الناتج منها ، بل أضاف إليها ضريبة جديدة بمعدل نصف درهم على كل أردب من القمح . أما أغنياء اليهود والمسيحيين فقد كانت تمتص أموالهم فى غير رحمة ولا شفقة ، وكان هناك كثير من مظاهر القسوة : فقد كان الأبرياء يضربون بالسياط حتى يدركهم الموت فى كثير من الأحيان ، وقد حدث أن فُقئت عينا الكيماوى «على بن المرشوشى» وقطع لسانه لأنه لم يستطع أن يحيل الصدأ ذهبا .

وعرف عن السلطان البخل إلى درجة الشح ، ومع ذلك فإن قائمة الأعمال العامة التى قام بها ـ لا فى مصر وحدها ، وإنما فى سوريا وبلاد العرب ـ تدلنا فى جلاء على أنه أنفق دخل البلاد على أشياء رائعة . فمسجداه فى القاهرة ـ وأحدهما فى الخارج بين «مدافن الخلفاء» (١٤٧٢) والآخر بالقرب من مسجد ابن طولون (١٤٧٥) والوكالات التى بناها ، تعتبر من أجمل نماذج الزخرفة العربية فى فن البناء الإسلامى . ثم أنه عمل كثيراً على إصلاح آثار أسلافه المتهدمة ، كما تشهد بذلك النقوش المختلفة فى المساجد والمدارس والقلعة وغير ذلك من مبانى القاهرة الكثيرة . هذا إلى أنه كان كثير الأسفار ، إذ رحل إلى سوريا ونهر الفرات



مسجد قايتباى ـ القرافة الشرقية

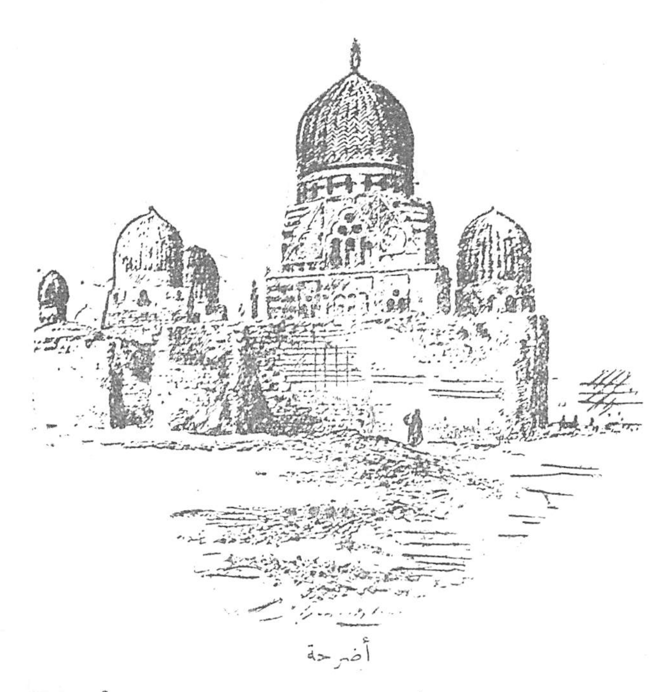
وصعيد مصر والوجه البحرى ، كما كان يقوم بزيارة مكة وبيت المقدس . وحيثما ذهب ، كان يترك آثاراً للتقدم فى الطرق الجيدة الممهدة ، والجسور ، والمساجد والمدارس ، والتحصينات ، وغير ذلك من الأعمال الخيرية أو غيرها . والواقع أنه مامن حكم ـ عدا حكم الناصر بن قلاوون ـ خلال فترة المماليك الطويلة ، يفوق هذا الحكم فى مضمار البناء والفنون المختلفة . حقيقة أن الشعب دفع ثمن هذه الأشياء غالياً ، إلا أن جمالها بقى لتشهد به الأجيال المتعاقبة (١) .

ونحن نستطيع أن نتبين في مبانى « قايتباى » ومعاصريه ، إتقان الفن العربى الخالص والنقوش الهندسية الرفيعة . وفى بداية تاريخ الفن العربى ، كانت الزخارف

(١) أنظر كتاب المؤلف A History of Egypt in the Middle Ages ص ٣٤٤ .

تصنع من الجص الرقيق . وكان استخدام الآلة - لا القالب - فى هذه المادة الرقيقة يكسب النقش حرية فى الأداء ، مثال ذلك النقوش الموجودة فى جامع ابن طولون . وقد استمر الجص أساس زخرفة الأفاريز طوال الفترة الفاطمية . ويمكن رؤيته فى الأروقة الأصلية القديمة للجامع الأزهر ، وفى المصلى الشرقى لجامع الحاكم . وعلى أى حال ، فإن أجمل نموذج للنقوش المصنوعة من الجص يمكن رؤيته فى مسجد قلاوون وضريحه ، حيث تتكون أطراف الأقواس التى كانت تحمل القبة الأصلية القديمة ، وكذلك أقواس النوافذ العليا من نقوش رقيقة مصنوعة من الجص مستمرة حول نطاق واسع ، بحيث يصعب على الناظر أن يتوقف قبل أن يجيل نظره فيها بأكملها . وبعد « الناصر » - الذى استعمل أيضا الملاط - كان الحجر يفضل بدلا من الجص ، على الرغم من أننا لا نزال نشاهد نماذج رائعة للنقوش المصنوعة من الجص فى قبة أقسنقر وفى الزخارف الجميلة الموجودة فى « القبة الفدويه » . وفى جامع السلطان حسن ، نجد جميع النقوش - ماعدا الإفريز الكوفى - مصنوعة من الحجر ، وبما أن هذه المادة صلبة لاتلين ، فإننا نلمس لأول وهلة شيئاً من الجفاف والصلابة فى النقش ، وتقييداً فى خطوط الزخرفة ، وميلا إلى إحلال الرسوم الهندسية محل النقوش العربية الخالصة . ويعتبر المنبر الحجرى الذى بناه « قايتباى » عام ١٤٨٣ فى مسجد برقوق ، واحداً من أروع نماذج النقوش الهندسية فى القاهرة فنظره الجانبي مثلث الشكل ، شأنه فى ذلك شأن المنابر الخشبية الموجودة فى سائر المساجد الأخرى . ولكن بدلا من ألواح الخشب الجانبية الموشاة بالزخارف والنقوش المختلفة ، نجده يتكون بأكمله من ألواح حجرية ملتصقة ببعضها ، وعليها رسوم هندسية تغطى السطح جميعه ، بحيث يتكون فى مجموعه من شبكة من الزخارف البديعة التى تكون شكل أنموذج للنجمة ، يشغل الفراغ فيها أزهار منقوشة على الطراز العربى الجميل . ومثل هذه النقوش تزين جوانب السلم الحلزونى والرواق فى ذلك المنبر الفريد .

ولقد كان « قايتباى » أكثر مهندسى القاهرة تدقيقا ، إذ لم يسمح بأى إهمال بسيط فى أبنيته. هذا إلى أن الزخارف الكثيرة التى كانت تزينها ، كانت تنقش جميعا



أضرحة

على الحجر الجيرى (الكلس) أو الرخام[١] . ونحن نستطيع أن ندرك بهاء هذه الزينة وفخامتها حينما نرى مسجده داخل المدينة بالقرب من مسجد أحمد بن طولون، حيث يتكون الرواق الأساسى فيه من إثنتين وعشرين كتلة من الحجر على كل جانب ، لونها أبيض وأحمر على التبادل ، وكل واحدة من الحجارة البيضاء مغطاة برسوم هندسية أو نقوش عربية ، بحيث لا توجد إثنتان منها متماثلتان . وتتكون النقوش العربية من شكل زهرة النفل وحولها أوراق الشجر المتشابكة فى صورة تقليدية جميلة . أما الرسوم الهندسية - ولو أنها تبدو لأول وهلة أنها مكونة من أشكال خماسية وسداسية غير منتظمة - فإنهـــا منقوشة فى صورة منتظمة . وتكون فى مجموعها رسما رائعا . ويلاحظ فوق أطراف الأقواس أيقونة - ومثلها كثير فى القاهرة - عليها إسم السلطان وبعض الدعاء له . وهناك بضعة سور قرآنية مكتوبة على شكل إفريز ويتخللها بعض النقوش العربية ، أسفل تيجان الأعمدة . والتأثير

---

(١) لم يكن استخدام الرخام شائعاً قبل القرن الثالث عشر حيث بدأ فى استخدامه على أوجه الكنائس . وأحسن ما يمكن أن نراه منه فى السقوف المنقوشة والجدران التى على الطراز «الموازيك» Mosaic . وكانت هذه الجدران تتكون من قطع رخامية مختلفة الألوان تلصق إما بالملاط أو تثبت فى لوح كبير من الرخام .

العام لكل، هذا هو الإسراف العجيب فى النقوش والزينة ، إذ لا توجد مسافة مهما صغرت إلا ونجد عليهـــا بعض الرسوم . وحتى الوكالات والحانات لم يتركها « قايتباى » دون شىء من الزخارف الرقيقة ، وقليلة هى تلك المبانى فى القاهرة التى تفوق فى زخرفتها تلك الوكالة التى توجد فى الشارع الواقع غرب الجامع الأزهر . أما الداخل فإنه لسوء الحظ قد لحقه البلى ، ولكن ما من شك فى أنه كان يحوى أبدع الرسوم فى يوم من الأيام . وأما الواجهة فإنها لا تزال فى حالة جيدة ، وتستحق دراسة فاحصة من جانب كل من يرغب فى تفهم النقوش العربية والهندسية فى أحسن صورها وأجلاها (١) . وحين نصفها بذلك ، قد تكون هناك معارضة فحواها أن بعض النقوش تتكرر فى صورة واحدة متشابهة ، على عكس الطريقة الأمينة التى كان يتبعها قدامى الفنانين الذين كانوا يمقتون التكرار ويحتقرونه . غير أنه فى عصر « قايتباى » ، أدرك القوم أن لوحدة الشكل Uniformity جمال معين ، كما وجدوا أن تناسق الرسوم وتكرارها يحدث تأثيراً رائعاً . ويعتبر هذا التغيير جزءاً من الاتجاه العام إزاء الهندسة الموحدة والزخارف الرتيبة ، التى تميز أسلوب الفترة الأخيرة من عهد المماليك . ومهما يكن من شىء ، فإنه يوجد هناك تنوع كثير فى النقوش العربية والهندسية التى تزين الحدود العليا لثلاث عشرة حانوتا ، وفي البوابة المقدسة الجميلة الموجودة فى الوسط ، وفى العامود المنقوش الموجود فى الركن بجوار السبيل ، بما فيه من زخارف رائعة فى قمته . وليس ثمة ريب فى أن هذه الوكالة كانت فى حالتها القديمة من أروع الأبنية وأبهاها ، وحتى وهى على هذه الصورة الراهنة ، نستطيع أن نعتبرها بمثـــابة مرجع للزخارف العربية .

والواقع أن أغلب عصر « قايتباى » كان تكراراً — من حيث البناء — لعصر « الناصر » الزاهر . ومساجد الشراكسة هى فى العادة أكثر مايفضل المهندسون ، وحتى النظارة العاديين الذين لاخبرة لهم فى مثل هذه الأشياء ، فأجزاؤها المتناسقة ومآذنها الأنيقة ، وقبابها الجميلة النقش ، وواجهاتها الفاخرة ، وتيجان أعمدتها

---

(١) عندما كنت فى القاهرة عام ١٨٨٣ استخرجت على ورق (عليه طبقة من الجص الباريسى الممزوج بالغراء) جميع النقوش الموجودة فى هذه الوكالة . ويمكن معاينة بعض النقوش التى صنعت من تلك القوالب فى المتحف الموجود فى South Kensington .

المنقوشة ، وزواياها الحافلة بالزخارف ، ورخامها رائع الرسم ، وقبلاتها كثيرة النقوش - كلها بالغة الروعة فى الذوق والوضع . وإلى جانب مسجدى قايتباى الفاخرين ، نجد مساجد الأمراء «أزبك اليوسفى» (١٤٩٥) و«خير بك» (١٥٠٢) والأمير «أخورقانى بك» (١٥٠٣) - حافلة بالنقوش الدقيقة الجميلة . ولعل أروع أنموذج لفن البناء الشركسى جدير بالمشاهدة ، هو مدرسة القاضى أبو بكر بن مظهر (١٤٨٠) ، التى تم إصلاحها بمهارة فائقة على أيدى «جماعة حفظ الآثار العربية» . التى بذل مهندسها هرز بك مجهوداً صادقاً فى تتبع الألوان الأصلية وإعادتها إلى ما كانت عليه . وهناك إصلاح دقيق آخر حدث فى مسجد الأمير «كجماس الإسحاقى» (١٤٨١) . وكلا الإصلاحين يدلان على تحسن واضح عن التجارب الأولى التى أجريت لإصلاح مدرسة البرقوقية .

ويلاحظ أن الشكل الصليبى القديم للمدارس قد حدث فيه تعديل كبير فى القرن الخامس عشر . وعلى الرغم من أن «المدرسة» كانت لا تزال معهداً للعلم ، إلا أنها بدأت تتعدى على وظيفة «الجامع» أو المسجد الذى تعقد فيه الاجتماعات . وهكذا كانت صلاة الجمعة تقام فى المدرسة ، حيث لم تكن تبنى هناك سوى جوامع قليلة - وكان أهمها جوامع «المؤيد» و «بارسباى» و «أزبك» - وقد وسع الفناء والجناح الأيمن (المصلى) ، بينما أصبحت الأجنحة الجانبية أصغر عن ذى قبل ، بحيث لم تعد سوى أجواف ضيقة . وربما كان تضييق الأجنحة الجانبية على هذه الصورة يرجع - إلى حد ما - إلى أنه لم يكن يتبع من المذاهب الأربعة القديمة فى مصر سوى إثنين ، هما المذهب الشافعى والمذهب الحنفى ، ومن ثم لم تبق هناك حاجة إلى الاحتفاظ بأربع قاعات منفصلة للمحاضرات . وكانت النتيجة أن وجدنا هناك توفيق بين المدرسة والجامع فى عهد السلاطين الشراكسة ، إذ أدخل تعديل على صورة المدرسة ، بحيث أصبحت تلائم مقتضيات الجامع . وهذه الصورة المعدلة للمدرسة تعتبر شائعة إلى حد بعيد فى فن البناء الشركسى ، ولعل أهم خواص هذه الصورة الجديدة - اتساع المصلى وصغر الأجنحة الجانبية - تتضح لنا فى جلاء فى مدرسة «كجماس»[1] .

---

(١) أنظر كتاب M. Van Berchem : Corpus Inscr. Arabicarum ص ٥٣٣ فيما يختص بتغيير الشكل الصليبى للمدرسة .

وإلى نهاية عصر المماليك فى مصر ، وحينما أصبح الغزو العثمانى قاب قوسين أو أدنى، كان المماليك الشراكسة يحتفظون بكثير من قوتهم وقدرتهم . والواقع أنه لا يوجد فى سلالتهم أعجب من ذلك السلطان الطاعن فى السن « الغورى » ، والذى اعتلى العرش فى عام ١٥٠١ بعد أن تولى العرش أربعة سلاطين خلفوا «قايتباى» ، كل واحد منهم كان أضعف من الآخر. وكان الغورى هذا رجلا ذا رأى قاطع وعزيمة ماضية ، إذ أخمد الفوضى التى حدثت فى القاهرة ، وجمع ضريبة عشرة أشهر دفعة واحدة حتى يملأ خزينة الدولة ، كما فرض ضرائب جديدة على الطواحين المائية ، والقوارب والجمال ، واليهود ، والمسيحيين ، والخدم ، وكل مورد يمكن استغلاله . كذلك عمل على زيادة الرسوم الجمركية ، واحتكر الضياع الواسعة ، وفرض ضرائب ثقيلة على الموتى . وبعد أن أنعش دخل الدولة على هذه الصورة ، وصار اسمه مقرونا بالسلب والاغتصاب ، بدأ ينفق فى سخاء على الأعمال العامة العظيمة . وكان من بين أعماله الجليلة شق الطرق ، وحفر الترع ، وتحصين السواحل ، وتوسيع قلعة القاهرة ، وتحسين طريق الحجاج إلى مكة ، ولا تزال مدرسته (١٥٠٣) ومسجده (الذى لم يدفن فيه) يواجه كل منهما الآخر ، على جانبين متقابلين من الشارع الذى يحمل إسمه - الغورية - على الرغم من التشويه الذى لحقهما أثناء الإصلاح الأخرق الذى أجرى فيهما منذ ثلاثين عاماً . كذلك فإنه بنى مئذنة للجامع الأزهر ، وشيد مقياس النيل بجزيرة الروضة ، وسبيل المؤمنين فى الرميله ، وطواحين المياه فى مصر العتيقة ، كما أصلح قناة المياه التى تصل إلى القلعة. وكان أنيقاً فى قصره، كريماً بالنسبة إلى الشعراء والموسيقيين ، فى حين كان يفرض غرامة على وارثى نبلائه ويسلب من اليتامى أموالهم . وعندما تحقق من أهمية تجارة الهند - التى كان يهددها البرتغاليون فى ذلك الوقت - أنشأ أسطولا فى البحر الأحمر وأرسله إلى الهند ، حيث هزم - بمساعدة حاكم ديو Diu - البرتغاليون المهربين بقيادة « الميدا Almida » فى موقعة خارج « شول Chaul » عام ١٥٠٨ . وفى النهاية - بعد أن كان السيف قد سبق العزل - قاد جيشه إلى سوريا ليحارب العثمانيين المتقدمين ، وسقط وهو يحارب فى سن السادسة والسبعين فى موقعة « مرج دابق» المشئومة بالقرب من «ألبو Aleppo » ، حيث انسحب جانبان من الجيش بقيادة « خيربك » و « الغزالى » وتركا السلطان العجوز وحيداً مع حرسه لتطأه بأقدامها

جياد الفرسان الذين حاول عبثاً أن يجمع شملهم ، وكان ذلك فى الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ١٥١٦ . وفى موقعة أخرى فى هليوبوليس شمال القاهرة ، كان انهزام المماليك ساحقاً . ولقد حاول « طومان باى » أن يحول دون تقدم الغزاة عند « باب النصر » ، إلا أن « سليما » استدرجه إلى الجانب الآخر ، حيث دار هناك قتال بدأ بيد فى الشوارع ، ودمرت القلعة ، وصلب « طومان باى » عند « باب زويلة » ، وبذلك صارت مصر ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية .

الباب الثامن

مدينة ألف ليلة وليلة

إتساع القاهرة — ظهور بولاق — المساجد — الاقتراب من بولاق — ألف ليلة وليلة في القاهرة — تجارة الترانسيت في مصر — حوانيت التجار — خان الخليلي — خان مسرور — وكالة قوصون وسوق الأزهار — الشوارع والأحياء — فن النقش على الفضة — صناعة المعادن في القاهرة — البندقية — نحت الخشب — عمل المشربية — خصائص الفن العربي — رجال الأدب خلال فترة المماليك .

انتهينا في الفصل السابق ، من تاريخ القاهرة كعاصمة لدولة مستقلة ، ووصفنا بعض المباني الجميلة التي كان يزين بها السلاطين المماليك والنبلاء المدينة . إلا أن حياة المدينة لاتقتصر على مايدور في بلاط الملك ، ونحن إذ نقتصر على التحدث عن السلاطين وما بنوه من مساجد ومدارس ومقابر ، لانكون إلا صورة جد ناقصة عن القاهرة في العصر الوسيط . وعلى الرغم من أن المدينة تعثرت تحت أقدام الفاتحين الظافرين ، إلا أنه كان لها حياة حافلة خاصة بها تتمثل في التجارة الرائجة ، والسعادة الاجتماعية ، والثقافة الأدبية . ولم يعد المجتمع القاهري مقصوراً على رجال البلاط بين جدران القصور الفاطمية الشامخة ، إنما اتسع إلى كل جهة ماعدا الشرق . فقد تدفق إلى ما وراء الأبواب الشمالية وكون الضاحية الجديدة التي تسمى « الحسينية » ، حيث أقيمت عدة مساجد وأضرحة . كما أنه انتشر إلى الغرب في المسافة الواقعة بين الحائط الفاطمي القديم ونهر النيل ، ولقد تراجع النهر إذ ذاك فمهد لتكوين ميناء بولاق الجديدة وعدداً كبيراً من المنازل فوق ذلك الجزء الذي كان فيما مضى مجرى للنيل ، ثم حدث أن تحطمت سفينة تسمى « الفيل » كان من نتيجتها أن تكون شاطىء رملي يدعى « جزيرة الفيل » ، وهي الجزيرة التي غيرت مجرى النيل وأوجدت موقعاً ممتازاً للبناء . أما في الجنوب ، فإن المسافة التي كانت توجد بين الأسوار الفاطمية والقلعة ومسجد ابن طولون — حيث لم يكن يوجد فيها أيام صلاح الدين الأيوبي سوى الحدائق والمنازل الصيفية والغدران التي

تنشأ من فيضان النيل ـ قد ازدحمت بالمنازل التى كان يبرز من بينها عدد كبير من قباب المماليك ومآذنهم .

ويمكن تتبع اتساع المدينة ، فى السجل القيم الذى وضعه المقريزى عن بناء المساجد ، مما يستلزم بطبيعة الحال وجود سكان مجاورين . ويدل مسجد « يونس » (عام ٧١٩) ومسجد « ابن الطباخ » (ابن طاهى الناصر ـ عام ٧٤٦) فى حى « اللوق » ، على أن النهر قد ارتد عن المكان الذى كان يجرى بالقرب منه فيما مضى . وعلى نفس الصورة يدل أساس مسجد « ابن غازى » (٧٤١) ومسجد « الطواشى » (٧٤٥) إلى الخارج من (أو غرب) باب البحر ، ثم زاوية « أبو السعود » (٧٢٤) خارج باب القنطرة ـ على أنه حدث هناك اتساع إلى جهة الغرب ، على الرغم من أن الأرض فى تلك الجهة لم تكن تغمرها المياه فيما مضى . ويمكن أن نستدل من تاريخ المساجد على الاتساع المعظم الذى حدث إلى الشمال نتيجة ارتفاع « جزيرة الفيل » قبل عام ١٢٠٠ ميلادية وعلى ظهور « بولاق » بعد ذلك بمائة عام . ويحدثنا « المقريزى » بأن « جزيرة الفيل » لم تكن تغمرها المياه إلا أيام الفيضان فقط ، أما بقية العام فكانت تبقى عبارة عن مسطح من الرمال والأعشاب ، حيث كان المماليك يتدربون على الرماية فى الوقت الذى كانوا يجهلون فيه لعبة « الجولف » . غير أنه حينما تراجع نهر النيل ، أخذ الناس فى عام ١٣١٣ يشيدون المنازل نتيجة للإصلاحات التى قام بها الناصر فى تلك الجهة ، إذ حفر القناة الجديدة التى كانت تعرف فى ذلك الوقت باسم « خليج الناصرى » ، والتى تعرف الآن باسم « الإسماعيلية » وكانت تستخدم بمثابة مصرف للبقاع هناك ، وقد أعلن هناك فى القاهرة ومصر بوجوب البناء فى تلك المنطقة دون تأخير ، ومن ثم أخذ الأمراء والجنود والتجار وأفراد الشعب يبنون لهم منازل هناك ، وهكذا برزت بولاق إلى الوجود فى تلك الفترة (١) . ويضيف لنا المقريزى إلى هذا أن المياه كانت تؤخذ من النيل بواسطة السواقى التى كانت توجد حيث بنى مسجد « الخطيرى » فيما بعد ، مما يدل على أن النهر لم يتراجع كثيراً منذ ذلك الوقت ، لأنه مازال يجرى حتى الآن بالقرب من هذا المسجد الذى بناه « أيدمر

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

الخطيرى ، عام ٧٣٧ على أرض كانت تغمرها المياه قبل ذلك التاريخ بثلاثين عاماً . ومن بين المساجد الأخرى فى بولاق مسجد «ابن صارم » و الباسطى » (٨١٧) .

وكان يوجد وراء ، أو شرق ، بولاق ـ فى المكان الذى يسمى الآن طريق العباسية ـ قطعة من الأرض بجوار جزيرة الفيل تسمى « أرض الطباله » ، وذلك لأن الخليفة « المستنصر » أهداها إلى فتاة مغنية كانت تشيد بمجد الفاطميين بمصاحبة طبلتها . وهناك أيضاً بدأت المنازل تقام ، كما شيد مسجد « الكيمختى » على « القناة الجديدة » فى عام ٧٩٠ هجرية . وكان قد أقيم قبل ذلك مسجد « الأسيوطى » حوالى عام ٧٤٠ فوق جزيرة الفيل ، كما أقيم مسجد « ساروجا » على القناة الجديدة بالقرب من « بركة الرطلى » . وإلى جهة الشرق أيضاً نجد عدداً من المساجد مقامة فى الأحياء الجديدة خارج أسوار المدينة القديمة ، منها جامع « الملك » (٧٣٢) ، و « ابن الفلك » فى حى الحسينية ؛ و « أقوش » ، « ابن المغربى » على القناة فى الخارج ؛ ثم صوامع « يونس » ، « الجبغا » (٧٥٠) ، « ابن غراب » (٧٩٨) ، ثم زوايا « الجعبرى » (٦٨٧) ، « نصر » (٧١٩) ، « القلندرية » (٧٢٢) ، « الخلاتى » (٧٣٧) إلى الخارج من « باب النصر » ـ وكلها تشهد على اتساع المدينة إلى جهة الشمال .

والواقع أن القاهرة كان لها إلى حد بعيد نفس الأجزاء التى كانت لها منذ خمسين عاماً ، قبل أن تنمو الأحياء الأوروبية على نهر النيل . ومن المحتمل أن يكون هناك فارق بسيط ـ سواء فى المظهر الخارجى أو حياة الطبقتين الوسطى والدنيا ـ بين القاهرة فى القرن الخامس عشر ، وبين المدينة التى زارها وكتب عنها أو صورها الأوربيون أمثال ولكنسن Wilkinson وبوخاردت Burckhardt ولين Lane وجون فيليب John Philip وهاى Hay فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ويوجد فى هذا الكتاب بعض رسوم Hay و O. B. Carter التى صورت حوالى عام ١٨٣٠ ، وهى يمكن أن تمثل بحق المدينة التى كانت لا تزال بأهم خصائصها فى العصر الوسيط .

وكانت القاهرة فى ذلك الوقت تبدو مختلفة كل الاختلاف بالنسبة لكل قادم جديد يصل إليها من الاسكندرية عن طريق الترعة المحمودية ثم يرسو فى بولاق .

إذ كان عليه حينئذ أن يركب ميلا كاملا من شاطىء النهر فى بولاق حتى « الباب الحديد » حيث كنت تدخل القاهرة من الزاوية الشمالية الغربية ، وبدلا من المنازل الكثيرة التى توجد اليوم ، لم تكن ترى منزلا واحداً فى ذلك الوقت . ويحدثنا « لين » Lane(١) بأنه يوجد هناك طريقان رئيسيان يتماثلان تقريباً فى الطول يؤديان من بولاق إلى القاهرة ، إما الطريق الشمالى ـ الذى يتعرج فى بعض الأحيان ـ فهو يعتبر الطريق الرئيسى للتجارة ، إذ لم تكن هناك سكك حديدية فى ذلك الوقت ، فيؤدى إلى « الباب الحديد » . وأما الطريق الجنوبى ، فبعد أن يعبر قناتين يدخل الجانب الغربى من الأزبكية . ونحن إذ نسلك الطريق الأخير ، نمر بمسجد « أبى العلاء » على الجانب الأيمن ، ولقد عمل الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر على تعلية هذا الطريق ، بقصد مده خلال المدينة حتى ينتهى إلى القلعة . وهو طريق مستقيم ومتسع ، إلا أنه غير مستو ، وينقصه صف من الأشجار على جانبه الجنوبى لكى يظله . وقد تم تعلية هذا الطريق بضعه أقدام فوق مستوى السهل ، حتى يصبح بعيداً عن تأثير الفيضان . ويوجد على كلا الجانبين خلال فترة الفيضان مستنقعات وحقول غارقة . وحالما يرتد الماء عن هذه الأراضى ، يبذر فيها القمح والفول والنفل وغير ذلك . ثم إنك تجد هنا وهناك بعض أشجار النخيل والجميز والسنط . وكان يحد السهل شرقا فيما مضى تلال كثيرة من القاذورات (هى بدون شك بقايا المقس) كانت تختفى المدينة وراءها تقريباً . ويعبر الطريق قناتين يوجد فوق كل منها جسر مبنى من الحجر ، وعلى طول الجانب الغربى من القناة الثانية ـ على يمين الطريق ـ توجد سلسلة طويلة من الأنقاض والقاذورات . ومن أعلى هذه السلسلة ـ على بعد حوالى ربع ميل من باب الأزبكية ـ نستطيع أن نحصل على منظر عام للقاهرة .

ذلك هو طريق الوصول إلى القاهرة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولئن كان الوصف يكتنفه شىء من الوحشة والخشونة ، إلا أنه يرينا فى الوقت نفسه أى مكان كانت مصر قبل أن يدخل فيها البناء الأوربى . وحينما كان السائح يسير مكدوداً فى الطريق غير المستو بين حقول الفول فى عام ١٨٣٥ ، إنما كان يخترق

(١) لين : « القاهرة منذ خمسين سنة » ص ٣٤ ـ ٣٥ Lane: Cairo Fifty Years Ago

تماماً نفس المكان الذى كان يطأه فرسان المماليك بضعة قرون ، وكان يقترب من مدينة كانت فى جملتها مدينة ألف ليلة وليلة . وليس هناك أى شك - كما هو واضح فى الداخل - فى أن هذه القصص المشهورة نشأت فى القاهرة . وبطبيعة الحال يمكن تتبع أصـــولها إلى حد بعيد فى بلاد الفرس والهند ، إلا أنها اصطبغت بصبغتها النهائية فى مصر . وعلى الرغم من أن كثيراً من مناظرها يقع فى بغداد - حيث لعب هارون الرشيد المشهور دوراً ظاهراً وغريباً فى آن واحد - فإنه من الواضح لدى أى طالب من طلاب الطوبوغرافيا أن الكتاب كانوا يعرفون مدينة الخليفة على وجه جد ناقص . إنما القاهرة هى التى يعرفونها ويصفونها ، مهما يكن من شأن الأسماء التى يعطونها لمناظر رواياتهم . وهناك مايجعل من المحتمل أن تكون ألف ليلة وليلة قد اتخذت صبغتها الحالية - فى كل كبيرة وصغيرة - قبل منتصف القرن الرابع عشر . وآخر شخصية تاريخية ذكرت هى صلاح الدين ، وهناك كثير من الأسباب التى تجعلنا نعتقد أن هذه القصص جمعت وكتبت فى صيغة تقرب من صيغتها النهائية أثناء حركة إحياء الآداب التى توّجت العصر الذهبى لحضارة المماليك فى مصر . فالمجتمع الذى يصفونه هو بعينه ما نعرفه عن زمن المماليك : مجتمع مسلم قويم يصطبغ بصبغة القاهرة .

ولعله من الغريب حقاً أن يكون أمر ذلك الكتاب المشهور محل شك ، إلا أن التفسير من السهولة بمكان كبير . فقد كان المثقفون ورجال العلم فى الشرق ينظرون إلى مثل هذه القصص على الدوام نظرة ملؤها الاحتقار ، وذلك لأنها كانت خلواً تماماً من القيمة الأدبية التى كانت تعتبر الفخر الأول لرجال الأدب الحقيقيين . ومن ثم فإنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء ذكر ألف ليلة وليلة إلا فى اثنين أو ثلاثة من المراجع غير الموثوق بها التى لاتعـيِّن على وجه التحديد تاريخ تلك الرواية . فلقد كتبت «ألف ليلة وليلة» للشعب ، للجمهور الذى كان يجتمع فى المقاهى ليصغى إلى مايسرده القصاصون المحترفون ، للطبقة الوسطى غير المثقفة الكثيرة العدد فى القاهرة . هذا هو مايجعل لهذه القصص قيمة خاصة فى نظر طلاب مصر فى العصور الوسطى . ونحن نعرف أعمال الملوك والأمراء من الصفحات المسهبة التى كتبها «المقريزى» وغيره من الكتاب المعروفين . أما حياة الشعب فإننا نصل إليها خلال صفحات «ألف ليلة وليلة» ، وهى حياة يفصلها عن حياة العظماء هوة سحيقة قلما يثب من فوقها

المؤرخون الشرقيون . وألف ليلة وليلة تشمل على وجه الخصوص مغامرات التجار وأصحاب الحوانيت . حقيقة أننا نقرأ فيها عن الخلفاء السلاطين والوزراء ، كما نجد فيها شيئاً عن الجن والعفاريت والمردة ، إلا أن أبطال القصص الحقيقيين هم التجار الذين لديهم حوانيت يتجرون فيها ، والذين لهم مغامرات فى البحار حيث تكثر أسفارهم . ومن الممكن أن يكون «سندباد» قد سمع الكثير من مغامراته الشخصية من أفواه أشتات الجماهير التى كانت تحتشد على أرصفة ميناء مصر من كل حدب وصوب . ولقد وقف «ابن سعيد» فى المينا وشاهد بنفسه شحن المراكب فى عام ١٢٤٦ حيث لاحظ وصول سفن من جميع الأقطار . أما فيما يختص بتجارة البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر التى تأتى إلى مصر فإنها أبعد من أن يحيط بها أى وصف ؛ فهى تفرغ هنا – لافى القاهرة – ومن ثم توزع على جميع أنحاء القطر المصرى . وما كان يصدق عن «مصر» و «المقس» ، كان يصدق أيضاً عن ميناء القرن الرابع عشر التى جاءت بعد ذلك وهى «بولاق» . ومن «بولاق» هذه ركب «أحمد» سفينة – بعد أن أنفق كل ميراثه مع زوجته فى جزيرة الروضة – قاصداً دمياط ، ومنها إلى حيث يبحث عن ثروة جديدة . وكثرة الإشارة إلى الرحلات التجارية والثروات الطائلة يدلنا تماما عما كان يحدث لشعب لم تقتصر ثروته على التربة الخصبة ، وإنما كانت تعتمد كذلك على التجارة الأجنبية الواسعة النطاق .

ونحن نستطيع أن نستدل على قيمة تجارة الترانست فى مصر أيام المماليك من بضعة حقائق قليلة . فقد كانت السفينة الواحدة التى تفرغ حمولتها فى الإسكندرية تدفع رسوماً جمركية مقدارها واحد وعشرون ألف جنيه . وقد وجدت الجمهورية الإيطالية أنه من الواجب أن يكون لها وكلاء قناصل فى مصر . وليس أدل على وجود مستعمرة قوية من التجـــار الاوربيين ، من أنهم استطاعوا – وعلى رأسهم قنصل البندقية – دفع فدية لملك قبرص ومقدارها مائة ألف جنيه . وكان أهل البندقية يتمتعون بامتيازات خاصة فى مصر منذ أيام «العادل» سنة ١٢٠٨ ، حيث سمح لهم ببناء فندق خاص بهم فى الإسكندرية . وكان لأهل «بيزا» قنصل خاص بهم هناك ، كما أن امتيازات البندقية تم تجديدها فى عام ١٩٣٨ . ومن جهة أخرى ، فإنه كانت توجد على البحر الأحمر موانى «السويس» و «الطور» و «القصير» و «عيدهاب» و «دهلك» و «سواكن» ، حيث كان السلاطين المماليك يفرضون رسوم جمركية تبلغ

عشر قيمة البضاعة . ولقد نمت تجارة الهند وازدهرت أيام سلاطين المماليك البرجية . وكان هناك تنافس شديد وحرب جمركية بين الموانى العربية والموانى المصرية فى البحر الأحمر ، وذلك لضمان الرسوم الجمركية الثقيلة التى كانت تفرض بالإضافة إلى عشر قيمة البضائع . ونحن نعلم أن أربعين مركباً تجارية أتت من الهند وبلاد الفرس فى عام ١٤٢٦ ثم رست فى « جده » حيث دفعت رسوم جمركية بلغت ستة وثلاثين ألف جنيه ، وفى « مكة » التى كانت مثلما كانت « ينبع » ميناء مصرياً . ولم تكن الضرائب الجمركية الحكومية مقصورة على التوريد . فقد كان هناك بعض الاحتكار : فقد كان كل من السكر والفلفل والخشب والمعادن لا يباع إلا فى مستودعات الحكومة بالأسعار الحكومية ، كما يكون معرضا للضرائب . وكانت رسالة الفلفل التى تشترى فى القاهرة بخمسين ديناراً ، تباع للأوربيين فى الإسكندرية بمائة وثلاثين ديناراً وفقا لقوانين الحكومة . وبعد أن فشل أهل البندقية فى مساعيهم القنصلية ، أرسلوا أسطولا إلى الإسكندرية ليحضر جميع تجارهم ، وقد اضطر « بارسباى » إلى التساهل فى بعض شروطه القاسية .

ويتضح لنا اهتمام السلاطين الشراكسة بتجارة الترانسيت بين الهند وأوربا ، من المجهود الضخم الذى بذله « الغورى » لسحق البرتغاليين فى بحر العرب حالما أدرك التنافس الخطر لطريق رأس الرجاء الصالح . وما من شك فى أن تجارة الترانسيت كانت مصدراً هاماً لثروة البلاد ، وقد قال بحق المستر كاميرون Mr. Cameron - قنصل انجلترا فى بور سعيد - أن السلاطين المماليك سادة مصر وسوريا على السواء . فقد استولوا على الموانى وطرق القوافل بين أوربا وبين تجارة الهند ، وفرضوا رسوم جمركية على كل بضاعة شرقية تصل من الخليج الفارسى والبحر الأحمر لنقلها إلى الموانى التى بين الإسكندرية والأسكندرونة ، ولشحنها إلى البندقية . وحتى اكتشاف طريق الكاب فى عام ١٤٩٨ وما نتج عنه من تطور ، كان المماليك يتمتعون باحتكار جميع تجارة الهند مع بلاد المشرق ، وكانت البندقية - بتساهلها التجارى معهم - عميلتهم الوحيدة فى القارة . ولنحاول الآن أن نميط اللثام من معنى هذا الاحتكار ، فالتاجر العربى - مثل السندباد البحرى - يشترى ماقيمته عشرة آلاف جنيها من الحرير الخام وجوز الطيب والفلفل والنيلة والقرنفل والعصى من بلاد الفرس أو كلكتا ، ثم ينزح بها إلى البصرة أو السويس . وكان الطريق البحرى عبر الخليج

الفارسى أقصر منه عبر البحر الأحمر . غير أن طريق القوافل من البصرة إلى حلب كان أكثر خطورة من الرحلة القصيرة خلال مصر . وعند إنزال البضائع إلى البر، كانت الضرائب تصل إلى أربعة آلاف جنيهاً ، ومن ثم تصبح قيمة البضائع عشرين ألف جنيه . وهناك تاجر عربى آخر على ساحل البحر الأبيض المتوسط (أو ربما على أرصفة ميناء بولاق) يبيع من البضائع ما قيمته . . . ر٣٠ جنيه لواحد من أهل البندقية ، الذى يكون عليه أن يدفع رسوماً جمركية مقدارها خمسة آلاف جنيهاً قبل أن يتمكن من تفريغ بضاعته . وهكذا ـ سواء على هيئة رسم جمركى أو رسم مرور أو هدايا للحكام المحليين والحراس ـ فإن ربع الخمسة والثلاثين ألف جنيهاً التى دفعها التاجر البندقى لا بد أن يذهب إلى السلطان المملوكى والأشراف لمجرد امتيازهم فى تجارة الترانسيت . (١)

ولم تكن الحكومة وحدها هى التى تستفيد من هذا ، فقد كان التاجر القاهرى الذى يستورد البضائع الثمينة من الهند وجزائر البهار ، أو على الأقل يشتريها من التجار الهنود فى موانى البحر الأحمر ، يكسب هو الآخر مبالغ طائلة . و « ألف ليلة وليلة » حافلة بمثل هذه المغامرات الناجحة ، ألم يقل « الشيخ الثانى » الذى قاد « الكلبين الأسودين » فى وصف رحلته : أعددنا بعدنا ذلك سلعنا واستأجرنا سفينة أنزلناها فيها ، ثم بدأنا رحلتنا التى استغرقت شهراً كاملا وصلنا فى نهايته مدينة صرفنا فيها بضاعتنا ، بحيث كنا نكسب عشرة قطع ذهبية فى كل قطعة واحدة ؟ وما من شك فى أن مثل هذه الصفقات كانت كثيرة الحدوث . ولم تكن التجارة تخرج برمتها إلى العاصمة ، فقد كان جانب كبير منها يجد طريقة إلى الأسواق ليباع إلى خيرة سكان القاهرة ، وليرضى تلك الأذواق المترفة الخاصة بأتباع السلطان المملوكى . ونحن لا نستطيع أن نكون سوى فكرة طفيفة عن « الفندق » فى العصر الوسيط ، وذلك من الأسواق الحالية . « فالفندق » ، أو « الخان » ، أو « الوكالة » ـ وليس هناك سوى فرق بسيط بين الثلاثة ـ عبارة عن عدد من الحوانيت ومستودعات البضائع تحيط فى العادة بفناء ـ وتكون أحياناً على هيئة رواق مغطى ـ حيث يحتفظ التجار بسلعهم ، كما يجدون فيه مأوى لهم ولدوابهم فى

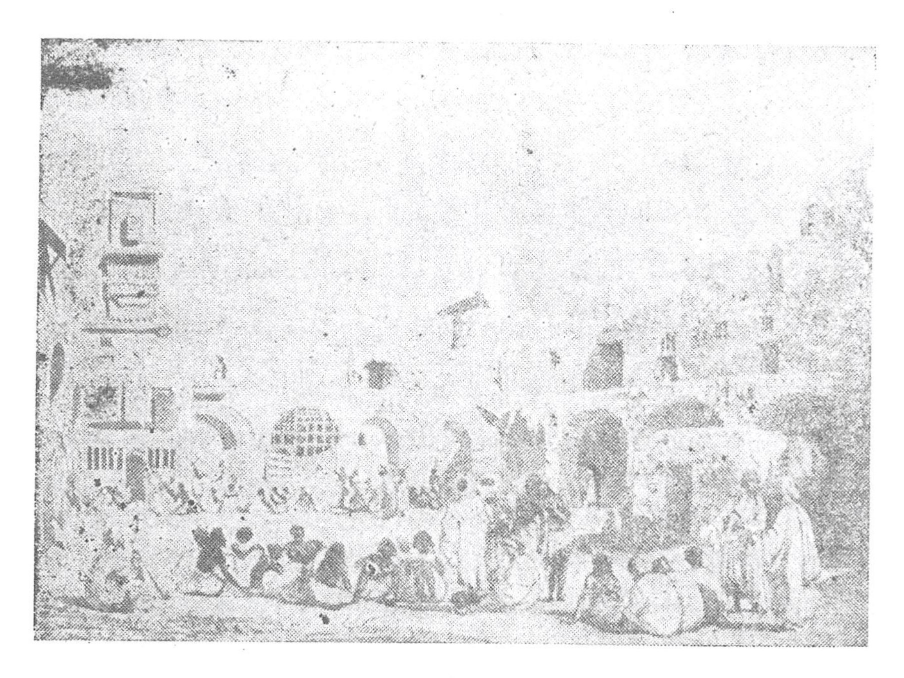
---

(١) D. A. Cameron : Egypt in the Nineteenth Century, 14, 15

خلال رحلاتهم . ومن الخانات التي كانت توجد فى العصر الوسيط والتي ما زال يعرفها كل سائح : « خان الخليلى » أو « البازار التركى » الذى بناه جركس الخايلى « أمير آخور » السلطان « برقوق » - فى عام ١٤٠٠ فوق البقعة التي كان يوجد عليها فى وقت ما قبور الخلفاء الفاطميين الذين اقتلعت عظامهم ونقلت فوق ظهور الحمير إلى ربى القاذورات خارج الباب الشرقى . ومن الأسواق المعروفة كذلك « الحمزاوى » - أو سوق القماش ، كالا تزال توجد بجوار الأزهر وفى « السروجية » اثنتان من وكالات «قايتباى» تتميزان بأن واجهتهما تزينهما النقوش العربية والرسوم الهندسية واسم السلطان المنقوش على الخشب . وحينما وصف « لين » Lane القاهرة فى عام ١٨٣٥ ، كان يوجد فيها حوالى مائتين وكالة . وحتى فى الوقت الحاضر نجد أنه قلما نعبر أحد الشوارع دون أن نجد واحداً من تلك الأفنية يحيط به عدد من الحجرات - حانة الشرق - تنفتح إلى بوابة مرتفعة .

وكانت « خانات » القاهرة في القرن الخامس عشر تعتبر أسواق التجار المزدحمة . وكان أمراء المماليك - الذين كانت لديهم فكرة واضحة عن قيمة امتلاك المنازل - يتنافسون بعضهم البعض فى بناء « الوكالات » الأنيقة التي يمكن أن تجلب كل حجرة فيها إيجاراً مرتفعاً . ومن الخانات الشهيرة التي كانت توجد فى ذلك الوقت ، « خان مسرور » الذى نزل فيه ذلك الرجل الذى نقرأ عنه فى « قصه الأحدب » . فقد استقر هذا الرجل هناك حيث أودع سلعه ، وبعد أن استراح ليلة ، حمل معه بعض بضائعه وذهب إلى « قيصرية جركس » وهى من أشهر أسواق القاهرة فى العصر الوسيط يرجع تاريخها إلى الفاطميين - وذلك لكى يبيعها إلى التجار . وهناك قال له شيخ السماسرة : إفعل مثلما يفعل التجار الآخرون ، وذلك بأن تبيع سلعك بالدين لفترة من الزمن ، بحيث تستخدم كاتب عرائض ، وشاهداً ، وبائع نقود ، ثم تسلم جانباً من الأرباح كل خميس وإثنين . وهكذا فإنك سوف تجعل من كل قطعة فضية قطعتين . هذا إلى أنه سوف يتبقى لك متسع من الوقت لزيارة مباهج القاهرة ونيلها . وقد عمل الرجل بنصيحته وترك بضاعته لتباع له ، بينما أخذ يعيش هانئاً فى « خان مسرور » يتناول طعام الإفطار المكون من الخبز والدجاج ولحم الضأن والحلوى ، ويتعطر بأجمل العطور وأشذاها ، إلى أن قابل فتاة فى حانوت « بدر الدين » - البستانى - وهناك حدث ما كان يخفيه القدر ، إذ جعل منه عبرة لمن يعتبر .

ولم يكن من الغريب فى أيام المماليك أن يقطع الجلاد يد هذا الرجل عند باب زويلة . وقد تم « خان مسرور » هذا ـ وهو عبارة عن خانين أحدهما كبير والآخر صغير ـ على جانب من موقع قصر الفاطميين العظيم ، حيث كان يباع العبيد بواسطة « مسرور » وكان عبداً محبوباً لدى صلاح الدين ـ الذى ترك المكان هبة لصالح الفقراء . وكان البناء الكبير فى الخان يحتوى على مائة حجرة ، ويعتبر المأوى الرئيسى لتجار سوريا . ويقول المقريزى عنه أنه أشهر الخانات وأعظمها ، إلا أن نجاحه تضاءل بعد محنة سوريا على أيدى « تيمورلنك » ، فزال عنه مجده ، وتهدم كثير من جوانبه .



سوق الرقيق

ومن الخانات الشهيرة كذلك « خان بلال » ، وهو عبد « الصالح » حفيد أخ « صلاح الدين » وقد بلغت حظوة « بلال » درجة كبيرة حتى أن السلطان قلاوون كان يقول: ليرحم الله سيدنا الراحل «الصالح». لقد اعتدت أن أحمل نعل هذا العبد «بلال» حينما كان يذهب إلى حضرته ! وكان هذا العبد غنياً يقوم بأعمال كثيرة صالحة ، امتدحه كثير من الشعراء ونالوا منه عطاء موفوراً . ومن أعماله الفاضلة بناء الخان، حيث كان يضع التجار ضناديقهم عظيمة القيمة . ويقول المقريزى : كنت أدخل هذا

الفندق فأجد الصناديق المكدسة ، منها الصغير والكبير ، بحيث لم يكن هناك سوى مسافة صغيرة فى الوسط ، وكانت هذه الصناديق تحوى من الذهب والفضة ما يذهل المرء . كذلك كان يوجد هناك «خان السبيل» - إلى الخارج من «باب الفتوح» - الذى شيده «قرقوش» وزير صلاح الدين لأبناء السبيل والمسافرين الفقراء الذين كانوا يقيمون فيه دون مقابل . ثم هناك «وكالة قوصون» التى بناها صهر الناصر بجوار مسجد الحاكم ، حيث كان التجار السوريون يخزنون الزيت والسمسم والصابون والمربب والفستق واللوز والشراب وما إلى ذلك . وكانت كل حجرة لاتؤجر - على حسب أوامر الأمير - بأكثر من خمس دراهم ، حتى لايكون هناك سلب أو نهب . والواقع أن هذا الخان كان مكاناً جد مزدحم أيام المقريزى ، مرغوبا فيه للغاية بالنسبة لرخص أسعاره ، حافلا بالناس وبالسلع ، وبصيحات الحمالين . وكانت توجد فوق حجرات البضائع ثلاثمائة وستون حجرة للمسكن جميعها مشغولة ويسكن فيها حوالى أربعة آلاف نفس . إلا أن تخريب التتر لحق هذا الخان أيضاً . وفى مواجهة باب زويلة كان يوجد سوق الفاكهة حيث كانت تباع حاصلات البساتين التى حول القاهرة . وكان لهذا السوق سقف - شأنه فى ذلك شأن أغلب الأسواق فى سالف الزمان - ليمنع أشعة الشمس من النفاذ إلى داخله . وكانت الفاكهة - ذات الرائحة التى تشبه رائحة حدائق الجنة - ترتب فى صورة تنم عن ذوق كثير ، وتزدان بالورود والحشائش الجميلة .(١)

وهناك كثير من الأبنية المماثلة ، يروى لنا تاريخها المقريزى ، بحيث نستطيع أن نكون من خلال وصفه صورة لما كانت عليه المدينة فى القرن الخامس عشر . والحق أن القاهرة كانت مكانا جميلا وأنيقاً فى تلك الأيام . وكانت قصور المماليك القديمة - التى لا نجد لها أثراً سوى فى تلك البقايا التى تتمثل فى الجدارات الضخمة الباهتة لقصر «بشتاك» ، والبوابة الضخمة «لدار يشبك» بجوار مسجد السلطان حسن ، ثم قصور «قايتباى» والأمير «ماى» (ويعرف باسم «بيت القاضى») - كل هذه القصور كانت فى ذلك الوقت فى أوج عظمتها . وكانت الأحياء المختلفة لاتزال منفصلة عن بعضها البعض بواسطة الأبواب المتينة التى تغلق حينما يرخى الليل سدوله . وكانت

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩١ وما بعدها .

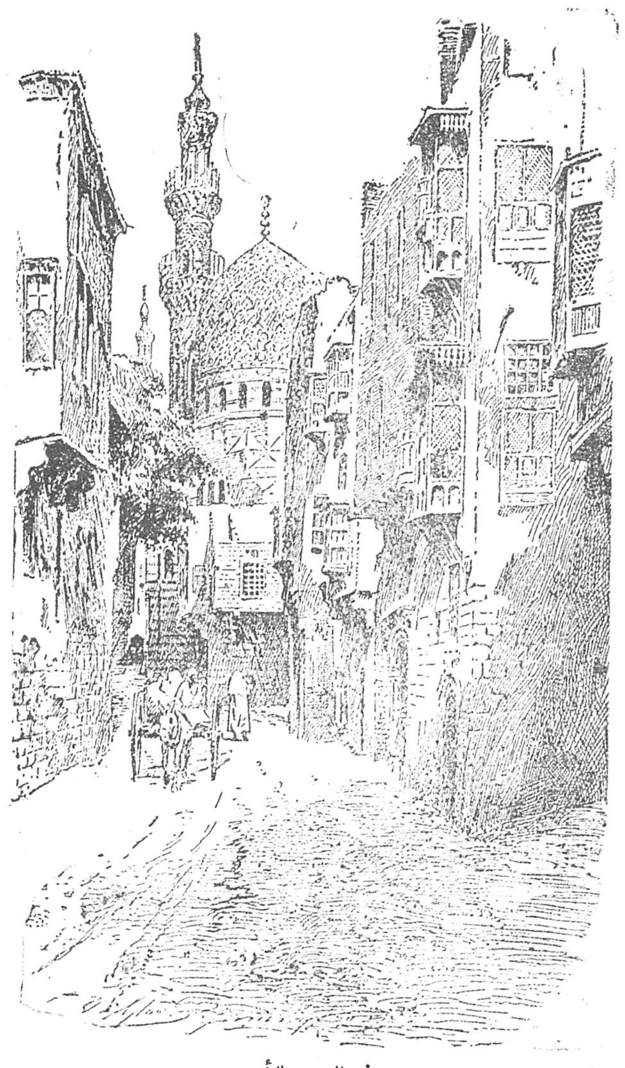
الأسواق تظلل بواسطة الحصر أو السقوف الخشبية ؛ كما كانت النوافذ ذات المشربيات الدقيقة الصنع تطل على الشوارع . ويصف لنا المقريزى سبعة وثلاثين حارة ، وثلاثين حياً (خطاً) ، وخمس وستين شارعاً (داراً) ، وواحد وعشرين شارعاً جانبياً ومتفرعاً (زقاقاً وخوخة) ، وتسع وأربعين ميداناً (رحبة) ، وخمسين سوقاً ، وثلاث وعشرين سوقاً كبيراً (قيصرية) ، وأحد عشر فندقاً (خاناً ، وكالة) ، وخمسة خمسين قصراً شهيراً (داراً) ، وأربع وأربعين حماماً عاماً ، وثمانية وعشرين حكراً وحديقة (بستاناً) ، وأحد عشر ميداناً ، وكثيراً من منازل النزهة (منظرة) .

ولا يزال كثير من الشوارع يوجد فى نفس مكانها القديم ، كما أن بعضها لا يزال يحتفظ باسمه ، مثل « الصليبة » ، « بين القصرين » ، « حارة برجوان » ، «سوق السلاح» و «خان الخليلى» ، و «الدرب الأصفر» ، و«الحبانية» ، و«الخرنفش» ويلاحظ أن أحياء القاهرة القديمة لم يطرأ عليها من التغيير مثلما طرأ على أحياء لندن القديمة مثلا ، إلا أن سبب ذلك جد مؤلم ، فمدينة لندن قد طرأ عليها تغيير لأنها نمت واتسعت ، بينما ظلت مدينة القاهرة كما هى نسبياً لأنها كانت تتلاشى تدريجياً . ففقدان جانب كبير من تجارة الهند ، والاعتماد على تركيا ، وسوء حكم الباشاوات والبكوات المماليك ـ كل هذا عمل على التقليل من نجاح تلك المدينة التى ازدهرت إلى حد كبير أثناء حكم السلاطين الأتراك والشراكسة .

وقد صحب الاضمحلال التجارى اضمحلال آخر فى الفن ، ولا يزال يوجد حتى الآن فى القاهرة أشياء قليلة مصنوعة ومنقوشة من النحاس ، والحرير ، والمجوهرات ، إلا أنها تعتبر أشياء غير ثمينة بالنسبة لما كان يوجد حقاً فى القاهرة فى ذلك الوقت . وما على المرء إلا أن يزور «دار الآثار العربية» ليقف على الإنتاج الرائع لفنانى القاهرة أثناء فترة المماليك . وكانت الفنون مرتبطة بالمساجد أشد الارتباط ؟ فقد بلغت هذه المساجد وقتئذ شأواً كبيراً من العناية والزينة ، وكان أهم ما تحويه دار الآثار العربية فى وقت من الأوقات هو أجزاء من نقوش أو أثاث المساجد حوالى القرن الرابع عشر : المناضد الفضية والنحاسية المنقوشة نقشاً جميلا ، وصناديق القرآن ، والمصابيح ، والشمعدانات ، والأوانى ، والمباخر ، وزجاج المصابيح الملون . وكانت الصفائح المنحوتة المرصعة بالعاج والأبنوس والخشب الثمين ، تزين أبواب المساجد ومنابرها فى وقت من الأوقات ، كما أن النقوش المصنوعة من البرونز والنحاس

ترجع إلى نفس العصر . وهناك أمثلة رائعة لهذه الفنون فى متحف جنوب كنسنجتون South Kensington Museum ؛ كما أن المتحف البريطانى British Museum يحوى مجموعة نادرة من المعادن العربية المنقوشة . ومن سوء الحظ أنه لا يوجد الآن فى القاهرة « سوق النقاشين » مثلما كان يوجد فى زمن المقريزى . والواقع أن ترصيع الأوانى النحاسية بالنقوش والرسوم العربية المصنوعة من الذهب والفضة ، يعتبر من أهم وأروع خصائص الفن العربى ، فهو ليس فى أصله مصرياً ، إنما يرجع إلى صانعى الحلى من الساسانيين فى بلاد الموصل . وأقدم نماذج نعرفها لهذا النقش أتت من الموصل على نهر دجلة ، وهى البلدة التى كانت مشهورة بأنها منبع صانعى المعادن ، بجوار المناجم التى كانت توجد فى مملكة طوروس . وليس ثمة شك فى أن صناع الموصل رحلوا إلى القاهرة فى الأيام الزاهرة لعهد السلاطين المماليك ، أو حتى قبل ذلك . وعلى الأقل فإنه من المؤكد أن بعض أعمالهم الرائعة قد صنعت للسوق المصرية ، وهى حتى تحمل أسماء مشاهير حكام القاهرة وأمرائها . فنحن نجد على سبيل المثال صندق الحلى والمجوهرات منقوش عليه إسم والقاب « العادل الثانى » حفيد أخ صلاح الدين ، الذى جلس على عرش مصر عام ١٢٣٨ إلى عام ١٢٤٠ ، ثم جاء من بعده « الصالح » زوج شجرة الدر . فهذا الصندوق على طراز الموصل الذى يرجع إلى عهد جد بعيد ، لجوانبه تزينها ثمانية قطع نحاسية منقوشة بالغة الرقة (تشبه تماماً ما يزين النقود الفضية الخاصة بأسرة صلاح الدين) تحتوى : مناظر للصيد ، معركة مع أسد ، فارس وعلى معصمه (المغطى فى العادة بقفاذ هذا الفارس) صقر جارح ، وما إلى ذلك . أما القاعدة الداخلية فيوجد عليها نقوش عربية بالغة الروعة ، وعلى مثلث فى الغطاء يوجد إسم السلطان وألقابه وعلى القمة يوجد تشخيص الكواكب الستة (الخاصة بالعلوم العربية) تحيط بالشمس (الكوكب السابع) : ـ القمر ويمثله شخص جالس يحمل هلالا ، وعطارد وتمثله أدوات الكتابة ، والزهرة وتمثله إمرأة تلعب على العود ، والمريخ ويمثله مقاتل مستل سيفه ويحمل رأساً تدمى ، والمشترى ويمثله قاضى متوج ، ثم زحل ويمثله حامى اللصوص وهو يحمل هراوته وكيس نقوده . وإلى خارج هذه الكواكب يوجد شريط يحتوى على علامات البروج

الإثنى عشرة في هيئتها العادية . وعلى قاع الصندوق توجد كتابة منقوشة تقول إن هذا الصندوق صنع خصيصاً لخزانة ملابس «العادل» .



فى الدرب الأحمر

ويلاحظ أن مناظر الصيد ورسوم الأشخاص والحيوانات ، تعتبر من خصائص صناعة الفضة فى بلاد الموصل ، ونحن نجد فى المتحف البريطانى British Museum أيقونة كبيرة منقوش عليها نسر ذو وجهين ، وذلك على مبخرة للعطور كثيرة النقوش ، وهى مصنوعة ـ كما تخبرنا بذلك الحروف المصنوعة من الفضة ـ بأمر السلطان ، الكريم ، السيد الأعلى ، الأمير المعظم ، الأستاذ المجيد ، القائد ،

لتأكد عن القصيده ، حامى الإسلام ، القدير ، عضد السماء ، المنتصر ، الملك الظاهر بيبرس ... الخ . ويجب أن يكون تاريخها قبل عام ١٢٧٩ ؛ بينما هى تحملنا إلى أيام قلاوون وابتداء عظمة المماليك . ولقد كان الظاهر بيبرس من أعظم وأترف الأمراء المماليك الأولين ، وكانت مبخرة العطور التى تقدم ذكرها تدل فى جلاء على ما كان فى قصره من رخاء ورفاهية . والواقع أن بيبرس كان ينظر إلى راحته على أنها أهم بكثير من طموحه وآماله ، فلقد رفض شرف العرش الوقتى مرتين خلال فترة عدم الاستقرار التى أعقبت موت قلاوون ، حينما كانت الخلافة فى متناول أقوى الأمراء . إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يتخلص من النتائج التى لحقت ثروته وشهرته ؛ وعلى الرغم من طبيعته التى تميل إلى الإنطواء على النفس ، فإنه اتهم بادعاء السلطة ، وجرد من ثروته ، وكثيراً ما كان يزج به فى سجن القلعة ، وكان قصره فيما بين القصرين يغطى مساحة مقدارها أربعة أفدنة ، ويحتوى على أجمل فسيفساء mosaic وأرق أبواب منقوشة فى القاهرة على الإطلاق . والواقع أن الأمير « بدر الدين بيسرى » كان أترف رجال عصره . فقد كان يحب أن يحيط نفسه على الدوام بالأشياء الجميلة ، وكان حرسه الخاص يختار من أحسن الجند . وما من ثروة كانت تقوى على مواجهة نفقاته الباهظة ، ذلك أنه لم يكن ينفق على نفسه فحسب ، إنما كان يجزل العطاء لكل من يسأله . لقد كان الكرم عقيدته التى لا يحيد عنها ؛ وكانت عطاياه للفقراء تصل إلى خمسمائة أو ألف درهم لكل سائل . وكان يوزع كل يوم ثلاثة آلاف رطلا من اللحم ، وهدية تتكون من ألف قطعة من الذهب ، وخمسة آلاف مدأ من الغلال ، ومائة ألف مثقال من عسل النحل . ولقد كان أحد مماليكه يصيبه كل يوم تسعون رطلا من اللحم وسبعون مثقالا من الشعير ، مما لم يكن يستطيع هو وأحصنته معاً أن يستهلكوها . ومن الطبيعى أن يكون « بيسرى » بعد ذلك مديناً على الدوام . فقد كانت ديونه تصل فى العادة إلى أربعمائة ألف درهم ، ذلك أنه لم يكن ليوفى ديناً من ديونه ، حتى يهم باقتراض آخر من نفس المدين . وكان جانباً كبيراً من مصروفاته ينفق على إعداد مائدة الطعام ، فمن المعروف أنه لم يكن يشرب من كأس واحدة مرتين . ويذكر لنا المقريزى أن حياة القرن الثالث عشر كان يهبها القوم فى وقت من الأوقات للشراب والملذات ، ومن ثم لا بد أن يكون عدد الكؤوس فى ذلك الوقت لا حصر لها .

إلا أن الأمير العظيم كان يحتاج إلى أكثر من الكؤوس لراحته ؛ فقد كانت لديه موائد مرصعة يوضع عليها طريان نحاس كبير مرصع بالذهب والفضة ويحتوى على مايفى حاجته من نبيذ العنب . كذلك فإن ردهات قصره الأنيقة كانت تضاء بشموع موضوعة فى شمعدانات فاخرة مغطاة بنقوش فضية ، وحتى الصحاف وأوانى الطهى كانت توجد عليها نقوش ورسوم عربية رائعة . كما أن قصره كانت تفوح فى أرجائه رائحة البخور المنبعثة من المباخر المرسوم عليها صور الفرسان فى مطاردتهم ، وكلاب الصيد ، والفريسة ، وكل ما كان ينقشه الصائغون العرب على الفضة .

على أن أقدم نماذج لصناعة المعادن وأبدعها هى التى ترتبط بأسماء ملوك القاهرة وأشرافها ، وأصلها من الموصل ، على الرغم من أنه يحتمل أن تكون قد صنعت فى «سوق النقاشين» بواسطة الفنانين الذين اجتذبهم القصر إليه . وما من شك فى أنه كان يوجد هناك فن فاطمى قديم له مثل هذه الخواص ؛ غير أننا فى الواقع لا نعرف من النماذج ما يفوق بضعة أشياء معينة منها خزانة Bayeux فى باريس ، وبعض النماذج المصنوعة من البلور الموجودة فى البندقية . ومهما يكن من شيء ، فإن القاهرة تكونت لها مدرسة خاصة بها أثناء حكم السلاطين المماليك ، وهى التى يبدو أنه كان لها تقليد خاص وصلها من مصدر غير المصدر الذى أخذت عنه الموصل . وأسلوب القاهرة هو الذى نراه على الصوانى والأوانى والكؤوس والمباخر وغير ذلك من أوعية المماليك فى مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وهى التى نحتفظ بها فى متاحفنا ومجموعاتنا الخاصة . ونحن نستطيع أن نلمس بعض أوجه الشبه بين هذه الأشياء وبين ما أنتجته الموصل ، إلا أن العناصر الجديدة فيها جد واضحة : فصور الفرسان والأمراء الجالسين اختفت إلى حد بعيد ، وهذا طبيعى بالنسبة للأمراء الأتراك الذين اعتادوا أوامر الإسلام المشددة فيما يختص بصور الكائنات الحية فى الفن . إلا أنه لاتزال توجد حتى الآن على بعض الجدران صور تمثل حيوانات الصيد ، كما توجد هناك أرضية عليها رسم بطة وطائر آخر . والسبب فى كثرة صور البط فى ذلك الوقت - وهو الذى يسهل فهمه بالنسبة لمستنقعات بلاد الموصل - ويرجع إلى أن مؤسس سلسلة السلاطين الذين حكموا مصر مايقرب من قرن من الزمن ، كان تركياً من القبجاق اسمه «قلاوون» ، الذى معناه فى لغة المغول ،

-وهى لغته الأصلية- «بطة» . (وهذا يشبه الجناس الموجود فى إسم «أبوت اسلب»
Abbot Islip فوق قبره فى مدافن وستمنستر (Westminster Abbey) .
والنقوش الموجودة على نماذج المماليك المصنوعة من المعادن ، تختلف اختلافاً بيناً فى أسلوبها عن نقوش الموصل ، فهى مرتبة فى شرائط عريضة لها مسطح كبير مرصع بالفضة ، ومقسمة بواسطة نقوش مستديرة الشكل يوجد فى وسطها إسم السلطان بين خطين متوازيين ، أو بواسطة دروع يحملها أصحابها ومرسوم عليها فى العادة كأس ، أو عصا البولو Polo (نسبة إلى وظيفتى ساقى الخمر ومدرب لعبة الPolo)، أو شكل المعَّين الهندسى ، أو تقليد غريب لبعض النقوش الخطية الموجودة على آثار قدماء المصريين ، والتى كانت غامضة من غير شك بالنسبة للمقلدين . وحول النقوش المستديرة توجد زخارف من الأزهار وأوراق الشجر ، تذكرنا بالصورة التى كانت تكتب عليها ألقاب دمشق ، ثم هناك أزهار وأوراق شجر أخرى تتخللها طيور ، تغطى الأرض . ولم يكن إنجاز التصميم أقل روعة من التصميم نفسه ، ذلك أنه لم يكن هناك عمل غير متقن لدى الفنانين العرب . فقد كانوا يقومون بحفر التصميم كله على النحاس ، ثم يهذبون الأطراف حتى يتمكنوا من قبض أطراف الصفائح المصنوعة من الذهب أو الفضة لطرقها وصقلها . كما أنهم كانوا ينقشون كل صفيحة من الفضة مهما صغرت ، فكانوا يغطون الشقوق -حيث كان يظهر النحاس- بمزيج أسود خمرى كان يضفى على النقش رونقاً خاصاً . ولقد تلف جانب كبير من الطلاء كما بلى جزء غير قليل من الفضة ، وذلك بفعل الاستعمال والقدم . وإنه لمن الصعب علينا أن نتخيل الصورة الجميلة التى كانت عليها أغلب الأوانى والصوانى التى وصلت الينا . إلا أن الفحص الدقيق من شأنه أن يكشف لنا عن المهارة الفائقة ، والعناية الكبيرة ، والصناعة المتقنة - تلك الأشياء التى لا يمكن للزمن أن يمحو أثرها .

ومن نقش الفضة هذا - شأنه فى ذلك شأن هندسة البناء ونحت الخشب والعاج وسائر وسائل التعبير عن الجمال - انتهى إلى ازدهار عجيب للفن والثقافة فى عهد «الناصر بن قلاوون» فى النصف الأول من القرن الرابع عشر . وكلما وقع بصرنا على أنموذج بديع لصناعة المعادن فى متحف من المتاحف ، لا بد أن نجد فى

العادة إسم أحد الأمراء الناصريين - أى أحد مماليك أو رجال حاشية الناصر - منقوشا عليه ، وفى بعض الأحيان قد نجد إسم السلطان نفسه .

ويحدثنا المقريزى بأنه حدث فى عصره - أى فى مستهل القرن الخامس عشر - أن أصبح هذا الفن الجميل من سقط المتاع . فقد أصبح - على حد قوله - شيئا محببا ، إذ رأينا من الأشياء المنحوتة مالا يحصرها عد ، ومن النادر أن يخلو منزل فى القاهرة أو فى مصر من بعض النماذج النحاسية المنحوتة . ومن الأشياء التى كانت تهدى للعروس فى العادة عند زواجها : رف به صمات وأوعية منحوتة ومرتبة فوق اطار من الخشب والعاج المنقوش ، وكان يتكلف فى العادة مائتى ديناراً . ثم يضيف المقريزى قوله : غير أن مصر الآن تفتقر إلى الفن .... فقد قل فى عصرنا هذا الإقبال على طلب هذا النحاس المنقوش ، وأعرض الناس منذ بضعة سنوات عن شراء كل ما يصنع منه . وهكذا الآن فى السوق من نماذج النقاشين النحاسية سوى شىء قليل .(١)

والواقع أن الفن لم يكن قد احتضر ، وإنما كان قد انتقل إلى مكان آخر . ذلك أن التراث الذى ورثته القاهرة من الموصل ، أورثته بدورها إلى البندقية . ولقد رأينا أن أهل البندقية كانوا الوكلاء الأوربيين للتجار المصريين ؛ ولن نكون مبالغين إذا قلنا إن البندقية كانت مدينة نصف شرقية . فقد طغت على إيطاليا آثار كثيرة للشرق . ونحن نعلم أن شاعر القرن الثانى عشر يرثى « بيزا » Pisa لأنها آلت إلى المغاربة والهنود والأتراك . كذلك كان يوجد هناك طريق « سراسينا » Sarracena فى « فرارا » ، كما كانت « لوسيرا » Lucera مطبوعة بالطابع الإسلامى وذلك منذ أن استحضر « فردريك الثانى » Frederick II الرماة (القوّاسين) العرب . غير أن البندقية لمست هذا التأثير أكثر من غيرها ؛ فقد كانت تجارتها ومستعمراتها سبباً فى إيجاد علاقة بين تجارها وبين نواحى الفن فى الشرق ، كما أن سفراءها كانوا يجلبون إليها هدايا السلاطين المماليك الفاخرة ، كذلك أخذت تستورد الفنانين والتحف الفنية على السواء . ولقد أطلق على ذلك الأسلوب العربى فى الفن اسم Opus Salomonis ومعناها « صناعة اليهود » ، وكثيراً ما يشير أدب ذلك العصر

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ١٠٥

إلى هذا . من ذلك أن الشاعر الانجليزى « تشوسر » Chaucer حينما سمع عن هذا الفن كتب فى « سيرثوباس » Sir Thopas يقول :

« التى هى من صنع الهود ، وهذا عدا النماذج الرائعة » .

ولقد برعت البندقية على وجه الخصوص فى نقش الصوانى الكبيرة على الطراز العربى ، ولو أنها كانت تختلف كثيراً من حيث الرسم والأداء . فالفضة مستعملة غالبا فى خطوط ضيقة بدلا من الصفائح الواسعة ؛ أما الرسوم فعربية فى العادة ، بينما شكل الأوانى نفسها يدل على تحسن ملموس أدخل على ذلك الشكل الخشن الذى كان يصنع فى القاهرة. ولقد أخذ الفنانون الإيطاليون ينقلون الفن الذى أدخله « محمد الكرد » وزملاؤه العرب ثم أطلقوا على أنفسهم اسم «Azzimine» ، أى الصانعون على الطراز الفارسى all' Agemina - فقد كان من الشائع أن يسمى الفن العربى فارسيا . ونحن نقرأ عن فنانين إيطاليين - أمثال Giorgio Ghisi Azzimina من مدينة « مانتوا » Mantua و Paulus Ageminius - برعوا كثيراً فى الفن الذى أتى اليهم من مصر .

ولقد أخذنا صناعة الفضة من دون سائر الفنون فى القاهرة فى العصر الوسيط ، لأنها فى الواقع فرع من الفن يمكن لنا أن نتتبع فيه التطورات دون أن يتطرق الينا الشك ، وذلك بواسطة سلسلة من النماذج المعروف تاريخها . إلا أن أهم فنون الزينة التى استخدمها بناة المساجد هى نحت الخشب وتلوين الرخام على الطراز المزايكى mosaic . وتزيين منابر المساجد وأبوابها بالصفائح المأطورة - التى أوحت بها دون شك ضرورة وجود أسطح صغيرة فى الجو الحار حتى لا تتلوى وتفسد - يعتبر من أهم ما يميز زينة القاهرة على الاطلاق . كذلك فإن استخدام الرخام الملون فى محاريب المساجد كان يكسبها روعة وبهاء ويجعلها تبدو ساطعة . وكان هذا الرخام الملون يستعمل أيضاً فى تزيين الجزء الأسفل من الجدران فى منازل الأشراف ، إلا أن أغلبه - من سوء الحظ - فى طريقه الآن إلى الزوال . ومما يسترعى النظر حقاً هو استخدام الخشب على نطاق واسع فى مبانى القاهرة ، فى الوقت الذى لم تكن تنتج فيه مصر من الخشب النافع سوى القليل . ولكننا نجد من جهة أخرى أن المناخ الجاف يحفظ الخشب لعدة بضعة قرون ، على الرغم من أنه يتسبب فى التوائه . من ذلك أن الأربطة الخشبية الأصلية فى أعمدة جامع ابن طولون قد عاشت ألف عام

ومازالت فى حالة جيدة ، كما أن جانباً من سقف الأورقة نفسها ما زال محتفظا بنفسه حتى الآن . وهذا السقف الخشبى يدلنا على أن القرن التاسع كان يستخدم نفس الطريقة التى تشاهد فى جميع عصور الفن العربى قبل أن يصل إليها الأسلوب الأوربى . فهو يتكون من روافد من جذوع النخيل مقسومة إلى قسمين ، والجوانب الثلاثة المكشوفة تواجه ألواحاً خشبية حتى تجعل من الشكل مربعاً . أما التجاويف فى القطع الخشبية فكانت تقسم بواسطة قطع خشبية متقاطعة إلى أجزاء غير عميقة. وكانت هذه الروافد الخشبية فى المنازل الخاصة تترك فى العادة دون غطاء فى صورتها الطبيعية نصف المستديرة وسواء كانت هذه الروافد تغطى بألواح خشبية أو تترك كما هى ، فإنها كانت تكسى دائماً بطبقة من الجص - توجد فى العادة فوق طبقة من القماش السميك - منقوش عليها بضعة رسوم عربية باللون الأزرق القاتم والأحمر القانى والذهبى . وهذه السقوف المقسمة على الصورة المتقدمة - ويمكن رؤيتها فى كثير من المنازل- لها تأثير عجيب فاخر بما فيها من ألوان حمراء وزرقاء وذهبية . وكان الانتقال من السقف إلى الجدران مغطى بنقوش وزخارف تدل على كثير من الحذق والدقة ، ومطلية بألوان فاخرة . وهناك سقوف أخرى أقل فى قيمتها من السقوف المتقدمة - على الرغم من أنها هى الأخرى لها تأثير كبير . وتتكون من ألواح خشبية ملتصقة ببعضها البعض ومثبتة فى وضع أفقى فوق روافد خشبية ومغطاة بطبقة رقيقة من الجص مرسوم عليها نقوش عربية مختلفة قوامها الأزهار ، ومطلية باللون الذهبى ، أو رسوم وزخارف هندسية من الخشب الرقيق المطلى باللونين الذهبى والأحمر ، وفى الشقوق يوجد جص عليه نقوش عربية .

والواقع أن نحت الخشب كان يتجلى كثيراً فى المنابر والمقارىء وأبواب المساجد الداخلية وخزائنها . وبعض النماذج القديمة من مسجدى ابن طولون والحاكم يمكن رؤيتها فى دار الآثار العربية بالقاهرة ، والنقوش الحلزونية الشكل العميقة المنحوتة على صفائح ذات إطارات ، يبدو أصلها البيزنطى فى جلاء ، وتشبه الصفائح القديمة التى لايعرف تاريخها بالضبط والتى وجدت فى «عين الصيرة» جنوب القاهرة . أما فى القرن الثالث عشر فإن الأسلوب يتغير ، فبدلاً من الرسوم المكونة من أوراق الشجر ، نجد زينة أكثر تعقيداً ورقة موزعة على رسوم هندسية فى صفائح أصغر مساحة من تلك التى تقدم ذكرها . ولعل أجمل مثال لهذا هو خزانة مقبرة «الشيخ»

(١٢١٦) التى يوجد أحد جوانبها فى متحف جنوب كنسنجتون Museum at South Kensington ، والجوانب الثلاثة الأخرى فى متحف الفن العربى بالقاهرة.
وثمة نموذج آخر يتجلى لنا فى خزانة ضريح الصالح أيوب (١٢٤٩) : فالصفائح الصغيرة مكونة على شكل نجمة سداسية الشكل ومنحوتة فى رقة وعناية فائقتين. وهنا يتجلى لنا عرض جذوع أشجار الفاكهة ، وهو مظهر شائع فى نحت الخشب فى القرن الثالث عشر. فالمحراب الذى كان يوجد فى ضريح السيدة رقية - والذى يرجع تاريخه فى الغالب إلى نفس القرن - يستحق منا انتباهاً خاصاً لما فيه من زينة مكونة من جذوع متفرعة من أناء [1]. إلا أن فن نحت الخشب لم يزدهر ولم يبلغ أقصى مداه إلا أثناء حكم السلاطين المماليك ، وعلى الأخص حكم « الناصر ». فقد كانت الأخشاب ذات الألوان المختلفة تستخدم لإحداث تأثير ملطف ، كما حل الترصيع محل النحت فى الكتل الصلبة. وأحياناً كنا نجد كل صفيحة صغيرة منحوتة توضع فى إطار من الأبنوس حافل بدوره هو الآخر بالنحت والنقوش ، وكثيراً ما كان يتكون من إطارين أو ثلاثة إطارات متميزة الواحد منها خارج الآخر. ومن الغريب أن الرسم الداخلى لم يكن يتكرر فى صفيحتين، على الرغم من مئات الصفائح التى كانت توجد هناك. ولا يخفى علينا مقدار الجهد الذى كان يتكلفه نحت تلك الصفائح ووضعها - بعد نقشها إلى جانب بعضها البعض. وهناك نماذج كثيرة توجد فى المساجد ، كما أن هناك نماذج أرق منها تتمثل فى الأبواب الخشبية المرصعة بالعاج فى كنائس « بابليون » القبطية ، والتى أغلب الظن أن المسلمين أخذوا منها فنهم. إلا أن أروع نماذج لنحت المماليك توجد الآن فى لندن ، ذلك أن عدداً كبيراً من تلك النماذج نقل أثناء حكم الخديوى إسماعيل - وحتى قبل ذلك - إلى المتحف الموجود جنوب « كنسنجتون ». فهناك نستطيع أن ندرس على مهل بعض النقوش العربية الفاخرة - والتى ليست جد متقنة فى الوقت نفسه - المأخوذة من المنبر الذى بناه « لاجين » فى مسجد ابن طولون عام ١٢٩٦. وهناك قطع أخرى منحوتة من جامع « المردانى » (١٣٣٩)

---

(١) Herz Bey : Catalogue of the Arab Museum, pp. 47,48
وهو كتاب صغير لا غنى عنه لطلاب الفن العربى.

موضوعة فى شكل غير مقبول فوق منضدة فرنسية ، ومجموعة ثالثة ـ لعلها من منبر جامع « قوصون » ـ موضوعة كذلك فى إطار حديث ولو أن النحت العربى مازال محتفظاً برونقه وجماله ، وأخيراً نجد منبراً كاملا يحمل إسم « قايتباى » ، ولكن لا يعرف من أى مسجد أخذ . وهذه الأشياء فى مجموعها تكون معرضاً جميلا لنقش الخشب فى أحسن عصوره .(١)

ومهما يكن من شىء ، فإن المجموعات فيها بعض الاختلاف ـ وأحياناً شىء من التدهور ، وأن دراسة فاحصة للرسوم سوف ترينا أن الفن وصل إلى أقصى مداه فى نقوش «المردانى» أى بعد حكم «الناصر» مباشرة . فمنبر «شيخو» (١٣٥٨) ليس نموذجاً طيباً ، ومنبر جامع السلطان حسن مبنى من الحجارة ، كما أن منبر جامع « المؤيد » (١٤٣٠) قليل الشأن ، وحتى منبر « قايتباى » ـ الذى كان أمير البناء فى القاهرة ـ يمكن مقارنته بنماذج منتصف القرن الرابع عشر . ذلك أن الرسوم قد أصبحت أقل جودة عن ذى قبل ، والخطوط أضحت ميكانيكية الشكل . كذلك فإننا نجد فى نحت الحجرعنصراً جديداً لم يكن معروفاً منقبل وهو عنصر التكرار . وقد يكون تفسير ذلك هو استخدام العاج كمادة لترصيع الصفائح ، لأن العاج ـ على الرغم من إمكان استخدامه فى النحت الرقيق ـ يصعب نقشه فى الخطوط الملتوية . إلا أن السبب الرئيسى ربما يكون هو تفضيل النقش على الحجارة والاهتمام به إلى حد بعيد . فعند ما أصبحت الحجارة هى المادة السائدة للزينة ، أمسى نحت الخشب وليس له شأن كبير . ولقد كان منتصف القرن الرابع عشر هو النقطة التى حدث عندها هذا التحول ، فقد أصبحت الحجارة هى المادة المرغوب فيها ، ومن ثم وجدنا ناحتو الخشب ـ الذين لم يتركوا نحت الخشب ليعملوا فى نقش الحجارة ـ يصيغون أسلوبهم طبقا لرسوم النحاتين الذين يعملون فى نقش الحجارة . وكان الاضمحلال هو ماتمخضت عنه هذه الحركة .

وإذا كان نحت الخشب قد قل شأنه بعدمنتصف القرن الرابع عشر ، فإن هناك فرعا آخر فى صناعة الخشب قد تطور وازدهر ، فمن أجمل مايميز منازل القاهرة من الخارج هو «المشربية» دقيقة الصنع . وليس هناك من سبب يدعونا إلى الاعتقاد

(١) Stanley Lane-Poole : The Art of the Saraccens in Egypt, pp. 111-150.

بأن هذا النوع من صناعة الخشب قديم جـــداً . غير أنه ـ سواء بسبب سهولة كسرها أو بسبب الاضطرابات التي سادت المدينة ـ لاتوجد الآن نماذج قديمة من المشربيات » . والنوافذ القليلة المصنوعة من الخشب الرقيق المتشابك والتي لاتزال موجودة فى المساجد القديمة ، لها طابع آخر مختلف : فهى مكونة من أربعة أجزاء مقسمة إلى أقسام بها حواجز رأسية مربعة ومستديرة الشكل ، مثل التي توجد فى مقبرة «قلاوون» . وهناك نوافذ أخرى عبارة عن مجرد حواجز متشابكة من القضبان المتقاطعة التي تترك فيما بينها مربعات كثيرة ، وليس فيها أى شىء يدل على تصميم فنى . وهناك نوع أرق يوجد فى منبر «لاجين» بجامع «ابن طولون» (١٢٩٦) حيث التشابك أضيق والعقد منقوشة ومنموتة . ومن الغريب أن «المشربية» الحقيقية بأنواعها المختلفة وتأثيرها الذى يحدثه تشابكها العجيب ـ ظهرت أول ما ظهرت فى حاجز المصلى الموجود فى جامع «المرداني» ، مما يدل كذلك على أرقى التطورات التي طرأت على نحت الخشب . وبينما اندثر فن من الفنون ، تحسن وازدهر فن آخر . فهناك أمثلة رائعة من صنع المشربيات فى الجزء الأول من القرن الخامس عشر ، كما فى منبر مسجد «أبى بكر بن مظهر» . وأغلب مشربيات المنازل حديثة العهد إلى حد كبير ، على الرغم من أنه من المستحيل تحديد تاريخها بالضبط ، وأن اختفاءها لخسارة فنية كبيرة لايمكن أن يحل محلها شىء آخر على الاطلاق . إلا أننا يجب أن نعترف فى الوقت نفسه بأن هذه المشربيات كانت من أشهر العوامل لنقل النيران من منزل إلى آخر ومن شارع إلى آخر ، تلك النيران التي كان القوم يشعلونها عمداً فى بعض الأحيان .

والشىء الذى ينبغى ذكره فى هذا المقام عن كل فرع من فروع العمل الفنى فى القاهرة فى العصر الوسيط ـ سواء كان فن البناء ، أو نحت الخشب أو الحجر ، أو نقش المعادن ، أو صناعة الزجاج وزخرفته ـ أنه يحتوى دائماً على عنصر الجدة والابتكار Originality . ذلك أن العرب لم يحضروا معهم أى فن من الفنون ، ويبدو أنهم كانوا يفتقرون فى الواقع إلى الحاسة الجمالية . فقد تلقوا فنونهم على أيدى رعاياهم الأجانب ، ومع ذلك فإنهم كانوا يدخلون على الدوام عنصراً خاصا هو الذى يميز الفن العربى على سواه ، من ذلك أنهم تعلموا نقش المعادن من بلاد الفرس ، وحالما جعلوه فناً خاصا بهم . كذلك فإنهم قلدوا نحت الخشب البيزنطى

والقبطى ، وأضافوا إليه رأيهم الخاص فيه الذى جعل منه فناً قائماً بذاته . ثم أنهم وجدوا صناعة الزجاج فى مصر ، وحصلوا على أسرار تلوين الزجاج وتذهيبه من القسطنطينية ، وبعد ذلك أنتجوا نماذج من المصابيح الملونة لا نكاد نجد لها مثيلا فى أى بقعة من بقاع الأرض . وليس اختلاف الأسلوب أو الشكل وحده هو الذى يحدث الاختلاف : فالصبغة التى يصطبغ بها كل فرع من فروع الفن العربى ، صبغة فريدة فى نوعها Sui generis . ولم يكن العرب مجرد ناقلين يحذون حذو أمثلة مختلفة من الفن ، وإنما كانت لديهم قدرة خاصة على تهذيب الأصول التى ينقلون عنها وتنقيحها . ولعل أغرب ما فى الأمر أن أحسن وأرق تهذيب لما نقلوه قد تم فى أوقات عصيبة كان فيها السادة الأجانب بعيدين عن الثقافة والفن ، محبين لسفك الدماء . ومع ذلك فإن عصر السلاطين المماليك كان العصر الذهبى لمصر الإسلامية فى الفن والأدب على السواء ، ولا يجب أن يغرب عن بالنا أن بعض الأقطاب المسلمين فى الدين والفقه والنقد والتاريخ، كانوا يعملون كقضاة أوأساتذة فى مساجد القاهرة ومدارسها ، كذلك يجب ألا ننسى أن فترة المماليك أنجبت ـ أو عملت على تشجيع ـ كثير من الكتاب أمثال «ابن خلدون» و«النويرى» و«ابن دقماق» و«المقريزى» و«ابن حجر» و«العينى» و «ابن عربشاه» و «أبو المحاسن» و«السيوطى» و«ابن أياس» ، وهؤلاء إما أنهم ولدوا فى مصر ، أو أمضوا وقتا طويلا فى القاهرة مثل «أبى الفدا» . ولقد كان القرن الخامس عشر أخصب فترة فى الأدب المصرى ، كما أن هذا النشاط كان يعمل على تشجيعه فى سوريا نفس السلاطين .

الباب التاسع

البكوات والباشاوات

سلطة الأمراء المماليك (البكوات) لا زالت قائمة ـ ضعف الباشا ـ حرب الشوارع ـ البك العثمانى ـ رضوان الجلفى ـ أسرة الشرايبى ـ المكتبات ـ حالة التعليم ـ التعصب ـ الخرافات ـ مساجد الفترة العثمانية ـ على بك ـ عبد الرحمن كتخدا ـ محمد بك أبو الذهب ـ محمد على ـ استصفاء أموال الوقف ـ بعثة حفظ آثار الفن العربى ـ رسالة إلى اللورد كرومر ـ وقاية الآثار ـ إحياؤها ـ قانون لورد كرومر ـ المنح من أعضاء لجنة الدين العام والحكومة المصرية .

لم يقدم أحد على كتابة تاريخ مصر خلال ثلاثة القرون التى خضعت فيها للسلاطين الأتراك ، منذ أن فتحها « سليم الغورى » فى عام ١٥١٦ إلى أن أنشأ محمد على أسرة مستقلة فى عام ١٨٠٥ . وهذه الفترة متشابهة الأحداث إلى حد بعيد ، كما ينقصها أقطاب من الذين ظهروا فى الفترة الأولى من عهد المماليك ، ويبدو أن الأشخاص الذين ظهروا على مسرحها لم يكن لهم شأن كبير . وقد تجردت الحكومة المحلية من كل ما كان يحفز إلى الروح الوثابة ، وساعدت على ذلك الحروب الأجنبية . كما أن نفقات القصر الطائلة وترفه الباذخ ، وتنافس الأمراء ، لم تجعل مجالا لتشجيع الفن والفنانين . هذا إلى أن عدم الاكتراث بالمحافظة على الاستقلال ، وسياسة الامبراطورية العثمانية الجشعة فى جمع المال ، أدى إلى ضياع كثير من مجد المماليك القديم . ومع ذلك فإنه لم يكن ثمة فارق كبير بين القاهرة تحت حكم الباشوات ، وبين المدينة التى يصورها لنا المقريزى أحياناً . فكل شىء فى الشرق يتغير تغييراً حثيثاً لا يكاد يدركه أحد ، وإن طواحين الزمن لتدور فى مصر بنفس البطء الذى تدور به تلك السواقى المنتشرة فيها . حقيقة إنه حدث هناك اضمحلال ، إلا أنه لم يحدث طفرة واحدة ، فقد كان الأمراء لا زالت لهم قوة يعتد بها ، ولعل أهم فرق هو أنه بدلا من أنهم كانوا ينتخبون أحد السلاطين ، أصبح يعين لهم الباب العالى على رأسهم أحد الباشوات . وكانت سلطة الباشا يقف فى طريقها مجلس من الأمراء المماليك ـ أو « البكوات » كما كانوا

يسمون بعد ذلك . وكثيراً ما كان يعزل بواسطتهم أو بواسطة مؤامرات الجند الثائرين . فعلى الرغم من أن الباشا كان يصل فى بعض الأحيان تصحبه حاشية مكونة من إثنى عشر ألف رجل ، كما كان ينثر المناديل المملوءة بالنقود الذهبية فى أيام الأعياد ، إلا أنه مع ذلك كان من الصعب عليه مقاومة حكم الجند المستبدين . فقد كان رئيس المماليك ـ أو شيخ البلد كما يدعى ـ له شخصية أقوى بكثير من شخصية الباشا نفسه . وكان الأمراء إلى حد بعيد ـ أشبه ما يكون بما كانوا عليه أثناء حكم المماليك الشراكسة : لم يكونوا نفس الرجال ـ لأن « سليما » قتل منهم كل من كان يقع فى قبضته ـ وإنما كانوا متشابهين (أتراك و Georgians وشراكسة يرتفعون من مرتبة العبودية ثم يتقلدون الوظائف الكبيرة) ، وكان لهم جلال وعظمة فى قصورهم بجوار بحيرة الأزبكية أو على « بركة الفيل » أو فى شارع الأسلحة . كما كان يتبعهم أتباع عديدون ، واستمرت أحقادهم الدفينة ، وحروبهم الأهلية ، وحروب الشوارع ، كما كانت من قبل . وقد ظهر إذ ذاك عنصر من عناصر الفوضى سببه قوات Azabs and Janizaries التركية فى ثكنات القلعة . وقد أصبح قواد هذه القوات أقوى أمراء مصر عامة ، غير أن هؤلاء أيضاً كان لهم نفس طابع المماليك الأول ، وفيما عدا اختفاء السلطة القوية التى كان يظهرها بعض السلاطين أحياناً ـ والتى لم تكن بتاتا لدى الباشا الحاكم ـ كان من الصعب التفرقة بين حالة القاهرة تحت الحكم الجديد ، وبين حالة الفوضى التى كانت تسودها أيام معظم الملوك الشراكسة المتأخرين .

والواقع أن مصر كانت لاتزال خاضعة لحكم المماليك . وكان الباشوات يتغيرون على الدوام ويعيشون فى فزع وخوف من جنودهم ، أما الأمراء فكانت فى أيديهم السلطة الحقيقية ، وكانوا يستخدمونها وفقا للطريقة القديمة وذلك لمصلحتهم الخاصة والقضاء على منافسيهم سواء بالنفى أو الإعدام . وكانوا يكونون من أنفسهم جماعات أو أحزاب قوية ـ مثل Kàsimis و Fikàris ـ وكان أتباعهم يقاتلون بعضهم البعض فى الشوارع ، إلى أن حاصروا قوات Azab الحكوميه بضعة أشهر . وكانوا قد اكتشفوا أن القلعة يمكن التحكم فيها وذلك بوضع مدفعية على التل الموجود خلفها . ونحن نقرأ فى تاريخ « الجبرتى » عن قوات من الجنود كانت تحصن نفسها فى مساجد « ابن طولون » و « الماس » و « المحمودية » ، ويطلقون

قذائف المدافع من المآذن المجاورة لها . وقد أتى وقت كانت الفوضى فيه تفوق كل وصف ، فقد هجر القوم الشوارع ، ونهبوا المنازل ، ولم يكن يجرؤ أحد على الوصول حتى بولاق أو مصر القديمة . وقد تلت هذه الفوضى فترة من الهدوء أكدتها السيادة المؤقتة لأمير عظيم . والواقع أنه يصعب علينا كشف أى فارق جوهرى بين هؤلاء الأمراء المتأخرين ، وبين أولئك الذين ظهروا خلال العصر الذهبى لحضارة المماليك . حقيقة أن فرصهم المواتية كانت أقل ، لأنهم لم يقووا على القتال فى سوريا أو آسيا الصغرى لمصلحتهم الخاصة . وذلك لأن الخطط التى كانت ترسم فى مصر على الدوام للاستغلال الأجنبى ، كانت تستخدم لجانب ضئيل للجيوش العثمانية . إلا أن من الواضح أن شخصياتهم وأعمالهم وميولهم كانت تشبه إلى أبعد الحدود ما كانوا عليه فى القرنين السابقين لهم . فقد كان الفرق إذن فى الحكم لا فى النوع : ذلك أنهم لم يكونوا أناسا ذوى فرص عظيمة مثلما كان كان أسلافهم ، وإنما كانوا يشبهونهم فى الجنس والخلق والعمل إلى حد بعيد .

والحقيقة أن بعضهم كان ذا شخصية قوية يمكن مقارنتها بشخصيات المدرسة القديمة . فعثمان بك ذو الفقار ـ على سبيل المثال ـ فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ـ بعد أن قام بدور بارز فى الحرب الحزبية التى كانت تدور حول « ذى الفقار بك » و « شركس بك » ، وبعد أن شاهد بعينيه مقتل أحد عشر أميراً من ذوى النفوذ فى قصر الدفتردار فى الوقت الذى تمكن هو فيه من الهرب بأعجوبة ـ أصبح أبرز نبلاء القاهرة ، وفى قدرته أن يرفع مماليكه الخاصة إلى مرتبة الإمارة ، وفى عام ١٧٣٩ أصبح أميراً للحج ـ وهو من أشهى المناصب فى مصر . وحينما قتل «على الجلفى» النائب ، عزل عثمان بك الباشا وعين «رضوان» نائباً على قوات الـ Azab . وكان عثمان بك هو أول أمير يجرؤ على دعوة باشا مصر لوليمة فى قصره ، وقد كان خضع بسيطرته بقية نبلاء مصر خضوعاً تاماً . كما أنه كان يعقد مجلساً فى قصره الخاص ليبحث أسباب الشكوى ، وكان يعاقب فى صرامة وشدة كل حالات الاغتصاب والظلم ـ لأنه هو نفسه كان نقيا نزيهاً . كذلك كان يراقب مفتش الأسواق عن كثب ، ويحدد أسعاراً ثابتة للخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر تنفق فى الأوجه الصحيحة . ولقد كان سامياً فى خلقه ، ذا أفكار وآراء نبيلة ، عادلا ، قوياً ، نزيها ، ذا حياة شريفة ، أبياً كريماً ،

بحيث أنه خلف من ورائه أثراً ـ حينما تسببت مؤامرات خصومه فى نفيه من مصر ـ كان من نتيجته أن كان ينسب إليه عصر من العصور ، فقد كان القوم يقولون مثلا : إن ذلك الشىء حدث بعد رحيل عثمان بك ببضعة سنوات ، أو لقد كان عمرى كذا من السنين حينما رحل عثمان بك .

ولقد كان « رضوان بك الجلفى » ـ الذى أشرنا إليه آنفاً ـ علماً بارزاً آخراً من أعلام القرن الثــــامن عشر . فحينما كان يتولى السلطة هو ونائب آخر يدعى « ابراهيم » ، كانت البلاد تتمتع بسلام شامل ، وكان الطعام أرخص منه فى أى وقت قبل ذلك . وعلى الجملة فإن جميع الطبقات كانت تعيش فى يسر ورخاء . وكان كل رجل عظيم فى تلك الأيام يفتح منزله مرتين كل يوم ـ فى الظهر والمساء ـ لكل قاص ودان ، وذلك فى بهو عظيم الاتساع . وكان السيد وضيوفه يتصدرون المائدة ، ثم يليهم المماليك والأتباع ، وكان من العار ألا يسمح لأى غريب بالدخول ما دام قد قدم بنفسه الى هناك . أما فى أيام الأعياد فكانت توزع أطباق كبيرة من الأرز وعسل النحل أو اللبن على الفقراء . كذلك كانت توزع الحلوى فى أيام الجمع والاحتفالات الرسمية . وكان أحد منازل رضوان الأنيقة يقع على الأزبكية (التى كانت توجد فى ذلك الوقت) ؛ وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة ، فيها نقوش عربية من الذهب على أرضية لونها أزرق ومرصعة بالزجاج باللون المتناسق الذى يكسبها روعة فوق روعة . كذلك فإنه بنى أكشاكا فى حديقة بجوار القناة ، حيث كان قد حفر بركة وأقام جندلا ، وهناك ـ وحينما خمدت أطماعه وآماله ـ كان ينغمس فى الملذات التى كان يسر منها كثيراً . والحقيقة أن « رضوان » لم يكن يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم « عثمان بك » ، ولكنه أعطى حرية زائدة لنساء القاهرة ، إذ أصدر أوامره إلى رجال الشرطة بألا يزعجوهم أو يعترضوا طريق المعجبين بهن[١] . وكانت القاهرة فى ذلك الوقت بمثابة مرعى للغزلان ، أو جنة للحوريات . وكان سكانها يحتسون كؤوس الشراب واللذة حتى الثمالة ، كما لو كان قد خفى عليهم أن هناك حساباً عسيراً عليهم أن يؤدوه يوم الحساب . وليس بغريب بعد ذلك أن يتغنى الشعراء فى مدحه بقصائد مثل « الخمر الأرجوانية »

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٤ — ١٤٣ .

و « عطر الجنة » . ولا يوجد فى حى الازبكية الآن أى أثر لقصر « رضوان » ، غير أن بوابته التى تسمى « باب العزب » والتى تؤدى إلى القلعة من الرميلة - لاتزال تحتفظ بذكراه . ولقد كانت نهاية « رضوان » هذا مفجعة . فقد أحاط المتآمرون بمنزله فى شارع قوصون ، وبدأت القذائف تنطلق فى الوقت الذى كان هو فيه مشغولا بحلاقة ذقنه . ومن ثم أخذ يقاتل بكل قوته ، إلى أن كسرت إحدى ساقيه فامتطى صهوة جواده وهرب ليموت فى صعيد مصر . وكان هو آخر قواد الـ Azabs .

لم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يملكون مثل هذا المنزل الذى كان يملكه « رضوان » . فقد كان هناك على بحيرة الأزبكية أيضاً منزل يملكه تاجر مشهور اسمه « أحمد الشرايبى » ، كانت عائلته تنجب أمراء وتقتنى مماليك ، وكانت تملك ثروة طائلة تنفقها مثلما كان النبلاء ينفقون ثرواتهم . وكان العلماء الرجال المثقفون يترددون على منزل هؤلاء القوم الذى كان يزخر بكثير من الأصول والمراجع الثمينة . ذلك أن هذه العائلة لم تكن تدع كتاباً يظهر فى السوق إلا وتشترى منه نسخة - مهما غلا ثمنها - لمكتبتها حيث يكون فى متناول جميع الزائرين فكان من المؤكد أن يجد كل عالم ما يريده من كتب فى مكتبة « الشرايبى » ، وكان له أن يستعيره ، أو حتى يحتفظ به لنفسه : ذلك أن كبار التجار لم يكن الواحد منهم يفكر فى أن يطلب إعادة كتاب معار ، إنما كان يبحث عن نسخة أخرى من الكتاب ليشتريها . ومن وجهة نظر العلماء والمثقفين ، يبدو أنه من المستحيل أن توجد طريقة أفضل من هذه . وكان أفراد هذه العائلة أكثر من مجرد شغوفين باقتناء الكتب أو إعارتها ، بل كانوا يراعون فى دقة وصرامة حكم الملكانيين ، ويلزمون جانب الأخلاق القويمة ، ويبقون دائماً على الحياد فى علاقاتهم واتصالاتهم وكانوا لا يتزوجون إلا فى محيط عائلتهم ، ولكن بناتهم لا يغادرون المنزل إلا فى حالتين فقط : الزواج والوفاة ، وكان يحسن الاحتياط دائماً فى وقت كان فيه « رضوان » الباذخ يعمل على تشجيع مغامرات الغزل ، وكان فريق من النساء الأنيقات يركبن لاستنشاق الهواء - مثلما تفعل نساء القاهرة الآن - فى الوقت المناسب على ضفاف بحيرة الأزبكية ، ثم يعدن أدراجهن بعد أن سلبن حليهن وتجردن من ملابسهن . إلا أن أسرة «الشرايبى» - على الرغم من شدتها وصرامتها -

كانت أحياناً تلين . فحينما كانت تقام احتفالات الزواج - على سبيل المثال - كانوا يقدمون برامج حافلة باللهو والطرب ، غير أنهم كانوا يحرصون على صون بناتهم ، إلى حد أنهم كانوا ينتظرون حتى ينتهى المدعوون من صلاتهم فى جامع «أزبك»(١) المقابل لمنزل الأسرة . وبعد ذلك يسرعون فى إرسال العروس إلى منزل زوجها فى صحبة وصائفها ، وهنا يطلق القوم النيران ويحملون المشاعل ويمضون ليلتهم فى فرح وهناء .

وكان من تقاليد الأسرة أن تعيّن واحداً من أفرادها قيّماً على ممتلكاتها وشئونها . فكان عليه أن يجمع الإيرادات ، ويجنى المحاصيل ، ويتسلم أرباح التجارة ، ويدفع جميع نفقات العائلة بما فى ذلك الملبس والمصروف الخاص . وفى نهاية العام ، كان عليه أن يعد قائمة الحساب ويدفع لكل فرد من أفراد العائلة ما يستحقه . وكان من المنتظر أن تستمر هذه الطريقة الرائعة طويلا ، ومن ثم فلن نتعجب إذا علمنا أنه حدث فى نهاية الأمر أن كان يتشاجر الأفراد الصغار فيما بينهم على الحساب مما أدى إلى انتهاء الشركة بينهم ، ولقد كانت تلك ولا شك عائلة يمكن استثناؤها . إلا أنه فى الوقت نفسه كان يوجد كثير من نوعها ، ونحن نجد الآن فى القاهرة كثير من العائلات الكريمة المنبت التى تسير فى الطريق القويم وتحترم قوانين الأخلاق الصارمة .

وشغف هذه العائلة باقتناء الكتب يلقى لنا ضوءاً هاماً على العلم والمعرفة فى ذلك الوقت . ولقد كانت تكونت فى القاهرة مكتبات هامة فى خلال الأيام الأولى لحكم المماليك ، وكان بعضها من غنائم المساجد السورية . وإن نحن أردنا أن نستدل بالتراجم الطويلة وسير بعض المشايخ والأساتذة ورجال الدين والمؤرخين والشعراء ممن أعجب بهم « الجبرتى » وجدنا أنه كان يوجد هناك نشاط فكرى فى مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولو أنه لم يكن نشاطاً من المرتبة الأولى لأنه لم يأت بجديد . ويذكر لنا الجبرتى حادثة غريبة وقعت فى عام ١٧٥٠ بين أحمد باشا - العالم بالرياضيات - والشيخ عبد الله الشبراوى من الجامع الأزهر . فقد لاحظ الباشا أنه طالما سمع عن مزايا مصر العجيبة ومحاسنها كمنبع للعلم والمعرفة ، ولكنه

---

(١) تهدم هذا المسجد فى عام ١٨٦٩ . وكان قد بناه الأمير المشهور « أزبك بن تتسن » التى سميت الأزبكية نسبة إليه .



شارع قرب باب الخرق

كان يود كثيراً أن يرى النتائج بنفسه . ومن ثم قال له الشيخ : حقيقة ياسيدى أن مصر كما سمعت ، منبع العلوم والمعرفة . وهنا سأله الباشا : ولكن أين هى ؟ أنك ـعلى قدر ما أستطيع أن أرى ـ لاتعرف شيئاً سوى الشريعة والعلوم الإلهية وغير ذلك من الدراسات القليلة الأهمية ، وتحتقر العلوم العملية كلية . وكان على الشيخ أن يعترف بأن الجامع الأزهر لم يكن يعلم الرياضيات ، اللهم الحساب الذى كان ينفع فى قانون الوراثة . وبعد ذلك عاد الباشا إلى أسئلته فقال : وماذا عن علم الفلك ؟ إنه يلزم لساعات الصلاة والصوم وأشياء أخرى كثيرة . وهنا صرح الشيخ بأن قليلين كانوا يدرسون علم الفلك الذى يتطلب كفاية خاصة ، وأجهزة ، وشروط فسيولوجية ، وميل إلى الهدوء والدعة ، وذلك لمواصلة أبحاثه . ثم قال للباشا إن فى مقدرته أن يرشد إلى رجل من النوع الذى يريد ، ولكن ليس فى الجامع الأزهر. وحينما ظهر الرجل ، أعجب الباشا كثيراً بمعضلاته الحسابية وأهداه رداء من الفرو

باعه فيما بعد بثمانمائة ديناراً . فقد رسم ساعات شمسية جميلة على الرخام(١) ليبين أوقات الصلاة ، وعلاها بعض الآيات المناسبة ، وقد وضعت اثنتان من هذه الساعات فى الجامع الأزهر وفوق سطح مسجد الإمام الشافعى . من هذه الواقعة ـ ومن كثير مما جاء فى مؤلفات هذا المؤرخ ـ نستطيع أن نعلم أن الدراسات فى القاهرة كانت فى ذلك الوقت غير عميقة ، وأن العلم كان قد اضمحل دون شك (١).

ولكن من جهة أخرى ، نجد أن الدين أقوى كثيراً عن ذى قبل . وتاريخ البشوات حافل بكثير من الاشارات إلى نفوذ أساتذة الأزهر وسادته . ونحن نسمع عن حدوث شبه ثورة حينما قام أحـــد الوعاظ الأتراك فى مسجد المؤيد وناهض فكرة الدعاء والتبهل إلى الأولياء ، وهو شىء محبوب لاعلاقة له على الإطلاق بعقيدة محمد . وقد حث الواعظ الجمهور على هدم القباب الموجودة فوق مقابر الأولياء . مما جعل أساتذة الأزهر المحافظين يلاقون صعوبة شاقة فى تهدئته وتسكين الشعب . وكثيراً ما كانت توجد هناك قوانين صارمة لجعل سلوك الشعب متفقاً مع أحكام الدين . فقد كنا نرى ـ على سبيل المثال ـ تحريماً باتا للتدخين فى الشوارع . وكان رجال الشرطة يطوفون فى الشوارع ثلاث مرات كل يوم ، وكان على كل من يضبط متلبساً بالتدخين أن يأكل رأس غليونه . ويذكر لنا « ناصر خسرو » عادة قديمة كانت لاتزال تتبع فى ذلك الوقت : ذلك أن كل رجل يزيف الوثائق كان يوضع فوق ظهر جمل ويطاف به فى الشوارع حيث يصاحبه مناد ، يصيح قائلا : أنظروا عقاب المزيّف ! ومن الواضح أن أهل القاهرة كانوا يؤمنون بالخرافات . فقد حدث فى عام ١٧٣٥ ، أن انتشرت هناك اشاعة فحواها أن يوم البعث سوف يكون يوم الجمعة التـــالى ، ومن ثم وجدنا الناس يودعون بعضهم البعض الوداع الأخير ، ويتجولون فى الحقول والطرقات ليودعوا الأرض التى طالما أحبوها ، فى الوقت الذى كان فيه أهل الجيزة قد حركتهم خرافة قديمة

---

(١) يصف لنا M. Van Berchem بعض هذه الساعات الشمسية العجيبة فى كتابه Notes d'Archéologie Arabe (1892) ص ١٣ — ١٨ . وقد وضعت إحدى هذه الساعات فى مسجد ابن طولون عام ٦٩٦هـ(١٢٩٦م) بواسطة «لاجين» . وهناك ساعة أخرى يمكن رؤيتها حتى الآن فى مسجد «قوصون» ويرجع تاريخها إلى عام ٧٨٥هـ (١٣٨٣م) . كذلك توجد ساعة ثالثة فى مسجد « إينال » وتحمل تاريخ ٨٧١هـ (١٤٦٦م) .

ظهرت قبل مجيء الاسلام بزمن بعيد ، فأخذوا يستحمون فى النيل فى عصبية ظاهرة الرجال والنساء على السواء . وحتى يوم السبت التالى ، لم يكن يوجد هناك سوى الرعب والتوبة والصلاة .

ولم يكن من المعقول بالنسبة لعصر اهتم بالدين إلى هذا الحد ، ألا يولى الأضرحة العناية الواجبة . وإنه لمن الخطأ أن ننسب تهديم كثير من مساجد القاهرة إلى الباشوات الأتراك . بل العكس نجد أن الخطر كان ينحصر فى المبالغة فى إصلاحها إلى حد تغيير معالمها الأصلية . والقاهرة حافلة بالمساجد التركية ، أى على الطراز العثمانى . وهذه المساجد إن لم يكن فى الإمكان مقارنتها بمبانى المماليك الأول ، فهى على الرغم من ذلك فاخرة فى حد ذاتها ، وأفضل بكثير من أى شيء تم بناؤه فى انجلترا ـ على سبيل المثال ـ خلال القرن الماضى . والحقيقة أن مسجد « السيدة صفية » (١٦٠٤) و « أبو الدهد هباب » (١٧٧٤) يعتبرا من أروع الأبنية . كذلك فإن مسجد « البرديني » يحتوى على نقوش عربية تركية رائعة . ولقد هجر المهندسون فى الفترة العثمانية تصميم المدرسة الذى أدخله صلاح الدين الايوبى ـ ذلك التصميم الذى فقد ـ كما رأينا ـ كثيراً من شكلة الصليبى القديم حينما أصبحت تستخدم كجوامع لعقد الاجتماعات العامة أيام المماليك الشراكسة ، غير أنهم حينما عادوا إلى تصميم الجامع القديم الخالى من التعقيد ، أحدثوا فيه تعديلا يتلخص فى إحلال القباب التى على الطراز البيزنطى محل الأسقف المسطحة التى كانت تعلو المصلى فيما مضى . والواقع أن المسجد العثمانى من الوجهة العملية ليس سوى كنيسة كبيرة . ومما يميز مساجد وأبنية العصر العثمانى هو إدخال القرميد . وقد أصلح « إبراهيم أغا » مدرسه « آقسنقر » عام ١٦٥٢ ، حيث جعل الحائط الشرقى بأكمله مغطى بالقرميد الأزرق ، أغلبه على الطراز الدمشقى ، وقليل منه على الطراز الزوسى ـ من القسطنطينية غالباً . ولم يكن إصلاح المبانى مما ينجح دائماً ، فكثيراً ما كانت التعديلات التى أدخلها الأتراك على التحف والروائع القديمة سبباً فى تشويهها . ولقد أصلح أحمد باشا فى عام ١٦٩٠ مسجد المؤيد الذى كان متهدما ، وبنى أحد البشوات « مسجد الأربعين » بجوار بوابة « قره ميدان » عام ١٧٠٤ . كذلك أصلح أحمد « مسجد الظافر الفاطمى المعروف باسم « الفكهانى » ـ عام ١٧٣٥ .

إلا أن أمير المصلحين على الاطلاق كان «عبد الرحمن كتخدا» الذى كان يتمتع بنفوذ عظيم قبل أن يعزل « على بك » - الذى أصلح هو الآخر قبة مسجد الإمام الشافعى وبنى سوق بولاق - البشوات الحاكمين ويجعل من نفسه ملكاً على مصر من عام ١٧٦٨ حتى عام ١٧٧٢ . ولقد كان لوالد عبد الرحمن - « عثمان كتخدا » ذوق هندسى له قيمته . ولقد استغل الأموال التى كان يحصل عليها عن طريق سيء فى بناء مسجد ومدرسة وينبوع بجوار بركة الأزبكية . وفى يوم الافتتاح ملأ الحوض الذى فى الوسط - وكذلك جميع الأبارق التى تمكن من الحصول عليها - بالشراب حتى يشرب الجمهور المحتشد . كذلك فإنه بنى مدرسة للعميان فى الأزهر ، وغير ذلك من أعمال الخير . إلا أن ابنه - على الرغم من ذلك - فاقه بكثير ، فكل سائح لابد وأن يعرف ذلك السبيل الدقيق الذوق - كصاحبه الذى كان وسيماً ومتأنقاً فى ملبسه - فى نهاية « بين القصرين » ، بما فيه من قرميد ، وبما فوقه من مدرسة مكشوفة بها أقواس . إلا أن هذا كان أقل أعماله طراً . فقد بنى مسجداً خارج « باب الفتوح » ، وآخر بجوار « باب الغريب » ، فيه حوض وينبوع ومدرسة . كذلك بنى خزاناً كبيراً للمياه - فيه ينبوع ومدرسة للسقائين ، وأصلح ضريحى السيدة زينب و « السيدة سكينة » ، وأنشأ أضرحة أخرى بجوار « باب القرافة » ، وفى الموسكى ، وفى حى الحسينية ، وفى شارع عابدين ، وغير ذلك . ولعل أهم إصلاح قام به حقاً هو إصلاح الجامع الأزهر الذى يدين له بالكثير مما يوجد به الآن . فقد وضع قَرَناً من الحجر لتثبيت الأعمدة الرخامية ، غطاها بطبقه من الأخشاب الفاخرة . كذلك بنى محرباً ومنبراً جديدين ، وشيد رواقين : أحدهما فوقه مدرسة لليتامى ، والآخر تعلوه مئذنة ، وبنى ضريحاً فى الفناء ، وزود المسجد بالمكتبات ، وقاعات المطالعة ، والمطابخ ، وغير ذلك من الأبنية التى كانت تفيد الطلاب الذين يأتون من صعيد مصر ؛ ووسّع مدرستى « الطيبرسية » و « الأكبغوية » الملحقتين بالأزهر ، وبنى بوابة فخمة بينهما ، فى مواجهة وكالة « قايتباى » ، وأنشأ الأروقة لتكون مأوى لطلبة مكة والسودان ، وقرر أموالا خاصة للإنفاق على معيشتهم ، هذا إلى جانب تقديم كميات وافرة من الأرز والزبد والزيت والدقيق إلى مطبخ الأزهر كل يوم من أيام شهر رمضان ، وذلك للترفيه عن الطلاب بعد صومهم طول النهار . كذلك فإن « عبد الرحمن » أصلح مسجد الإمام الشافعى ،

ومهد الممر الموجود فيه بالرخام الملون ، وأصلح ضريح « السيدة نفيسة » ومارستان قلاوون ، إلا أنه بعد أن هدم القبة ، لم يهتم بأن يعيد بناءها ، بل غطى البناء بسقف مسطح كما نشاهده اليوم . ولقد لقى صعوبة كبيرة فى الوصول إلى الأموال التى تركها مؤسس المستشفى وخلفاؤه ، ونجح فى اكتشاف حجة الملكية وفى إعادة دخل المستشفى . وعلى الرغم من الطرق التى سلكها للوصول إلى الثروة ، وعلى الرغم من كل ما كان يشاع عنه ، فإن أعمال هذا الرجل الخيرية لاحد لها ففى وقت الشتاء كان يوزع الملابس الصوفية على العميان الذين كانوا يكثرون فى القاهرة ، وكذلك على المؤذنين حتى يقيهم من البرد حينما كانوا يؤذنون للصلاة أثناء الليل . وكان الفقراء يتدافعون على بابه مساء كل يوم من أيام رمضان ، ينتظرون أطباق الطعام التى لم تكن ترفض على الإطلاق ، فإذا ما انتهوا من تناول طعام الإفطار ، انصرفوا فى بشر وسعادة وقد حمل كل منهم رغيفين وقطعتين من النقود لشراء مايلزم لطعام السحور . وعلى الجملة فإن « عبدالرحمن كتخدا » بنى - أو أعاد بناء - ثمانية عشر مسجداً ، إلى جانب الأضرحة والسبل والمدارس والجسور وغير ذلك من الأبنية . فقد كان لديه شغف بالبناء ، ومن حسن الحظ أن ذوقه كان رفيعاً ، وكان الناس يسمونه بحق « المحسن العظيم » . وقد توفى « عبد الرحمن » فى القاهرة عام ١٧٧٦ فى سن متقدمة بعد أن أمضى إثنتى عشرة سنة أسيراً فى بلاد العرب . ذلك أن أعماله الخيرية لم تكن لتعفيه من شكوك « على بك » . ولقد سار فى جنازته العلماء والأساتذة والطلاب والفقراء ، إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر حيث ووری الثرى فى مقبرة كان قد بناها بالقرب من البوابة الجنوبية .

وآخر المساجد العظيمة التى بنيت خلال فترة البشوات هو مسجد محمد بك المعروف بإسم « أبى الذهب » ، نسبة إلى ما كان يقوم به من نثر نقود ذهبية للشعب . وقد كان محمد بك أبو الذهب هذا مملوكا محبوباً وموثوقاً به لدى على بك الكبير ، وقد كافأه على رعايته إياه بأن عمل على تحطيمه ونفيه ، ثم القضاء على حياته فى نهاية الأمر . وكان جندياً لامعاً ، إذ أبلى بلاء حسنا فى الحروب التى قام بها من أجل سيده - على بك الكبير - فى سوريا وبلاد العرب ، وجعل لنفسه شهرة يكتنفها الحب والإعجاب وذلك لسلوكه الحكيم وكرمه الزائد . وكانت مصر يسودها

السلام حينما كان يتقلد هو السلطة . وبينما كان الباب العالى يعين البشوات كما كان يفعل من قبل ، ترك السلطة ـ وقد صاب فى تخليه عنها ـ الحقيقية فى أيدى هذا الأمير القادر المحبوب . وفى عام ١٧٧٤ أسس محمد بك مدرسته الجميلة فى مواجهة الأزهر وهناك يرقد فى مقبرته . ولقد بنيت هذه المدرسة طبقا لتصميم مسجد قديم فى بولاق (مسجد السنانية) ، وكانت تعتبر أعجوبة للبناء والثراء : أسقف مذهبة ، مداخل رخامية ، قبة رائعة ، وكوات برونزية بديعة الصنع ، إلى آخر ذلك . وكانت هناك مداخل خاصة لكل من أصحاب المذهب الحنفى والملكانى والشافعى . وكان الأساتذة المشهورون يأتون إليه ليدرسوا الشريعة ، وكانوا ـ على خلاف ماجرت عليه العادة ـ يتقاضون مرتبات قد تصل فى بعض الأحيان إلى مائة وخمسين Paras (١) ولكنها لم تكن لتقل بحال من الأحوال عن عشرة Paras فى اليوم ، ومكافأة سنوية مقدارها خمسين مدأ (٢) من القمح . وفى يوم الافتتاح ، خلع الرجل العظيم على رجال الدين قفاطين من الفراء الأبيض أو السمورى على حسب مراتبهم ، وهى نوع من الأزياء الخاصة بالجامعات .



فناء مقبرة للمسلمين

(١) كان ثمن رطل اللحم فى ذلك الوقت Two paras .

(٢) المد : مكيال يسع خمسة وعشرين أقة .

وكان مسجد محمد بك هو آخر مساجد القاهرة العظيمة ـ اللهم إذا استثنينا مسجد محمد على الفخم فى القلعة ـ وهو يبدو رائع المنظر إذا نظرنا إليه من أى جانب من جوانبه على الإطلاق . ومهما يكن من أمر ، فإنه من الواضح أن هذا المسجد يشوبه العنصر الأجنبي ، فهو مزيج من أسلوب إسطمبول وأسلوب القاهرة اختلطا معاً ليكونا تاجا فنيا رائعا . ولكن على الرغم من ذلك ، فإننا نعترف بأنه لا يمكن لنا أن نصل إلى البناء العثمانى الخالص فى مدينة المماليك القديمة .

ولقد قلنا حتى الآن ما فيه الكفاية لنثبت أن مساجد القاهرة لم يلحقها ضرر أو تخريب خلال فترة حكم البكوات والبشوات ، بل على العكس من ذلك وجدنا أن العناية بها كانت كبيرة . وإنما بدأ العهد السيء للمساجد حقا حينما جاء محمد على ـ وهو يشبه على بك ولكنه كان أكثر منه نجاحا وجعل من نفسه حاكما على مصر ، وكان حكمه ذا لون جديد ، فإذا قورن حكم أقوى المماليك بحكمه لكان ـ أى حكم المماليك ـ هو الضعف بعينه . فقد كان محمد على هو الذى وضع يده على الأوقاف التى كانت تخص مساجد مصر ومعاهدها منذ قرون خلت . وحينما ذهب علماء القاهرة يصرخون ويلعنون ، حرمهم من حق إدارة شئون المساجد التى كان يعهد بها إليهم . ومنذ ذلك الوقت ـ حينما ضاعت أو أعدمت حجج الملكية ، واختلطت أموال الوقف أو اختلست ـ أخذت آثار القاهرة ومبانيها فى الاضمحلال والتهدم . ذلك أن حركة مسايرة أوربا فى القرن التاسع عشر ـ التى لم يكن منها بد ، والتى كان الاتجاه العام يميل إليها فى نواح كثيرة ـ كان من شأنها أن تعمل على هدم كثير من المساجد وغيرها من الأبنية التاريخية التى كانت تعوق سير العربات أو تقف حجر عثرة فى الشوارع والميادين الجديدة التى كان نواب السلطان يرسمونها دون أى اعتبار لما قد يكون فيها من آثار تاريخية لها قيمتها . ولقد كان شارع محمد على أسطع مثال للشوارع التى كانت تمتد غير عابئة بما قد تلاقيه من آثار تاريخية هامة . وغير هذا حدث فى أغلب أحياء القاهرة تقريبا ، ولعل الإدارة التى كان من مهمتها تخطيط الشوارع ، كانت تقوم بعمل مجالس المديريات ولكن فى أضيق صورة . ويرجع الفضل فى عدم استمرار تلك الحالة السيئة إلى تيقظ

وحزم « لجنة حفظ آثار الفن العربى»[١] ، وهى هيئة رسمية أبلت بلاء حسنا ، وندين لها بفضل المحافظة على آثار عربية من جميع العصور وعلى اختلاف الأنواع . والواقع أنه لولا جهود هذه اللجنة الموفقة ، لكانت تلك الآثار قد أصبحت فى خبر كان منذ أمد بعيد . والحق أنه لصعب ـ بل يستحيل علينا أن نسجل تقديرنا لأعمال هذه اللجنة التى تتميز بالدقة والصبر معا . فالتقارير السنوية السبعة عشر التى أصدرتها ـ والتى تحفل بالكثير من الصور والإيضاحات والرسوم ـ تكوّن فى مجموعها مكتبة نفيسة لها قيمتها ، تشهد فى كل صفحة من صفحاتها على العناية الكبيرة والمسئولية الجسيمة التى كان يحس بها أعضاء تلك اللجنة . ويجدر بى فى هذا المقام أن اقتبس تقريراً عن الطرق التى سلكتها اللجنة ، والنتائج التى تمخضت عنها أبحاثها . وهذا التقرير طلبه منى « الإيرل كرومر » Erl Cromer فى عام ١٨٩٥ ، ثم نشره فى التقرير السنوى عن نهضة مصر الذى تقدم به إلى البرلمان فى عام ١٨٩٦ :

سيدى ـ وفقاً لما سبق أن طلبتموه منى ، يسرنى أن أذكر بضعة ملاحظات على عمل لجنة حفظ آثار الفن العربى ـ تلك اللجنة التى أتيحت لى فرصة اختبارها فى صيف هذا العام .

ولقد تشكلت هذه اللجنة بمقتضى مرسوم أصدره الخديو الراحل فى الثامن عشر من شهر ديسمبر عام ١٨٨١ . وكانت واجباتها :ـ

(١) أن تقوم باستعراض وتسجيل آثار مصر العربية التى لها قيمة تاريخية أو فنية .

(٢) أن تحرص على حفظ هذه الآثار ، وتقوم بإبلاغ وزير الأوقاف عن كل ما يلزم من إصلاحات للمحافظة عليها .

(٣) أن تعد خطة لهذه الإصلاحات ، ثم تشرف بنفسها على كل كبيرة وصغيرة فى تنفيذ هذه الخطة .

(٤) أن تتأكد من أن تصميمات الأعمال التى يتم إنجازها تحفظ فى وزارة

Commission for the Perservation of the Monuments of Arab Art. (١)

الأوقاف ، وأن تشير إلى أى تحف مستقلة أو حطام متهدمة ينبغى نقلها إلى متحف الفن العربى .

إلا أن الاضطرابات السياسية حالت دون تنفيذ كثير من هذا قبل انقضاء عام ١٨٨٢ . وعندما قمت بتفتيش عام على آثار القاهرة العربية من شهر يناير إلى شهر مارس عام ١٨٨٣ ، ألفيت اللجنة تقوم بعملها الرسمى ، ومن ثم أتيحت لى فرصة التعرف على الطريق الذى بدأت تسلكه . وعلى ذلك فإنى أستطيع أن أقارن بين ما كانت عليه الآثار العربية حينما أخذت تتناولها اللجنة بالإصلاح والترميم ، وبين ما آلت إليه بعد أن انقضت اثنتى عشر سنة على عملها .

ويمكننى أن أذكر فى يقين تام - وذلك بمقارنة حالة المساجد فى عامى ١٨٨٣ و ١٨٩٥ - أن الآثار أصبحت الآن فى حالة من الحفظ والرعاية تفوق كثيراً ما كانت عليه منذ عشر عاماً . ولقد أمكن إصلاح وتقوية الآثار التى لم يكن هناك قبس ضئيل من الأمل إصلاحها فيما مضى . وعلى وجه العموم ، فإن المبانى التى كانت آيلة إلى السقوط قد أمكن ترميمها وإصلاحها . كذلك يوجد الآن إشراف يقظ وحماية حذرة من كل ما عساه أن يحدث من نهب أو تخريب . ويرجع الفضل فى النتائج الحسنة إلى الجهود الموفقة والدراية العلمية التى بذلها كل من المرحوم « روچرز بك » Rogers Bey و « فرانز باشا » Franz Pasha و « يعقوب أرتين باشا » - أولئك الذين ستظل أسماؤهم مقرونة دائماً بالنهضة الفكرية فى مصر . ولقد كان بعض الزملاء الفرنسيين يســـدون خدمات جليلة من آن لآخر . وأضفى حضور كثير من وكلاء وزارة الأشغال العامة المتعاقبين - وعلى الأخص المستر و . ا . جارستن Mr W. E. Garstin [1] أعمال اللجنة أهمية وقوة . وبطبيعة الحال فإن أهم وظيفة كانت لدى اللجنة هى وظيفة المهندس ، فمن شأنه الإشراف على الآثار ، والتوصية بما ينبغى إجراؤه من إصلاحات ، والإشراف بنفسه على تنفيذ هذه الإصلاحات . ومنذ أن أنشئت إدارة خاصة باللجنه - وهى التى انفصلت عن القلم الفنى بوزارة الأوقاف - كان المستر « ماكس هرز » Mr. Max Herz [2] هو المهندس المسئول عن أعمال اللجنة . وأنه لمن العدل

(١) سير جارستن فيما بعد .

(٢) ماكس هرز بك ــ زميل الآثار .

أن نقول فى هذا المقال إن درايته وخبرته الواسعتين فى الفن وعلم الآثار ، كان لهما أثر فعال فى الحالة الطيبة التى أصبحت عليها الآثار فى الوقت الحاضر . وإلى جانب خبرته العملية كمهندس ، فإن ماكس هرز بك له معرفة بتاريخ الفن العربى وشغف كبير بالعمل الذى يقوم به . والدليل الذى وضعه عن المتحف العربى[1] ـ والذى نشر هذا العام بالفرنسية ـ يشف عن دراسة واسعة لتطور الفن العربى ، والآداب ـ الغربية منها والأوربية ـ التى لها علاقة بهذا الموضوع . وأن الإصلاحات الشاملة التى أجراها فى بعض المساجد الصغيرة ، لأصدق دليل على تعمقه فى دراسة الفن العربى وزخارفه ، وعلى مهارته فى عمله ، وحرصه على أن تكون الزخارف مطابقة لما كانت عليه . ومهما يكن من أمر ، فإن تعيين هرز بك فى « لجنة حفظ الفن العربى » يعد كسباً لها وتوفيقاً .

معنى كلمة « حفظ » :

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن واجب اللجنة الأول هو حفظ الآثار وليس إحياءها ، وهناك لجنة فرعية كان عملها حصر الآثار التى لها قيمة تاريخية أو فنية ورسمها . وكان أول واجبات اللجنة هو الإشراف حفظ كل ماتم حصره من تلك الآثار . ولقد لاحظت بنفسى أن أعضاء هذه اللجنه كانوا يقدرون المسئولية الملقاة على عاتقهم ، ويقومون بعملهم خير قيام على قدر ما كانت تسمح به المبالغ المحدودة التى رصدت لهذا العمل . وبطبيعة الحال فإنه لايمكننى أن أذكر فى هذا المقام سلسلة الإصلاحات المختلفة من بناء جدران بأكملها فى المساجد إلى إزالة القاذورات العالقة بالنقوش المنحوتة . إلا أن تفصيل ذلك يمكن الاطلاع عليه فى التقارير السنوية الرائعة التى كانت تصدرها اللجنة ، وهى لاتترك مجالا للشك فى قدرة اللجنة ودقتها . ومهما يكن من أمر ، فإنه مازال هناك مجال واسع للإصلاح . وكثير من الإصلاحات التى تم انجازها لا يمكن أن نعتبرها إلا إصلاحات مؤقتة ريثما تسمح الظروف المالية باجرائها على نطاق واسع . ولا يخفى أن حفظ الآثار فى صورة دقيقة يحتاج أول مايحتاج إلى المال الوفير . فاللجنة تعلم تمام العلم ماينبغى أن تعمله

---

(1) Catalogue of the Arab Museum.

لحفظ الآثار ، إلا أن هذا العلم لايجدى فتيلا مالم يتوفر لها المال اللازم والموظفين الأكفاء .

والآثار التي استفادت من اصلاحات هذه اللجنة يضيق عن ذكرها المقام . إلا أننا يجب أن نذكر بصفة خاصة ذلك الإصلاح الذي أدخل على مسجد المارداني ، والذي تكلف أربعة آلاف جنيه ، فهذا المسجد لم يكن من إصلاحه بد ، وقد أتت الأموال التي أنفقت من أجله كلها . وكل زائر إلى القاهرة لابد وأن يتملكه العجب لما طرأ على المساجد من تغير منذ أن بدأت تعنى بأمرها اللجنة . فكم من مساجد كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح أطلالا دارسة ، أمست اليوم تزهو بعظمتها فى جو يسوده الأمن والطمأنينة . وكم من مساجد أخرى أمكن على الأقل إطالة زمن بقائها . والحق أنه ما من تحفة من تحف الفن العربي ، أو أثر من آثار أسوار المدينة ، وما من قطعة خشبية منقوشة أو منحوتة مهما صغر حجمها إلا وكانت موضع رعاية اللجنة وعنايتها . وفى الحالات التي لم يكن المستطاع فيها الآثار البالية ، كانت تجمع برمتها وتنقل إلى المتحف العربي ـ ذلك المتحف الذي يشهد بدوره على العمل الذي تم خلال العشرين سنة الماضية . فقد أمكن فى تلك السنوات تضميد الجروح التي أحدثها البلى الطبيعي ، والإهمال ، والجهل . وهذه أسهم نافذة أصابت قلب الآثار فى قاهرة العصور الوسطى .

جدول (١)

يبين حكام القاهرة وآثارها

(١) الفترة العربية

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٦٤٠ — ٨٦٨	٢٠ — ٢٥٤	٩٨ حاكما فى ظل خلفاء دمشق وبغداد	جامع عمرو †	٢١
			مدينة الخيمة (الفسطاط)	٢١
			مقياس النيل الأول في الروضة	٩٨
			العسكر	١٣٣
			مقياس النيل الثانى فى الروضة	٢٤٧

(٢) فترة الأتراك

ا — البيت الطولونى :

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٨٦٨	٢٥٤	احمد ابن طولون	القطائع	٢٥٦
			قصور القطائع	٢٥٦
			المارستان	٢٥٩
			جامع ابن طولون(*)	٢٦٣-٢٦٥
٨٨٣	٢٧٠	خمارويه بن طولون	قصور القطائع	٢٧٠
٨٩٥	٢٨٢	جيش بن خمارويه		
٨٩٦	٢٨٣	هارون بن خمارويه		
٩٠٤	٢٩٢	شيبان بن طولون		

(*) تشير هذه العلامة إلى أن البناء — أو جانب منه — لايزال موجودا حتى الآن .

(†) تشير هذه العلامة إلى أن الأثر قد أعيد بناؤه فى نفس الموقع .

[يوجد جدول ملحق بآخر الكتاب لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية]

ب — حكام الخلفاء :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٠٥-٩٣٤	٢٩٢-٣٢٣	ثلاثة عشر حاكما		

حـ — بيت الإخشيد :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٣٤	٣٢٣	محمد الأخشيد	قصر فى حديقة كافور فى الروضة	
٩٤٦	٣٣٤	أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد	مارستان فى الفسطاط	٣٤٦
٩٦٠	٣٤٩	أبو الحسن على بن الإخشيد	جامع الجيزة	٣٥٠
٩٦٦	٣٥٥	أبو المسك كافور		
٩٦٨	٣٥٨	أبو الفوارس أحمد بن على		

(٣) فترة الفاطميين

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٦٩	٣٥٨	المعز	تأسيس القاهرة	٣٥٨
			القصر الشرقى العظيم .. الخ	٣٥٨
			جامع الأزهر*	٣٥٩
٩٧٥	٣٦٥	العزيز	القصر الغربى .. الخ	
٩٩٦	٣٨٦	الحاكم	جامع الحكيم*	٣٨٠-٤٠٣
			جامع رسيده	٣٩٣-٣٩٥
١٠٢١	٤١١	الظاهر	جامع المقس	
١٠٣٦	٤٢٧	المستنصر	جامع الجيوشى*	٤٧٨
			باب النصر*	
			باب الفتوح*	
			السور الثانى*	
			باب زويلة*	٤٨٠-٤٨٤
١٠٩٤	٤٨٧	المستعلى	جامع مقياس النيل	٤٨٥
١١٠١	٤٩٥	الآمر	جامع الأقمر*	٥١٩
			بضعة مساجد (يانس، كانورى، باب الخوخة)	

١١٣١	٤٢٤	الحافظ	محراب الأزهر والسيدة رقية*	
١١٤٩	٥٤٤	الظافر	جامع الأقمر†	٥٤٣
١١٥٤	٥٤٩	الفائز		
١١٦٠	٥٥٥	العاضد	جامع الصالح طلائع	٥٥٥

(٤) بيت صلاح الدين

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
١١٦٩	٥٦٥	الناصر صلاح الدين بن ايوب	جامع نجم الدين ايوب	٥٦٦
			مدرسة‡ الناصرية	٥٦٦
			*مدرسة القمحية‡	٥٦٦
			مدرسة القطبية	٥٧٠
			مدرسة ابن الأرسوف	٥٧٠
			مدرسة السيوفية	٥٧٢
			القلعة	٥٧٢
			البدء فى السور الثالث	٥٧٢
			المارستان	٥٧٥
			مدرسة الفصيلة	٥٨٠
١١٩٣	٥٨٩	العزيز بن صلاح الدين	جامع ابن البنا	٥٩١
			مدرسة اشكشيه	٥٩٢
١١٩٨	٥٩٥	المنصور بن العزيز	مدرسة غزنوية	
١٢٠٠	٥٩٦	العادل سيف الدين	مدرسة العادلية	
			مدرسة الشريفية	٦١٢
١٢١٨	٦١٥	الكامل بن العادل	أحياء مسجد الشافعى	٦٠٧
			مدرسة الكميلية *	٦٢٢
			مدرسة الفخرية	٦٢٢
			زواية قصرى	٦٣٣
			مسجد ابن الشيخى	٦٣٣
١٢٣٨	٦٣٥	العادل (الثانى) بن الكامل	مدسة الصيرميه	٦٣٦
			مدرسة الفايزيه	٦٣٦
١٢٤٠	٦٣٧	الصالح أيوب بن الكامل	مدرسة الصالحيه	٦٣٩
			جامع الروضة .. الخ	
١٢٤٩	٦٤٦	المعظم توران شاه بن الصالح	زوايةخدام	٦٤٧

(٥) المماليك الأتراك

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
١٢٥٠	٦٤٨	الملكة شجر الدر	ضريح الصالح	٦٤٨
١٢٥٠	٦٤٨	المعز أيبك	مدرسة القطبية	٦٥٠
			مدرسة الصاحبية	٦٥٤
١٢٥٧	٦٥٥	المنصور على بن أيبك		
١٢٥٩	٦٥٧	المظفر قطز	المدرسة الظاهرية	٦٦٠
١٢٦٠	٦٥٨	الظاهر بيبرس	مشهد الحسينى	٦٦٢
			المدرسة الماجدية	٦٦٣
			جامع الأقرم	٦٦٣
			جامع الظاهر	٦٦٥
			مدرسة Muhedhdhibiya	
			مدرسة فاركانية	٦٧٦
١٢٧٧	٦٧٦	السعيد بركه خان بن بيبرس		
١٢٧٩	٦٧٨	العادل سلامش بن بيبرس		
١٢٧٩	٦٧٩	المنصور قلاوون	المدرسة المنصورية	٦٨٤
			مارستان قلاوون	٦٨٤
			زاوية الجبرى	٦٨٢
			زاوية الهلاوى	٦٨٣
			زاوية الجمبرى	٦٨٧
			خانقاه البندقدارية	٦٨٨
١٢٩٠	٦٨٩	الأشرف خليل بن قلاوون	باب من عكة	
١٢٩٣	٦٩٣	الناصر محمد بن قلاوون		
١٢٩٤	٦٩٤	العادل كتبغا		
١٢٩٦	٦٩٦	المنصورلاجين	إحياء جامع ابن طولون	٦٩٦
			مدرسة طغجية	٦٩٨
			مدرسة منجوغرية	٦٩٨
١٢٩٨	٦٩٨	الناصر (الحكم الثانى)	مدرسة الناصرية	٦٩٩-٧٠٣
			مدرسة كراسنقرية	٧٠٠
			مدرسة الجمالية	٧٠٣
			إحياء المسجد الأزهر إحياء مسجد الحكيم إحياء مسجد طلائع	٧٠٣-٧٠٤
			مسجد طيبرس	٧٠٧

١٣٠٨	٧٠٨	المظفر بيبرس (جاشنكير)		خانقاه بيبرس*	٧٠٦-٧٠٩
١٣٠٩	٧٠٩	الناصر (الحكم الثالث)		مدرسة طيبرسية*	٧٠٩
				زاوية الحصى	٧٠٩
				جامع الجاكى	٧١٣
				قصر القلعة*	٧١٣
				قناة المياه (aqueduct)	٧١٣
				مدرسة السعيدية	٧١٥
				خانقاه أرسلان	٧١٧
				جامع القلعة *	٧١٨
				جامع الأمير حسين *	٧١٩
				مدرسة الملكية *	٧١٩
				مدرسة جاولية *	٧٢٣
				مقبرة أردوتجين *	٧٢٤
				مدرسة مهندارية *	٧٢٥
				مدرسة بكتمرية	٧٢٦
				جامع الخزانى	٧٢٩
				جامع الماز*	٧٣٠
				جامع البرقية	٧٣٠
				جامع قوزان*	٧٣٠
				جامع ساروجا	٧٣٠
				مدرسة أقبغية*	٧٣٤
				مقبرة تاشتمر*	٧٣٤
				قصر بشتاك*	٧٣٥
				خانقاه قوان*	٧٣٦
				خانقاه سرياقوس	٧٣٦
				جامع بشتاك †	٧٣٧
				جامع أيدمر	٧٣٨
١٣٤١	٧٤١	المنصور أبو بكر	أولاد الناصر	جامع التركمانى	٧٤٠
١٣٤١	٧٤٢	الأشرف كجك		جامع ست مسكه*	٧٤٠
١٣٤٢	٧٤٢	الناصر أحمد		جامع ابن غازى	٧٤١
١٣٤٢	٧٤٣	الصالح اسماعيل			
١٣٤٥	٧٤٦	الكامل شعبان			
١٣٤٦	٧٤٧	المظفر حاجى		جامع الطواشى	٧٤٥
١٣٤٧	٧٤٨	الناصر حسن		جامع ابن الطباخ	٨٤٦

			جامع كجك*	٧٤٧
			جامع أقسنقر†	٧٤٧
			جامع الاسماعيلى†	٧٤٨
			جامع قتلبغا*	٧٤٨
			جامع الأسيوطى	٧٤٩
			خانقاه أم أنوك*	٧٤٩
			خانقاه الجيبغا	٨٠٠
			جامع منجك*	٧٥٠
			جامع شيخو*	٧٥٠
			مدرسة الخروبة	٧٥٠
			حوض لاجين*	٧٥٠
			مدرسة قيسرانية	٧٥١
			المدرسة الصغيرة	٧٥١
١٣٥١	٧٥٢	الصالح صالح بن الناصر		
١٣٥٤	٧٥٥	حسن (الحكم الثانى)		
			خانقاه شيخو*	٧٥٦
			المدرسة الفارسية	٧٥٦
			مدرسة صرغتمشية*	٧٥٦
			مدرسة السلطان حسن*	٧٥٧
			المدرسة البديرية	٧٥٨
			المدرسة الحجازية*	٧٦١
			المدرسة البشيرية	٧٦١
١٣٦١	٧٦٢	المنصور محمد } أحفاد الناصر	مدرسة السابقية	٧٦٣
١٣٦٣	٧٦٤	الأشرف شعبان } أحفاد الناصر	مقبرة الطلبية*	٧٦٥
			جامع شعبان*	٧٧١
			مدرسة بكرية (اسنبغا)*	٧٧٢
			مدرسة جاى اليوسفى*	٧٧٥
			مدرسة بقرية	٧٧٥
١٣٧٦	٧٧٨	المنصور على بن شعبان	مدرسة ابن عرام	٧٨٢
١٣٨١	٧٨٣	الصالح حاجى بن شعبان	مقبرة أم صالح	٧٨٣

(٦) المماليك الشراكسة

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
١٣٨٢	٧٨٧	الظاهر برقوق	مقبرة أناس *	٧٨٣
			مدرسة أيتمش *	٧٨٥
			مدرسة برقوق *	٧٨٨
			جامع زين الدين *	٧٩٠
			مدرسة إينال (أستادار) *	٧٩٥
			مدرسة محموديه	٧٩٧
			مدرسة مقبل زمامية *	٧٩٧
			مدرسة ابن غراب	٧٩٨
١٣٩٩	٨٠١	الناصر فرج بن برقوق	مسجد ابن عبد الظاهر	٣٠٨
			مدرسة السودان	٨٠٤
			مدرسة مهلى	٨٠٦
١٤٠٥	٨٠٨	المنصور عبد العزيز بن برقوق	خانقاة ومقبره برقوق * مدرسة فرج	٨١٣-٨٠٣
١٤٠٥	٨٠٩	فرج (الحكم الثانى)	مدرسة جمال الدين *	٨١١
			جامع الحوش (القلعة)	٨١٢
١٤١٢	٨١٥	المستعين (الخليفة)	جامع بركة الرطلى	٨١٤
١٤١٢	٨١٥	المؤيد شيخ	مسجد الضوا (القمه)	٨١٥
			مسجد الباسطى	٨١٧
			مسجد الحنفى	٨١٧
			مسجد الزاهد	٨١٨
			مارستان المؤيد *	٨١٨
			جامع المؤيد *	٨٢٣-٨١٩
			مدرسة عبد الغنى *	٨٢١
			جامع الفخرى	٨٢١
			مدرسة القاضى عبد الباسط *	٨٢٣
١٤٢١	٨٢٤	المظفر أحمد بن شيخ		
١٤٢١	٨٢٤	الظاهر ططر		
١٤٢١	٨٢٤	الظاهر محمد بن ططر		
١٤٢٢	٨٢٥	الأشرف برسباى	مدرسة برسباى *	٨٢٧
			جامع جانى بك *	٨٣٠

			مدرسة فيروز°	٨٣٠
			خانقاه ومقبرة برس باى°	٨٣٥
١٤٣٨	٨٤٢	العزيز يوسف بن برسباى		
١٤٣٨	٨٤٢	الظاهر جقمق	مدرسة تغرى بردى°	٨٤٤
			جامع قايتباى°	٨٤٥
١٤٥٣	٨٥٧	المنصور عثمان بن جقمق	جامع ومقبرة القاضى يحيى°	٨٤٨-٨٥٠
			جامع جقمق°	٨٥٣
١٤٥٣	٨٥٧	الأشرف إينال	مدرسة وخانقاه ومقبرة إينال°	٨٥٥-٨٦٠
١٤٦١	٨٦٥	المؤيد أحمد ابن إينال		
١٤٦١	٨٦٥	الظاهر خوشقدم	مقبرة جانى بك°	٨٦٩
			مسجد نور الدين°	٨٧٠
			جامع سودان°	٨٧٠
			مدرسة قانم°	٨٧٠
		الظاهر بلباى		
		الظاهر تمربغا		
		الأشرف قايتباى	جامع تمراز°	٨٧٦
			جامع أزبك بن تتش°	٨٨٠
			قصر يشبك°	٨٨٠
			مدرسة ومقبرة قايتباى°	٨٧٩
			مدرسة قايتباى فى المدينه°	٨٨٠
			وكالة قايتباى بجوار الأزهر°	٨٨٢
			سبيل قايتباى	٨٨٤
			وكالة قايتباى (باب النصر)	٨٨٥
			وكالة قايتباى (السروجية)°	٨٨٥
			قبة قايتباى الفضوية°	٨٨٦
			قصر ومكان قايتباى°	٨٩٠
			إحياء الأبواب°	٨٩٠
			مدرسة فى الروضه°	٨٩٦
			جامع جانم°	٨٨٣
			مدرسة أبو بكر بن مزهر°	٨٨٥
			جامع قجماس°	٨٨٦
			مدرسه أزبك اليوسفى°	٩٠٠

	الناصر محمد بن قايتباى	قصر سماى (بيت القاضى)*	٩٠١
		مقبرة قانصوه*	٩٠٤
		مقبرة العادل طومان باى*	٩٠٦
		جامع خير بك*	٩٠٨
		مدرسة قانى بك أمير آخور*	٩٠٨
		مدرسة الغورى*	٩٠٩
		ضريح الغورى †	٩٠٩
		مقبرة سودان*	٩١٠
		مدرسة جانى بك قره	٩١١
		إحياء قناة المياة إلى القلعة	٩١١

جدول (٢)

لتحويل السنين الهجرية إلى سنين الميلادية

السنه الهجرية	السنه الميلادية	تبدأ فى	السنه الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
١	٦٢٢	٦ يوليه	٣٦	٦٥٦	٣٠ يونية
٢	٦٢٣	٥ «	٣٧	٦٥٧	١٩ »
٣	٦٢٤	١٤ يونيه	٣٨	٦٥٨	٩ »
٤	٦٢٥	١٣ «	٣٩	٦٥٩	٢٩ مايو
٥	٦٢٦	٢ «	٤٠	٦٦٠	١٧ »
٦	٦٢٧	٢٣ مايو	٤١	٦٦١	٧ »
٧	٦٢٨	١١ «	٤٢	٦٦٢	٢٦ ابريل
٨	٦٢٩	١ «	٤٣	٦٦٣	١٥ »
٩	٦٣٠	٢٠ ابريل	٤٤	٦٦٤	٤ »
١٠	٦٣١	٩ «	٤٥	٦٦٥	٢٤ مارس
١١	٦٣٢	٢٩ مارس	٤٦	٦٦٦	١٣ »
١٢	٦٣٣	١٨ «	٤٧	٦٦٧	٣ »
١٣	٦٣٤	٧ «	٤٨	٦٦٨	٢٠ فبراير
١٤	٦٣٥	٢٥ فبراير	٤٩	٦٦٩	٩ »
١٥	٦٣٦	١٤ «	٥٠	٦٧٠	٢٩ يناير
١٦	٦٣٧	٣ «	٥١	٦٧١	١٨ »
١٧	٦٣٨	٢٣ يناير	٥٢	٦٧٢	٨ »
١٨	٦٣٩	١٢ «	٥٣	٦٧٣	٢٧ ديسمبر
١٩	٦٤٠	٢ «	٥٤	٦٧٤	١٦ »
٢٠	٦٤٠	٢١ ديسمبر	٥٥	٦٧٥	٦ »
٢١	٦٤١	١٠ «	٥٦	٦٧٦	٢٥ نوفبر
٢٢	٦٤٢	٣٠ نوفبر	٥٧	٦٧٧	١٤ »
٢٣	٦٤٣	١٩ «	٦٨	٦٧٨	٣ »
٢٤	٦٤٤	٧ «	٥٩	٦٧٩	٢٣ أكتوبر
٢٥	٦٤٥	٢٨ اكتوبر	٦٠	٦٨٠	١٣ »
٢٦	٦٤٦	١٧ «	٦١	٦٨١	١ »
٢٧	٦٤٧	٧ «	٦٢	٦٨٢	٢٠ سبتمبر
٢٨	٦٤٨	٢٥ سبتمبر	٦٣	٦٨٣	١٠ »
٢٩	٦٤٩	١٤ سبتمبر	٦٤	٦٨٤	٣٠ أغسطس
٣٠	٦٥٠	٤ «	٦٥	٦٨٥	١٨ »
٣١	٦٥١	٢٤ أغسطس	٦٦	٦٨٦	٨ »
٣٢	٦٥٢	١٢ «	٦٧	٦٨٧	٢٨ يولية
٣٣	٦٥٣	٢ «	٦٨	٦٨٨	١٨ »
٣٤	٦٤٥	٢٢ يولية	٦٩	٦٨٩	٦ »
٣٥	٦٥٥	١١ «	٧٠	٦٩٠	٢٥ يونية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٧١	٦٩٠	١٥ يونية
٧٢	٦٩١	٤ »
٧٣	٦٩٢	٢٣ »
٧٤	٦٩٣	١٣ »
٧٥	٦٩٤	٢ »
٧٦	٦٩٥	٢١ ابريل
٧٧	٦٩٦	١٠ »
٧٨	٦٩٧	٣٠ مارس
٧٩	٦٩٨	٢٠ »
٨٠	٦٩٩	٩ »
٨١	٧٠٠	٢٦ فبراير
٨٢	٧٠١	١٥ »
٨٣	٧٠٢	٤ »
٨٤	٧٠٣	٢٤ يناير
٨٥	٧٠٤	١٤ »
٨٦	٧٠٥	٢ »
٨٧	٧٠٦	٢٣ ديسمبر
٨٨	٧٠٧	١٢ »
٨٩	٧٠٨	١ »
٩٠	٧٠٩	٢٠ نوفمبر
٩١	٧١٠	٩ »
٩٢	٧١١	٢٩ أكتوبر
٩٣	٧١٢	١٩ »
٩٤	٧١٣	٧ »
٩٥	٧١٤	٢٦ سبتمبر
٩٦	٧١٥	١٦ »
٩٧	٧١٦	٥ »
٩٨	٧١٧	٢٥ أغسطس
٩٩	٧١٨	١٤ »
١٠٠	٧١٩	٣ »
١٠١	٧٢٠	٢٤ يولية
١٠٢	٧٢١	١٢ »
١٠٣	٧٢٢	١ يولية
١٠٤	٧٢٣	٢١ »
١٠٥	٧٢٤	١٠ »
١٠٦	٧٢٥	٢٩ مايو
١٠٧	٧٢٦	١٩ »
١٠٨	٧٢٧	٨ »
١٠٩	٧٢٨	٢٨ ابريل
١١٠	٧٢٩	١٦ »
١١١	٧٣٠	٥ ابريل
١١٢	٧٣١	٢٦ مارس
١١٣	٧٣٢	١٥ »
١١٤	٧٣٣	٣ »
١١٥	٧٣٤	٢١ فبراير
١١٦	٧٣٥	١٠ »
١١٧	٧٣٦	٣١ يناير
١١٨	٧٣٧	٢٠ »
١١٩	٧٣٨	٨ »
١٢٠	٧٣٩	٢٩ ديسمبر
١٢١	٧٤٠	١٨ »
١٢٢	٧٤١	٧ »
١٢٣	٧٤٢	٢٦ نوفمبر
١٢٤	٧٤٣	١٥ »
١٢٥	٧٤٤	٤ »
١٢٦	٧٤٥	٢٥ أكتوبر
١٢٧	٧٤٦	١٣ »
١٢٨	٧٤٧	٣ »
١٢٩	٧٤٨	٢٢ سبتمبر
١٣٠	٧٤٩	١١ »
١٣١	٧٥٠	٣١ أغسطس
١٣٢	٧٥١	٢٠ »
١٣٣	٧٥٢	٩ »
١٣٤	٧٥٣	٣٠ يولية
١٣٥	٧٥٤	١٨ »
١٣٦	٧٥٥	٧ »
١٣٧	٧٥٦	٢٧ يونية
١٣٨	٧٥٧	١٦ »
١٣٩	٧٥٨	٥ »
١٤٠	٧٥٩	٢٥ مايو
١٤١	٧٦٠	١٤ »
١٤٢	٧٦١	٤ »
١٤٣	٧٦٢	٢٢ ابريل
١٤٤	٧٦٣	١١ »
١٤٥	٧٦٤	١ »
١٤٦	٧٦٥	٢١ مارس
١٤٧	٧٦٦	١٠ »
١٤٨	٧٦٧	٢٧ فبراير
١٤٩	٧٦٨	١٦ »
١٥٠	٧٦٩	٦ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
١٥١	٧٦٨	٢٦ يناير
١٥٢	٧٦٩	١٤ »
١٥٣	٧٧٠	٤ »
١٥٤	٧٧١	٢٤ ديسمبر
١٥٥	٧٧٢	١٣ »
١٥٦	٧٧٣	٢ »
١٥٧	٧٧٤	٢١ نوفمبر
١٥٨	٧٧٥	١١ »
١٥٩	٧٧٦	٣١ أكتوبر
١٦٠	٧٧٧	١٩ »
١٦١	٧٧٨	٩ »
٣٦٢	٧٧٩	٢٨ سبتمبر
١٦٣	٧٨٠	١٧ »
١٦٤	٧٨١	٦ »
١٦٥	٧٨٢	٢٦ أغسطس
١٦٦	٧٨٣	١٥ »
١٦٧	٧٨٤	٥ »
١٦٨	٧٨٥	٢٤ يولية
١٦٩	٧٨٦	١٤ »
١٧٠	٧٨٧	٣ »
١٧١	٧٨٨	٢٢ يونية
١٧٢	٧٨٩	١١ »
١٧٣	٧٩٠	٣١ مايو
١٧٤	٧٩١	٢٠ »
١٨٥	٧٩٢	٢٠ »
١٧٦	٧٩٣	٢٨ ابريل
١٧٧	٧٩٤	١٨ »
١٧٨	٧٩٥	٧ »
١٧٩	٧٩٦	٢٧ مارس
١٨٠	٧٩٧	١٦ »
١٨١	٧٩٨	٥ »
١٨٢	٧٩٩	٢٢ فبراير
١٨٣	٨٠٠	١٢ »
١٨٤	٨٠١	١ »
١٨٥	٨٠٢	٢٠ يناير
١٨٦	٨٠٣	١٠ »
١٨٧	٨٠٤	٣٠ ديسمبر
١٨٨	٨٠٥	٢٠ »
١٨٩	٨٠٦	٨ »
١٩٠	٨٠٧	٢٧ نوفمبر

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
١٩١	٨٠٦	١٧ نوفمبر
١٩٢	٨٠٧	٦ »
١٩٣	٨٠٨	٢٥ أكتوبر
١٩٤	٨٠٩	١٥ »
١٩٥	٨١٠	٤ »
١٩٦	٨١١	٢٣ سبتمبر
١٩٧	٨١٢	١٢ »
١٩٨	٨١٣	١ »
١٩٩	٨١٤	٢٢ أغسطس
٢٠٠	٨١٥	١١ »
٢٠١	٨١٦	٣٠ يولية
٢٠٢	٨١٧	٢٠ »
٢٠٣	٨١٨	٩ »
٢٠٤	٨١٩	٢٨ يونية
٢٠٥	٨٢٠	١٧ »
٢٠٦	٨٢١	٦ »
٢٠٧	٨٢٢	٢٧ مايو
٢٠٨	٨٢٣	١٦ »
٢٠٩	٨٢٤	٤ »
٢١٠	٨٢٥	٢٤ ابريل
٢١١	٨٢٦	١٣ »
٢١٢	٨٢٧	٢ »
٢١٣	٨٢٨	٢٢ مارس
٢١٤	٨٢٩	١١ »
٢١٥	٨٣٠	٢٨ فبراير
٢١٦	٨٣١	١٨ »
٢١٧	٨٣٢	٧ »
٢١٨	٨٣٣	٢٧ يناير
٢١٩	٨٣٤	١٦ »
٢٢٠	٨٣٥	٥ »
٢٢١	٨٣٥	٢٦ ديسمبر
٢٢٢	٨٣٦	١٤ »
٢٢٣	٨٣٧	٣ »
٢٢٤	٨٣٨	٢٣ نوفمبر
٢٢٥	٨٣٩	١٢ »
٢٢٦	٨٤٠	٣١ أكتوبر
٢٢٧	٨٤١	٢١ »
٢٢٨	٨٤٢	١٠ »
٢٢٩	٨٤٣	٣٠ سبتمبر
٢٣٠	٨٤٤	١٨ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٢٣١	٨٤٥	٧ سبتمبر
٢٣٢	٨٤٦	٢٨ أغسطس
٢٣٣	٨٤٧	١٧ »
٢٣٤	٨٤٨	٥ »
٢٣٥	٨٤٩	٢٦ يولية
٢٣٦	٨٥٠	١٥ »
٢٣٧	٨٥١	٥ »
٢٣٨	٨٥٢	٢٣ يونية
٢٣٩	٨٥٣	١٢ »
٢٤٠	٨٥٤	٢ »
٢٤١	٨٥٥	٢٢ مايو
٢٤٢	٨٥٦	١٠ »
٢٤٣	٨٥٧	٣٠ ابريل
٢٤٤	٨٥٨	١٩ »
٢٤٥	٨٥٩	٨ »
٢٤٦	٨٦٠	٢٨ مارس
٢٤٧	٨٦١	١٧ »
٢٤٨	٨٦٢	٧ »
٢٤٩	٨٦٣	٢٤ فبراير
٢٥٠	٨٦٤	١٣ »
١٥١	٨٦٥	٢ »
٢٥٢	٨٦٦	٢٢ يناير
٢٥٣	٨٦٧	١١ »
٢٥٤	٨٦٨	١ »
٢٥٥	٨٦٨	٢٠ ديسمبر
٢٥٦	٨٦٩	٩ »
٢٥٧	٨٧٠	٢٩ نوفمبر
٢٥٨	٨٧١	١٨ »
٢٥٩	٨٧٢	٧ »
٢٦٠	٨٧٣	٢٧ أكتوبر
٢٦١	٨٧٤	١٦ »
٢٦٢	٨٧٥	٦ »
٢٦٣	٨٧٦	٢٤ سبتمبر
٢٦٤	٨٧٧	١٣ »
٢٦٥	٨٧٨	٣ »
٢٦٦	٨٧٩	٢٣ أغسطس
٢٦٧	٨٨٠	١٢ »
٢٦٨	٨٨١	١ »
٢٦٩	٨٨٢	٢١ يولية
٢٧٠	٨٨٣	١١ »
٢٧١	٨٨٤	٢٩ يونية
٢٧٢	٨٨٥	١٨ »
٢٧٣	٨٨٦	٨ »
٢٧٤	٨٨٧	٢٨ مايو
٢٧٥	٨٨٨	١٦ »
٢٧٦	٨٨٩	٦ »
٢٧٧	٨٩٠	٢٥ ابريل
٢٧٨	٨٩١	١٥ »
٢٧٩	٨٩٢	٣ »
٢٨٠	٨٩٣	٢٣ مارس
٢٨١	٨٩٤	١٣ »
٢٨٢	٨٩٥	٢ »
٢٨٣	٨٩٦	١٩ فبراير
٢٨٤	٨٩٧	٨ »
٢٨٥	٨٩٨	٢٨ يناير
٢٨٦	٨٩٩	١٧ »
٢٨٧	٩٠٠	٧ »
٢٨٨	٩٠٠	٢٦ ديسمبر
٢٨٩	٩٠١	١٦ »
٢٩٠	٩٠٢	٥ »
٢٩١	٩٠٣	٢٤ نوفمبر
٢٩٢	٩٠٤	١٣ »
٢٩٣	٩٠٥	٢ »
٢٩٤	٩٠٦	٢٢ أكتوبر
٢٩٥	٩٠٧	١٢ »
٢٩٦	٩٠٨	٣٠ سبتمبر
٢٩٧	٩٠٩	٢٠ »
٢٩٨	٩١٠	٩ »
٢٩٩	٩١١	١٨ أغسطس
٣٠٠	٩١٢	٢٩ »
٣٠١	٩١٣	٧ »
٣٠٢	٩١٤	٢٧ يولية
٣٠٣	٩١٥	١٧ »
٣٠٤	٩١٦	٥ »
٣٠٥	٩١٧	٢٤ يونية
٣٠٦	٩١٨	١٤ »
٣٠٧	٩١٩	٣ »
٣٠٨	٩٢٠	٢٣ مايو
٣٠٩	٩٢١	١٢ »
٣١٠	٩٢٢	١ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٣١١	٩٢٣	٢١ ابريل
٣١٢	٩٢٤	٩ »
٣١٣	٩٢٥	٢٩ مارس
٣١٤	٩٢٦	١٩ »
٣١٥	٩٢٧	٨ »
٣١٦	٩٢٨	٢٥ فبراير
٣١٧	٩٢٩	١٤ »
٣١٨	٩٣٠	٣ »
٣١٩	٩٣١	٢٤ يناير
٣٢٠	٩٣٢	١٣ »
٣٢١	٩٣٣	١ »
٣٢٢	٩٣٣	١٢ ديسمبر
٣٢٣	٩٣٤	١١ »
٣٢٤	٩٣٥	٣ نوفمبر
٣٢٥	٩٣٦	١٩ »
٣٢٦	٩٣٧	٨ »
٣٢٧	٩٣٨	٢٩ أكتوبر
٣٢٨	٩٣٩	١٨ »
٣٢٩	٩٤٠	٦ »
٣٣٠	٩٤١	٢٦ سبتمبر
٣٣١	١٤٢	١٥ »
٣٣٢	٩٤٣	٤ »
٣٣٣	٩٤٤	٢٤ أغسطس
٣٣٤	٩٤٥	١٣ »
٣٣٥	٩٤٦	٢ »
٣٣٦	٩٤٧	٢٣ يولية
٣٣٧	٩٤٨	١١ »
٣٣٨	٩٤٩	١ »
٣٣٩	٩٥٠	٢٥ يونية
٣٤٠	٩٥١	٩ »
٣٤١	٩٥٢	٢٩ مايو
٣٤٢	٩٥٣	١٨ »
٣٤٣	٩٥٤	٧ »
٣٤٤	٩٥٥	٢٧ ابريل
٣٤٥	٩٥٦	١٥ »
٣٤٦	٩٥٧	٤ »
٣٤٧	٩٥٨	٢٥ مارس
٣٤٨	٩٥٩	١٤ »
٣٤٩	٩٦٠	٣ »
٣٥٠	٩٦١	٢٠ فبراير
٣٥١	٩٦٢	٩ فبراير
٣٥٢	٩٦٣	٣٠ يناير
٣٥٣	٩٦٤	١٩ »
٣٥٤	٩٦٥	٧ »
٣٥٥	٩٦٥	٢٨ ديسمبر
٣٥٦	٩٦٦	١٧ »
٣٥٧	٩٦٧	٧ »
٣٥٨	٩٦٨	٢٥ نوفمبر
٣٥٩	٩٦٩	١٤ »
٣٦٠	٩٧٠	٤ »
٣٦١	٩٧١	٢٤ أكتوبر
٣٦٢	٩٧٢	١٢ »
٣٦٣	٩٧٣	٢ »
٣٦٤	٩٧٤	٢١ سبتمبر
٣٦٥	٩٧٥	١٠ »
٣٦٦	٩٧٦	٣٠ أغسطس
٣٦٧	٩٧٧	١٩ »
٣٦٨	٩٧٨	٩ »
٣٦٩	٩٧٩	٢٩ يولية
٣٧٠	٩٨	١٧ »
٣٧١	٩٨١	٧ »
٣٧٢	٩٨٢	٢٦ يونية
٣٧٣	٩٨٣	١٥ »
٣٧٤	٩٨٤	٤ »
٣٧٥	٩٨٥	٢٤ مايو
٣٧٦	٩٨٦	١٣ »
٣٧٧	٩٨٧	٣ »
٣٧٨	٩٨٨	٢١ ابريل
٣٧٩	٩٨٩	١١ »
٣٨٠	٩٩٠	٣١ مارس
٣٨١	٩٩١	٢٠ »
٣٨٢	٩٩٢	٩ »
٣٨٣	٩٩٣	٢٦ فبراير
٣٨٤	٩٩٤	١٥ »
٣٨٥	٩٩٥	٥ »
٣٨٦	٩٩٦	٢٥ يناير
٣٨٧	٩٩٧	١٤ »
٣٨٨	٩٩٨	٣ »
٣٨٩	٩٩٨	٢٣ ديسمبر
٣٩٠	٩٩٩	١٣ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٣٩١	١٠٠٠	١ ديسمبر
٣٩٢	١٠٠١	٢٠ نوفمبر
٣٩٣	١٠٠٢	١٠ »
٣٩٤	١٠٠٣	٣٠ أكتوبر
٣٩٥	١٠٠٤	١٨ »
٣٩٦	١٠٠٥	٨ »
٣٩٧	١٠٠٦	٢٧ سبتمبر
٣٩٨	١٠٠٧	١٧ »
٣٩٩	١٠٠٨	٥ »
٤٠٠	١٠٠٩	٢٥ أغسطس
٤٠١	١٠١٠	١٥ »
٤٠٢	١٠١١	٤ »
٤٠٣	١٠١٢	٢٣ يولية
٤٠٤	١٠١٣	١٣ »
٤٠٥	١٠١٤	٢ »
٤٠٦	١٠١٥	٢١ يونية
٤٠٧	١٠١٦	١٠ »
٤٠٨	١٠١٧	٣٠ مايو
٤٠٩	١٠١٨	٢٠ »
٤١٠	١٠١٩	٩ »
٤١١	١٠٢٠	٢٧ ابريل
٤١٢	١٠٢١	١٧ »
٤١٣	١٠٢٢	٦ »
٤١٤	١٠٢٣	٢٦ مارس
٤١٥	١٠٢٤	١٥ »
٤١٦	١٠٢٥	٤ »
٤١٧	١٠٢٦	٢٢ فبراير
٤١٨	١٠٢٧	١١ »
٤١٩	١٠٢٨	٣١ يناير
٤٢٠	١٠٢٩	٢٠ »
٤٢١	١٠٣٠	٩ يناير
٤٢٢	١٠٣٠	٢٩ ديسمبر
٤٢٣	١٠٣١	١٩ »
٤٢٤	١٠٣٢	٧ »
٤٢٥	١٠٣٣	٢٦ نوفمبر
٤٢٦	١٠٣٤	١١ »
٤٢٧	١٠٣٥	٥ »
٤٢٨	١٠٣٦	٢٥ أكتوبر
٤٢٩	١٠٣٧	١٤ »
٤٣٠	١٠٣٨	٣ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٤٣١	١٠٣٩	٢٣ سبتمبر
٤٣٢	١٠٤٠	١١ »
٤٣٣	١٠٤١	٣١ أغسطس
٤٣٤	١٠٤٢	٢١ »
٤٣٥	١٠٤٣	١٠ »
٤٣٦	١٠٤٤	٢٩ يولية
٤٣٧	١٠٤٥	١٩ »
٤٣٨	١٠٤٦	٨ »
٤٣٩	١٠٤٧	٢٨ يونية
٤٤٠	١٠٤٨	١٦ »
٤٤١	١٠٤٩	٥ »
٤٤٢	١٠٥٠	٢٦ مايو
٤٤٣	١٠٥١	١٥ »
٤٤٤	١٠٥٢	٣ »
٤٤٥	١٠٥٣	٢٣ ابريل
٤٤٦	١٠٥٤	١٢ »
٤٤٧	١٠٥٥	٢ »
٤٤٨	١٠٥٦	٢١ مارس
٤٤٩	١٠٥٧	١٠ »
٤٥٠	١٠٥٨	٢٨ فبراير
٤٥١	١٠٥٩	١٧ »
٤٥٢	١٠٦٠	٦ »
٤٥٣	١٠٦١	٢٦ »
٤٥٤	١٠٦٢	١٥ يناير
٤٥٥	١٠٦٣	٤ »
٤٥٦	١٠٦٣	٢٥ ديسمبر
٤٥٧	١٠٦٤	١٣ »
٤٥٨	١٠٦٥	٣ »
٤٥٩	١٠٦٦	٢٢ نوفمبر
٤٦٠	١٠٦٧	١١ »
٤٦١	١٠٦٨	٣١ أكتوبر
٤٦٢	١٠٦٩	٢٠ »
٤٦٣	١٠٧٠	٩ »
٤٦٤	١٠٧١	٢٩ سبتمبر
٤٦٥	١٠٧٢	١٧ »
٤٦٦	١٠٧٣	٦ سبتمبر
٤٦٧	١٠٧٤	٢٧ أغسطس
٤٦٨	١٠٧٥	١٦ »
٤٦٩	١٠٧٦	٥ »
٤٧٠	١٠٧٧	٢٥ يولية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٤٧١	١٠٧٨	١٤ يولية
٤٧٢	١٠٧٩	٤ »
٤٧٣	١٠٨٠	٢٣ يونية
٤٧٤	١٠٨١	١١ »
٤٧٥	١٠٨٢	١ »
٤٧٦	١٠٨٣	٢١ مايو
٤٧٧	١٠٨٤	١٠ »
٤٧٨	١٠٨٥	٢٩ أبريل
٤٧٩	١٠٨٦	١٨ »
٤٨٠	١٠٨٧	٨ »
٤٨١	١٠٨٨	٢٧ مارس
٤٨٢	١٠٨٩	٢٦ »
٤٨٣	١٠٩٠	٦ »
٤٨٤	١٠٩١	٢٣ فبراير
٤٨٥	١٠٩٢	١٢ »
٤٨٦	١٠٩٣	»
٤٨٧	١٠٩٤	٢١ يناير
٤٨٨	١٠٩٥	١١ »
٤٨٩	١٠٩٥	٣١ ديسمبر
٤٩٠	١٠٩٦	١٩ »
٤٩	١٠٩٧	٩ »
٤٩٢	١٠٩٨	٢٨ نوفمبر
٤٩٣	١٠٩٩	١٧ »
٤٩٤	١١٠٠	٦ »
٤٩٥	١١٠١	٢٦ أكتوبر
٤٩٦	١١٠٢	١٥ »
٤٩٧	١١٠٣	٥ »
٤٩٨	١١٠٤	٢٣ سبتمبر
٤٩٩	١١٠٥	١٣ »
٥٠٠	١١٠٦	٢ »
٥٠١	١١٠٧	٢٢ أغسطس
٥٠٢	١١٠٨	١١ »
٥٠٣	١١٠٩	٣١ يوليه
٥٠٤	١١١٠	٢٠ »
٥٠٥	١١١١	١٠ »
٥٠٦	١١١٢	٢٨ يونية
٥٠٧	١١١٣	١٨ »
٥٠٨	١١١٤	٧ »
٥٠٩	١١١٥	٢٧ مايو
٥١٠	١١١٦	١٦ »
٥١١	١١١٧	٥ مايو
٥١٢	١١١٨	٢٤ أبريل
٥١٣	١١١٩	١٤ »
٥١٤	١١٢٠	٢ »
٥١٥	١١٢١	٢٢ مارس
٥١٦	١١٢٢	١٢ »
٥١٧	١١٢٣	١ »
٥١٨	١١٢٤	١٩ فبراير
٥١٩	١١٢٥	٧ »
٥٢٠	١١٢٦	٢٧ يناير
٥٢١	١١٢٧	٧ »
٥٢٢	١١٢٨	٦ »
٥٢٣	١١٢٨	٢٥ ديسمبر
٥٢٤	١١٢٩	١٥ »
٥٢٥	١١٣٠	٤ »
٥٢٦	١١٣١	٢٣ نوفمبر
٥٢٧	١١٣٢	١٢ »
٥٢٨	١١٣٣	١ »
٥٢٩	١١٣٤	٢٢ أكتوبر
٥٣٠	.١٣٥	١١ »
٥٣	١١٣٦	٢٩ سبتمبر
٥٣٢	١١٣٧	١٩ »
٥٣٣	١١٣٨	٨ »
٥٣٤	١١٣٩	٢٨ أغسطس
٥٣٥	١١٤٠	١٧ »
٥٣٦	١٤١	٦ »
٥٣٧	١١٤٢	٢٧ يولية
٥٣٨	١١٤٣	١٦ »
٥٣٩	١١٤٤	٤ »
٥٤٠	١١٤٥	٢٤ يونية
٥٤١	١١٤٦	١٣ »
٥٤٢	١١٤٧	٢ »
٥٤٣	١١٤٨	٢٢ مايو
٥٤٤	١١٤٩	١١ »
٥٤٥	١١٥٠	٣٠ أبريل
٥٤٦	١١٥١	٢٠ »
٥٤٧	١١٥٢	٨ »
٥٤٨	١١٥٣	٢٩ مارس
٥٤٩	١١٥٤	١٨ »
٥٥٠	١١٥٥	٧ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٥٥١	١١٥٦	٢٥ فبراير
٥٥٢	١١٥٧	١٣ »
٥٥٣	١١٥٨	٢ »
٥٥٤	١١٥٩	٢٣ يناير
٥٥٥	١٦٠	١٢ »
٥٥٦	١١٦٠	٣١ ديسمبر
٥٥٧	١١٦١	٢١ »
٥٥٨	١١٦٢	١٠ »
٥٥٩	١١٦٣	٣٠ نوفبر
٥٦٠	١١٦٤	١٨ »
٥٦١	١١٦٥	٧ »
٥٦٢	١١٦٦	٢٨ أكتوبر
٥٦٣	١١٦٧	١٧ »
٥٦٤	١١٦٨	٥ »
٥٦٥	١١٦٩	٢٥ سبتمبر
٥٦٦	١١٧٠	١٤ »
٥٦٧	١١٧١	٤ »
٥٦٨	١١٧٢	٢٣ أغسطس
٥٦٩	١١٧٣	١٢ »
٥٧٠	١١٧٤	٢ »
٥٧١	١١٧٥	٢٢ يوليه
٥٧٢	١١٧٦	١٠ »
٥٧٣	١١٧٧	٣٠ يونيه
٥٧٤	١١٧٨	١٩ »
٥٧٥	١١٧٩	٨ »
٥٧٦	١١٨٠	٢٨ مايو
٥٧٧	١١٨١	١٧ »
٥٧٨	١١٨٢	٧ »
٥٧٩	١١٨٣	٢٦ أبريل
٥٨٠	١١٨٤	١٤ »
٥٨١	١١٨٥	٤ »
٥٨٢	١١٨٦	٢٤ مارس
٥٨٣	١١٨٧	١٣ »
٥٨٤	١٨٨	٢ »
٥٨٥	١٨٩	١٩ فبراير
٥٨٦	١١٩٠	٨ »
٥٨٧	١١٩١	٢٩ يناير
٥٨٨	١١٩٢	١٨ »
٥٨٩	١١٩٣	٧ »
٥٩٠	١١٩٣	٢٧ ديسمبر
٥٩١	١١٩٤	١٦ ديسمبر
٥٩٢	١١٩٥	٦ »
٥٩٣	١١٩٦	٢٤ نوفبر
٥٩٤	١١٩٧	١٣ »
٥٩٥	١١٩٨	٣ »
٥٩٦	١١٩٩	٢٣ أكتوبر
٥٩٧	١٢٠٠	١٢ »
٥٩٨	١٢٠١	١ »
٥٩٩	١٢٠٢	٢٠ سبتمبر
٦٠٠	١٢٠٣	١٠ »
٦٠١	١٢٠٤	٢٩ أغسطس
٦٠٢	١٢٠٥	١٨ »
٦٠٣	١٢٠٦	٨ »
٦٠٤	١٢ ٧	٢٨ يوليه
٦٠٥	١٢٠٨	١٦ »
٦٠٦	١٢٠٩	٦ »
٦٠٧	١٢١٠	٢٥ يونيه
٦٠٨	١٢١١	١٥ »
٦٠٩	١٢١٢	٣ »
٦١٠	١٢١٣	٢٣ مايو
٦١١	١٢١٤	١٣ »
٦١٢	١٢١٥	٢ »
٦١٣	١٢١٦	٢٠ أبريل
٦١٤	١٢١٧	١٠ »
٦١٥	١٢١٨	٣٠ مارس
٦١٦	١٢١٩	١٩ »
٦١٧	١٢٢٠	٨ »
٦١٨	١٢٢١	٢٥ فبراير
٦١٩	١٢٢٢	١٥ »
٦٢٠	١٢٢٣	٤ »
٦٢١	١٢٢٤	١٤ يناير
٦٢٢	١٢٢٥	١٣ »
٦٢٣	١٢٢٦	٢ »
٦٢٤	١٢٢٦	٢٢ ديسمبر
٦٢٥	١٢٢٧	١٢ »
٦٢٦	١٢٢٨	٣٠ نوفبر
٦٢٧	١٢٢٩	٢٠ »
٦٢٨	٢٣٠	٩ »
٦٢٩	١٢٣١	٢٩ أكتوبر
٦٣٠	١٢٣٢	١٨ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٦٣١	١٢٣٣	٧ أكتوبر
٦٣٢	١٢٣٤	٢٦ سبتمبر
٦٣٣	١٢٣٥	١٦ سبتمبر
٦٣٤	١٢٣٦	٤ »
٦٣٥	١٢٣٧	٢٤ أغسطس
٦٣٦	١٢٣٨	١٤ »
٦٣٧	١٢٣٩	٣ »
٦٣٨	١٢٤٠	٢٣ يوليه
٦٣٩	١٢٤١	١٢ »
٦٤٠	١٢٤٢	١ »
٦٤١	١٢٤٣	٢١ يونيه
٦٤٢	١٢٤٤	٩ »
٦٤٣	١٢٤٥	٢٩ مايو
٦٤٤	١٢٤٦	١٩ »
٦٤٥	١٢٤٧	٨ »
٦٤٦	١٢٤٨	٢٦ أبريل
٦٤٧	١٢٤٩	١٦ »
٦٤٨	١٢٥٠	٥ »
٦٤٩	١٢٥١	٢٦ مارس
٦٥٠	١٢٥٢	١٤ »
٦٥١	١٢٥٣	٣ »
٦٥٢	١٢٥٤	٢١ فبراير
٦٥٣	١٢٥٥	١٠ »
٦٥٤	١٢٥٦	٣٠ يناير
٦٥٥	١٢٥٧	١٩ »
٦٥٦	١٢٥٨	٨ »
٦٥٧	١٢٥٨	٢٩ ديسمبر
٦٥٨	١٢٥٩	١٨ »
٦٥٩	١٢٦٠	٦ »
٦٦٠	١٢٦١	٢٦ نوفمبر
٦٦١	١٢٦٢	١٥ »
٦٦٢	١٢٦٣	٤ »
٦٦٣	١٢٦٤	٢٤ أكتوبر
٦٦٤	١٢٦٥	١٣ »
٦٦٥	١٢٦٦	٢ »
٦٦٦	١٢٦٧	٢٢ سبتمبر
٦٦٧	١٢٦٨	١٠ »
٦٦٨	١٢٦٩	٣١ أغسطس
٦٦٩	١٢٧٠	٢٠ »
٦٧٠	١٢٧١	٩ »
٦٧١	١٢٧٢	٢٩ يوليه
٦٧٢	١٢٧٣	١٨ »
٦٧٣	١٢٧٤	٧ »
٦٧٤	١٢٧٥	٢٧ يونيه
٦٧٥	١٢٧٦	١٥ »
٦٧٦	١٢٧٧	٤ »
٦٧٧	١٢٧٨	٢٥ مايو
٦٧٨	١٢٧٩	١٤ »
٦٧٩	١٢٨٠	٣ »
٦٨٠	١٢٨١	٢٢ أبريل
٦٨١	١٢٨٢	١١ »
٦٨٢	١٢٨٣	١ »
٦٨٣	١٢٨٤	٢٠ مارس
٦٨٤	١٢٨٥	٩ »
٦٨٥	١٢٨٦	٢٧ فبراير
٦٨٦	١٢٨٧	١٦ »
٦٨٧	١٢٨٨	٦ »
٦٨٨	١٢٨٩	٢٥ يناير
٦٨٩	١٢٩٠	١٤ »
٦٩٠	١٢٩١	٤ »
٦٩١	١٢٩١	٢٤ ديسمبر
٦٩٢	١٢٩٢	١٢ »
٦٩٣	١٢٩٣	٢ »
٦٩٤	١٢٩٤	٢١ نوفمبر
٦٩٥	١٢٩٥	١٠ »
٦٩٦	١٢٩٦	٣٠ أكتوبر
٦٩٧	١٢٩٧	١٩ »
٦٩٨	١٢٩٨	٩ »
٦٩٩	١٢٩٩	٢٨ سبتمبر
٧٠٠	١٣٠٠	١٦ »
٧٠١	١٣٠١	٦ »
٧٠٢	١٣٠٢	٢٦ أغسطس
٧٠٣	١٣٠٣	١٥ »
٧٠٤	١٣٠٤	٤ »
٧٠٥	١٣٠٥	٢٤ يوليه
٧٠٦	١٣٠٦	١٣ »
٧٠٧	١٣٠٧	٣ »
٧٠٨	١٣٠٨	٢١ يونيه
٧٠٩	١٣٠٩	١١ »
٨١٠	١٣١٠	٣١ مايو

السنه الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٧١١	١٣١١	٢٠ مايو
٧١٢	١٣١٢	٩ »
٧١٣	١٣١٣	٢٨ ابريل
٧١٤	١٣١٤	١٧ »
٧١٥	١٣١٥	٧ »
٧١٦	١٣١٦	٢٦ مارس
٧١٧	١٣٠٧	١٦ »
٧١٨	١٣١٨	٥ »
٧ ٩	١٣١٩	٢٢ فبراير
٧٢٠	١٣٢٠	١٢ »
٧٢١	١٣٢١	٣١ يناير
٧٢٢	١٣٢٢	٢٠ »
٧٢٣	١٣٢٣	١٠ »
٧٢٤	١٣٢٣	٣٠ ديسمبر
٧٢٥	١٣٢٤	١٨ »
٧٢٦	١٣٢٥	٨ »
٧٢٧	١٣٢٦	٢٧ نوفمبر
٧٢٨	١٣٢٧	١٧ »
٧٢٩	١٣٢٨	٥ »
٧٣٠	١٣٢٩	٢٥ أكتوبر
٧٣١	١٣٣٠	١٥ »
٧٣٢	١٣٣١	٤ »
٧٣٣	١٣٣٢	٢٢ سبتمبر
٧٣٤	١٣٣٣	١١ »
٧٣٥	١٣٣٤	١ »
٧٣٦	١٣٣٥	٢١ أغسطس
٧٣٧	١٣٣٦	١٠ »
٧٣٨	١٣٣٧	٣٠ يولية
٧٣٩	١٣٣٨	٢٠ »
٧٤٠	١٣٣٩	٩ »
٧٤١	١٣٤٠	٢٧ يونية
٧٤٢	١٣٤١	١٧ »
٧٤٣	١٣٤٢	٦ »
٧٤٤	١٣٤٣	٢٦ مايو
٧٤٥	١٣٤٤	١٥ »
٧٤٦	١٣٤٥	٤ »
٧٤٧	١٣٤٦	٢٤ ابريل
٧٤٨	١٣٤٧	١٣ »
٧٤٩	١٣٤٨	١ »
٧٥٠	١٣٤٩	٢٢ مارس

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٧٥١	١٣٥٠	١١ مارس
٧٥٢	١٣٥١	٢٨ فبراير
٧٥٣	١٣٥٢	١٨ »
٧٥٤	١٣٥٣	٦ »
٧٥٥	١٣٥٤	٢٦ يناير
٧٥٦	١٣٥٥	١٦ »
٧٥٧	١٣٥٦	٥ »
٧٥٨	١٣٥٦	٢٥ ديسمبر
٧٥٩	١٣٥٧	١٤ »
٧٦٠	١٣٥٨	٣ »
٧٦١	١٣٥٩	٢٣ نوفمبر
٧٦٢	١٣٦٠	١١ »
٧٦٣	١٣٦١	٣١ أكتوبر
٧٦٤	١٣٦٢	٢١ »
٧٦٥	١٣٦٣	١٠ »
٧٦٦	١٣٦٤	٢٨ سبتمبر
٧٦٧	١٣٦٥	١٨ »
٧٦٨	١٣٦٦	٧ »
٧٦٩	١٣٦٧	٢٨ أغسطس
٧٧٠	١٣٦٨	١٦ »
٧٧١	١٣٦٩	٥ »
٧٧٢	١٣٧٠	٢٦ يولية
٧٧٣	١٣٧١	١٥ »
٧٧٤	١٣٧٢	٣ »
٧٧٥	١٣٧٣	٢٣ يونية
٧٧٦	١٣٧٤	١٢ »
٧٧٧	١٣٧٥	٢ »
٧٧٨	١٣٧٦	٢١ مايو
٧٧٠	١٣٧٧	١٠ »
٧٨٩	١٣٧٨	٣٠ ابريل
٧٨١	١٣٧٩	١٩ »
٧٨٢	١٣٨٠	٧ »
٧٨٣	١٣٨١	٢٨ مارس
٧٨٤	١٣٨٢	١٧ »
٧٨٥	١٣٨٣	٦ »
٧٨٦	١٣٨٤	٢٤ فبراير
٧٨٧	١٣٨٥	١٢ »
٧٨٨	١٣٨٦	٢ »
٧٨٩	١٣٨٧	٢٢ يناير
٧٩٠	١٣٨٨	١١ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٧٩١	١٣٨٨	٣١ ديسمبر
٧٩٢	١٣٨٩	٢٠ »
٧٩٣	١٣٩٠	٩ »
٧٩٤	١٣٩١	٢٩ نوفمبر
٧٩٥	١٣٩٢	١٧ »
٧٩٦	١٣٩٣	٦ »
٧٩٧	١٣٩٤	٢٧ أكتوبر
٧٩٨	١٣٩٥	١٦ »
٧٩٩	١٣٩٦	٥ »
٨٠٠	١٣٩٧	٢٤ سبتمبر
٨٠١	١٣٩٨	١٣ »
٨٠٢	١٣٩٩	٣ »
٨٠٣	١٤٠٠	٢٢ أغسطس
٨٠٤	١٤٠١	١١ »
٨٠٥	١٤٠٢	١ »
٨٠٦	١٤٠٣	٢١ يولية
٨٠٧	١٤٠٤	١٠ »
٨٠٨	١٤٠٥	٢٩ يولية
٨٠٩	١٤٠٦	١٨ »
٨١٠	١٤٠٧	٨ »
٧١١	١٤٠٨	٢٧ مايو
٨١٢	١٤٠٩	١٦ »
٨١٣	١٤١٠	٦ »
٨١٤	١٤١١	٢٥ ابريل
٨١٥	١٤١٢	١٣ »
٨١٦	١٤١٣	٣ »
٨١٧	١٤١٤	٢٣ مارس
٨١٨	١٤١٥	١٣ »
٨١٩	١٤١٦	١ »
٨٢٠	١٤١٧	١٨ فبراير
٨٢١	١٤١٨	٨ »
٨٢٢	١٤١٩	٢٨ يناير
٨٢٣	١٤٢٠	١٧ »
٨٢٤	١٤٢١	٦ »
٨٢٥	١٤٢١	٢٦ ديسمبر
٨٢٦	١٤٢٢	١٥ »
٨٢٧	١٤٢٣	٥ »
٨٢٨	١٤٢٤	٢٣ نوفمبر
٨٢٩	١٤٢٥	١٣ »
٨٣٠	١٤٢٦	٢ »
٨٣١	١٤٢٧	٢٢ أكتوبر
٨٣٢	١٤٢٨	١١ »
٨٣٣	١٤٢٩	٣٠ سبتمبر
٨٣٤	١٤٣٠	١٩ »
٨٣٥	١٤٣١	٩ »
٨٣٦	١٤٣٢	٢٨ أغسطس
٨٣٧	١٤٣٣	١٨ »
٨٣٨	١٤٣٤	٧ »
٨٣٩	١٤٣٥	٢٧ يولية
٨٤٠	١٤٣٦	١٦ »
٨٤١	١٤٣٧	٥ »
٨٤٢	١٤٣٨	٢٤ يونية
٨٤٣	١٤٣٩	١٤ »
٨٤٤	١٤٤٠	٩ »
٨٤٥	١٤٤١	٢٣ مايو
٨٤٦	١٤٤٢	١٣ »
٨٤٧	١٤٤٣	١ »
٨٤٨	١٤٤٤	٢٠ ابريل
٨٤٩	١٤٤٥	٩ »
٨٥٠	١٤٤٦	٢٩ مارس
٨٥١	١٤٤٧	١٩ »
٨٥٢	١٤٤٨	٧ »
٨٥٣	١٤٤٩	٢٤ فبراير
٨٥٤	١٤٥٠	١٤ »
٨٥٥	١٤٥١	٣ »
٨٥٦	١٤٥٢	٢٣ يناير
٨٥٧	١٤٥٣	١٢ »
٨٥٨	١٤٥٤	١ »
٨٥٩	١٤٥٤	٢٢ ديسمبر
٨٦٠	١٤٥٥	١١ »
٨٦١	١٤٥٦	٢٩ نوفمبر
٨٦٢	١٤٥٧	١٩ »
٨٦٣	١٤٥٨	٨ »
٨٦٤	١٤٥٩	٢٨ أكتوبر
٨٦٥	١٤٦٠	١٧ »
٨٦٦	١٤٦١	٦ »
٨٦٧	١٤٦٢	٢٦ سبتمبر
٨٦٨	١٤٦٣	١٥ »
٨٦٩	١٤٦٤	٣ »
٨٧٠	١٤٦٥	٢٤ أغسطس

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ فى
٨٧١	١٤٦٦	١٣ اغسطس
٨٧٢	١٤٦٧	٢ »
٨٧٣	١٤٦٨	٢٢ يولية
٨٧٤	١٤٦٩	١١ »
٨٧٥	١٤٧٠	٣٠ يونية
٨٧٦	١٤٧١	٢٠ »
٨٧٧	١٤٧٢	٨ »
٨٧٨	١٤٧٣	٢٩ مايو
٨٧٩	١٤٧٤	١٨ »
٨٨٠	١٤٧٥	٧ »
٨٨١	١٤٧٦	٢٦ ابريل
٨٨٢	١٤٧٧	١٥ »
٨٨٣	١٤٧٨	٤ »
٨٨٤	١٤٧٩	٢٥ مارس
٨٨٥	١٤٨٠	١٣ »
٨٨٦	١٤٨١	٢ »
٨٨٧	١٤٨٢	٢٠ فبراير
٨٨٨	١٤٨٣	٩ »
٨٨٩	١٤٨٤	٣٠ يناير
٨٩٠	١٤٨٥	١٨ »
٨٩١	١٤٨٦	٧ »
٨٩٢	١٤٨٦	٢٨ ديسمبر
٨٩٣	١٤٨٧	١٧ »
٨٩٤	١٤٨٨	٥ »
٨٩٥	١٤٨٩	٢٥ نوفمبر
٨٩٦	١٤٩٠	١٤ »
٨٩٧	١٤٩١	٤ »
٨٩٨	١٤٩٢	٢٣ أكتوبر
٨٩٩	١٤٩٣	١٢ »
٩٠٠	١٤٩٤	٢ »
٩٠١	١٤٩٥	٢١ سبتمبر
٩٠٢	١٤٩٦	٩ »
٩٠٣	١٤٩٧	٣٠ أغسطس
٩٠٤	١٤٩٨	١٩ »
٩٠٥	١٤٩٩	٨ »
٩٠٦	١٥٠٠	٢٨ يولية
٩٠٧	١٥٠١	١٧ »
٩٠٨	١٥٠٢	٧ »
٩٠٩	١٥٠٣	٢٦ يونية
٩١٠	١٥٠٤	١٤ »
٩١١	١٥٠٥	٤ يونية
٩١٢	١٥٠٦	٢٤ مايو
٩١٣	١٥٠٧	١٣ »
٩١٤	١٥ ٨	٢ »
٩١٥	١٥٠٩	٢١ ابريل
٩١٦	١٥١٠	١٠ »
٩١٧	٥١١	٣١ مارس
٩١٨	١٥١٢	١٩ »
٩١٩	١٥١٣	٩ »
٩٢٠	١٥١٤	٢٦ فبراير
٩٢١	١٥١٥	١٥ »
٩٢٢	١٥١٦	٥ »
٩٢٣	١٥١٧	٢٤ يناير
٩٢٤	١٥١٨	١٣ »
٩٢٥	١٥١٩	٣ »
٩٢٦	١٥١٩	٢٣ ديسمبر
٩٢٧	١٥٢٠	١٢ »
٩٢٨	١٥٢١	١ »
٩٢٩	١٥٢٢	٢٠ نوفمبر
٩٣٠	١٥٢٣	١٠ »
٩٣١	١٥٢٤	٢٩ أكتوبر
٩٣٢	١٥٢٥	١٨ »
٩٣٣	١٥٢٦	٨ »
٩٣٤	١٥٢٧	٢٧ سبتمبر
٩٣٥	١٥٢٨	١٥ »
٩٣٦	١٥٢٩	٥ »
٩٣٧	١٥٣٠	٢٥ أغسطس
٩٣٨	١٥٣١	١٥ »
٩٣٩	١٥٣٢	٣ »
٩٤٠	١٥٣٣	٢٣ يولية
٩٤١	١٥٣٤	١٣ »
٩٤٢	١٥٣٥	٢ »
٩٤٣	١٥٣٦	٢٠ يونية
٩٤٤	١٥٣٧	١٠ »
٩٤٥	١٥٣٨	٣٠ مايو
٩٤٦	١٥٣٩	١٩ »
٩٤٧	١٥٤٠	٨ »
٩٤٨	١٥٤١	٢٧ ابريل
٩٤٩	١٥٤٢	١٧ »
٩٥٠	١٥٤٣	٦ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٩٥١	١٥٤٤	٢٥ مارس
٩٥٢	١٥٤٥	١٥ »
٩٥٣	١٥٤٦	٤ »
٩٥٤	١٥٤٧	٢١ فبراير
٩٥٥	١٥٤٨	١١ »
٩٥٦	١٥٤٩	٣٠ يناير
٩٥٧	١٥٥	٢ »
٩٥٨	١٥٥١	٩ »
٩٥٩	١٥٥١	٢٩ ديسمبر
٩٦٠	١٥٥٢	١٨ »
٩٦١	١٥٥٣	٧ »
٩٦٢	١٥٥٤	٢٦ نوفمبر
٩٦٣	١٥٥٥	١٦ »
٩٦٤	١٥٥٦	٤ »
٩٦٥	١٥٥٧	٢٤ أكتوبر
٩٦٦	١٥٥٨	١٤ »
٩٦٧	١٥٥٩	٣ »
٩٦٨	١٥٦٠	٢٢ سبتمبر
٩٦٩	١٥٦١	١١ »
٩٧٠	١٥٦٢	٣١ أغسطس
٩٧١	١٥٦٣	٢١ »
٩٧٢	١٥٦٤	٩ »
٩٧٣	١٥٦٥	٢٩ يولية
٩٧٤	١٥٦٦	١٩ »
٩٧٥	١٥٦٧	٨ »

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٩٧٦	١٥٦٨	٢٦ يونية
٩٧٧	١٥٦٩	١٦ »
٩٧٨	١٥٧٠	٥ »
٩٧٩	١٥٧١	٢٦ مايو
٩٨٠	١٥٧٢	١٤ »
٩٨١	١٥٧٣	٣ »
٩٨٢	١٥٧٤	٢٣ ابريل
٩٨٣	١٥٧٥	١٢ »
٩٨٤	١٥٧٦	٣١ مارس
٩٨٥	١٥٧٧	٢١ »
٩٨٦	١٥٧٨	١٠ »
٩٨٧	١٥٧٩	٢٨ فبراير
٩٨٨	١٥٨٠	١٧ »
٩٨٩	١٥٨١	٥ »
٩٩٠	١٥٨٢	٢٦ يناير
٩٩١	١٥٨٣	*٢٥ »
٩٩٢	١٥٨٤	١٤ »
٩٩٣	١٥٨٥	٣ »
٩٩٤	١٥٨٥	٢٣ ديسمبر
٩٩٥	١٥٨٦	١٢ »
٩٩٦	١٥٨٧	٢ »
٩٩٧	١٥٨٨	٢٠ نوفمبر
٩٩٨	١٥٨٩	١٠ »
٩٩٩	١٥٩٠	٣٠ أكتوبر
١٠٠٠	١٥٩١	١٩ »

(*) هنا يحدث التغيير الذى أوجده جريجورى الثالث عشر Gregory XIII

كشاف

عن الأعلام والبلدان

١ ـ الأعلام

٢ — البلدان

الإشـــــراف اللغــوى: حسام عبد العزيز
الإشـــــراف الفـنــى: حســن كــامـل
التصميم الأساسى للغلاف: أســامة الـعـبـد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة